عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

الجزء الثاني

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

عبد الرحمن بن محمد الجيلالي

تاريخ الجزائر العام

يشتمل على بيان واف مفصل لتاريخ القطر الجزائري في جميع اطواره وحركاته السياسية والاجتماعية والعلمية والدينية والادبية والفنية والاقتصادية والعمرانية والصناعية مع تراجم العبقريين وارباب القرائح من مشاهير الجزائريين منذ اقدم العصور الى الآن

الجزء الثاني

•

ما كان في هذه الدنيا بنو زمن
إلا وعندي من اخبارهم طرف

المعري

مكتبة الشركة الجزائرية - الجزائر
مرازقة وأبوداود وشركاهما

منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت

تاريخ الجزائر

طبعة ثانية جديدة

(منقحة ومزيدة)

١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

الدولة الحفصية

٦٢٧ - ٩٤٣ هـ
١٢٢٩ - ١٥٣٦ م

نشأتها :

لقد مر بنا في الجزء الاول ان دولة الموحدين استمرت قابضة على صولجان الملك ووحدة الشمال الافريقي طيلة مدة قرن ونصف ؛ ولقد اكتسب المغرب الاسلامي يومئذ بوحدته هذه بأساً وقوة تمكن بهما من نشر نفوذه السياسي على بلاد الأندلس وخضع له كل من دول ضفاف هـذا البحر الابيض المتوسط وأممه شرقاً وغرباً ، ولم يزل الموحدون في أوج عزهم وشاهق سلطانهم الى ان تصدع شملهم في « وقعة العقاب » بالأندلس ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) ؛ فاضطرب يومئذ حبل الدولة وأذنت ايامها بالذهاب ، فخرج عنها ولاة النواحي وظهر العصيان من رؤساء العشائر فاستبدوا بالادارة ونما فيهم شعور بالقوة الفردية على حين ضعفت الدولة الحاكمة ، فتفككت حينئذ وحـدة الشمال الافريقي واشرقت فيه ثلاث امارات او قل هي ثلاث دول أسلامية مغربية متزاحمة على جذب طرف حبله متنازعة نشر نفوذها على هذا القطر والاستحواذ عليه ألا وهي : دولة بني حفص ، شرقـاً ، ودولة بني مرين ، غرباً ، ودولة بني زيان بالأوسط ؛ فكلها تحاول الاستقلال به وبسط نفوذها وسلطانها عليه؛ فتحاربت بينها طيلة نحو قرن كامل ولتكافؤ القوات - او ضعفها - لم يخلص بتمامـه الى أي دولة من هذه الدول الثلاث ، وأخيراً توزعته - مرغمة - فيا بينها ؛ فكان شرقيه لبنى أبى حفص وغربيه لبنى مرين وواسطة عقده

= الجزائر – لبني زيان من بني عَبد الواد ؛ ووقعت الجزائر مراراً فى قبضة الحفصيين وبني مرين ايضاً وامتد نفوذهم اليهـا ونشروا سلطانهم على نواح منها برهة من الدهر ، فمن هم هؤلاء الحفصيون ؟

ينتسب هؤلاء الحفصيون الى رجل هو من خاصة ابن تومرت وأحـد مريديه العشرة السابقـين الى مبايعته ونصرته فى غربته الذين قامت على كواهلهم اركان دولة الموحدين فأحكموا قواعدها وشيدوا اركانها ؛ ذلكم هو ابو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى – نسبة الى قبيـلة هنتاته من المصامدة بالمغرب الاقصى – .

برهن ابو حفص هذا على كفاءته ومقدرته السياسية والادارية في جميع الاعمال والولايات التي تولاها لدولة الموحـدين بالمغرب الاقصى والاندلس فاستحق عن جدارة ما تبوأه من المقام السامي والاصطفاء بهذه الدولة ، وضل بمكانه هذا الى وفاته سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥ م) فتنقلت الولاية في عقبه الى ان تولى عرش الموحدين الخليفة محمـد الناصر بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن فعقد على ولاية تونس لأبي محمد بن عبدالواحد بن ابي حفص يوم ١٠ شوال سنة ٦٠٣هـ (١٠ماى١٢٠٧ م).وكان ابو محمد هذا متزوجاً بعمة الخليفة،فاستمر في ولايته على تونس الى وفـاته سنة ٦١٨ هـ (١٢٢١ م) فورثه في امارته هذه ولده عبـدالرحمن مستبداً بها الى ان افضت امارتها الى ابي زكريا يحيى ابن الشيخ ابي محمد بن عبدالواحد بن أبي حفص سنة ٦٢٧ هـ(١٢٢٩ م) وكان ملكاً عادلاً عالماً عاملاً أديباً ، فأعلن استقلاله عن دولة الموحـدين رافضاً لدعوتهم واستبد باعمال تونس والقيروان ، وخضعت له الجزائر وبويع له بكثير من بلاد الاندلس واستصرخ به آخرون ؛ ثم تداول بعده بنوه ملك المغربين:الاوسط والادنى ؛ فهكذا كان مبدأ ظهور دولة الحفصيين وفي ذلك يقول ابن خلدون في فصله انقسام الدولة « ... وكذلك دولة الموحدين لما تقلص ظلها ثار بافريقية بنو أبي حفص فاستقلوا بها واستحدثوا ملكاً لأعقابهم بنواحيها ، ثم لما استفحل امرهم واستولى على الغاية خرج على الممالك الغربية

من أعقابهم الامير ابو زكرياء يحيى ابن السلطان ابي اسحق ابراهيم رابع خلفائهم ، واستحدث ملكاً ببجاية وقسنطينة وما اليها أورثه بنيه وقسموا به الدولة قسمين ، ثم استولى على كرسي الحضرة بتونس ، ثم انقسم الملك ما بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم (١) .

نظامها الحكومي :

كان بحكم استقرار رؤساء هذه الدولة في حاضرة تونس ان اتخذ ملوكها هذه المدينة عاصمة لملكتهم المغربية ؛ وحكومتها مستقلة تماماً تحت رعاية ملكها المتلقب اولاً بالامير ثم بالخليفة استئثاراً بهذا اللقب عن ملوك دولة بني عبد المؤمن الموحدية ، ثم تواضع ملوك هذه الدولة امام قداسة لقب الخلافة فاتخذوا اسم « السلطان » (٢) شارة لهم . وولاية الملك فيهم غالباً تكون بالعهد من السلطان السابق ، وتارة تكون بالغلبة والقهر ؛ وتمتاز صكوك الاوامر السلطانية وما يصدر عن اذن الملك من رسائل ومناشير بوضع « العلامة » في اعلا الكتاب بالقلم الغليظ بعد البسملة ، وهي « الحمد لله والشكر لله » ، كما قد توضع ايضاً في ختام بعض الرسوم ، ولكتابة هذه العلامة موظف خاص بالقصر وكان فيما تولاها من المشاهير عبد الرحمن ابن خلدون وقد تضاف الى « القهرمان » وهو صاحب اشغال السلطان والمكلف ايضاً بضبط الحسابات وحصر الذخيرة وتموين القصر وجميع ما يحتاج اليه السلطان في نفسه من رزق وعطاء الخ .... وتجتمع جميع مصالح الحكومة واعمالها الادارية في ثلاث وزارات : الجيش ، القضاء ، المال ، والجيش عندهم مختلط من العرب والبربر وغيرهم وفيه من الافرنج ايضا ؛ وقد بلغ عدد الفرسان ايام ابى زكرياء الاول

---

(١) المقدمة ص ١٤٣ ط بولاق ١٣٧٤ هـ .

(٢) كان اول من تلقب من ملوك الاسلام بهذا اللقب هو السلطان محمود بن سبكتكين صاحب غزنة ، لقبه به الخليفة العباسي القادر بالله ٣٨١ — ٤٢٢ هـ (٩٩١ - ١٠٣٠ م) كما ان اول من خوطب بلقب « الملك » في الاسلام هو عضد الدولة بن الحسن بن بويه (٣٦٧هـ — ٩٧٧م) وقد اقامت هذه الاسرة دولة في العراق وما يليها شرقاً وخاصة في فارس وخوزستان وكرمان والجبل وعمان .

الى سبعين الف فارس ؛ ولم يكن اهتمام هذه الدولة بإنشاء الاساطيل وتجهيزها بالشكة والسلاح بأقل من اهتمام غيرها من الدول المعاصرة لها يومئذ ، وكان مركز الاسطول الحفصي بالجزائر ميناء بونة - عنابة - وبالساحل التونسي ايضا . واما ديوان الاموال فانه منوط بصاحب الاشغال ، ولصاحب هذه الخطة النظر في مالية الدولة من دخل وخرج وهو المسؤول عن استخلاص الاموال والمحاسبة باسم الحكومة وله التفويض التام والسيطرة المطلقة على جميع من دونه مرتبة من ولاة المراتب الادارية ، ويشترط فيه ان يكون من عصبة الموحدين الاولين ، ولقد بلغت ثروة خزينة الحكومة ايام ابي زكرياء يحيى الاول نحو التسعة عشر مليون دينار [١] وهو ما يقدر بما ينيف على اربعة وثلاثين مليار فرنك ، وليس هذا المبلغ بالهين اذا قيس بضيق المملكة وبما كانت عليه خزائن الدول المعاصرة يومئذ؛واغلب موارد الخزينة الحفصية من الزكاة والخراج والجبايات ؛ واكثر عملة الدولة ونقودها مضروبة بالمدن الجزائرية كبجاية وقسنطينة والجزائر وتنس ؛ وهي متنوعة الى ذهب وفضة، والى فلوس نحاسية احدثها السلطان ابو زكرياء الاول وكان لا يحصل على رآسة القلم في الدولة الا من يحسن الانشاء العربي ويجيد صناعة الكتابة والترسيل مع شرط الامانة وكتمان الاسرار ، ولم يشترطوا النسب في صاحب هذه الخطة كعادتهم في سائر الولايات والمناصب الرئيسية لقلة او فقد الاكفاء فيهم بسبب رطانة ألسنتهم وما يغلب عليهم من العجمة وتخلف الملكة وجميع اعمال الدولة كانت تدون باللسان العربي المبين ، وهو ما حمل حكومة جمهورية (بيزا) الايطالية على وضع نص المعاهدة التجارية التي قدمتها للدولة الحفصية سنة ٦٦٤هـ (١٢٦٥م) باللغة العربية ويختص ؛ رئيس الشرطة من بين موظفي الحكومة بلقب «الحاكم» ؛ وهناك «المحتسب» المكلف باصلاح الهيئة الاجتماعية والمسؤول عن الاسواق والمتاجر والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ،

وكان مما امتازت به دولة الحفصيين ان وجد بها منصب وزير الرأي

---

(١) وزن الدينار ٤ قرامات و ٢٠ صانتيقرام ذهبا

والمشورة ، وهو الملقب لديهم : « شيخ الموحدين» المشرف على جميع شؤون الدولة مما قل او جل؛ واخيراً اسندت هذه الخطة الى «الحاجب» كما جعلت له وزارة الحرب ايضا ؛ وبذلك اصبحت خطة « الحجابة » هي اكبر المناصب الحكومية في هذه الدولة . [1] وكان نظام الاقطاع يومئذ معمولاً به عند كثير من الدول الاسلامية كما هو في غيرها ايضاً ؛ فانه كثيراً ما اضطرت الحكومة الحفصية عسكرياً الى اقطاع بعض جهات من ممتلكاتها الى بعض القبائل العربية المناصرة ، ثم انه لا فرق بين هـذه الدولة وبين غيرها ممن تقدمها من دول المغرب الاسلامي ، فهي تسير حسب سابقاتها مستمسكة في سياستها العمومية بسنة الموحدين حتى كاد ان لا يوجد، هنالك فرق بين الحكومتين اذا استثنينا بعض الفروق الطفيفة .

حدود الجزائر الحفصية

الجزائر الحفصية هي عبارة اليوم عن مقاطعتي الجزائر وقسنطينة مع جزء من مقاطعة وهران ؛ وهى تنقسم الى اربع ولايات : ولاية بونة –عنابة – ، وولاية بجاية ، وولاية قسنطينة ، وولاية الزاب وقاعدته مدينة بسكرة وتارة مقرة من بلاد الحضنة ، ويمتد خط الجنوب الى ما وراء بلاد وارجلن – واركلة – ، وكثيراً ما راينا اختلاف عمال هذه الولايات الجزائرية على الحكومة المركزية حيث قاموا بعدة وقائع حربية حاولوا بهـا اخذ البيعة لانفسهم والاستبداد بالملك فتداخلت الحـدود واختلفت الخطوط والتخوم المرسومة لمملكة الجزائر الحفصية .

كيف كان استيلاء الحفصيين على الجزائر

كان اول ما وقع من التراب الجزائرى بيد الحفصيين ولاية قسنطينة وبجاية

---

(١) قال ابن خلدون : ومعنى الحجابة ـ في دولنا بالمغرب ـ الاستقلال بالدولة والوساطة بين السلطان وبين اهل دولته لا يشاركه في ذلك احد . ج ٧ ص ٤١٨ فهو بمنزلة كبير الامناء في الدول العربية اليوم .

فاستسلم اهلها الى السلطان ابى زكرياء الحفصى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) فأسر بنو حفص عمال هاتين المقاطعتين وذهبوا بهم الى تونس ؛ ثم في سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) كان استيلاؤهم على ولايـــة الجزائر ونواحي شلف والبطحاء – البسيط الذى بين مدينة غيليزان وسهل وادي شلف - وما الى ذلك من الجهات الغربية الزناتية ؛ وقد جعل التصرف فى هذه الجهات لاقارب السلطان الحفصى وبنى عمه ؛ وفى سنة ٦٥٩ هـ (١٢٦١ م) جهز السلطان المستنصر اخاه عمر بن ابى زكرياء الاول للقضاء على سلطة الفقيه ابى على بن احمد المليانى المتسلط يومئذ على عمل « مليانة » فتقدم عمر المذكور صحبة « مغبدون بن فرندة » وفى ابن خلدون :دون الدريدبي هرنزه من آل ادفونش ملوك الجلالقة . (ج ٧ ص ٦٥) النصراني والامير ابو زيد بن جامـــع الى مليانة ونصبا عليها المجانيق وضيقا عليها الحصار فأعطت المدينة مقادتها لبني حفص واستسلمت لهم يوم عيد الفطر – ٢٩ اوط – من التاريخ وفر المليانى الى المغرب الاقصى فعقد السلطان آن ذاك لاخيه عمر على ولاية بجاية مكافأة له على انتصاره وتغلبه هذا ، واستعفى عمر اخاه من هذه التولية فاعفاه .

فتح ولاية تلمسان

لقد كان لمبايعة خليفة الموحدين على السعيد من بنى عبد المؤمن بمراكش اضطراب كبير ادى الى نقض البيعة وشق العصا في كثير من ارجاء المغرب، فكانت هذه فرصة لخروج ولاة النواحي عن الخليفة ونبذ طاعته ، وكان من بينهم عبد الله بن زكرياء الهزوجى صاحب تلمسان ، فنشأ عن ذلك بينه وبين يغمراسن[1] الزيانى المتحيز يومئذ لبنى عبد المؤمن خلاف ونزاع كبير افضى الى تسلط يغمراسن على تلمسان.

وبينما الحال على ذلك اذ وفد على السلطـــان ابي زكرياء الحفصي نخبة من

---

(١) ضبطه ابن خلدون فى مواضع من تاريخه بالحركات مرة : بفتح الياء والغين وسكون الميم بعدها راء مفتوحة ثم الف بعدها سين مفتوحة فنون ساكنه ؛ ومرة بكسر الغين والسين

رؤساء بني توجين ومغراوة مستصرخين به ضد يغمراسن ؛ ولقد كان لبني توجين ملك ما بين قلعة «سعيدة» غربا الى «المدية» شرقا وكانت لهم قلعة اولاد سلامة [1] ومنداس [2] ووانشريس . ولبني منديل نواحي شلف ومليانه وتنامي وبرشكوشرشال ومازونه . فاتخذ ابو زكرياء ذلك وسيلة ووصلة للقضاء على عرش الموحدين المحتضر ومن والاهم من رؤساء النواحي وولاة الجهات ، فنزل في شوال ٦٣٩ هـ (افريل ١٢٤٢ م) بمليانة ، ومنها راسل يغمراسن في الاذعان لطاعة الدولة الحفصية فأبى ؛ ويومئذ احاطت جيوش الحفصيين بتلمسان فضيقت حصارها وبالغت في التنكيل باهلها فخرج يغمراسن من باب العقبة لرد عادية بني حفص فانهزم ونجا هو بنفسه الى الصحراء ، وسقطت تلمسان بيد الحفصيين آخر المحرم ٦٤٠ هـ (جوليط ١٢٤٢ م) ودخلها يومئذ ابو زكرياء فرد عنها عادية جنده وكف أيديهم عن النهب والسلب. ثم ارتحل عنها لسبع عشر ليلة من نزوله بها عائداً الى حضرته بتونس بعد ان عقد لعبد القوى بن العباس أمير بني توجين على قومه واذن له في اتخاذ الآلة ومراسيم الملك فكان ذلك ابتداء ظهور هذا القبيل بمظهر الملك والرئاسة .

المبايعة بالخلافة

منذ نهاية القرن السادس الهجري – اواخر الثاني عشر الميلادي – والعالم الاسلامي بالمشرق والمغرب كله يتمخض في قلق واضطراب مترقباً ماعسى ان يحدث او يقع من التحولات السياسية العامة الناتجة عن اتحاد امم النصرانية في حروبها الصليبية التي كادت ان تعصف بالعالم الاسلامي اجمع ؛ وما كان كذلك من اتحاد قبائل التتر برئاسة جنكيز خان وشروعها في الزحف على

(١) هي على ستة كيلومترات الى الجنوب الغربي من مدينة فرندة من مقاطعة وهران وفيها تفرغ مؤرخنا العظيم عبد الرحمن بن خلدون للعلم والدرس فسكن بقصر ابي بكر بن عريف اربع سنوات وهنالك شرع في وضع تاريخه الكبير فأكمل به مقدمته العجيبة .

(٢) غربي تيارت وجنوب مدينة غيليزان - بين وانشريس وجبل كزول الواقع على عشرة كيلوميترات بالجنوب الغربي من مدينة تيارت الحالية

غرب بلاد آسيا وجنوبها واحتلالهـا لبلاد الصين سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩م) ؛ وتصدع الاسر القابضة على زمام بقية الباقية من بعض المـدن الاسلامية ؛ والامبراطورية السلجوقية يومئذ قد انقرضت من بلاد فارس ، ومثلها الدولة الغزنوية ايضاً بعد قضائها على الدولة الجديدة القائمة بأفغانستان الشرقيـة فاسقطتها من شاهق عزها حوالي سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠) ؛ وانقراض عائلـة زنكي في الموصل ، وملوك مصر والشام يومئذ في شقاق وتناحر وافتراق ؛وفي بغداد من الخلاف الطائفي والمذهبي القائم بين أهل السنة والشيعة ، بـل وبين مذاهب أهل السنة انفسهم كالخلاف والجدل الواقع ايضاً بين الحنابلة والحنفية قد بلغ اشده...وعم ذلك سائرطبقاتالشعب العراقي وارث مدنياتالعالم!.. فدعا ذلك كله الى بسط نفوذ الاجنبي ونشر سلطانه على الشرق الاسلامي ، وفعلا اكتسح التتر معالم الحضارة الاسلامية وحطم عواصم المدنية الشرقية . وكان ذلك الفتك الذريع بالانسانية الذي لم يسجل التاريخفيما عهدناه حوادث أفظع منها منذ تحدث عن البشر الى يوم الناس هـذا ـ اذا استثنينا حوادث (اتيلا) ونهاية الاندلس الاسلامية !... وسقطت بغداد قلب العالم الاسلامي النابض بيد التتر سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) وذهبت بذهابهـا تلك المدنية الزاهرة المشرقة ، وسقطت الخلافة العباسية بسقوطها .

وفي المغرب الاسلامي كذلك فان سلطان الامويين بالاندلس قد انهار منذ سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١م) وتشتتت وحدتهم السياسية فتوزعهـا ملوك الطوائف بينهم،فقام بكل ناحية منهاامير المؤمنينومنبر!..فاشتد حينئذ الشعورالاسلامي العام فأعلن حاجته الاكيدة الى زعيم ديني ورئيس سياسي تجتمع لديه جميـع السلطات المدنية والعسكرية، وكان من المقدر ان وجدت دولةالحفصيينيومئذ صلبة العصا ، قوية الاساطين ، وثيقة الاركان ، فتأكدت مبايعتها على الناس، فأطاعها اهل سبتة وفاس وطنجـة وسجلماسة - تافيلالت - ، ومكناسة بعدما قتل اهلها عامل الموحدين عليها سنة ٦٤٣هـ (١٢٤٥م) وبعث اهلمكة ببيعتهم الى السلطان المنتصر سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) وهي بانشاء عبد الحق

ابن سبعين فقرئت على الناس ، وبايع بنو مرين تقية ريثما استوثق الامر لسلطانهم يعقوب المريني فنبذوا عهد الحفصيين ؛ ودخل اهل مدينة شبيلة وغيرها من بلاد الاندلس والشام في دعوة الحفصيين ايضاً فاخترق حينئذ صيتهم البلاد وخشيتهم امم اوروبا فباتت تخطب ودهم وابرمت في ذلك معاهدات سلم بينها وبين القصر الحفصي ، منها معاهدة « فريدريك » امبراطور الالمان لمدة عشر سنوات ومعاهدة « اوهان سطوفان » ملك صقلية وهلم جرا . . . ويومئذ تلقب السلطان ابو عبد الله محمد بن السلطان ابي زكرياء يحيى الاول بأمير المؤمنين ، وتسمى بالمستنصر بالله الواثق .

تربص يغمراسن وانتصاره

لا يعزب عن القارىء الكريم ما قدمناه قريباً من حال انهزام يغمراسن الزياني عن تلمسان ايام غزو الحفصيين لها سنة ٦٤٠ هـ (١٢٤٢ م) وما كان من فراره منها والتجائه الى الصحراء الخ . . . وبعدما تأكد يغمراسن من اطباق الكثير من سادة العالم الاسلامي ودوله شرقاً وغرباً على مبايعة ملك الحفصيين بالخلافة اعتصم بالدهاء والتدبير في الانتصار فبعث بوالدته – سوط النساء – الى ابي زكريا الحفصي لتقديم مراسيم البيعة نيابة عنه فاقتبلها ابو زكرياء راضياً عن ولدها ، فاغتنمت الوالدة يومئذ هذه الفرصة وقدمت للسلطان اقتراحاً يتضمن طلب العفو عن يغمراسن والمسامحة له بالعودة الى رئاسة قومه من بني عبد الواد تحت طاعة الخليفة ، فأمضى لها ابو زكرياء ذلك كله ، واذن في عودة يغمراسن الى امارته على شروط بينهما وتمت عقدة المبايعة على ذلك وعاد يغمراسن الى تلمسان واخذ يتصرف في أهلها واموالها وجميع مداخلها التي كانت تقدر بمائة الف دينار سنوياً : وكان السلطان الحفصي ادرك ما يكنه يغمراسن في صدره من الحقد والضغينة على ملك الحفصيين ، فأقطع القطائع حول تلمسان واحدث امارات في بني توجين ومغراوة من ارض الجزائر وقلد كلًا من عبد القوي بن عطية التوجيني والعباس بن منديل المغراوي ومنصور المليكشي امر قومه ووطنه وعهد اليهم جميعاً

باتخاذ الآلة والمراسيم السلطانية عن سنن يغمراسن قريبهم وجاء ببني سليم الى نواحي بونة – عنابة – فأسكنهم بهـــا الى ارض الجريد وأغدق عليهم من الاموال ما غمرهم به وجعلهم حاجزاً بينه وبين خصمائه ومنافسيه فكانوا رده المملكة وحصنها الحصين

وما لبث ابو زكرياء بعد ذلك الا قليلاً حتى فاجأه أجله وهو بمحلته في بونة فتوفى ليلة الجمعة ١٢ جمادى الثانية وقيل لسبع بقين منها سنة ٦٤٧ ﻫ (٢٢ سبتمبر ١٢٤٩ م) ودفن من الغد بجامع بونة ثم نقل الى قسنطينة . وكان يغمراسن قد عاد بعد الى تلمسان بموجب نصوص المعاهدة التي عقدها مع الملك الراحل ؛ ولم يبرح قومه ان اجتمعوا حوله واخذوا معــه في الانقضاض على المدن الجزائرية وغزوها ففتحوها مدينة مدينة ، واقتحموا مليانة سنة ٦٦٨ ﻫ (١٢٦٩ م) ، ثم وقعت بلدة المدية بايديهم سنة ٦٨٧ ﻫ (١٢٨٨ م) ، وهكذا اخذ الزبانيون في امتلاك القطر الجزائري تدريجياً حتى استولوا عليه باسره كما سنذكره فيما يأتي من تاريخهم

اضطرابات وفتن

كان مما اشاعه الناس يومئذ ان الخليفة المستنصر الحفصي عازم على الفتك بابن عمه ابي القاسم بن ابي زيد لما بلغه عنه من رفض بيعته والخروج عن الطاعة ؛ وبلغت الاشاعة هـــذه الى ابي القاسم فخشي على نفسه فخرج من تونس سنة ٦٦١ ﻫ (١٢٦٢ م) الى نواحي قسنطينة ملتحقاً بشبل بن موسى بن محمد رئيس الدواودة – اشياع بني بن غانية واعداء الموحدين والحفصيين – وهنالك بايعه هؤلاء القوم وبرزوا معه لغزو البلاد الجزائرية فأحدثوا بهـا اضطراباً كبيراً واضراراً عظيمة اضرت بالجميع واشتد يومئذ غضب السلطان على ابي القاسم ، فأرعد وابرق وبيت قتله ؛ فارتاع لذلك ابو القاسم وتراجع الى تلمسان متوارياً ومنها ركب بمرسى هنين الى الاندلس، ثم التحق بالمغرب الاقصي فأقام بتينملل حيث مصدر دعوة الموحدين ، ثم عاد الى تلمسان فتوفى بها

وطمع محافظ قسنطينة ابو بكر بن موسى المعروف بابن الوزير الى الخروج عن طاعة الحفصيين والاستبداد بولايته (٦٧٩ هـ) = (١٢٨٠ م) وكتب في ذلك الى ملك أرغون الأسباني ليسعفه باسطوله وجاءت الاساطيل الى مرسى القل فبرز لها الامير ابو فارس من بجاية زاحفاً في جموعه وعساكره فاحتل مدينة ملية وصبح قسنطينة أول ربيع سنة ٦٨١ هـ = جوان ١٢٨٢ م فنصب عليها المجانيق وضرب عليها الحصار وقاتل اهلها يوماً او بعض يوم وتسور عليهم المعقل يومئذ حاجبه محمد بن ابي بكر بن خلدون – جد المؤرخ – وقتل ابن الوزير في بطانته وأشياعه ونصبت رؤوسهم بسور البـــلد وتمشى الامير في سكك المدينةمسكنا ومؤنسا وامر برم ما انثلم من الاسواروباصلاح القناطر ودخل القصر وبعث بخبر الفتح الى ابيه السلطان ابي اسحاق بتونس ثم ارتحل منها بعد ثلاثة الى بجاية .

مقاومة العصاة المنشقين

كانت حوادث ابي القاسم بن ابي زيد وحركة الدواودة من رياح ، سبباً فى خروج السلطان المستنصر الاول بنفسه من تونس سنة ٦٦٤ هـ (١٢٦٥م) على رأس جيش عظيم فنزل بأماكن الفتنة ومواطن الثورة بالقطر الجزائري ، وقضى على المنشقين بها ، واستمر السلطان متنقلاً فى البلاد مستقصياً بذور الفتنة ومناجم الخلاف حتى نزل على الدواودة ففر رئيسهم شبل بن موسى وخرج بقومه الى القفر فاحتل السلطان يومئذ بلادهم ونزل بمدينة « المسيلة » – المحمدية – آخر مواطن رياح ، وهنالك وفد عليه محمد بن عبد القوي امير بني توجين مجدداً لطاعتـــه ، فاكرمه السلطان واقطعه مدينة « مقرة » و « اوماش » من اعمال الزاب الجزائري واثقل كاهله بالحباء والجوائز ونفيس الهدايا ، واستمر المستنصر في زحفه على الدواودة الى ان ظفر بهـم بمدينة « نقاوس » – بالقاف المعقودة – فتبدد شملهم وانتهبت اسلابهم ، وقبض

السلطان على رؤوس الفتنة فضربت اعناقهم ونقلت الى بسكرة فنصبت بها ، واما الاشلاء فانها تركت حيث قتلوا فنصبت كذلك متفرقة بالامكنة التى بويع فيها ابو القاسم بن ابى زيد الثائر بنواحي نقاوس والمسيلة وغيرها ؛ واغذ السلطان سيره فاجتاح بقية النواحي المشاقة ، فمنحه القوم اكتافهم بجتازين « وادي شدى » – جدى – فطاردتهم الجيوش الحفصية الى ان تجاوزت بهم مفاوز الصحراء ثم عادت مع السلطان الى تونس .

انتقاض مدينة الجزائر وفتحها

جاهر اهل مدينة الجزائر بنبذ طاعتهم ايام ان ظهر ضعف الحفصيين امام حملة زناتة عليهم حوالى سنة ٦٦٩ هـ (١٢٧٠ م) ولقد حاول الجزائريون بذلك الاستقلال بحكم بلادهم والتوصل الى تأسيس مملكة جزائرية بحتة ؛ فهاجمهم يومئذ عامل بجاية « ابو هلال الهنتاتى » بايعاز من السلطان واطال حصار مدينة الجزائر نحو سنة ثم عاد منهزماً الى مركزه وهلك بمعسكره ببني ورا سنة ٦٧٣ هـ (١٣٧٤ م) وبقيت مدينة الجزائر في هذه الفترة مستقلة حرة الى ان غزتها جيوش بني حفص سنة ٦٧٤ هـ (١٢٧٥ م)بقيادة ابى الحسن بن ياسين ومناصرة حامية بجاية ، وخرج معها الاسطول الحفصي فحوصرت الجزائر من جميع جهاتها ودخلتها الجيوش الحفصية مثخنة فى اهلها قتلا ونهباً وسلباً ، فاستسلمت المدينة حينئذ واذعنت لطاعة الحفصيين : واخذت مشيختها ورؤساؤها فغلوا وامروا ثم نقلوا الى تونس مصفدين فاعتقلوا هنالك بالقصبة الى وفاة المستنصر سنة ٦٧٥ هـ (١٢٧٧ م) فعفا عنهم يومئذ ولده الواثق .

مبايعة الجزائر لابى اسحاق الاول

كان ابو اسحاق ابراهيم بن ابى زكرياء يحيى الاول مقيماً بمدينة تلمسان ، ولما توفى اخوه المستنصر نهض مطالباً بملك اخيه مناقضاً للواثق الذي اخذ البيعة لنفسه بعد وفاة والده ؛ وكان اول من بايعه على الملك مضيفه يغمراسن

ابن زيان صاحب تلمسان ؛ وصادف ان كان اهل بجاية منشقين على والي الاشغال عندهم فقتلوه واستدعوا ابا اسحاق يحثونه على ولاية العرش ، فانتقل اليهم أبو اسحاق ودخـــل بجاية آخر شهر ذي القعدة سنة ٦٧٧ هـ (افريل ١٢٧٩ م) فاجتمع عليه اهلها وبايعوه بالملك ؛ فغزا بهم قسنطينة فامتنعت عليه . وهنالك بعث الواثق جيوشه لمقاتلة عمه هـــذا ، وما كادت الجيوش تتصل بالزاب الجزائري حتى تقدمت بنفسها الى ابى اسحاق فبايعته بالملك وكتبت فى ذلك وثيقة بعثت بها الى الواثق بتونس ، فتنازل مكرهـاً عن العرش وخلـــع نفسه غرة ربيع الاول ٦٧٨ هـ (١٢ جوليط ١٢٧٩ م) ، فكانت الجزائر بذلك هي اول من بايع السلطان ابا اسحـــاق واول من اعترف له بحقه على العرش .

ظهور ابن ابي عماره الدعي

هو رجل من اهل المسيلة اسمه احمد بن مرزوق بن أبي عمارة وكان مسكن آبائه ببجاية فنشأ بها ، ولقد سولت له نفسه يوماً ان يدعي – اثمـاً وزوراً – انه من بيت الملك وانه من ابناء الواثق الحفصي ، وكان هنالك من الموالي من ايده في دعواه هـــذه ونهضوا معه ضد ابي اسحاق ابراهيم الاول فدخل النـاس في طاعته وتغلب على السلطـــان بدهائه ومكره فامتلك نواحـي طرابلس واحتـل تونس واتخـذ لنفسه لقب « المعتمـــد على الله » ، وخرج ابو اسحاق طريداً من تونس مـــع ولده ابي زكرياء آخر شوال ٦٨١ هـ (جانفي ١٢٨٣م) محـــاولاً الالتجاء الى قسنطينة فمنعه عنها واليها يومئذ عبدالله بن يوقياي الهرغي وذلك خشية خروج الأمر من يده ، فتوجه السلطان الطريد ملتجئاً الى ولده ابي فـارس امير بجاية ، فاعترضه ومنعه من النزول عليه بقصره وصرفه الى مكان آخر فنزل بروض الرفيـع على الضفة من وادي بجاية واجبره على التنازل له عن العرش؛ واسكنه قصر الكوكب ودعا الناس الى نفسه فبايعوه في آخر ذي القعدة وتلقب بالمعتمد على الله وجاء ابن ابي عمارة غازياً بجاية فحمل عليهـــا في صفر سنة ٦٨٢ هـ

(ماى ١٣٨٣م) وقتل ابا فارس في اخوته،فانتقل السلطان الطريدابو اسحاق يومئذ من اعمال بجاية مع ولده ابي زكرياء متوجهـاً الى تلمسان ، واحتل ابن ابي عمارة المدينة واخذ البيعة لنفسه ، وبعث بمن ادرك ابا اسحاق بجبـل بني غبرين من ارض زواوة فرده مأسوراً الى بجاية وهنالك قتل السلطان صبرا في آخر شهر ربيع الاول سنة ٦٨٢ هـ (جوان ١٢٨٣ م) ونجا ولده ابو زكرياء الى تلمسان ؛ ثم بعد حين انكشف حال ابن ابي عمارة وافتضح للناس تزويره وتحققوا تدجيلـه وانه دعى في بيت الملك فتألبوا ضده ونقضوا بيعته فقتلوه ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وتولى الملك يومئذ المستنصر الثاني

انفصال الجزائر عن الحكومة المركزية

كان هنالك شخصيتان متنافستان بالقصر الحفصي وهما الحاجب ابوالحسن بن سيد الناس وابو عبدالله الفزازي ؛ فكلاهما كان يزاحم صاحبه في نيل الحظوة والمنزلة والمقام الرفيع عند السلطان ، ولقـــد لاحظ الحـاجب المذكور انه مغموط الجانب مهتضم المقـام عند السلطان بجانب صاحبه الفزازي ؛ فأضمر للمستنصر حسيكة وأبطن له غلا ، وكان من المقدر يومئذ أن وجد ابو زكرياء يحي بن ابي اسحاق بن ابراهيم – عم المستنصر – بتلمسان مطالبـــاً بعرش والده ، فالتحق به ابو الحسن فبايعه واخذ له البيعة من النـاس واقام له ابهة الملك وشعار السلطنة وخرج معـه في جمع حـاشد الى اعمال قسنطينة فطافوا بتلك الولاية ، وكان اذ ذاك اهـــل بجاية في اضطراب ونزاع فلمـا رأوا ابا زكرياء بادروا الى تقديم بيعتهم اليه فاحتل ابو زكرياء يومئذ بجاية سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وبايعه اهل مدينة الجزائر والزاب واستقـل بنونة وقسنطينة وما وراءهما من البـلاد ، فرسخ يومئذ قدم ابي زكرياء بمملكة الجزائر فأورثها بنيه ، واصبحت المملكة الحفصية مجزأة الى جزئين ، قسم شرقي وعاصمتـه تونس ، وقسم غربي بالمغرب الاوسط تتزعمه حاضرتا قسنطينة وبجـــاية ، وهكذا استمر الامر بالقطر الجزائري الى سنة ٦٩٤ هـ (١٢٩٤ م) – وعنـد ابن خلدون ان ذلك وقع سنة ٧٠٧ هـ ? .. حيث انتقض اهل مدينة الجزائر

يوم وفاة عاملهم بن أكازير واستبدوا بولايتهم جاعلين أمرهم بيد « محمد بن علان» ٧٠٦هـ (١٣٠٧م) فمكث هذا اربعة عشر عاماً حامياً للمدينة واحوازها إلى العهد الزياني ، وضلت البقية من القطر الجزائري ما بين مد وجزر بين ملوك الحفصيين وامراء الجزائر وولاتها الى ان دعا ابو بكر خالد بن يحيى الحفصي الى نفسه سنة ٧١١ هـ (١٣١١ م) وتلقب بالمتوكل على الله ، فخالف عليه والي بجاية عبدالرحمن بن خلوف فقتله السلطان غدراً في السنة التالية واحتل ابو بكر بجاية واذعنت تونس لطاعة ابن اللحياني وعادت الدولة الى انقسامها على نفسها ثانياً ، وهكذا الى سنة ٧١٨ هـ (١٣١٨م) فحاز ابو بكر ولاية تونس واعاد وحدة الدولة الى نصابها وجمع بين القطرين الشقيقين : تونس والجزائر

اعتداء الافرنج على مدينة الجزائر

بينما الامر ما ذكرنا في الجزائر اذ فاجأها الافرنج بحملة بحرية عنيفة سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) يقودها « روجي دولوريا » فحطموا مدينة « القالة» وانتهبوا اموالها وتركوها كجوف حمار ! ... ثم اعادوا عليها الكرة سنة ٦٨٩ هـ (١٢٩٠م) وحاصروا معها في هذه المرة مدينة بونة ايضاً ، واسروا اهلها ، فاستبسل الجيش الحفصي وشمر عن ساق الحرب فاندحر الافرنج عن الجزائر

امارة بني مزني (١) ببسكرة

كانت امارة الزاب الى هذا العهد لبني رومان البسكريين وهي من اغنى امارات الجزائر واضخمها لذلك العهد وتمتد حدودها من المسيلة ونقاوس شمالا الى واركلة – وارجلن – ووادي ريغ جنوباً ، ومن «الدوسن» غرباً الى بادس شرقا؛وتبعد مدينة بادس‌هذه عن بسكرة بنحو ثلاثين ومائة كيلومتر

(١) بفتح الميم وضمها

وتقرب من (خنقة سيدي ناجي) بنحو العشر كيلومترات.

وفى تحديد وطن الزاب هذا يقول ابن خلدون : (وهـذا الزاب وطن كبير يشتمل على قرى متعددة متجاورة جمعا جمعا ، يعرف كل واحد منهـا بالزاب ، واولها زاب الدوسن ثم زاب طولقة ثم زاب مليلة وزاب بسكرة وزاب تهودة وزاب بادس وبسكرة أم هذه القرى كلها .

استمر بنورمان على ولايتهم هذه ببسكرة ، وكان ينازعهم فيهـا شيوخ العرب من بني مزني الذين قدموا اليها ايام الحملة الهلالية فنزلوا حولهـا . الى عصر السلطان ابي اسحاق ابراهيم الاول فانتزعها من بني رومان وجعلها للفضل ابن علي بن احمد بن الحسن بن علي بن مزني، حيث قام بنصرته وتأييد دعوته أيام انتقاضه على اخيه المستنصر فشكر له السلطان موقفه هـذا وولاه إمارة الزاب هذه سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٩م) ثم كانت في عقبه ؛ وحسنت سيرة بـني مزني واحسنوا التدبير فعاشوا وعاش الناس معهم في ارغد عيش ، وهم تارة مقيمون ببسكرة وتارة بمقره من بلاد الحضنة، وكان طبيعيا ان ينشأ عن ذلك من ذوي الاخلاق السافلة والامراض النفسانية الخبيثة حسد وضغينة فاوغروا صدر السلطان على بني مزني واضرموا غيظه ، فاضطرب لذلك شأن امراء هذا البيت وانتقضت أمورهم فتذبذبوا في سيرهم وسلوكهم السياسي، واصبحوا تارة بجانب الحفصيين وتارة مع بني زيان ، واحيانا نجدهم منقادين لبني مرين ملوك المغرب الاقصى ، وكثيراً مـا اشتبه عليهم الامر فنراهم في آن واحـد يبايعون اميرا وينتقضون عليه في نفس الوقت . . وهكذا ذهب بنو مزني في تيار من عاصفة الاهواء السياسية المختلفة الـتي ادت بهم الى الاضمحلال ، فغزاهم السلطان ابو فارس عزوز الحفصي واقتحم مدينة بسكرة يوم السبت ١٧ جمادى الثانية ٨٠٤ هـ (٢٢ جانفي ١٤٠٢م) وقضى على هذه الاسرة بعدما امضت في حكم الزاب ما ينيف على قرن وربع ، وكان من اشهر رجالهـــا : الفضل بن على وابنه المنصور وولده عبد الواحد ويوسف ، وعلي ، وحسن ، واحمد .

واتسع نطاق ولاية الزاب هذا على عهد المنصور (٦٩٣ هـ - ١٢٩٤ م) وامتدت حكومته الى جبل أوراس وقرى ريغة وبلاد واركلا وقرى الحضنة: مقرة ونقاوس والمسيلة ،.فعقد له السلطان على جميعها وعلى بلاد التل من ارض سد ويكش وعياض ايضاً ، ولم يزل المنصور هذا ممتنعاً سائر أيامه على الدولة والعساكر من بجاية تتردد لمنازلته الى ان هلك سنة ٧٢٥ هـ - ١٣٢٥ م وقام بالامر بعده ولده عبد الواحد .

حزب السنة وابن مزني

كان بمدينة « طولقة » من عمل بسكرة رجل من عرب رياح اسمه «سعادة» وهو من بطن « مسلم » او « رحمان » اشتهر بين قومه وعشيرته بالعلم والصلاح آخذاً على نفسه القيام بالحسبة - يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ؛ فاجتمع عليه الناس وكثر حوله الاتباع والتحق به بعض رؤساء العرب من الدواودة كشيخ بنى محمد بن مسعود ؛ واولاد سباع ، واولاد ادريس ، ورجالات العطاف وغيرهم فى كثير من اتباعهم ومرؤوسيهم من المستضعفين ، وكلهم عاهد « سعادة » على التزام طريقته والاخذ بمبدأه فتشكلت يومئذ حوله هالة من الخاصة والعامة اشتهروا باسم أهل السنة » او « السنية » كما كان يدعوهم هو ، فلما استكملت هذه الجماعة قوتها واشتدت شوكتها اخذت فى شن الغارات على العصاة المحاربين وقطاع الطرق المعتدين . وكان شيخهم هذا متشدداً على الولاة والحكام كثير المؤاخذة لهم على ما يأتونه من حيف اوجور ولقد بلغ عامل الزاب يوماً وهو يومئذ المنصور بن فضل بن مزنى - ان زعيم أهل السنة هذا ينكر عليه اعماله وخاصة وقع الظلامات والمكس على الرعية ، فطوى على عداوته احناء صدره وعزم على الفتك به لولا تصلب حزب السنة في وجه العامل وصده عن مراده ، وكان ذلك مما زاد في انتشار صيت الشيخ سعادة وانتصار الناس له فبايعوه على اقامة السنة او الموت دونه، فاشتد من ذلك غضب ابن مزني على السنة وآذنهم بالحرب مستنفراً حلفاءه من رؤساء العشائر وولاة الحفصيين ، ومستنصراً بالامير خالد بن ابي زكرياء

الحفصي والى بجاية ، فجاءته الجنود من كل صوب ، وأوعز الى اهـل طولقة بالقبض على الزعـيم سعادة فامتنع عنهم ، وأخذ في تأسيس رباطه بتلك الانحاء على غرار منهـاج عبدالله بن ياسين في انشاء دولة المرابطين او ابن تومرت في انشاء دولة الموحدين ؛ فكان ذلك المكان هو حصنـه المنيـع الذي التجأ اليه اتباعه ريثما تكاملت قواهم فزحفوا على مدينة بسكرة واحدقوا بها وحاصروها سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣ م) وقطعوا نخيلها وشددوا في التضييق على اهلها وبذلوا غاية جهدهم لفتحها فاستعصت عليهم ثم اعادوا غزوها فخابوا ورجعوا عنها مرتين ، ويومئذ ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) اقفل سعادة بقومـه الى مشاتيهم ، فمكثوا فى رباطهم بزاب طولقة ريثما تهيأت لهم الاسباب فغزوا مدينـة « مليلى » احدى مدن بسكرة ، فاستصرخ اهلها بابن مزنى فانجدتهم عساكره المخيمة هنالك ، واشتد اوار الحرب بـين طائفة السنة وجنود الامير ، فاسفرت الوقعة عن قتل الزعيم سعادة وحمل رأسه الى ابن مزنى ، فاستشاط لذلك غضب اتباعه فاندفعوا فى حملة عنيفة بقيادة ابى يحيى بن احمد شيخ اولاد محرز – من الدواودة – الى عاصمة الزاب – بسكرة – فشنوا غارتهم عليها وقطعوا نخيلها وحمى وطيس الحرب فعظمت الفتنة واشتد القتـال ، فكان فيمن وجد قتيلاً بحومـة الوغى على بن منصور بن مزنى ٧١٣ هـ (١٣١٣ م) واخذ بعض رؤساء قومه فاسروا وفيهم من احرق بالنار وسكنت الحرب مدة تمكن فيها السنية من نشر مبادئهم الاصلاحية تحت اشراف رئيسهم الديني الشيخ ابى عبد الله محمد بن الازرق المقرى .

استمر امر السنية على ذلك وهم يترقبون الفرص ويرصدون الخلس ، الى ان جاءهم المدد من ناحية « ريغ » فاعادوا حصار بسكرة سنة ٧٤٠ هـ (١٣٣٩ م) تحت زعامة على بن احمد شيخ اولاد محمـد – من الدواودة – واطالوا حصار عاصمة الزاب اشهراً واخيراً عجزوا عن اقتحامها فرجعوا الى مراكزهم ؛ ونزل الشيخ ابن الازرق مدينة بسكرة باستدعاء من صاحبها يوسف بن مزني – تفريقاً لامر السنية – وعرض عليه قضاءها فاجابـه الى

ذلك ؛ وانسحب يومئذ حزب السنية من الميدان وانتثر عقده ولم يبق له ذكر الا عند من يتخذه كوسيلة للتوصل به عند العامة الى قبض الصدقات والزكاة والنذر باسم القيام بتغيير المنكر . وان « برج سعادة » المعروف الى اليوم قرب مدينـــة طولقة هو مكان الرباط الذي اسسه الزعيم « سعادة » وذلك لقول ابن خلدون : واوعز – اي ابن مزنى – الى اهل طولقة بالقبض على سعادة فخرج منها وابتنى بأنحائهـــا زاوية ونزل بها هو واصحابه .... واقام المرابط سعادة بزاويته من زاب طولقة .... ، ولقد بقي من عقب سعادة على عهد ابن خلدون بالزاوية المذكورة بنون وحفدة يوجب لهم ابن مزنى الرعاية وتعرف لهم اعراب الفلاة من رياح حقاً في اجازة من يجيزونه من اهل السابلة [1]

الجزائر بين الحفصيين والمرينيين

ذهبت دولة الموحدين العظيمة التي كانت تعرف كيف تسوس رعاياها العرب المتهالكين على الرئاسة وتركت بعدها اضطراباً عظيماً بين تلك القبائل العربية المتشوفة الى مناصب الحكم المتفرقة يومئذ تارة هنا وتارة هناك تجري وراء كل ناعق ترى فيه نيل مرادها والحصول على اغراضها ، فطوراً نراهـا تسير في ركاب الحفصيين ، وطوراً نجدها منحازة الى بني مرين ، وتارة تكون في جانب الزيانيين ، كل ذلك تفعله لغاية واحدة هي الحصول على الرئاسة ، والغاية عندهم تبرر الوسيلة . فكانت حملات الاعراب وتهجماتهم هـذه شديدة على الحفصيين ، وتعددت يومئذ الوقائع الثورية وانتشرت الفوضى وعمت الفتن لا في الجزائر فحسب بل بالمغرب الاسلامي كـــله ، وعجز الحفصيون عن رد عادية هؤلاء الاعراب فضاقوا بهم ذرعـــاً فاضطروا الى الاستنجاد بدولة بني مرين ، فجاءت هذه حامية للدولة المستنجدة فاحتلت اولا تلمسان سنة ٦٩٩ هـ (١٣٠٠م) بدون ان تحفظ للحفصيين حرمة ، بل لم

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٨ – ٣٩ .

يكتف بذلك السلطان ابو يحيى المريني فطمع في بجاية أيضاً وحاصرها سنة ٧٠١هـ (١٣٠١) .

ثم في سنة ٧٢٨ هـ (١٣٢٧م) حدث من الفتن ما اضطرب لها بال السلطان الحفصي حيث ظهر في اسرته من ينازعه في الحكم مطالباً بالعرش ، مستنصراً عليه ببني عبد الواد الزيانيين ملوك تلمسان ، فاستصرخ الملك الحفصي يومئـذ بالسلطان ابي سعيد المريني على ان يقاسمه ولاية تلمسان ـ ان انتصر على اهلها ـ فكان الامر كذلك واقتسمت اوطان بني عبد الوادبين بني ابي حفص وبني مرين وتم ذلك بينهما سنة ٧٣٠ هـ (١٣٢٩م)

واخذت حينئذ مطامع المرينيين تتسع وأنظارهم تتشوف الى حيازة المغرب الاوسط ـ الجزائر ـ ، ومـا كادت تمضي خمس سنوات حتى تحرك السلطان ابو الحسن المريني من عاصمة فاس، قاصداً غزو الجزائر ، فاقتحم تلمسان عنوة يوم ٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ (٣٠ افريل ١٣٣٧ م) وقد اربى يومئذ عـدد القتلى على ثمانين الف قتيـــل ، ومنذ ذلك اخذ شأن المرينيين يرتفع ويعلو بالمغرب لاوسط ونفوذهم ينتشر شيئاً فشيئـاً حتى عم سلطانهـم القطر المغربي كله وذلك في مدة لا تزيد على عشر سنوات ، وحكموا تونس ايضاً مـدة عامين ونصف ثم عادت الى اصحابها الحفصيين ، واستعـاد الفضل بن يحيى الحفصي مدينة بجاية في شهر ربيع واحتل قسنطينة يوم الجمعة غرة المحرم سنة ٧٤٩هـ (فاتح افريل ١٣٤٨م)؛ وسقطت ولاية تلمسان بيد ابي عنان المريني فاحتلها سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م)وانتهى الى المدية ، ثم بعـد سنتين فتحت لهم بجاية ثم قسنطينة وبونة سنة ٧٥٨ هـ (١٣٥٦ م)

وفي شوال ٧٦١ هـ (اوط ١٣٦٠م) ازمـع الحفصيون واجمعوا امرهم على استرجاع ملكهم الضائع بالمغرب الاوسط ، فنـازل ابو عبدالله الحفصي مدينة بجاية فامتنعت عليه فدأب على المكافحة وثابر على متابعة الفتح بتكراره شن الغارات عليها حتى فتحهـا في رمضـان ٧٦٥ هـ (جوان ١٣٦٤م) ، وبعد شهرين نازل مدينة تدلس ـ دلس ـ فافتكها من يد الزيانيين ، ثم استعـادها

السلطان ابو حمو الثاني كما سنذكره فيما يلي من تاريخ الدولة الزيانية وانزل بها حاميته وعقد السلم مع ابي عبدالله الحفصي واصهر اليه في ابنته ، ثم عاد الحفصيون فاحتلوا تلمسان مرة اخرى واستعادوااليهم ملك بسكرة وقسنطينة وبايعهم اهل المدية ومليانة وتنس ، وهكذا اضحت الجزائر تنتقل بين ايدي ملوك المغرب الاسلامي يتهافتون عليها تهافت الفراش على السراج ولم يكن لها في هذه الاونة استقلال بالحكم الا برهة قليلة من الزمن قام فيها بعض ولاة العواصم المستبدين فتظاهروا فيها بمظهر الملك ؛ وظلت كذلك الى ان تمحض حكمها لبني عبد الواد الزيانيين

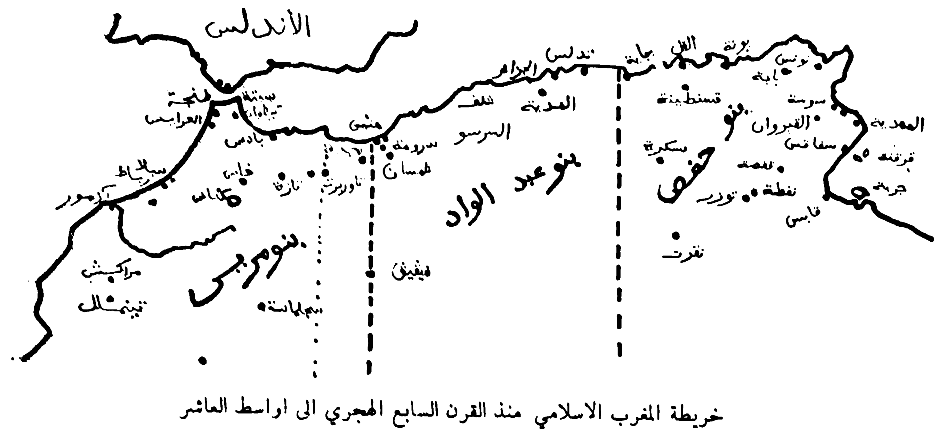
حركة السلطان الى بسكرة

لقد بلغت النخوة والتيه بعامل الزاب احمد بن مزنى الى ان استشرفت نفسه الى الامتناع من اداء واجب الخراج للدولة ورفض طاعتها محتميا بالاعراب القاطنين بضواحي الزاب والتلول . وخاصة منهم الدواودة الذين طالما اسخطوا الحكومة عليهم بأعمالهم العدائية ومواقفهم السلبية ،فتحرك السلطان ابو العباس احمد الاول الى قاعدة الزاب – بسكرة – سنة ٧٨٦ ﻫ (١٣٨٤ م) فجاءها في جيش عظيم حتى ازدحم الناس بالجند وضاقوا بهم ذرعاً ، وضرب عليها الحصار وكانت هنالك مقتلة عظيمة دامت اياماً خضع لها ابن مزني واذعن لسلطان الحفصيين فكفت عنه ايدي الجند وانكفأ عنه ابو العباس في قومه الى تونس

تنازع امراء بني ابي حفص على ولاية قسنطينة وبجاية

لم يكن حسن الوفاق قائماً بين حكام قسنطينة وبجاية ، فقد خضبت حروبهم المتوالية ارض الجزائر خلال القرن الثامن وطيلة سنوات من القرن التاسع الهجري

كانت ولاية قسنطينة لابي بكر بن ابي العباس احمد الحفصي ؛ فنازعه عليها ابن عمه الامير ابو عبدالله محمد بن ابي زكرياء صاحب بونة -- عنابة – وحاصرها



خريطة المغرب الاسلامي منذ القرن السابع الهجري الى اواسط العاشر

سنة ٧٩٦ هـ / ١٣٩٤ م / فانتصر السلطان ابو فارس الحفصي لاخيه ابي بكر واوقع بابن عمه صاحب بونة ، فذهب يومئـــذ ابو عبدالله ملتجئاً الى فاس مستصرخاً سلطانها المريني ومكث هنالك الى ان عقد له سلطان مرين على جيش عظيم زحف به على بجاية سنة ٨١٠ هـ (١٤٠٧ م) فانتصر على صاحبها ابي يحيى فعزله وولى مكانه ولده المنصور ثم ارتحل عنها الى تونس منتقماً من سلطانهـا ابي فارس ؛ فخالفه السلطان المذكور الى بجاية فأقصى عن حكمها المنصور وجعل ولايتها لابن أخيه احمـــد بن ابي بكر ، ثم انبرى لمقاتلة ابي عبدالله فظفر به فقتله وبعث برأسه الى من نصبه على باب فاس اغاظة لمؤيده وناصره سلطان بني مرين، وتقدم الى تلمسان فاحتلها سنة ٨١٢ هـ (١٤٠٩ م) ثم كانت هدنة وصلح تبودلت فيه الهـــدايا والتحف بين ملوك الحفصيين وبني مرين .

ولما انتصب السلطان ابو عمرو عثمان على عرش تونس مكان اخيه المنتصر المتوفى سنة ٨٣٩ هـ (١٤٣٥ م) قام في وجهه صاحب بجاية وهو يومئذ علي بن عبد العزيز . فامتنع عن مبايعته مدعياً انه أحق بالملك من عمه ، وقد شايعه على ذلك فقيه بجاية منصور بن علي بن عثمان ؛ فنشأت عن ذلـــك حروب وخطوب انهزم فيها صاحب بجاية وامتلكها السلطان ابو عمرو في جمادى الثانية سنة ٨٤٣هـ (نوفمبر ١٤٣٩م) فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد الاول .

مشاركة الجزائر في هزم الصليبيين

كان لانهزام النصارى عن انطاكية واستيلاء سلطان مصر الملك بيبرس البندقداري على بلاد سورية امتعاض شديد وغيظ عظيم اورثهم شجوا وشجنا، فقامت لديهم قيامة الاحزان وارسلوا الى البابا « كليمنضوس الرابـع » يطلبون منه المساعدة والمعاونة على القتال باسم الصليب – كذباً وزوراً – ؛ فأرسل هو بدوره منشوراً الى جميع ملوك اوروبا يستنفرهم ويستفزهم الى ايقاد حرب صليبية ثامنة لأخذ ثأرهم من المسلمـــين ، فكان اول من لبى نداء البابا ملك فرنسا لويس التاسع St. Louis انتقاماً لما أصابه من الهزيمة والاسر ايام حملته

على مصر (٦٤٨هـ - ١٣٥٠م) وأخذ في تجهيز العساكر والأساطيل لذلك ، وبعد استشارة اصحابه ووقوع المداولات بينهم في تعيين اي البلاد الاسلامية التي تقصدها الحملة الصليبية وقع الاتفاق على مهاجمة تونس بدعوى ان اهـــل المغرب طالمـــا اعتدوا على بحرية فرنسا وغيرها ؛ فسارت الحملة بقيادة الملك لويس المذكور وغادرت إيغمورت في ذي القعدة ٦٦٨هـ ٤ جوليط ١٣٧٠ م ونزلت بأنقاض مدينة قرطاجنة من الساحل التونسي ، وكان عدد جيش الصليبيين زهاء ستة آلاف فارس وثلاثين الفاً من الرجالة ، وبلغت اساطيلهم ثلاثمائة قطعة ما بين كبار وصغار ، فنادى حينئذ السلطان الحفصي ابو عبدالله محمد المستنصر الاول في الناس بالاستعداد والنفير العام ، وارسل الى جميـــع الممالك التابعة له - ومنها الجزائر - يطلب المدد ، فوافته الامـــداد من كل ناحية ، وجاءه ابو هـــلال عياد صاحب بجاية في جوعه وسرح اليه محمد بن عبد القوي عســكر بني توجين لنظر ابنه زيان وهم جميع سكان حفـافي وادي شلف والسرسو ، وجاءت جموع العرب وهوارة وولها صة - سكان بسيط بونة - وسدويكش وهم سكان مواطن صنهاجة بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية - وأمده ايضاً ملوك المغرب من زناتـة واحتدمت الحرب في منتصف المحرم ٦٦٩هـ (٥ سبتمبر ١٣٧٠ م) ونشب هنالك بين الفريقين قتال عنيف مات فيه عدد عظيم من الطرفين وغدا ملك فرانسا قتيلاً ، قيل انه مات حتف أنفه ، وقيل انه اصابه سهم غرب فقتله ، وقيل اصابه مرض الوباء ، ويقال ايضاً وهو بعيد ان السلطـان بعث اليه مع ابن جرام الدلاصى بسيف مسموم كان فيه مهلكه [١] فانسحب الصليبيون يومئذ عن تونس منهزمين وكفى الله المؤمنين القتال. وكانت هذه الحملة الاوروباوية هي الثامنة والأخيرة من الحملات الصليبية الشهيرة في التاريخ ، قال لوبون يصف سلوك اوروبا في هذه الحروب: « يدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على انهـم من اشد الوحوش حماقة .

---

(١) راجع ابن خلدون ج ٦ ص ٢٩٠ - ٢٩٤ والاخبار السنية ص ٢٦٧ - ٢٧٠ ط مصر ١٣١٧هـ .

فكانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والاهالي العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال فيقتلون وينهبون على غير هدى – مثلما شاهدناهم بأنفسنا في حرب التحرير الجزائرية (١٩٥٤م – ١٩٦١م) – ونرى في كل صفحة من الكتب التي ألفها مؤرخو النصارى في ذلك الزمن براهين تدل على توحش الصليبيين » ونقل لوبون في ذلك امثلة وشواهد توضح لنا ذلك راجعها في كتابه « حضارة العرب ص ٤٠٠ ط القاهرة ١٣٦٤ هـ الموافق ١٩٤٥ م .

ولما ارتحل العدو عن تونس وأخذ محمد بن عبد القوي في الانصراف الى وطنه – بالجزائر – اسنى اليه السلطان جائزته وعم الاحسان وجوه قومه وعساكره وأقطعه بلاد مغراوة واوماش من وطن الزاب واحسن منقلبه ، واتصل ملك محمد بن عبد القوى في ضواحي المغرب الاوسط ما بين وطن بني راشد الى جبال صنهاجة بنواحي المدينة وما في قبلة ذلك من بلاد السرسو وجباله الى ارض الزاب ، وكان يبعد الرحلة في مشتاه فينزل الدوسن ومقرة والمسيلة [1]

مقاومة القرصنة الاروبية

لقد بلغ من عتو قراصنة الغرب ولصوصه ان اصبحوا يجوبون هذا البحر ويعترضون مراكب المسلمين فيه فيتخطفون الناس من أهل المغرب ويبيعونهم باسواق اوروبا بيع السوائم ، فكثر ما حدثنا التاريخ عن تجارة اوروبيين كانوا يستغلون حركتهم التجارية لارتكاب القرصنة ؛ فان المؤرخ المسيحي « دوماس لاطري » يقول ان في سنة ٥٩٦ هـ (١٢٠٠ م) هجمت سفينتان من بيزا على مراكب إسلامية وأسرت ركابها وانتهكت اعراض النساء ووضعت يدها على ما صادفته من عروض ومتاع ؛ ويكفي ان نعيد للأذهان كما يقول المؤلف المذكور : آلاف المزارعين والملاكين العرب الذين اختطفوا في قابس عام ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) وجربة عام ٧٠٩ هـ (١٣١٠ م) وطرابلس عام ٧٥٦هـ (١٣٥٥ م) ثم بيعوا في اسواق الرقيق باوروبا .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٥٨ ط بولا ق ١٢٨٤ هـ

وكان اول من انبرى لمقاومة هذه القرصنة الاوربية ورد عاديتها عن سواحل المسلمين بالمغرب أهل بجاية فانهم قد كالوا لهؤلاء القراصنة كيلاً بكيل، فاتخذوا مثلهم الاساطيل للغزو وأخذوا في الهجوم على سواحل الفرنج مثل جنوة والبندقية وسواحل ايطاليا واسبانيا ، فغنموا وأسروا ، وكثر يومئذ عدد الاسرى في بجاية حتى اشتد لغطهم وصخبهم بالمدينة من أثر اجترار السلاسل والاغلال ؛ ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ما عليهم من سبيل

ولم تعدم الانسانية بحمد الله رجالاً عاملين على المحافظة على شرفها والسمو بها الى مقامها الجديرة به في هذه الحياة ؛ فلقد كان لعملية القرصنة هذه استياء عظيم في قلوب الافارقة المسلمين فعملوا على عقد معاهدات بينهم وبين دول هذا البحر من الغربيين ؛ وحرصوا على توفير الضمانات وفرض التعويضات على الخسائر التي تلحق رعايا الطرفين من جراء اعتداء القراصنة ؛ فتعهدت جميع الدول التي ابرمت تلك الوثائق بالعمل المشترك لاستئصال القرصنة ، ولقد نصت معاهدة (صيبو) في فصلها التاسع عشر على انه اذا ما اضطر الموحدون الى تجهيز مركب لمطاردة احد القراصنة الجنويين فان جمهورية جنوة يجب عليها اذ ذاك ان تجهز بدورها مركباً للمساهمة في هذه المطاردة ، وقد ادى الامر بالطرفين - استئصالاً لارباح القرصنة العفنة - الى تحضير بيع الغنائم والاسرى وتسريح هؤلاء عاجلا بدون فداء ، بل قرر الجانبان معاً اتلاف مصادرة اموال القراصنة الذين يهاجمون رعايا الدول المتحالفة ، ولكن بالرغم عن كل ذلك ظلت كل من اوروبا وافريقية تعجان بالاسرى المسلمين والمسيحيين ، ولقد وازن المؤرخ « لاطري » وقارن في كتابه المذكور بين فظائع القرصنة المسيحية وفظائع القرصنة الاسلامية ، فلاحظ ان المسيحيين يتحملون قسطاً وافراً من النهب والتدمير الذي ارتكب باسم القرصنة البحرية والذي نسب الى المغاربة وحدهم [1] ؛ وما كان من حق المؤرخ المذكور ان ينسب هذا العمل الشنيع الى الاديان او يسميه بها ، فالقرصنة ليست هي في شيء من

---

(١) رسالة المغرب عدد ١٤٦ ص ٣٩ — ٤٠ - ٤١ .

الدين ، فلا هي مسيحية ولا اسلامية ، وانما هي تطاول على الغير حباً في الاثرة والغلبة ، وقد تكون دفاعاً وذبا عن الحمى وحينئذ تلحق بباب الجهاد والحرب ولكل منهما حدود وقوانين .

الاسلام والنصرانية بالمغرب

جاء في المعاهدة التي ابرمها السلطان المستنصر الحفصي سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) مع ملك فرنسا فيليب الجريء ، وشارل دوق انجو ، وتيبو ملك نافار : ان للرهبان والقساوسة المسيحيين الاقامة بالمملكة الحفصية تحت رعاية الدولة الاسلامية ، ولهم اتخاذ الكنائس والاديرة لاقامة شعائرهم الدينية وطقوسهم التقليدية والقاء المواعظ الخ .... كما لو انهم كانوا في ديارهم وبين اظهر قومهم ، واعطيت لهم الارض الكافية لذلك ؛ فتكاثر يومئذ عدد النصارى ببجاية وغيرها من بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ، وانتشرت معابدهم بها ، وذلك غاية في التسامح .

وفي التاريخ المذكور سقطت جزيرة « ميورقة » بيد « يعقوب » الاول ملك « اراغون » فذهب اليها الراهب الفرنسي « ريموندلول » فوجدها صالحة لبث تعاليم المسيحية ونشر مبادىء مذهبه « الفرانسيسكي » [1] فابتنى بها ديراً لاجتماع الطائفة واتخذه مركزاً للتبشير بعقيدته ، وفيه اخذ في درس اللغة العربية ليستعين بها على تنصير المسلمين بالمغرب ، ولقد بلغ هذا الراهب من الجرأة والحماسة الى ان القى رحاله في تونس عاصمة المملكة الحفصية وطفق يطعن في الاسلام ويستنقص رسوله الكريم فهم بقتله المسلمون لولا ان ادركته عناية السلطان الحفصي فانتشله من ايدي الرعية وانقذه من الردى وابقاه اسيراً بتونس مدة ، ثم اطلق السلطان كبله وفك اسره فارتحل يومئذ الى مدينة الجزائر ، ومنها انتقل الى بجاية واستمر يعمل بها على خطته المعهودة في نشر دعوته التبشيرية معلناً عداوته للاسلام فقتل هنالك يوم ١٧ ربيع الاول

(١) اسمه القديس الايطالي « فرانسوا داسيز » المولود سنة ١١٨٢ م والمتوفي سنة ١٢٢٦م وكان تأسيس مذهبه هذا سنة ١٢٠٩ م .

٧١٥ هـ (٢١ جوان ١٣١٥ م) .

المعتقدات والمذاهب الدينية

ما برح المسلمون في مشارق الارض ومغاربها ينظرون الى علماء الاسلام وائمة مذاهبه والمجتهدين منهم واختلاف اقوالهم وآرائهم في احكامه وشرائعه الا كنظرهم الى مذهب واحد وامام واحد ، من غير نكير ولا تعصب ولا تحيز ولا اعتراض ، فليس عندهم ترجيح لهذا عن ذاك ولا تفاضل بين امام وامام او مذهب دون مذهب فالكل على هدى من ربهم ورحمة ، والشريعة بينهم كالبحر من اي الجوانب اغترفت منه فهو واحد ، وان ما ورد عن هؤلاء الاعلام من الاختلاف في الفتوى وبعض الفروع انما كان عن اجتهاد وجد ودأب منهم رضي الله عنهم في خدمة هذا الدين الحنيف رحمة بالمسلمين ، وقد كان سفيان الثوري رحمه الله تعالى يقول : لا تقولوا اختلف العلماء في كذا وقولوا قد وسع العلماء على الامة بكذا ؛ اذ كلهم يغرفون من معين واحد سماوي كله خير وبركة ، واستمر الحال على ذلك الى ان حدث تقليد اهل المذاهب في القرن الرابع الهجري وابتدأ الجدل .

وبينما المسلمون على ذلك في تقليدهم هذا مطمئنين خاشعين الى ربهم اذ فوجئوا بحادثة وقعت بمصر ايام دولة المماليك البحرية ، اختلف فيها الملك الظاهر «بيبرس» العلائي البندقداري ٦٥٨ – ٦٧٦ هـ . ١٢٦ – ١٢٧٧ م وشيخ الاسلام الوزير تاج الدين بن بنت الاعز ، فذهب كل منهما غير مذهب صاحبه ، واغتنم حسدة الشيخ ومنافسوه فرصة هذا الخلاف المستحدث فزينوا للسلطان قول الحنفية في المسألة اعتراضا على الشيخ تقي الدين الذي كان يرى رأي الشافعية فيها ، وكان يومئذ لا يلي القضاء ولا يقدم للحكم بين الناس في مصر الا الشافعية ، اتباعاً لما كان عليه الايوبيون من قبل ، فتوسع السلطان الظاهر يومئذ ٦٦٥ هـ – ١٢٦٦ م في ديوان القضاء وجعله لاربعة فقهاء من اهل المذاهب الاربعة : شافعي وحنفي ومالكي وحنبلي ، وافتى فقهاء الامصار بوجوب تقليد اصحاب هذه المذاهب خاصة وتحريم ما عداها : واقيمت لاهلها

الخوانق والزوايا والربط ، وحبست باسمها الاوقاف وعودي من تمذهب بغيرها وانكر عليه . ولم يول قاض ولا قبلت شهادة احد ولا قدم للخطابة او التدريس او الامامة بالمساجد احد ما لم يكن مقلداً لاحد هذه المذاهب الاربعة [1] قال ابو شامة : وبه حصلت تعصبات المذاهب والفتن بين الفقهاء ولا أدري والله ما حجتهم في ايجابهم تقليد البعض من ائمة المذاهب دون البعض ، وكلهم علم وكلهم مجتهد ؟.. ولعل الائمة الذين رغبوا عن اقوالهم وعن مسائلهم الاجتهادية الشرعية هم اعلم بتلك المسائل او – ببعضها – من غيرهم ؟.. ومن يدري ؟... فرب حامل فقه هو افقه منه .

... وكان ما ارادوا وانصرف الناس يومئذ الى تقليد الائمة الاربعة واجتهدوا في استنباط الاحكام واستخراج النصوص الفقهية وتفريع المسائل الشرعية على مقتضى قواعد المذاهب الاربعة ، وتحول اليها طلاب الوظائف والمتطلعون الى نيل الجاه وحيازة المناصب البارزة في الدولة [2] وكان من المصادفة ان ظهر وقتئذ بمصر رجل زعم انه ولد الخليفة الظاهر بن الناصر العباسي ، وانه نجا بنفسه من مذبحة المغول ببغداد ، وبعد ان ثبت نسبه لدى حكومة مصر رسميا بايعه السلطان بالخلافة ـ تبركا ـ ولقبه « بالمستنصر بالله» او « الحاكم بأمر الله » ، فتوهم البعض من سكان الامصار والمماليك الاسلامية ان ما اشتهر بمصر من وجوب الاقتصار على تقليد هذه المذاهب الاربعة خاصة انما كان صادراً عن اذن الخليفة العباسي المقيم يومئذ هناك ، فامتثلوا واطاعوا لدولة المماليك واقتصروا منذ ذلك العهد في اخذ احكامهم الشرعية عن فقهاء

---

(١) خطط المقريزي ج ٢ ص ٣٤٤ ط بولاق ١٢٧٠هـ. ولقطة العجلان ص ٢٣٤ ط استانبول ١٢٩٦هـ وطبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ١٣٤-١٣٥ ط القاهرة ١٣٣٤ هـ

(٢) كان الشيخ محمد بن الدهان البغدادي المتوفي سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م حنبليا فتشفع ، ثم تحنف حين طلب الخليفة نحويا يعلم ولده النحو ، ثم عاد الى مذهب الشافعية حين شغرت وظيفة التدريس بالنظامية وكان من شرط صاحبها ان يكون المدرس بها شافعياً ، ولم يكن عهدئذ احد اعلم بالفقه والنحو منه ، وكان الامام ابو حيان الاندلسي المتوفي سنة ٧٤٥هـ ١٣٤٤م ظاهرياً ثم تشفع حين انتقاله الى المشرق ، فتولى تدريس التفسير بالمنصوريه والاقراء بالجامع الاقمر بالقاهرة ، وكان يقول : محال ان يرجع عن مذهب الظاهر من علق بذهنه .

هذه المذاهب خاصة والغاء كل ما عداها ، ولم يشذ في ذلك سوى الزيدية في اليمن ، والشيعة بفارس والعراق ، والاباضية بعمان والمغرب فتمسك كل من هؤلاء ، بمذهبه ، وما شذ هؤلاء الطوائف الثلاث عن الامتثال لهـذا الامر الا لكونهم لا يرون صحة امامة العباسيين ولا يعترفون بخلافتهم . ومنذ يومئذ انفردت المذاهب الاربعة بالانتشار والتمكن في البلاد واخذ غيرها في الاندراس والتقلص تدريجياً الى ان اصبح الامر على مـــا هو عليه الحال الى الآن [١]

---

١) يذكر علماء الاحصاء ان اكثر المذاهب ذيوعاً وانتشاراً في العالم الاسلامي اليوم هو مذهب ابي حنيفة ، فانه الغالب على بلاد الهند وان اتباعه هنالك يقدرون بنحو ٤٨ مليون مسلم، ويكثر مقلدوه ايضاً في بلاد العراق والشام والافغان والتركستان - الشرقية والغربية - والقوقاز، وهو الغالب ايضاً على الاتراك والالبانيين ، وسكان البلقان والاتحاد السوفييتي، وفي البرازيل بامريكا الجنوبية نحو الخمسة والعشرين الف مسلم حنفي ، ويقدر الجميع بنحو ١٨٠ مليوناً حنفياً . ويليه في الذيوع والانتشار مذهب الشافعية ، وهو الغالب على القطر المصري - ما عـدا الصعيد فان أهله مالكية - وعلى بلاد فلسطين وبلاد الاكراد وأرمينية ، واكثر السنية من اهـــل فارس شافعية - وفيهم الحنفية - (والاغلبية عندهم شيعة) وجميع مسلمي جزيرة سرنديب - سيلان - وجزائر الفيلبين وجاوة وما جاورها من الجزر كلهم شافعية ، وكذلك اهل الهند الصينية واستراليا وأهل عسير والسنيون في اليمن وحضرموت - عدا عدن - فان فيها بعض الحنفية ، كما انه يغلب ايضاً على أهل الحجاز مع مذهب الحنابلة ، ويتبعه نحو الربع من مسلمي الشام ،ويكثر اتباعه في العراق - اعني بعد المذهب الحنفي - ويتبعه في الهند نحو المليون مسلم ، وفي تركيا نحو المليون ونصف شافعية كما انه يوجد بقلة في جهات اخرى ، ويقدر المجموع بنحو ١٠٠ مليون .

ويليه في نسبة عدد الاتباع المذهب المالكي فانه الغالب على أهل المغرب الاسلامي وارض الصعيد والسودان والكويت وقطر والبحرين ، وله اتباع ومقلدون في العراق والحجاز وفلسطين واكثر اهل السنة في الاحساء مالكية وحنابلة ، ويقدر مجموع المالكية بنحو ٧٥ مليوناً .

اما الحنابلة فانهم اظهر ما يكون بنجد والحجاز بجانب المذهب الشافعي كما هم بفلسطين ايضاً ، ونحو الربع من أهل السنة بالشام حنابلة ، ولهـــذا المذهب اتباع قليلون بقطر والبحرين من النازحين الى هذه البلاد من نجد ، ويقـدر عدد اتباع المذهب الحنبلي اليوم بنحو بضعة ملايين أو قل نحو سبعة ملايين مسلم . وفي الجزائر اليوم بجانب المالكية نحو الاربعين الف اباضي ، وباضافة ما بجربة من اباضية وهم ٢٠٠٠٠ نسمة ، وما بعمان ٥٩٧٦٠٠ نسمة ، وما بجبل نفوسة بالقطر الطرابلسي ٤٨٠٠٠ نسمة ، كان مجموع عدد الاباضية اليوم زهـــاء ٧٠٥٦٠٠ نسمة وهم في احصائية ماسينيون يبلغون المليون نسمة اما الاسماعيلية وهم بنواحي الهند والشام فانهم يعتبرون ملاحدة ويسمون باطنية ولا يعدون من جماعة المسلمين راجع .

Louis Massignon : Annuaire du monde Musulman Paris 1955

وانظر ما قدمناه من كلامنا حول حركة المذاهب الاسلامية وتطورها بالجزائر في الجزء الاول

وان هذا العمل وان كان فيه نوع من جمع كلمة المسلمين وتوحيد اتجاههم وصد لتلاعب المغرضين وارباب الدعاوى العريضة فان فيه ايضاً تضييقاً لسعة الفقه الاسلامي وتحجيراً للافكار الحرة وقتلاً للنشاط والبحث العلمي وتعطيلاً للشريعة بحمل الاكفاء من الناس على ترك الاجتهاد في تفهم الكتاب والسنة واستنباط الاحكام على ما توجبه مقتضيات الحياة وعلى ما يقتضيه تقدم العلم وترقي العقل البشري واتساع مداركه ومدارجه وما يتجدد مع الزمن من حوادث ونوازل ، وفق حاجات البلاد المختلفة وظروف الازمنة المتقلبة وربما كانت المصلحة اليوم في شيء وغدا في شيء آخر . . . وهذا معنى التفات نظر الفقهاء وعنايتهم بباب المصالح المرسلة والتي هي المصالح العامة المتجددة ، وكان عطاء ومجاهد ، ومالك لا يفتون فيما يسألون عنه من الوقائع الا إن وقعت ، ويقولون فيما لم يقع : اذا وقع ذلك فعلماء ذلك الزمان يفتونهم فيه . وفيه كذلك تسفيه لآراء المتقدمين وطعن في جميع ما ذهبوا اليه من آراء كان لا يراها اصحاب المذاهب الاربعة ، في حين انهم كلهم لا يرون فيما عالجوه من شؤون المجتمع وما بذلوه من وسع في الذب عن حوزة الدين وما انفقوه من جهود جبارة وأعمار غالية عزيزة في استنباط الاحكام والاستدلال عليها بصحيح الكتاب والسنة وتدوينها الا خدمة دين الاسلام الخالد الذي لا يسعه كل ما عرف من مذاهبه ـ جميعها ـ الى اليوم فكيف يسعه الاقتصار على هذه الاربعة فقط !... وفي ذلك ايضاً من الجمود المميت للقرائح ، والتضييع للعلم بالغاء ما احتفظ به الاوائل من اثر صحيح او اجتهاد صائب ،ورحم الله شيخ الاسلام زكرياء الانصاري حيث قال : « اياكم ان تبادروا الى الانكار على قول مجتهد او تخطئته الا بعد احاطتكم بأدلة الشريعة كلها ومعرفتكم بجميع لغات العرب التي احتوت عليها الشريعة ومعرفتكم بمعانيها وطرقها ، فاذا

احطتم بهـا كما ذكرنا ولم تجدوا ذلك الامر الذي انكرتموه فحينئذ لكم الانكار والخير لكم ، واني لكم بذلك » ؟ ! ... وليس ينبغي - كما يقول ابن مسكويه - ان يتعجب الانسان من الشيء الواحد ان يكون حلالاً بحسب نظر الشافعي وحراماً بحسب نظر مالك وابي حنيفة ، فان الحلال والحرام في الاحكام والامور الشرعية ليس يجري مجرى الضدين او المتناقضين في الامور الطبيعية وما جرى مجراها [1] وبالفعل انعدم يومئذ الاجتهـاد واغلق بابه بالمغرب الاسلامي كما ذكره العز بن عبد السلام - ٦٦٠ هـ - ١٢٦١ م - وقل انصاره بالمشرق ايضاً

ولو راجعنا رجال هذه المذاهب الاربعة انفسهم واستشرناهم فيما احدثه المحدثون حول مذاهبهم من التعصب لما وجدنا فيهم واحداً - رحمهم الله تعالى- يرى هذا التحجير او قل التضييق ! فهذا امـام دار الهجرة مالك بن انس نراه ينهي الخليفة ابا جعفر المنصور عما وجه اليه عزيمته من حمـل الناس على مذهبه قائلاً : « لا تفعل ذلك يا امير المؤمنين ، فان الناس قـد سبقت اليهم اقاويل ، وسمعوا احاديث ، ورووا روايات ، واخذ كل قوم بما سبق اليهم ، ودانوا الله تعالى به ، فدع الناس ومـا اختار اهل كل بلد منهم لانفسهم » ، وكذلك نجد الامام هـذا نفسه يؤكد في دفع الخليفة هرون الرشيد عما هم به هو الآخر ايضاً من تعليق كتاب الموطأ في الكعبة وحمل الناس على ما فيه ، فقال « يا امير المؤمنين لا تفعل فان اختلاف العلماء رحمة من الله على هـذه الامة فكل يتبع ما صح لديه عنده ، وكل على هدى ، وكل يريد الله ، وان اصحاب رسول الله اختلفوا في الفروع وتفرقوا في البلاد وكل مصيب » فقال له الرشيد : وفقك الله يا ابا عبدالله ! ... ولقـد صح عن الشافعي ايضاً انه نهي الناس عن التقيد حتى بمذهبه وهـذا احمد بن حنبل نراه ينكر ايضاً على من رآه يكتب كلامه قائلاً :تكتب رأياً لعلي ارجع عنـه أو قال الآخر : لا تقلدني ولا تقلدن مالكاً ولا الاوزاعي ولا الحنفي ولا غيرهم وخذ الكلام من

---

(١) الهوامل والشوامل لابي حيان ومسكويه ص ٣٣٠ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ ١٩٥١م

حيث اخذوا من الكتاب والسنة ، وقال ابو حنيفة يوماً للمزني : يا ابراهيم لا تقلدني فيما اقول وانظر في ذلك لنفسك فانه دين !... وهكذا كان منهاج جميع ائمة السلف رحمهم الله تعالى ، فلم يبلغنا عن احد منهم انه امر اصحابه بالتزام مذهبه او الاقتصار على مذهب واحد معين ، بل المنقول والمقرر عنهم جميعهم انهم كانوا يحثون اصحابهم على الاجتهاد في اخذ الاحكام من مصدر الشريعة المطهرة ، وكانوا يرون ان التقصير في هذا معصية واشراف على خطر عظيم ، ذلك لان الحوادث والوقائع في المعاملات لا تتناهى فلا بد اذاً من الاجتهاد او الاخذ بجميع مذاهب الاسلام على الاقل ، نعم انهم كانوا يعملون بفتوى بعضهم بعضاً ولكن كلهم لسان واحد يقول : اذا صح الحديث فذاك مذهبي ، فما معنى اذاً هذا التضييق ؟! ... اللهم الا ان يقال ان ذلك كان موقتاً وفي ظروف مخصوصة منعاً لتسرب التعاليم الدخيلة في الاسلام وسداً للذريعة . وهذا ما اراده ابن خلدون بقوله : « ووقف التقليد في الأنصار عند هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف وطرقه لما كثر تشعب الاصطلاحات في العلوم ، ولما عاق عن الوصول الى رتبة الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير اهله ومن لا يوفق برأيه ولا بدينه فصرحوا بالعجز والاعواز وردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا أن يتداول تقليدهم لما فيه من التلاعب ولا يبق الا نقل مذاهبهم وعمل كل مقلد بمذهب من قلده منهم... قال : ومدعي الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه ، مهجور تقليده ، وقد صار اهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة » (١)

ويتصل بهذا ما يرجع الى مباحث اصول الدين وتشعب الجدل الديني في العقائد واختلاف ارباب الفرق والطوائف الاسلامية في المعتقدات وتضارب انظار ائمة مذاهب علم الكلام واهل الاعتزال كما هو السائد يومئذ بالمشرق ، فان ذلك كله لم يكن منه شيء بالمغرب ، وخاصة في الجزائر فانها بريئة من

(١) المقدمة ص ٢١٨ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

ذلك، والناس فيها على عقيدة مذهب اهل السنة والجماعة حسب اصول مذهب الاشعري وتعاليمه التي جاء بهـا ابن تومرت من المشرق الى هـذه الديار ، الا ما كان من جماعة الاباضية فان عقيدتهم ترمي الى الخارجية [1] .

وما كان اتحاد النـاس هنا بالجزائر والمغرب قاطبة في عقيدتهم الاشعرية وبعـدهم عن الآراء الاخرى الا لتمسكهم بمذهب مالك ، وفي ذلك يقول عياض : « وقد نظرنا طويلاً في اخبار الفقهـاء وقرأنا ما صنف في اخبارهم الى يومنا هذا ، فلم نر مذهباً من المذاهب غيره – يعني المالكي – اسلم – منه، فان فيهم الجهمية– والرافضة – والخوارج – والمرجئة– والشيعة – الا مذهب مالك فانا ما سمعنا ان احداً ممن قلد مذهبه قال، بشيء من هذه البدع فالاستمساك به نجاة ان شاء الله [2] .

وفي هـذا العصر ايضاً اخـذت الطرق الصوفية تنتشر باشتهار رجالها المؤسسين في المشرق والمغرب، كالقادرية المنسوبة الى الشيخ عبد القادر الجيلاني المتوفي سنة ٥٦١ هـ – ١١٦٦م والشاذلية المنسوبة الى الشيخ ابي الحسن الشاذلي المتوفي سنة ٦٥٦ هـ ١٢٥٨م والنقشبندية المنسوبة الى الشيخ خواجة بهاء الدين نقشبند المتوفي سنة ٧٩١هـ – ١٣٨٩م والى هذه الطرق الثلاثة يرجع سند جل طرق المتصوفة المنتشرة اليوم بالمغرب الاسلامي وغيره ، وكان يومئذ حدوث وظيفة او قل منصب شيخ المشائخ بمصر ، احدثها السلطان صلاح الدين الايوبي غير ان الجزائر بقيت نازحة عن الفكرة الطرقية هذه ولم تتأثر بها بهذه الصفة التي هي عليها اليوم الا منذ العهد التركي العثماني فقط .

اجل انه لم تكن ارض الجزائر منعزلة تماماً او خلوا عن الفكرة الصوفية

---

(١) انظر الجزء الاول من الكتاب ص ١٧٨ و ٢٠١ والملل والنحل للشهرستاني ج ١ ص ١٨٠ ط مصر ١٣١٧هـ

(٢) مقدمة كتاب المدارك ص ١٩ ط باليرمو ١٩١٠م ونقل صاحب الكشكول عن الصفدي فقال : ... وغالب الشافعية اشاعرة ، والغالب في الحنفيـة معتزلة ، والغالب في المالكية قدرية والغالب في الحنابلة حشوية . الكشكول ص ١٨٣ ط القاهرة ١٣٠٥هـ

وطريق القوم ، الا ان علماء الشريعة بها كانوا بالمرصاد لاصحاب الشطحات والخرافات المبتدعة فلم يجرأ يومئذ احد على ادعاء الطريق ما لم يكن حقاً هو على قدم الجنيد واضرابه ، واليك صورة مصغرة عن موقف علماء الجزائر تجاه هذه الطبقة من الناس :

روى الغبريني في عنوانه عن عالم بجاية الشيخ ابي الحسن عبيد الله الازدي المتوفي بها سنة ٦٩١ هـ - ١٢٩٢ م قال انه كان متنزهاً عن مقالة المتلبسين وشموذة المشموذين غير مسامح في شيء مما يخالف ظاهر الشريعة ولا عامل على شطحات المتصوفة ، ولقد مضى بمسجده ابو الحسن الفقير [١] المعروف بالطيار مع صاحب له من الفقراء ، ودخلوا عليه في وقت يحيا فيه المسجد ، فجلسوا من غير تحية فأمرهم بالتحية فقال له الطيار « ولذكر الله اكبر » وامتنع من الركوع ووقع بينه وبينهم في هذا كلام ، ولما ظهر منهم التوقف مع هذا المقال وعدم النزوع عن هذه الحال وقع العمل على نفيهم الى المغرب واخراجهم من البلد ؛ وتابع الغبريني حديثه عن امثال هؤلاء المتصوفة فقال : « والنفي في حق هؤلاء وامثالهم قليل وانما الواجب ان يعاملوا بأسوإ التمثيل وهؤلاء جملة اغبياء لا علم ولا عمل ولا تصوف ولا فهم وهم مع ذلك يجهلون الناس ويعتقدون ان مبناهم على اساس [٢]

الثقافة والحضارة والعمران

لم تحد هذه الدولة في خطتها التمدنية عن ما قدمناه في تاريخ دولة الموحدين وكيف تحيد عنها وقد درجت من مهدها وتفرعت من ايكتها وتغذت بلبانها ؟ .. فان معالم حضارة الحفصيين لا تزال قائمة الى اليوم وآثارهم مشاهدة باقية بدار سلطانهم ومركز حكمهم - تونس - الى الآن ؛ فهذه قلاع ومناور وثكنات ، وهذه معاهد وقصور ومرستانات ، وتلك مساجد ومدارس ودور كتب واسواق وحمامات ، وهي كلها تمتاز بطابعها الحفصي وشكلها

(١) هو لقب عام لاتباع طرق المتصوفة عندنا بالجزائر .
(٢) عنوان الدراية ص ٦٣ .

الاندلسي الجميل المرتكز في تخطيطه على فن المعمار الصنهاجي وبنايات بني الاغلب .

ويرى ابن سعيد ان فن العمارة بتونس هو محض تقليد لمباني المغرب الاقصى القائمة يومئذ على سواعد مهندسين ومعماريين اندلسيين وهذا ما يقوله بلفظه : « ومن المعروف اليوم (٦٣٥ هـ – ١٢٣٧ م) ان هذا الازدهار وهذا الرخاء في مراكش انتقلا الى تونس فأقام سلطانها قصوراً وغرس حدائق وكروماً على الطريقة الاندلسية فاستعان في ذلك بمهندسي الاندلس وبنائيها ونجاريها ولبانيها ودهانيها وبستانييها.، فتم تشييد تلك المباني بحسب رسوم وضعها اناس من الاندلس أو صنعت تقليداً لمبان اندلسية » [١]

وهذا ما جزم به ابن خلدون وقرره في مقدمة تاريخه قائلاً : « وانتقلت حضارة بني امية بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة لهذا العهد ويعود الى الموضوع نفسه في مكان آخر من المقدمة مؤكداً لهذا الرأي فيقول : « واما المغرب فانتقل اليه منذ دولة الموحدين من الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لديهم من الاستيلاء على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من اهلها طوعاً وكرهاً ، وكانت من اتساع النطاق ما علمت ، فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكامها ومعظمها من أهل الاندلس ، ثم انتقل أهل شرق الاندلس ، عند جالية النصارى الى افريقية فابقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً ومعظمها بتونس امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من عوائدها فكان بذلك للمغرب وافريقية حظ صالح من الحضارة عفي عليه الخلاء ورجع على اعقابه وعاد البربر بالمغرب الى اديانهم من البداوة والخشونة ، وعلى كل حال فآثار الحضارة بافريقية – يعني بها تونس – اكثر منها بالمغرب وامصاره لما تداول فيها من الدول السالفة اكثر من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد اهل مصر بكثرة المترددين بينهم » [٢]

---

(١) الحضارة العربية ص ٦٤٨ .

(٢) المقدمة ص ٨٥ و ١٨١ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

والملحوظ على هذه الدولة انها قليلة الآثار بالجزائر وانها قصرت عنايتها العمرانية بعاصمة ملكها – تونس – دون بقية مملكتها المتسعة بالجزائر اللهم الا شيء تافه يسير كضيعة فرفار التي احدثها بالزاب الغربي السلطان ابوالعباس احمد الاول ٧٧٢ هـ – ١٣٧٠ م وتوسيع قصبة قسنطينة وجامعها الكبير سنة ٨١٦ هـ – ١٤١٣ م على عهد يحيى المنتخب ، وتأسيس مسجد واركلـه – وارجلان – (٦٣٦ هـ – ١٣٣٨ م) بالجنوب الجزائري المرسوم على مأذنته اسم الامير ابي زكرياء الاول فقط ، ولا اعلم لهذه الدولة من آثار لها بالجزائر باقية غير هذه ولعل عذرها في ذلك هو انصراف الحكومة يومئذ الى اخماد الفتن والثورات بالمغربين – الاوسط والادنى – واشتغال ولاة الامر بانقسام المملكة بين الجزائر وتونس واهتمامهم برد عادية المزاحمين لهم من بني مرين ومنافسيهم من بني زيان وشيوخ العرب ورؤساء القبائل البربرية الخ ... واياً ما كان فان فضل بني ابي حفص على فن المعمار لا ينكر .

اما عن الاقتصاد فان الجزائر كانت مزدهرة بما فيها من اسواق قائمة وتجارة رائجة في انواع الحبوب والتمور والماشية والصوف ، وخاصة بمدينة قسنطينة وبجاية وسطيف وميلة والقلعة وارض الزاب ، وسير القوافل كان يومئذ منتظماً ما بين الجزائر والسودان ، وكذلك المواصلات بحراً ما بين المملكة الحفصية والولايات الاطالية كقطلونية وصقلية وجنوة ؛ فانه كان لهذه الدول الغربية معاهدات وعلاقات تجارية مع الجزائر وتونس وكانت لها بهذه المدن المغربية مراكزهي بمثابة محطات ومستودعات لتبادل التجارة منبثة بكامل سواحل الشمال الافريقي كمركز بونة وبجاية والقالة فمن هذه كانت تستورد حاجياتها الضرورية من حبوب وزيت وسمك وصوف ومرجان وانواع البسط والجلد الخ . . وذلك ما كانت الجزائر ولا تزال تغله الى الآن ، وكان مبلغ دخل الارباح التجارية لمرسى الخرز فقط ما يقدر بعشرة آلاف دينار سنوياً ، وبها كانت تصنع السفن والمراكب الحربية التي يغزى بها الى بلاد الروم ؛ ومستخلصي بوغة من غير جباية بيت المال عشرون الف دينار

ستويا [1]. وان المملكة الحفصية كانت بدورها كذلك تستورد من الخارج انواع الزجاج والمصوغ وادوات الحديد الصناعية الخ.. فازدادبذلك ثراء الرعية، وبمثل هذا بلغت ثروة اسرة القائد قبيل عشرين قنطاراً ذهباً ناضاً ومثلها من قيمة الجواهر والعقار والاثاث !...

ويحدثنا ابن خلدون عن المنصور بن فضل المزني - عامل الزاب - كيف حمى نفسه وانقذها من القتل على يد اميري الدواودة : علي بن احمد وسليمان بن علي بن سباع حين قبضا عليه واعتزما قتله ، قال فافتدى منهما بخمسة قناطير من الذهب ، وكانت جباية الزاب لسنة ٧٥٨ هـ - ١٣٥٧ م على عهد يوسف بن المنصور هذا تبلغ القناطير من الذهب دفعه ببيت المال [2]

وفي الميدان العلمي نرى التعليم يومئذ منتشراً بواسطة الكتاتيب والمساجد التي هي معاهد الاسلام العلمية منذ وضع الرسول نفسه صلى الله عليه وسلم حجر مسجد الاسلام بالمدينة من اول يوم الى الآن ، ويكفينا ان نعلم ان ما ذكره ابن خلدون في مقدمته الحافلة من انواع جميع العلوم والمعارف والفنون والصناعات انما كانت كلها تدرس بالمساجد، ولقد تلقاها هو نفسه في المساجد، وكان رحمه الله يتطوع بنفسه لتثقيف طلبة العلم بالتدريس في مساجد الجزائر كما يؤخذ من سيرته في بجاية بمسجد القصبة على عهد ولايته الحجابة لامراء هذه الدولة ، تلك هي المساجد التي هدمها وخربها الاستعمار الفرنسي واخلى بقيتها من المدرسين !... وان حركة التأليف كانت مطردة بالجزائر كما تشهد بذلك كتب التراجم وفهارس العلماء ، فان مقدمة ابن خلدون وضعها مؤلفها بالجزائر بقلعة بني سلامة بالجنوب الغربي قرب مدينة « فرندة » من مقاطعة وهران سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) ، وان كلا من الامام عبد الرحمن الثعالبي ، واحمد المغراوي ، واحمد بن يونس القسنطيني ، وابي العباس احمد بن ادريس البجائي ، وحمزة بن محمد البجائي ، ومحمد بن احمد الوانوغي ، ومحمد بن عبد القوي

(١) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧م
(٢) ابن خلدون ج ٦ ص ٤٠٨ و ٤١١ ط بولاق ١٢٨٤هـ

البجائي ، وبنته رقية ، ومحمد التفاوسي ، ومنصور بن محمد المتناني، وناصر ابن احمد بن مزني، واسرة المشدالي في آخرين من العبقريين النبغاء الذين لا يقلون عن هؤلاء ثقافة وعلماً وادباً كلهم انجبتهم الجزائر الحفصية ، واذا كان ابو علي المسيلي المعروف بأبي حامد الصغير حين يشار اليه بالتفرد في العلم يقول : ادركت ببجاية ما ينيف على تسعين مفتياً ما منهم من يعرف الحسن بن علي المسيلي من يكون ، فما ظنك بالادباء والنحاة والمحدثين وغيرهم [1]

ويحدثنا الغبريني في عنوانه بشيء من التفصيل عن كتب الدراسة والفنون التي كانت تدرس عهدئذ بالجزائر، فهو يذكر لنا من دواوين امهات الفقه موطأ الامام مالك والتهذيب للبراذعي والجلاب والتلقين للقاضي عبد الوهاب البغدادي ، ومختصر بن ابي زيد ورسالته الشهيرة ، والمدونة وكتاب عبد الله بن عبد الحكم ، والتفريع لابن الجلاب ، والتبصرة للخمى ، وكتب ابن العربي والمازري والقاضي عياض . ومن كتب الفقه المالكي المتداولة يومئذ بالجزائر بل وبكامل المغرب العربي الاسلامي : كتاب ابي عمرو بن الحاجب المعروف بالمختصر الفرعي ، قال ابن خلدون: ولما جاء كتابه هذا الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبة المغرب وخصوصاً اهل بجاية لما كان كبير مشيختهم ابو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه الى المغرب فانه كان قد قرأه على اصحابه بمصر ونسخ مختصره ذلك فجاء به وانتشر بقطر بجاية في تلاميذه ، ومنهم انتقل الى سائر الامصار المغربية ، وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد شرحه جماعة من شيوخهم ... [2]

وكان في جملة من عني بشرح هذا الكتاب او التعليق عليه من علماء الجزائر: الشيخ عبد الرحمان الثعالبي وقد وقفت على نسختين مخطوطتين منه ، وعبد الرحمن ابن الامام التلمساني ومحمد بن عبد الله التلمسي ومحمد بن عبد الكريم

---

(١) عنوان الدراية ص ١٦ و ٣٢

(٢) المقدمة ص ٢٢٠ ط بولاق ١٢٧٤ هـ

المغيلي ، وكل من ابني مرزوق التلمسانيين : الجد والحفيد ، وابو العباس احمد ابن ادريس البجائي في آخرين ..... ولم يكن يومئذ بالجزائر او غيرها من بلاد المغرب من يعرف مختصر خليل حتى جاء به محمد بن الفتوح التلمساني سنة ٨٠٥هـ (١٤٠٢م) فاقبل عليه الناس وعنوا به وتناولوه بالشرح والتدريس مكتفين به عن بقية دواوين الفقه المالكي وامهاته .

وفي الاصلين كتاب الارشاد لامام الحرمين والمستصفى للغزالي ، والمعالم ، وكتاب الباقلاني وابن فورك ، والسنن للشافعي ، وكتاب الليث بن سعد البصري ، وجامع الخيرات لسفيان بن عيينة .

وفي التفسير كتاب الكشاف للزمخشري واحكام القرآن لابي الحسن علي ابن محمد الطبري ، والكشف والبيان عن تفسير القرآن لابي اسحاق احمد الثعلبي والتحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل لابي العباس المهدوي ، والوجيز في شرح كتاب الله العزيز لابن عطية المحاربي الغرناطي .

وفي الحديث كل الصحاح - ما عدا ابن ماجة فانه لم يذكره الغبريني في برنامجه - وكتاب التمهيد لابن عبد البر القرطبي ، والمنتقى للباجسي ، والمختار الجامع بين المنتقى والاستذكار للقاضي ابي عبدالله محمد بن عبد الحق التلمساني ومسند احمد بن حنبل

واما علوم اللغة والأدب فانها كانت تدرس بالجزائر في كتاب سيبويه والايضاح لابي علي الفارسي - والجمل للزجاجي - والعقد الفريد لابن عبد ربه - وزهر الآداب للحصري - والقانون لابي موسى الجزولي - والمفصل للزمخشري - وادب الكتاب لابي محمد بن قتيبة - واماي القالي - وديوان الحماسة لابي تمام وشعره وشعر المتنبي وأبي العلاء ومقامات الحريري - ومقصورة ابن دريد

واما التصوف فانه كان يدرس في كتاب قوت القلوب لابي طالب المكي - والرسالة المنسوبة للقشيري ، وكتب ابي الفرج بن الجوزي - ورسالة فضل مكة لأبي سعيد الحسن بن ابي الحسن البصري

واما عن صناعة الطب فانها كانت - كما يقول الغبريني - اشد الصنائع ضياعا في بلادنا ذلك لانه يتعرضها الغث والسمين ولا يقع بينهما التمييز الا عند القليل من الناس ؛ وهو يذكر لنا من كتب الطب المتداولة بينهم كتاب القانون لابن سينا وارجوزته المشهورة في الطب ، وكان ممن برع في هذه الصناعة واشتهر امره يومئذ بالجزائر الطبيب ابن اندراس فانه كان ماهراً في علمه باحثاً مجيدا تصدر لاقراء العربية والطب ببجاية وكانت دروسه ومجالسه العلمية حافلة بأذكياء الطلبة واعيان العلماء ويجري فيها من الابحاث الدقيقة ما يعز وجوده في بطون الكتب ، وكان ابن اندراس هذا على رأس الاطباء المختصين بقصر الامارة في بجاية وبها وضع ارجوزته في الادوية ، ثم استدعاه المستنصر الحفصي الى تونس فسلكه في طبقة اطبائه المختصين به (١) .

واما التاريخ فلقد روى الثقات ان عيسى بن مسعود المنكلاتي الزواوي (٦٦٤ - ٧٤٣ هـ (وضع تاريخا كبيراً يحتوي على نحو العشرين مجلداً ، قال ابن فرحون : بيض منه نصفه ذكر فيه من اول بدء الدنيا وقصص الانبياء واخبار الامم من آدم الى زمانه (٢) .

ولم يذكر لنا الغبريني عن كتب الفلسفة والمعقول شيئاً سوى علم المنطق فانه ذكر بأنه كان يدرس عندهم على طريقة الفارابي وابن سينا وغيرهما من الاقدمين وطريقة الفخر الرازي من المحدثين والمتوسطين ، وذكر من كتب المعقول المتداولة بينهم كتاب النجاة والاشارات والتنبيهات وكلها لابن سينا .والذي يبدو من كلام المقري في ازهار الرياض وابن خلدون في مقدمته انه لم يكن ببلاد المغرب يومئذ تحقق تام وتمكن من ناصية فنون الفلسفة والعلوم العقلية ؛ بحيث اننا لا نكاد نجد من آثارها ورسومها بالجزائر في هذا العصر الا قليلا عند امثال القاضي محمد بن ابراهيم الاصولي واضرابه ان اهلها مع قلتهم كانوا مضطهدين من قبل علماء النقل الجامدين المتزمتين (٣)

(١) عنوان الدراية ص ٤٥-٤٦

(٢) الديباج المذهب ص ١٨٣ ط القاهرة ١٣٢٩ هـ

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٤ وأزهار الرياض ج ٣ ص ٢٦

وقد تعدد في هذا العصر وضع الكتب في علم اسرار الحرف والطلسمات والاوفاق والسيمياء ... وكان فيمن اشتهر بالتخصص في هذا الفن من حكماء الجزائر الشيخ ابو العباس احمد بن علي البوني (٦٢٢ هـ - ١٢٢٥ م) فصنف كتاب شمس المعارف الكبرى طبع بمصر مراراً وكتاب الانماط الخ ...

ويحدثنا التاريخ عن فخامة مكتبة الدولة الحفصية بما لم يعهد مثله يومئذ عند اي حكومة من الدول المعاصرة بالمغرب - ولا سيما في اوروبا - فان عدد كتب المكتبة الدولية بلغ ست وثلاثين الف مجلد ، [١] بينما كانت مكتبة باريس في مفتتح القرن الرابع عشر الميلادي لا تزيد على بضع عشرات من الكتب ، ومثلها كذلك مكتبة «اوكسفورد» Oxford من بلاد الانكليز فانها عهدئذ عبارة عن صندوق واحد فيه بضع مجلدات مجعولة تحت رحمة رئيس رهبان كنيسة مريم .

ورغم كل ما ذكرنا من تقدم الحضارة وتوفر اسباب الثقافة والمدنية في هذا العصر فقد سجل التاريخ عجز دولة الحفصيين عن وقاية المغرب من سقوطه من قمة مجده الشامخ التي تبوأها ايام دولة الموحدين ، ولكل امة اجل .

انهيار الجزائر الحفصية

لم تزل الدولة الحفصية حاكمة على القطر الجزائري الى ان دهمها الشقاء ونخر عظمها الخلاف والافتراق ، وظهر في الولاة والرؤساء حب الترف والاسراف والانهماك في الشهوات والظلم [١] ، فذهبت هيبتهم من الصدور وخلت عن توقيرهم النفوس ، فاستطار بالدولة سماع سوء وخفت نشاطها السياسي ، وشعر الاجانب بضعفها فارتاح لها اهل الحروب الصليبية فهاجمها لويس التاسع ملك فرنسا ومات هنالك بتونس كما تقدم ؛ وهاجمها ايضاً

---

(٢) مما يذكره التاريخ بكل اسى ان هذه الكتب التي جمعها ابو زكرياء الاول تفرقت وبيعت بسوق الكتبيين بتونس أيام حركة اللحياني الى قابس اوائل سنة ٧١٧ هـ . ١٣١٧ م . ولقد كان من حسن الجد ان عوضها الامراء بعده بمكتبات شتى .

كارلوس صاحب صقلية ؛ وذهب التيه يومئذ بالاسبان الذين انتصروا يومئذ على المسلمين بالاندلس الى غزو القطر الجزائري فاحتلوا المرسى الكبير بوهران سنة ٩١٠ هـ (١٥٠٤ م) وزحفوا نحو تلمسان ومستغانم وتدلس - دلس - وبجاية واستولوا على قلعة مرسى « الجزائر » فهدموا منها منارها الذي انشأه المسلمون لمراقبة العدو وبنوا مكانه حصن « البنيون » وقد كان ذلك سنة ٩١٦ هـ (١٥١٠ م) بقيادة « الكونت دونافار » ؛ ويومئذ خرج والي الجزائر الحفصي المقم بقسنطينة متوارياً الى قلعة بني عباس فاستقر بها الى ان ظهر الاتراك العثمانيون بتونس فقاومهم السلطان الحفصي الحسن بن محمد مستعيناً عليهم بالاسبان ؛ فتحولوا عنه الى مدينة « جيجل » بالجزائر ففتحوها سنة ٩١٩ هـ (١٥١٣ م) . وكانت ولاية بونة لاحمد بن حسن الحفصي فنزل عنها للاسبان جزاء حمايتهم ودفاعهم عن تونس ضد الاتراك . وبقي هو مقيماً بها الى ان بويع له بالملك مكان ابيه سنة ٩٤٣ هـ (١٥٣٦ م) فانتقل يومئذ الى تونس ، وكان ذلك آخر العهد بالدولة الحفصية بالجزائر .

وتمكن البرتغاليون يومئذ من احتلال بعض المراكز الهامة من الشمال الافريقي فأقاموا فيه محارس وحصوناً ، واضحت الاراضي الداخلية نهباً متنازعاً بين بداة الاعراب والقبائل البربرية - او قل المغربية - المستقلة التي كانت تأبى الخضوع والطاعة لنظام الدول الوطنية الحاكمة ، فضلت متحاربة

قال ابن بطوطة في رحلته « ... ثم وصلنا الى مدينة بجاية وكان اميرها اذ ذاك ابا عبدالله محمد بن سيدي الناس الحاجب وقد توفي من تجار تونس الذين صحبتهم من مليانة محمد بن الحجر الذي تقدم ذكره وترك ثلاثة آلاف دينار من الذهب وأوصى بها لرجل من اهل الجزائر يعرف بأبي حديده ليوصلها الى ورثته بتونس ، فانتهى خبره لابن سيدي الناس المذكور فانتزعها من يده وهذا اول ما شاهدته من ظلم عمال الموحدين وولاتهم [1] .

---

(١) تحفة النظار ط باريس ١٨٥٣ م - ١٨٥٩ م .

متنافرة تفسح للاجنبي فرصة النصر والظفر ؛ ولم يكن كذلك حسن الوفاق قائماً بين حكام القطر الجزائري ولا سيما بين ولاة بجاية وقسنطينة ، فقد خضبت حروبهم المتوالية أرض الجزائر خلال القرن التاسع وطيلة السنين الاولى من القرن العاشر الهجريين (١٥ / ١٦ م) .

وكان ذلك كله سبباً مباشراً في تدهور الدولة الحفصية واضمحلال سلطانها وتضعضع كيانها ، فسقطت نهائياً بيد الاتراك الفاتحين يوم ٢٥ جمادى الاولى سنة ٩٨١ هـ (٢٤ سبتمبر ١٥٧٣ م) وامر آخر ملوكها محمد بن الحسن فنقل من تونس الى استانبول وبقي هنالك الى وفاته بها ، وبانتقاله انقرضت دولة الحفصيين من المغرب بعد ما حكمت ٣٥٤سنة، قضت منها بالجزائر ٣١٥ سنة.

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من اشهر ولاة الجزائر –فاتحة عهدالدولة الحفصية – الامير ابوزكرياء يحيى الاول ، حيث ولاه والده ابو محمد عبد الواحد بن ابي حفص ولاية بجاية وجعل وزارته ليحيى بن صالح بن ابراهيم ، ومشورته لابن ابي مهدي ، وجبايته لعبد الحق بن ياسين ، وعقد للعباس بن منديل على بلاده مغراوة بشلف وكانت حاضرتها مليانة ، ومنحه بها شبه استقلال وتصرف داخلي ، فاتخذ العباس ذلك ذريعة لاظهار ابهة الملك وشارة السلطان . وكان يومئذ عبد القوي بن العباس بن منكوس على ولاية توجين ، وقد تولى بجاية الامير ابو يحيى زكرياء بن أبي زكرياء يحيى الاول (٦٣٣ هـ – ١٢٣٥ م) وكان لهم النظر في اعمالها ايضاً مثل مدينة الجزائر وبونة وأرض الزاب .

ولما فتح السلطان ابو زكرياء الاول مقاطعة قسنطينة سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) اقطعها لبني النعمان – هم من قبيلة هنتاتة بالمغرب الاقصى – ولم يزالوا ولاة بها يستعملون عليها من قرابتهم من شاؤوا الى ان نكبوا على يد السلطان المستنصر سنة ٦٥١ هـ – ١٢٥٣ م فتولاها يومئذ ابن كلداسن – من مشيخة الموحدين – فأقام هو بتونس واناب عنه ابو بكر بن موسى بن عيسى الكومى المعروف بابن الوزير ، فمكث هذا بقسنطينة الى ان عين من طرف

المستنصر محافظاً بها .

ولما استبد ابو علي الملياني[1] بعاصمة مغراوة - مليانـــة - سنة ٦٥٩ هـ ١٢٦١ م جهز له السلطان المستنصر الاول اخاه الامير عمر فيمن معه فأخضعه وفي عودة الامير من غزاته هذه وافاه - وهو بطريقه الى تونس - عقد الولاية على بجاية جزاء بطولته وموقفه الحربي ضد الثائر الملياني المستبـــد بمغراوة ؛ فامتنع عمر من قبول هذه الولاية واستعفى اخاه السلطان منها فأعفاه وولى عليها يومئذ ابا هلال عياد بن سعيد الهنتاتي ، فمكث بها الى وفاتــه بقرية بني ورار سنة ٦٧٣ - ١٢٧٤ م ، فخلفه عليهـــا ولده محمد ، فخشي السلطان استبداده فأشرك معــه في العمل ابا العلاء ادريس بن عبدالملك الغافقي وجعله على اشغال بجاية ، وكان ذلك بسعي من اخيه كاتب الدولة ابن الجبير ؛ فوجد محمد بن هلال في ذلك مضايقة له ، فعمــل على التخلف من ابي العلاء بقتله في أول ذي القعــدة ٦٧٧ هـ مارس ١٢٧٩ م .

ويقول الغبريني انه لما انفصل جيش بجاية مع جيش افريقية لحصار مليانة وبقيت البلاد شاغرة عاث المفسدون في الخـــارج وافسدوه وامتدت الايدي ووقع هرج عظيم ، فقام بأمر الناس قاضي بجاية وامام جامعها الاعظم الشيخ ابو العباس احمد بن محمد بن الغمار الانصاري ووقف خير موقف وحفر الحفير على البـــلاد وشيد مـــا احتاج الى التشييد من الاسوار وظهر من عقله وفضله ونبله وجده واجتهاده ما حمد به امره وجل به قدره[2] فعد بذلك من زعماء الجزائر ورؤسائها العاملين ؛ اما قسنطينة فقد كان على رأس قيادة جيوشهـــا في التاريخ - ايام الواثق (٦٧٥-٧٨ هـ - ١٢٧٧-٧٩ م - عبـــد العزيز بن

---

(١) هو ابن أبي العباس احمد الملياني كان كبير وقته علماً وديناً ورواية وكان عالي السند في الحديث فارتحل اليه الأعلام وأخذ عنه الأئمة وأوفت به الشهرة على ثنايا السيادة فانتهت اليـــه رئاسة بلده - مليانة - على عهد يعقوب المنصور وبنيـــه (انظر ابن خلدون ج ٧ ط بولاق ١٢٨٤ م) .

(٢) عنوان الدراية ص ٧٠ .

عيسى بن داود الهنتاتي .

وفي سنة ٦٦٩ هـ - ١٢٧٠م ولى السلطان ابراهيم الاول ولده الاكبر ابا فارس عبد العزيز على بجاية، وجعل حجابته لمحمد بن ابي بكر بن خلدون جد المؤرخ الاقرب ، ولم تكن لتمر ثلاثة اشهر وثلاثة عشر يوماً على حجابة ابن خلدون هذا حتى قتل على يد ابن ابي عمارة الداعي . وفي سنة ٦٨١هـ ١٢٨٢ م قتل عامل قسنطينة ابو بكر بن الوزير اقتصاصاً منه بسبب خلع طاعته وثورته ضد الحفصيين ، وكان قتله على يد عبد العزيز الهنتاتي قائد الجيوش الاعلى بقسنطينة ؛ وجعل مكانه ابو محمد بن بوفيان الهرغي وهو الذي نصب ابا بكر بن ابي عبد الرحمن يعقوب السلمي الاندلسي على رأس الديوان بمدينة القل واستخلصه لنفسه .

وفي سنة ٦٨٤ هـ - ١٢٨٥ م عاد يحيىبن ابراهيم لامتلاك بجاية بمساعدة الدواودة ، فانتصر في حركته هذه واستقل بمملكة الجزائر وكان بذلك اول من قسم المملكة الحفصية الى شطرين : غربية وشرقية ؛ واتخذ لنفسه لقب « المنتخب لاحياء دين الله » وجعل حجابته لابي الحسن فارح بن سيد الناس الاشبيلي فلما توفي الحاجب المذكور ٦٩٠هـ - ١٢٩١ م خلفه ابو القاسم بن ابي جبي الاندلسي ؛ وفي سنة ٦٩٨ هـ ١٢٩٨ م عهد المنتخب لابنه خالد بولاية عهده وولاه على قسنطينة ؛ وكانت اقامة المنتخب تارة بقسنطينة وتارة ببجاية ، ولم يزل كذلك الى ان وافاه اجله ببجاية سنة ٧٠٠هـ - ١٣٠٠م . وبعد وفاته انتقل ولده خالد الى بجاية فاستوزر بها يحيى بن ابي الاعلام وجعل القيام بشؤون دولته لابي عبد الرحمن بن عمرو ، وولى قسنطينة علي ابن يوسف بن الامين الهمداني صهر الحاجب بن ابى جبى ؛ وقتل يوم ثورته على السلطان ابي البقاء بقسنطينة آخر سنة ٧٠٤ هـ- ١٣٠٥م وفي سنة ٧٠٥هـ ١٣٠٥م عزل الحاجب المذكور بتهمة موالاته لابي عصيدة خصم الامير خالد وتولى مكانه ابو عبدالرحمن يعقوب بن غمر السلمي ؛ ويومئذ غير ابنالامير

سياسته تعصباً لصهره وحول وجهته نحو ابي عصيدة فدعـا له ونادى باسمه ملكاً، فنهض الامير خالد الىقسنطينة فقتل عاملها المذكور واستعاد قسنطينة لطاعته ، وكان ابن اكمازير والياً على الجزاير فلما توفي (٧٠٦هـ - ١٣٠٧م) استبد بها ابن علمان الى سنة ٧١٣هـ -١٣١٣ م فخضع للسلطان ابي حمو الاول صاحب تلمسان .

ولما انتقل الامير ابو البقاء خالد بن يحيى الى تونس سنة ٧٠٩هـ- ١٣٠٩م عقد لعبدالرحمن بن المزوار يعقوب بن خلوف الصنهاجي على بجاية تحت رعاية واشراف الحاجب ابن غمر ، وبسعي من الحـاجب المذكور عقـد لاخيه ابي بكر بن يحيى على قسنطينة وكان قـد ولد ونشأ بهـا ؛ ولما صار الامر الى السلطان ابي بكر هذا الملقب (بالمتوكل على الله) وانتقل من قسنطينة الى تونس سنة ٧١٨هـ١٣١٨ م استقل الحاجب بن غمر بولاية قسنطينة وما والاها من التراب الجزائري ولم يكن لاسم السلطان معه ذكر الا في الخطبة والسكة فقط الى ان توفى بعد ذلك بسنة ، فولى السلطان يومئذ اعمال الجزائر لبنيه فجعل ولاية قسنطينة لابي عبدالله محمد المزداد والنـاشىء بها ؛ وبجاية لابي زكرياء يحيى؛ وبونة -عنابة - للفضل؛ وبعث معهم الحجاب والوزراء والقادة ؛ ثم تولى على اعمال قسنطينة الامير ابوالعباس احمد بن السلطان ابي يحيى ابي بكر ٧٣٥ هـ - ١٣٣٤ م وكان على حجابته ابو القاسم بن عبو من مشيخة الموحدين وفي سنة ٧٤٠ هـ - ١٣٣٩ م هلك محمد بن السلطان ابي يحيى ابي بكر عامل قسنطينة . فتولى مكانه ولده ابو زيد عبد الرحمن تحت كفالة مولاهم نبيل . ولما هلك ابو زكرياء والي بجاية نجل السلطان سنـــة ٧٤٦ هـ - ١٣٤٥ م قدم البجائيون مكانه ابنه محمداً ، وكان حاجبه فارح المملوجي بن سيد الناس، واستمر ابو زيد ومحمد على ولايتها هذه الى يوم استيلاء ابي الحسن المريني على المملكة الحفصية سنة ٧٤٨ هـ - ١٣٤٦ م فشرد امراء بني ابي حفص ، ونقل محمداً الى ندرومة وعبد الرحمن واخوته الى وجدة . وابقى صهره الفضل ببونة .

وفي سنـــة ٨٥٦ هـ - ١٣٥٥ م نهض ابو زيد عبد الرحمن بن محمد من عمله

بقسنطينة فدخل بونة مستنصراً عمه الفضل واجلب على تونس تاركاً ولايته لاخيه ابي العباس احمد . ثم بعد سنة وقعت ولاية قسنطينة بيد المرينيين فقبضوا عليه ونقلوه الى سبتة .

وفي سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م اقطع ابو العباس امير بجاية ولد اخيه ابا عبدالله محمداً اعمال بونة ، واشتهر من رؤساء الجند ببجاية يومئذ القائد البشير وفي رمضان سنة ٧٦٥ هـ - جوان ١٣٦٤ م احتل الامير ابو عبدالله محمد بجاية وافتكها بمعاضدة بني مرين من يدعمه ابي اسحق ابراهيم ؛ وكان ان استدعى لحجابته مفخرة المغرب الاسلامي عبد الرحمن بن خلدون الذي كان يومئذ بصحبة السلطان ابي فارس المريني بفاس . فبعث بأخيه يحيى بن خلدون كنائب عنه ومحافظ على الرسم الى ان عاد عبد الرحمن من الاندلس (جمادى الثانية ٧٦٦ هـ - فيبري ١٣٦٥ م) فاستقل بحمل اعباء الملك وتدبير السياسة ببجاية ، وهي رتبة قد شغلها قبله جده الادنى محمد بن خلدون على عهد ابي فارس بن أبي اسحاق . وباشر عبد الرحمن بنفسه التدريس والخطابة بجامع قصبتها نحو سنتين الى ان سعى به خصومه ومنافسوه الى السلطان ابي العباس احمد فخرج ابن خلدون من بجاية الى بسكرة بعد ما عاش في كنف الجزائر وتحت رعاية ملوكها الحفصيين نحو سنتين ، وقدّر ان وقعت بجاية بيد ابي العباس الحفصي صاحب قسنطينة وقتل ابن عمه الامير ابو عبد الله محمد ولما انتقل السلطان الى تونس ٧٧٢ هـ - ١٢٧٠ م اصطحب معه اخاه ابا زكرياء ونقله من ولاية بونة الى منصب الحجابة بتونس ، وجعل مكانه ولده محمداً ومن هنا بعث السلطان بولديه محمد وابراهيم الى الجزائر فجعل الاول على بجاية والثاني على قسنطينة ، وارسل معهما القادة والحجاب .

وفي سنة ٧٧٣ هـ - ١٣٧١ م عقد السلطان على قسنطينة للقائد بشير ، وبعد وفاته سنة ٧٧٩ هـ - ١٣٧٧ م جعل السلطان هذه الولاية لولده ابي اسحق ابراهيم مستقلاً بها ، وقد كان بها من قبل تحت وصاية القائد نبيل لصغره . ولما توفي الامير محمد صاحب بجاية سنة ٧٨٥ هـ - ١٣٨٣ م خلفه في منصبه ولده احمد

اما اخوه ابراهيم صاحب قسنطينة فانه توفي بعد اخيه بثماني سنوات فخلفه في ولايته كاتبه ابراهيم بن يوسف الغماري ٧٩٣ هـ - ١٣٩١ م

وبعد ان استولى السلطان عزوز الحفصي على قسنطينة واحتلها في رمضان ٧٩٨ هـ جوان ١٣٩٦ م قدم لقيادة الجند بها قائده نبلا ، وجعل على قصبتها الشيخ قاسم بن احمد بن تافراكين التينملي ، وولى اخاه زكرياء على بونة ثم نازل بعد ذلك نواحي لوراس فضل هنالك الطريق هو وجنده وكاد ان يهلك .

وفي سنة ٨١٠ هـ - ١٤٠٧ م انتصر المرينيون للامير محمد الحفصي المنهزم اليهم فأمدوه بالاسلحة والعتاد الحربي ، حتى اشتد ساعده وعظم بأسه فتقوى بذلك على فتح بجاية ، وعقد لابنه المنصور عليها ، فنهض السلطان عزوز لمقاومة الامير محمد الى ان ظفر به فقتله في المحرم ٨١٢ هـ - ماي ١٤٠٩ م واسر ولده المنصور وجعل ولاية بجاية لابي البقاء خالد ، ثم عزل ابو البقاء هذا بالمعتمد بن السلطان ابي فارس سنة ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م ثم عزل كذلك المعتمد سنة ٨٣٤ هـ - ١٤٣٠ م وتولى مكانه القائد ابو نعيم رضوان مملوك السلطان .

وفي هذه السنة قتل الدواودة قائد قسنطينة « جاء الخير » في معركة كانت بينهم فعقد السلطان ابو فارس لمملوكه محمود عليها ، فدخلها في ثاني عشر رجب - ثامن افريل - من سنته هذه ؛ وفي سنة ٨٣٧ هـ - ١٤٣٣ م ولى السلطان محمد المنتصر على قسنطينة أخاه اباعمر عثمان وجعل ولاية بجاية لعمه أبي الحسن علي بن عزوز ابي فارس . وفي سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م تنازع والي قسنطينة عثمان اخ المنتصر مع عمه علي بن عزوز صاحب بجاية على الملك فتحاربا وكان النصر بينهما سجالاً واخيراً تغلب عثمان على عمه ودخل بجاية في جمادى الثانية ٨٤٣ هـ - نوفمبر ١٤٣٩ م فولى عليها ابن عمه عبد المؤمن بن احمد فاغتيل هذا اوائل سنة ٨٤٦ هـ - ١٤٤٢ م وخلفه اخوه ابو محمد عبد الملك ؛ كما تولاها كذلك محمد بن فرج سنة خمسين . ثم في سنة ٨٥٦ هـ - ١٤٥٢ م اعتقل عبد الملك بن احمد بتونس وتولى مكانه احد موالي السلطان ، فأصبحت الجزائر يومئذ بيد الموالي ، وفي هذه السنة كانت ولاية بسكرة للقائد ابي زيد

عبد الرحمن الكلاعي .

واشتهر من رؤساء بسة في سنة ٧٥٣ هـ – ١٣٥٢ م محمد بن عبدون ، ومن رؤساء عرب رياح والدواودة المقيمين بضواحي قسنطينة وبجاية حوالي سنة ٧٨٨ هـ – ١٣٨٦ م يعقوب بن علي بن احمد المتوفي سنة ٧٩٠هـ – ١٣٨٨ م وتولى مكانه ابنه محمد ؛ وفي سنة ٨٥٩ هـ – ١٤٥٥ م عقد السلطان لولده عبد العزيز على بجاية واضاف اليه كذلك ولاية قسنطينة واعمـــال بسكرة وتقرت ، وفي سنة ٨٦٧ هـ – ١٤٦٢ م عقد السلطان لحفيده محمد المنصور بن محمد المسعود على ولاية قسنطينة وجعل بين يديه مزوارا القائد ابا علي منصور الصبان ، والقائد بشيرا على المدينة .

وكانت رآسة الزاب لبني رمان ثم لبني مزني ، واشتهر منهم سبعة :الفضل ابن علي وولده المنصور وابنه يوسف وعلي وحسن وأحمد فأهاج هذا التغيير بني رمان فعمدوا الى قتل الفضل بن مزني (٦٨٣ هـ – ١٢٨٤ م) والقوا بولده المنصور في السجن سبع سنين . ونصب أبو زكرياء نفسه على قسنطينة وبجاية ثم اعيدت امارة بسكرة لبني مزني ورآسة بني تليلان المعروفين باسم اولاد ثابت المقيمين بجبلهم المطل على القل شمال ميلة وقسنطينة للحسن بن ابراهيم بن ابي بكر بن ثابت ،وآخرهم علي ورئاسة قبائل سدويكش بالبسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية هي لاولاد سواق ثم كانت لبني سيلين ، وكان من اشهر الرؤساء في اولاد سواق علي بن علاوة بن سواق ، ثم ابناؤه :طلحة فيحيى فمنديل الذي عزله السلطان ابو بكر وادال من بني علاوة بني عمهم اولاد يوسف بن حمود بن سواق . وممن اشتهر من رؤساء احياء سدويكش القاطنين بجبل بابور وما اليه من نواحي بجاية : صخر بن موسى ، اختصه السلطان ابو يحيى بهذه الرآسة وكانت له مقامات في خدمته وعرف بعده بالوفاء لابنه الامير ابي حفص ، فلم يزل معه الى ان اوقـــع به بنو مرين بناحية قابس فقطعه السلطان ابو الحسن المريني من خلاف ثم هلك ، فخلفه حينئذ ابنـــه عبد الله وكان له شأن في خدمة صاحب بجاية الى ان هلك اعوام الثمانين

فخلفه ابنه محمد [1]

وكانت رآسة وادي ريغ وتقرت وأرجلان بالجنوب الجزائري، للدواودة من بني يوسف اشتهر منهم عبيد الله بن يوسف بن عبد الله ، ثم ابناؤه داود فيوسف فمسعود ، ثم الحسن بن مسعود ثم ابنه احمد الذي تولى رئاسة قومه على عهد ابن خلدون؛وحاضرتهم يومئذمدينةتقرتوهي كما يصفها ابن خلدون : مصر مستبحر العمران بدوي الاحوال كثير المياه والنخيل ، وكان يوسف بن حسن ايضاً من بيت مشيختها فامتنع يوماً من اداء جبايته للسلطان ابي عمر وعثمان سنة ٨٥٣ هـ - ١٤٤٩ م فاقتحم عليه السلطان المدينة واسره في بنيه واهله وذويه . ورئاسة تماسين ؛ من وادي ريغ كذلك كانت لبني ابراهيم الريغيين ، ورئاسة وارقلة لابي بكر بن موسى بن سليمان من بني ابي غبول فخذ من بني وكير احدى بطون بني واركلة وكل مصر من هذه الأمصار الصحراوية التي ذكرنا كان مستبداً بأمره حرباً على جاره ... اما رئاسة وهاصة ببسيطبونة فهي لعسكر بن بطان من بني عريف ، ورئاسته لواته بنواحي بجاية كانت لولد راجح بن صواب اللواتي ، ومشيخة قبيلة بني ايراتن الزواوية كانت لبني عبد الصمد ، وقد ترأست فيهم امرأة تدعى شمس ، كان لها عشرة بنين .

ويبدو ان آخر ولاة الحفصيين بالجزائر هو الامير احمد بن الحسن ، ولي اعمال بونة ايام والده السلطان الحسن بن محمد الى ان نبذ التونسيون عهد والده وبايعوا ولده المذكور مكانه سنة ٩٤٣ هـ - ١٥٣٦ م كما تقدم الالماع الى ذلك . وآخر ولاة قسنطينة هو ابو الحسن علي بن فراح المتولى عليها ايام محمد الحسن بن محمد الخامس اما عن رئاسة البحر وقيادة الاسطول الحفصي فإني لم اقف على تسمية رجال هذا السلك سوى اثنين فقط : زيدون بن فرحون قائد اسطول بجاية ومحمد بن أبي مهدي زعيم بجاية وقائد الاسطول بها مع انه كان لهذا الاسطول حركة مستمرة بهذا البحر .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩ - ١٥١

ملوك الدّولة الحفصيّة

	تاريخ التولية
ابو زكرياء يحيى (الاول)	٦٢٧ هـ – ١٢٢٩م
ابو عبدالله محمد (الاول) المنتصر	٦٤٧ هـ – ١٢٤٩م
ابو زكرياء يحيى (الثاني) الواثق	٦٧٥ هـ – ١٢٧٧م
ابو اسحاق ابراهيم (الاول)	٦٧٨ هـ – ١٢٧٩م
احمد بن مرزوق بن ابي عمارة (الدعى)	٦٨١ هـ – ١٢٧٣م
ابو حفص عمر (الاول) المستنصر	٦٨٣ هـ – ١٢٨٤م
ابو زكرياء يحيى المنتخب لاحياء دين الله	٦٨٣ هـ – ١٢٨٤م
ابو عبدالله (ابو عصيدة) محمد (الثاني) المنتصر	٦٩٤ هـ – ١٢٩٥م
ابو البقاء خالد الناصر (الاول) – ببجاية، ثم انفرد بالحكم	٦٩٩ هـ – ١٢٩٥م
ابو بكر (الاول) الشهيد – ببجاية ، ثم انفرد بالحكم	٧٠٩ هـ – ١٣٠٩م
ابو البقاء (الاول) الناصر	٧٠٩ هـ – ١٣٠٩م
ابو بكر (الثاني) المتوكل – بقسنطينة وبجاية –	٧١١ هـ – ١٣١١م
ابو يحيى زكرياء اللحياني	٧١٧ هـ – ١٣١٧م
ابو ضربة محمد (الثالث) المستنصر	٧١٧ هـ – ١٣١٧م
ابو يحيى ابو بكر (الثاني) المتوكل	٧١٨ هـ – ١٣١٨م
ابو حفص عمر (الثاني)	٧٤٧ هـ – ١٣٤٦م

	تاريخ التولية
ابو العباس احمد (الاول) الفضل – بقسنطينه وبجاية	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو زيد عبد الرحمن - بقسنطينة –	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو عبدالله محمد المنصور – ببجاية –	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨م
ابو العباس احمد (الاول) المتوكل – نهائياً –	٧٥٠ هـ – ١٣٤٩م
ابو اسحاق ابراهيم (الثاني) المستنصر	٧٥١ هـ – ١٣٥٠م
ابو عبدالله محمد المنصور – ببجاية –	٧٦١ هـ – ١٣٦٠م
ابو البقاء خالد (الثاني)	٧٧٠ هـ – ١٣٦٨م
ابو العباس احمد (الثاني) المستنصر	٧٧٢ هـ – ١٣٧٠م
ابو فارس عبدالعزيز ـ عزوز ـ (المتوكل)	٧٩٦ هـ – ١٣٩٣م
ابو عبدالله محمد (الرابع) المنتصر	٨٣٨ هـ – ١٤٣٤م
ابو عمرو عثمان	٨٣٩ هـ – ١٤٣٥م
ابو زكرياء يحيى (الثالث)	٨٩٣ هـ – ١٤٨٨م
ابو عبدالله محمد (الخامس) المتوكل	٨٩٩ هـ – ١٤٩٣م
ابو عبدالله محمد الحسن – بن محمد الخامس -	٩٣٢ هـ – ١٥٢٥م
ابو العباس احمد (الثالث) بن الحسن	٩٤٨ هـ – ١٥٤١م

من مشاهير الجزائر

يحيي بن عبد المعطي

٦٢٨ هـ - ١٢٣١ م

وهو ابو الحسين زين الدين ابو زكرياء يحيى بن عبد المعطي بن عبد النور الجزائري الزواوي ، منتمي اصله من قبيلة (آفراوسن) بزواوة ؛ ترجم له ابن خلكان ترجمة حافلة ، وقال انه : كان احد ائمة عصره ، مبرزاً في علوم العربية شاعراً محسنا كثير الحفظ ، وكان من جملة محفوظاته كتاب الصحاح للجوهري ، ولد ابن معطي بالجزائر سنة ٥٦٤ هـ - ١١٦٩ م واخذ العلم عن مشائخ بلده وتفقه بالمذهب المالكي على الشيخ ابي موسى الجزولى ، ثم انتقل الى المشرق فتشفع ثم تحنف ، فكان في ذلك مثل ابن مالك وابي حيان حين خرجا من المغرب ، ولم يأت اولئك ببدع ، فقد رأينا كثيراً ممن غير مذهبه من العلماء الاعلام وانتقل الى مذهب آخر ، كالشيخ محمد بن الدهان النحوي كما تقدمت الاشارة اليه ، والخطيب البغدادي الحافظ المشهور فانه كان حنبليا ثم تشفع ، وابن فارس صاحب المجمل في اللغة ، كان شافعيا ثم انتقل الى مذهب مالك ، وابن دقيق العيد كان مالكيا ثم تحول الى مذهب الشافعية ، في آخرين كثيرين ...

سكن الشيخ ابن معطي دمشق فسمع بها من ابن عساكر ، واقرأ بها

النحو فانتفع به خلق كثير ، وولاه الملك المعظم مصالح الجامع ، ثم ان الملك الكامل بمصر رغب اليه في الانتقال الى القاهرة فانتقل الشيخ الى بلاد الكنانة وتصدر هنالك لاملاء الادب العربي وتدريسه بجامعها العتيق فالتف يومئذ حوله الطلبة واحتفلوا لدروسه واقبل عليه الناس يعظمونه ويكبرون علمه وادبه فأخذوا عنه علما كثيراً وأدبا جما ، واجرى له الملك على ذلك جراية، فأكب المترجم على التدريس والتأليف فتخرج عنه عدد عظيم. وكان مما وضعه من التآليف الفيته في النحو المشهورة باسم الدرة الالفية في علم العربية وهي التي اشار اليها ابن مالك النحوي في دباجة خلاصته واثنى عليه فيها ؛ وهي منظومة من بحرين بعضها من السريع وبعضها من الرجز ، طالعها :

يقول راجي ربه الغفور   يحيى بن معطي بن عبد النور

وهي مطبوعة بمصر ، وللعلماء عليها شروح كثيرة اشهرها شرح الشريشي؛ وله كتاب الفصول ، وكتاب العقود والقوانين في النحو ، وحواش على اصول ابن السراج في النحو، وشرح على كتاب الجمل للزجاجي في النحو ،وشرح لابيات سيبويه نظما ، كما نظم الجمهرة لابن دريد في اللغة ونظم كتاباً في العروض ، وله قصيدة في القراآت السبع وديوان خطب ،وكتاب المثلث ، وعنى اخيراً بنظم كتاب الصحاح للجوهري فتوفى ولم يكمله ، ويروى له من الشعر قوله:

قالوا تلقب زين الدين فهو له   نعت جميل به قد زين الامنا
فقلت لا تعذلوه ان ذا لقب   وقف على كل نحس والدليل انا !...

ولم يزل الشيخ على حاله وخطته العلمية موفور الكرامة الى ان وافاه اجله فتوفى رحمه الله بالقاهرة سلخ ذي القعدة سنة ٦٢٨ هـ – ٢٩ سيبتمبر ١٢٣١م ودفن من الغد على شفير الخندق قرب تربة الامام الشافعي رضي الله عنه .

عبد الرحمن بن السطاح

٦٢٩هـ - ١٢٣١ م

هو ابو زيد وابو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن ابي بكر المعروف بابن السطاح اصله من مدينة الجزائر وسكن بجاية ثم انتقل في طلب العلم الى الاندلس فدخل اشبيلية واخذ بها عن ابي الحسن بن زرقون وابي بكر بن طلحة النحوي وابي عبد الرحمن بن علي بن طرفة ؛ ومنها انتقل الى مرسية فاتصل بها بابي القاسم الطرسوني فأخذ عنه مقامات الحريري وكتباً اخرى في الادب وعلم الاحكام . وهنالك اذن له المشايخ في التعليم فجلس بها للاقراء سنة ٦١٨هـ - ١٢٢١ م وكان يشتغل فيها بعقد الشروط وتحرير الصكوك وله في ذلك القدم الراسخة والباع الطويل فتقدم بذلك على ارباب هذا الشأن في الاندلس ، ثم عاد الى بجاية سنة ٦٢٣هـ - ١٢٢٦ م فانقطع بها لتدريس العلم محترفاً مهنة التوثيق ، فأخذ عنه جماعة منهم ابو عبدالله الصدفي ، وابو عبدالله ابن الطراز. ثم كانت وفاته رحمه الله سنة ٦٢٩هـ - ١٢٣١ م

احمد بن هلال العروضي

٦٤٠هـ - ١٢٤٢ م

الاديب الكبير واللغوي الحجة ابو العباس احمد بن هلال العروضي ، من اهل مدينة الجزائر ففيها نشأ وبها تعلم وقرأ ثم انتقل الى بجاية فاجتهد في تحصيل فنون الشعر والقوافي وتخصص في فن العروض حتى اشتهر به فدعي بالعروضي ، وارتحل الى الاندلس فسكن مرسية وعنه اخذ اهلها العروض ومكث بها الى وفاته رحمه الله سنة ٦٤٠هـ - ١٢٤٢ م

عبدالله بن السكات

٦٤١ هـ - ١٢٤٣ م

هو الامام القاضي ابو محمد عبدالله بن حجاج بن عبدالله بن يوسف المعروف بابن السكات من اشهر بيوتات مدينة الجزائر العريقة في المجد الحائزة على رئاسة العلم ايضاً بها ، كان والده من قضاة العدل بهذه المدينة .

ولد مترجمنا بالجزائر في شهر صفر سنة ٥٦٢ هـ - ديسنبر ١١٦٦ م وبها نشأ وتعلم وكان من اشهر مشائخه بها والده والشيخ ابو عبدالله بن الحسن الجزائري ؛ انتقل المترجم الى الاندلس فلقي بمالقة ابا الحجاج بن الشيخ فسمع منه كتاب الاحكام لعبد الحق الاشبيلي وغيره من مؤلفات الاندلسيين الفقهية والادبية . واخذ ايضاً عن الامام ابن العربي ، وله رواية عن ابي موسى الجزولي . ثم انتقل الى بجاية فتولى قضاءها بعد تأخير ابي عبدالله محمد بن ابراهيم الاصولي المتوفي سنة ٦١٢ هـ - ١٢١٦ م والمترجم له في الجزء الاول من كتابنا هـذا صفحة ٣٩٦ وطالت مدته في القضاء وعلى طول مدته في هذه الولاية فإنه لم يتناول من مرتبه شيئاً لطعامه وانما كان ينفقه في الصدقة وصلة اهل البر، وما كان يطعم الا من شيء كان يتناوله من عقار له ببلدة الجزائر ورثه عن ابيه ، وكان مشهوراً بالعلم والفضل والعفاف عادلاً في احكامه مشاوراً لاهل العلم فأخذ عنه اناس ؛ وتوفى رحمه الله يوم التاسع والعشرين من شهر جمادى الاولى سنة ٦٤١ هـ - ١٥ نوفمبر ١٢٤٣ م وترك خمسة اولاد كل منهم ساد وحاز المراتب العليا وافاد .

محمد بن منداس

٦٤٣ هـ - ١٢٤٥ م

هو ابو عبدالله محمد بن قاسم بن منداس ، اصله من بلدة آشير ، وولد بمدينة

الجزائر فاتح جمادى الاولى سنة ٥٥٧ هـ – ١٨ افريل ١١٦٢ م وفيها نشأ وترعرع وتأدب ؛ اخذ عن الشيخ ابي محمد بن عبدالله وعلي بن عتيق ، وعن نخبة من ذوي الفضل ، ولما ورد الشيخ ابو موسى الجزولي على مدينة الجزائر سنة ٥٨٠ هـ – ١٢٨٤ م لازمه الشيخ ابن منداس واخذ عنه علوم اللغة والأدب . كما انه لقي في رحلته الى قابس الشيخ ابا القاسم بن مجكان آخر من روى عن ابي عبدالله المازري ؛ ثم عاد ابن منداس الى بلده الجزائر مجتهداً في نشر فنون من العلم وخاصة علوم الحديث فكان ممن أخذ عنه ابو عبد الله ابن الابار ، وكانت وفاته رحمه الله فاتح شهر المحرم ٦٤٣ هـ – ٢٩ ماي ١٢٤٥ م .

محمد بن الحسن القلعي

٦٧٣ هـ – ١٢٧٤ م

هو عميد اهل الأدب وزعيمهم بالجزائر وفحل من فحول الشعراء وامراء البيان وجهابذة العلماء المحققين الراسخين في العلم : العلامة الشيخ ابو عبد الله محمد بن الحسن بن ميمون التميمي القلعي . نسبة الى قلعة بني حماد [1] التي كان جده ميمون قاضياً بها .

نشأ المترجم بمدينة الجزائر فقرأ على جلة علمائها كالشيخ ابي عبدالله بن منداس الآنف الذكر وغيره ومنها انتقل الى بجاية فاجتهد في تحصيل العلم والأدب بها واستوطن هنالك فتخرج على يد اساتذتها الكبار منهم الشيخ ابو الحسن الحرالي ، والفقيه ابو الحسن بن ابي نصر ، والفقيه ابو بكر بن محرز ، والفقيه ابو المطرف بن عميرة وابو زيد بن السطاح في آخرين من نخبة الادباء والعلماء .

---

(١) راجع الجزء الاول.

برع الشيخ في فنون كثيرة من العلم وخاصة الأدب فانه كان آية في تحريره غزير المادة فيه، تقرأ عليه جميع امهات كتب الأدب والشعر فيقوم على جميعها احسن قيام ، وكان يحضر مجالسه الكثير من فضلاء الطلبة ونبهائهم ، وكثيراً ما كانت تعرض عليه المسائل العويصة والمشا كل المختلفة في التفسير والحديث وغريب الشعر وغيره فيتصدى لشرحهـا وتحليلهـا بكيفية عجيبة مما لا يكاد يوجد عند غيره من العلماء بـل ولا في نوادر الكتب ايضاً ؛ ومن تلامذتـه المشهورين ابو العباس احمد الغبريني مؤلف « عنوان الدراية » فقـد لازمه أكثر من عشر سنين واستفاد منه علماً كثيراً وادباً جماً وسطر اعترافه بفضل شيخه هذا في عنوانه فقال : وهو افضل من لقيت في علم العربية لزمت عليه القراءة ما ينيف على عشرة اعوام واستمتعت به كثيراً واستفدت منه كبيراً، قرأت عليه الايضاح من فاتحته الى خاتمته، وقرأت عليه جملة من الامالي وزهر الاداب ومن المقامات وقصائـد متخيرات من شعر حبيب ومن شعر المتنبي وحضرت قراءة المفصل ؛ وكان رحمه الله محباً في التعليل ؛ وله من التآليف كتاب سماه بالموضح في علم النحو ، وحدق العيون في تنقيح القانون ـ لعله قانون ابى موسى الجزولي ؟ ـ ونشر الخفي في مشكلات ابي علي ؛ هو على الايضاح . وكان يؤثره على غيره من الكتب .

وكان قدس الله روحه سخي الدمع سريع العبرة . فيه فضـل وسخاء ومروءة وانتخاء ، وكانت يده ويد الطلبة في كتبه سواء لا مزية له عليهم ، بارع الخط جيد الشعر مكثراً منه يسلك فيه طريق ابي تمام حبيب بن اوس وكان صديقه الاديب ابو عبدالله محمد بن احمـد الاريسي المعروف بالجزائري شيخ كتبة الديوان ببجاية يسلك في شعره سلوك المتنبي ، وكانا يتراسلان بجيد المنثور وبديع المنظوم . فمـن شعر المترجم القلعي قوله في طالع قصيدة في مدح الحضرة النبوية :

أمن أجل ان بانوا فؤادك مغرم   وقلبك خفـاق ودمعك يسجم
وما ذاك الا ان جسمك منجد   وقلبك مع من سار في الركب متهم

ومن قائل في نظمه متعجباً وجسم بلا قلب فكيف رأيتم؟!.
ولا عجب ان فارق الجسم قلبه فحيث ثوى المحبوب يثوي المتيم
وماضرهم لو ودعوا يوم او دعوا فؤادي بتذكار الصبابة يضرم
عسام كما ابدوا صدوداً وجفوة يعودون للوصل الذي كنت اعلم
واني لادعو الله دعوة مذنب عسى انظر البيت العتيق وألثم
فيا طول شوقي للنبي وصحبه ويا شد ما يلقى الفؤاد ويكتم

وهي تحتوي على ثمانية عشر بيتاً . وله موشحات حسنة ؛ ولقد شرع بنفسه في جمع شعره وتدوينه عام ثلاثين وستمائة هجرية وعاش بعد ذلك ثلاثاً واربعين سنة فلو تم له تدوين شعره كله لكان في مجلدات كثيرة ؛ ويقول الغبريني انه كان منه بأيدي الناس كثير [١] وتوفي رحمه الله ببجاية سنة ٦٧٣ هـ - ١٢٧٤ م .

ومن شعر صديقه الاريسي الجزائري المذكور قوله في طالع مقطوعة يتحنن فيها الى ارض الحجاز :

ادرها فقد هبت نسيمة دارين ونم بسر الروض نشر الرياحين
وقام خطيب الورق يدعوهزيله وغنى فأغنى عن ضروب التلاحين
وذكر ايام الصبابة والصبا ولذة عيش كان لي غير ممنون
فثار كمين الوجد من مستقره وبحت بسر بين جنبي مخزون

وكلاهما شاعر فحل مكثر ولهما في مختلف اغراض الشعر وفنونه كل ماهو حسن جيد ، وكلاهما يعد من كبار ادباء الجزائر في اواسط القرن السابع الهجري رحمهما الله .

---

(١) عنوان الدراية ص ٣٩ - ٤٣ .

ابو زيان ناصر بن مزني

٨٢٣ ﻫ = ١٤٢٠ م

العالم المقرىء والمؤرخ الفقيه الشيخ ناصر بن احمد بن يوسف بن منصور ابن فضل بن علي بن احمد بن حسين بن عبدالمعطي بن الحسين بن مزني الفزاري البسكري ، يكنى بابي زيان وابي علي ولد ببسكرة في المحرم سنة ٧٨١ ﻫ — افريل ١٣٧٩م من اسرة كريمة هي منتهى رآسة الزاب ومعقد آماله ، اذ كانت امارة بسكرة وارض الحضنة بيدها منذ تولاها جده الفضل بن علي[١].

اشتغل المترجم بالعلم اولا في بلده فأخذ القراءات عن ابي الحسن علي بن عبد الرحمن التوزري ، وكان يعظمه جداً ؛ واخذ الفقه عن الامام بن عرفة وابي فارس عبد العزيز بن يحيى الغساني البرجي، ومحمد بن علي ابراهيم الخطيب، وعيسى بن احمد الغبريني وسمع عليه الصحيح .

انتقل ابن مزني هذا الى مصر سنة ٨٠٣ ﻫ — ١٤٠٠م فحج في هذه السنة ونكب في كثير من ماله وكتبه في جملة ما اصاب ركب المغاربة من النهب يومئذ ؛ واتفق ان نكبت اسرته في هذه السنة ايضاً ببسكرة فعزل والده عن الامارة ونزل السلطان الحفصي ببسكرة فحطم بيت ابن مزني، فاستقر لذلك المترجم بالقاهرة وكان بها يومئذ صديق آبائه العلامة الامام عبد الرحمن بن خلدون فعطف عليه وسعى له لدى من بيده الامر حتى نزل بالشيخونية ، وبها سمع صحيح البخاري على التقي الدجوي ، ولازم الشيخ ابن حجر مدة طويلة فاستفاد كل منهما من علم صاحبه ؛ ولابن مزني هذا عناية خاصة واهتمام كبير بالتاريخ واخبار الرواة . جماعة لذلك ضابطا له مكثرا منه وقد شرع في جمع تاريخ كبير للرواة لم يجمع احد مثله . ولم يقدر له تبييضه حيث اصيب في بصره سنة ٨٢٢ ﻫ ١٤١٩ م وانتقل من الشيخونية الى البرقوقية وطالت علته وعاجلته المنية فتوفي رحمه الله يوم ٢٠ شعبان ٨٢٣ﻫ — ٣٠اوت ١٤٢٠م ولم يكمله ، يقول ابن حجر انه لو اتم كتابه المذكور في التاريخ

(١) راجع صفحة ٢١ من هذا الجزء .

لـكان مائة مجلد! فانه جمع منه في مسوداته ما لا يعد ولا يدخل تحت الحد ؛ ومات فتفرقت مسودته شذر مذر ، ولعل اكثرها عمل بطائن مجلدات !.. وذكره المقريزي في عقوده فقال ان صاحب الترجمة كان يتردد اليه ، وقـال رحمه الله ما ذا فقدنا من فوائده عوضه الله الجنة .

احمد بن ابي القاسم الخلوف

٨٩٩ هـ - ١٤٩٤ م

هو شهاب الدين ابو العباس احمـد بن ابي القاسم محمد بن عبد الرحمن بن الخلوف الحميري ، انتقلت اسرته من مدينة فاس الى الجزائر فسكنت مدينة قسنطينة ، وبها كان مولد مترجمنا في ثالث المحرم سنة ٨٢٩ هـ (منتصف نوفمبر ١٤٢٥ م) وذهب به والده صبيا الى مكة فجاور هنالــك اربـع سنين ثم انتقل به الى بيت المقدس وبه حفظ ولده القرآن الكريم وكتبا جمة في فنون مختلفة وبما ان الوالد كان متضلعاً من فنون الادب والفقه فأخذ ولده بدراسة ما عنده من العلم ، ثم تركه يمترج بمشيخة المشرق . فاتصـل المترجم يومئذ بأبي القاسم النويري ولازمه فأخذ عنه الفقه وعلوم اللغة والاصول وغيرهـا وانتفع به ، كما انه اخذ روايته في القراءات وعلوم القرآن عن الشهاب بن رسلان والعز القدسي وماهر وغيرهم ؛ ثم انتقل الى القاهرة ؛ والظاهر ان ذلك كان بعد وفاة والده بالقدس الشريف ٨٥٩ هـ - ١٤٥٥ م وهناك اجتمع بالعز عبد السلام البغدادي فاخذ عنه النحو والصرف والمنطـق ؛ وكان ممن اخذ عنه العربية ببلاد المغرب احمد السلاوي ويقول عنه : انــه احفظ من لقيه بها .

واستقر مترجمنا بالمغرب مشتهراً بين اعيان علمائه بالادب والعلم الغزير متعاطياً لنظم الشعر الرقيق الفحل ، فاستكتبه المولى المسعود بن عثمان حفيد ابي فارس الحفصي ، وقدم الى القاهرة غير ما مرة ومنها رحلته اليها بمناسبة

حجه سنة ٨٧٧ هـ – ١٤٧٢ م فاجتمع فيهـــا بالأمام السخاوي وجرت بينهما محاورات ادبية ذكرها السخاوي في تاريخه « الضوء اللامع » وقال في وصفه : ولقيته مودعاً له وهو حسن الشكالة والأبهة ظاهر النعمة ، طلق العبارة بليغاً بارعاً في الادب ومتعلقاته ويذكر بظرف وميل الى البزة وما يلائمها ، كتب عنه غير واحد بالقاهرة والاسكندرية ومما كتب عنه من نظمه ما ضمن فيه قول ابن الاحمر صاحب الاندلس :

افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي ... على اي حال كان لا بد لي منك
فأمـــا بذل وهو اليق بالهوى ... وامـــا بعز وهـو اليق بالملك

فقال :

اماط الهوى عن واضحي برقع النسك ... فوجدت من اهواه عن هـوة الشرك
فقلت وقـــد افتت لحاظك بالفتك ... افاتكة اللحظ التي سلبت نسكي
على اي حال كان لا بد لي منك

يميناً بنجم القرط منك اذا هوى ... وخال على عرش بوجنتك استوى
لئن لم تفي لا بد للقلب ما نوى ... فامـــا بذل وهو اليق بالهـوى
وامـــا بعز وهو اليق بالملك

ولاشتهار مترجمنـــا بجودة الشعر والكتابة عرف بين أدباء عصره بذي الصناعتين ، فهو حقاً من امراء الشعر المتفننين وفحول الادب العربي البارعين طويل النفس ضليع في فن القريض ، له ديوان شعر خاص بمدح الحضرة النبوية على صاحبها افضل الصلاة والسلام توجه بمقدمة حافلة تدل على رسوخ قدمه وتمكنه من ناصية اختصاصه وتعلقه الشديد بالجناب النبوي الشريف ؛ ولقد والله ابدع في منظومه ومنثوره ايما ابداع وجاء بما لم يوفق اليه غيره من ائمة هـذا الشأن كالبوصيري واضرابه من شعراء المديح ، فان قصائده كلها عيون وكلها تتدفق سلاسة وطبعا ، وان اقصر قصيدة فيه لا تقل عن مئات الابيات .

والشعر في هذا الغرض كما لا يخفى هو من أصعب الاغراض على الشعراء ، وذلك لعلو مقامه الشريف ﷺ وتسامي منزلته التي لا تدانى ولا ترام وكل مدح او اطراء في جنابه عليه الصلاة والسلام يعد تقصيراً ، ولذلك تجنبه فحول الشعراء المتقدمين كأبي تمـــام والبحتري والمتنبي وغيرهم من صاغة القريض ورواض القوافي ولله در ابن الفارض حيث يقول :

وعلى تفنن واصفيـــه بمدحــه   يفنى الزمان وفيه ما لم يوصف

وديوانه هذا بحمد الله هو مما ازدادت به مكتبتنا المتواضعة ، وهو بخط جميل في ست واربعين ومائتي صفحة من القطع الكبير ؛ وذكر لي ان له ديواناً مطبوعاً ببيروت سنة ١٨٧٣ م ولا ادري اهو نفس المخطوط الذي ذكرناه ام غيره حيث لم اقف عليه . واكثر اشعاره رحمه الله في مدح السلطان ابي عمرو عثمان بن ابي عبدالله الحفصي فله فيه القصائد الرنانة الشائقة .

اما تآليفه من غير الديوان المذكور فله في العروض : تحرير الميزان لتصحيح الاوزان ، وبديعية ميمية سماها مواهب البديع في علم البديع ؛ وله عليها شرح حسن ، ورجز في تصريف الاسماء والافعـــال سماه جامع الاقوال في صيغ الافعال ، وله في علم الفرائض كتاب عمدة الفائض ؛ كما يوجد له بمكتبة باريس وبرلين ولندن وبطرسبورج ديوان مخطوط مرتب على حروف الهجاء . وله موشح مستقل في مكتبة برلين ؛ وكانت وفاته رحمه الله بتونس سنـــة ٨٩٩ هـ ١٤٩٤ م ودفن هناك بتربة سيدي محرز بن خلف رضي الله عنه .

جدول تاريخي

٦٢٧ - ٩٤٣ هـ (١٢٢٩ - ١٥٣٦ م)

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٦٢٧ هـ - ١٢٢٩م	تأسيس الدولة الحفصية
٦٢٨ هـ - ١٢٣٠م	اذعان مقاطعتي قسنطينة وبجـاية للدولة الحفصية
٦٣٦ هـ - ١٢٣٨م	نجاح الحفصيين في فتح اعمال الجزائر الغربية
٦٤٠ هـ - ١٢٤٢م	الاستيلاء الحفصي على تلمسان
٦٤٣ هـ - ١٢٤٥م	المبايعة بالخلافة
٦٤٧ هـ - ١٢٤٩م	وفاة السلطان ابي زكرياء الاول ببونة ودفنه بجانب الشيخ ابي مروان ثم نقله الى قسنطينة حيث مدفنـه الآن
٦٦١ هـ - ١٢٦٢م	حوادث ابي القاسم بن ابي زيد الحفصي بالجزائر
٦٦٤ هـ - ١٢٦٥م	حركة السلطان المستنصر الاول الى قمع المنشقين بالجزائر
٦٦٨ هـ - ١٢٦٩م	تمكن يغمراسن بن زيان من استرجاع مملكته الغربية
٦٦٩ هـ - ١٢٧٠م	مشاركة الجزائريين في دفع عادية الصليبيين عن المغرب وانتقاض اهل مدينة الجزائر وفتحها .
٦٧٧ هـ - ١٢٧٩م	ولاية ابي اسحاق الاول على بجايـة ثم على عرش الملك بمبايعة الجزائريين
٦٩٢ هـ - ١٢٩٣م	ولادة السلطان ابي بكر الثاني بقسنطينة
٦٧٨ هـ - ١٢٧٩م	ولاية بني مزني امارة الزاب الجزائري
٦٨١ هـ - ١٢٨٣م	ظهور الزعيم ابن ابي عمارة الجزائري وقتله
٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م	انفصال القطر الجزائري واستقلاله عن السلطة المركزية

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٦٨٦ هـ – ١٢٨٧م	اعتداء الافرنج على الساحل الجزائري
٦٩٩ هـ – ١٢٩٩م	ابتداء النزاع بين الحفصيين وبني مرين على الجزائر
٧٠٣ هـ – ١٣٠٣م	نشوب الخلاف بين طائفة «السنية» وأمير الزاب: ابن مزني
٧١٧ هـ – ١٣١٧م	ابطال وضع التاج عند ملوك هذه الدولة
٧٢٩ هـ – ١٣٢٨م	ولادة السلطان ابي العباس احمد الثاني بقسنطينـة
٧٣٧ هـ – ١٣٣٧م	احتلال السلطان ابي الحسن المريني لتلمسان
٧٦١ هـ – ١٣٦٠م	استعادة الحكومة المركزية لمملكة الجزائر
٧٨٦ هـ – ١٣٤٨م	عصيان ابن مزني –امير الزاب– وحركة السلطان اليه
٧٩٦ هـ – ١٣٩٤م	تنازع امراء بني ابي حفص على ولاية قسنطينة وبجاية
٨٠٤ هـ – ١٤٠٢م	القضاء على امارة بني مزني ببسكرة
٩١٠ هـ – ١٥٠٤م	ظهور القرصنة الاسبانية بالسواحل الجزائرية
٩١٦ هـ – ١٥١٠م	اقامة الاسبان لحصن « البنيون » بثغر مدينة الجزائر
٩١٩ هـ – ١٥١٣م	ظهور الاتراك العثمانيين بالميدان
٩٤٣ هـ – ١٥٣٦م	سقوط الجزائر الحفصية

الدولة المرينية

٦٦٨ - ٧٩٦ هـ
١٢٦٩ - ١٣٩٣ م

بنو مرين

المرينيون هم فخذ من بطون القبيلة البربرية العظيمة زناتة ؛ كانت مساكنهم ومواطنهم وراء تلمسان غرباً على ملوية وجنوباً الى نواحي سجلماسة - تافيلالت - وبصحراء فيقيق الى ارجاء الاغواط وربما يخطون في ضعنهم الى بلاد الزاب؛ وهم قوم مرهوب جانبهم ، شديد بأسهم ، كثير جمعهم ، يضاهون في مجتمعهم امة العرب والفرس واليونان ، وان الذين تولوا الملك منهم فرعان ينتسبان الى جرثومة واحدة هم بنو وزرير قبيل بني عبد الحق ، وبنو وطاس . ولقد ابلى قبيل بني مرين هذا في نصرة الموحدين على خصومهم بني صنهاجة وغيرهم . ثم كانت بينها ضغائن وحزازات منشأها التزاحم على الملك والتنافس على الرئاسة ولم يزل هؤلاء المرينيون يثيرون على حين ضعف دولة الموحدين فتناً وغارات بأرجاء المغرب الاقصى حتى اقتحموا تلة سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣م) واستمروا في سيرهم الى الامام منتصرين الى ان فتح اميرهم ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق مدينة مراكش يوم عاشوراء سنة ٦٦٨ هـ (٩ سبتمبر ١٢٦٩ م) فقضى بذلك على عرش الموحدين .

نظامها الحكومي

الدولة المرينية مغربية في كل شيء وهي لذلك لم تكن لتختلف اوتتخلف في خطتها السياسية بل وفي جميع نظمها الادارية والقضائية والمالية والحربية عن من تقدمها من دول الاسلام بالمغرب الا قليلا [1] فالعاصمة فاس والسلطان هو دائماً مصدر السلطة العليا ، ويلقب بأمير المسلمين تأدباً وتمييزاً له عن لقب الخليفة بالمشرق ، ولم يزل لقب « السلطان » فاشياً في ملوك المغرب الاقصى منذ تلقب به المرينيون الى اليوم ؛ وفيهم من تلقب بأمير المؤمنين واولهم ابو عنان ، والحاجب عندهم يدعونه بـ « المزوار » وهو المقدم على الجنادرة العاملين في المحافظة على الامن العام ، وله ايضاً الاختصاص بالوقوف لدى باب السلطان وحمل الناس على التزام مراتبهم ، ولاعمال الجبايات ديوان تحت ادارة متصرف من بني مرين اليه يرجع تصحيح الحسابات والمحاسبة على جميع دخل الحكومة وخرجها وهو المسؤول عن ذلك كله ، وحتى في الخراج والعطاء ، وليس هناك من يتعقبه او يراجعه في عمله الا السلطان نفسه او الوزير الذي يعتبر الرئيس الحربي الاعلى ؛ وللدولة عملة مضروبة باسم ملوكها . وخطة الكتابة منقسمة عندهم الى قسمين : قسم خاص باسرار الدولة وتسييرسياستها الداخلية والخارجية وقسم للمسائل العمومية والمكاتبات والمناشير ، وكثيراً ما تولى هذه الخطة ادباء من الاندلس بخلاف القضاء فانه دائماً مقصور على المغاربة وذلك ما يدلنا على شدة عناية اهل البلاد وتعلقهم بالفقه دون الادب وقد تكون هناك نظرة خاصة بنظام الحكم ؟.

اما نظام الحرب والجيش فإنه كان حسب ما يبدو من تواريخ المغرب والاندلس في ذلك العصر ان لكل ثمانية من الجند ناظراً يعقد له عقدة ولكل خمسة نظار عريف يعقد له بند ، وعلى كل خمسة عرفاء نقيب يعقد له لواء ، وعلى كل خمسة نقباء قائد يعقد له علم ، وعلى كل خمسة من القواد امير يعقد له راية وفي العسكر المريني كثير من مرتزقة الافرنج والعبيد ، كما انه كان لهذه

---

(١) راجع الجزء الاول من كتابنا هذا .

الدولة اسطول ضخم عظمت شوكته بهذا البحر ، لا سيما على عهد السلطان ابي الحسن المريني فانه خرج من تونس الى المغرب في ستمائة سفينة ، وذلك ما جعل المؤرخ الفرنسي « اندري جوليان » يصف هذا الملك بانه كان من اقوى الملوك واعظم السلاطين على الاطلاق في القرن الرابع عشر .

وذكر ابن خلدون ابا الحسن فقال « فان اساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم » وذكر مدينة وهران وعاملها عبوس بن سعيد فقال « . . . وقد ضبطها وثقفها وملأها قوات ورجالاً وسلاحاً وملأ مرساها اساطيل » (١) وقد سجل الشعراء انتصارات المرينيين في البحر كما انتصروا في البر فقال ابو القاسم الروحي يمدح ابا الحسن يوم ان انضم المغرب العربي تحت رايته وتوحدت سياسة اقطاره الثلاثة (٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م) من قصيدة طويلة :

تملكت شطر الارض كسبا وشطرها ... وارثاً فطاب الكل ارثاً ومكسب
بجيش على الالواح والماء يمتطي ... وجيش على الضمر السوابق يركب
وجيش من الاحسان والعدل والتقى ... وذاك لعمر الله أغلى وأغلب
فلا مركب الا يزين راكباً ... ولا راكب الا به ازدان مركب

وللجند شعار يحملونه في المعترك والحرب وهو راية صغيرة من كتان ابيض ، وفي ذهابهم الى القتال يتقدمهم غالباً منشد يتغنى بتلحين خاص وانغام موسيقية منسجمة تدعى عندهم بـ « تاصوكايت » وهي خاصة بوقت البروز للقتال والسير الى الحرب ، وبين يديه طبل يضرب عليه منشداً اشعار الفخر والحماسة ؛ وهو تقريباً صنيع ما تفعله جنود الدول المعاصرة اليوم في خروجها للوغى ؛ وليس هناك ما تمتاز به هذه الدولة في صفة قتالها ومجالدتها العدو في الحرب عن دول المغرب يومئذ سوى انها سبقتها الى استعمال البارود وهندام النفط القاذف بحصى الحديد وقوس الزيار ، وهي قوس عظيمة النزع توقر على احد عشر بغلاً .

---

(١) المقدمة ص ١٢٥ ط بولاق ١٢٧٤ هـ جـ ٧ ص ١١٧ من تاريخ ابن خلدون

حدود الجزائر المرينية

ان الحدود الجزائرية في ذلك العصر هي عينها المعروفة اليوم بحدودها الثلاثة : الشمالية والجنوبية والغربية ؛ الا ان الحد الشرقي منها فانه كان تارة يمتد الى تونس وتارة لا يتعدى حدود اعمال قسنطينة وبجاية (انظر الخريطة صفحة ٢٧) وكذلك الحد الغربي فانه كان ينتهي بتاوريرت كما ذكره ابن خلدون وهي اليوم داخل تراب المغرب الاقصى .

المرينيون وبنو عبد الواد

لم تكن دولة بني مرين الناشئة لترضى بمجاورة قبيل بني عبد الواد المنافس وذلك لتحققها بالمكانة التي يتبوأها هـذا القبيل في ميدان السياسة والحرب بالمغرب الاوسط ؛ فنشأت عن ذلك عداوة بين القبيلتين واحقاد كان مبعثها المنافسة على رآسة زناته والتشوف الى السلطان المطلق على المغرب الاسلامي، ومن ذلك لم تر الجزائر طيلة هذه المجاورة الحتمية مسالمة قط ! . .

الزحف على مملكة تلمسان

ولما اشرفت سفينة العراك والحرب بالاندلس على شفا المنحـدر والغرق ، وانكشف لملوك بني مرين ان ساعة انهزام دولة الاسلام هناك قد حانت او كادت ، وكان شعور الدولة المرينية بالمسؤولية العظمى الملقاة على كاهلها يومئذ قد تضاعفت بحكم انها سيدة العدوتين وانها وارثة عرش الموحدين الذين طالما خضعت لعرشهم الاندلس بما فيها من رعايا وملوك، وشريف وصعلوك، فساءها ان تقع الكارثة بالاندلس على مرأى ومسمع منها بدون ان تكون قد اتخذت لهذه الحال المتوقعة عدتها ، او تحتاط لهـا على الاقل لكيلا تتهم بين الامم بالاهمال وعدم الصلاحية للملك ، فاهتمت وقتئذ بالعمل على مزيد الاقتراب من الساحل الشرقي باتخاذ عاصمـة ثانية لها بالمغرب الاوسط ليتيسر لها الدفاع عن ارض الاندلس ، فحاولت فتح الجزائر من ناحيتها الغربية ، ويممت تلمسان فهاجمتها عدة مرات فانهزمت وكانت الغلبة دائماً حليفة ملوكها بني

زيان ، وذلك ما جعـــل السلطان ابا يوسف يعقوب المريني يتوعدهم بضرب الحصار الشديد عليهم والقضاء على امارتهم بهـــا . وفعلا نشبت الحرب بين ابي يحيى المريني ويغمراسن الزياني بأحواز وجدة سنة ٦٤٧هـ - ١٢٥٠م وكانت الوقائع هائلة انهزم فيها يغمراسن هزيمة شنعاء ؛ وهذه اول حرب نظامية كانت بين بني زيان وبني مرين .

ثم تجددت المعارك بينهم بوادي تلاغ في منتصف المحرم ٦٦٦هـ (اكتوبر ١٢٦٧ م) وقد قارب السلطان ابو يوسف الفتح لولا ان هنالك عزيمة ظهرت من جانب الزيانيين فصابروا على المقاومة والدفاع عن حرمهم فمال يومئـــذ ابو يوسف الى الصلح وعاد الى فاس .

ثم انه في منتصف رجب سنة ٦٨٠هـ (فيفريي ١٢٧٢) كانت بينهما وقعة وادي ايسلي الآتي تفصيلها، فحصرت تلمسان مدة ثلاثة اشهر وثلاثة ايام وانطلقت بها ايدي الجيش المريني فعاث فيها الجند بما شاء !.. وتحطمت يومئذ مدينة وجدة ثم كف السلطان ايديهم عنها وسعى في جمع الشمل ومصالحة يغمراسن امير بني عبد الواد وتم ذلك بينهم سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤م) فسر لذلك سلطان مرين واظهر سروره بما تصدق به من مال كثير شكراً لله عز وجل على ذلك ثم انه في هذه السنة نفسها غزا سجلماسة - تافيلالت - فاقتحمها يوم الجمعة ٣ ربيع الاول (٦ سبتمبر) واستعمل في حصارهـا المدافع وذلك ما يدلنا على حذق المغاربة يومئذ للبارود واستعمالهم للأسلحة النارية وقتل بها سادة بـني عبد الواد وامر بصلبهم على اسوار المدينة وفيهم قائدها عبدالملك العبدالوادي.

قال ابن خلدون (ولما فتح السلطان ابو يوسف بلاد المغرب وانتظم امصاره ومعاقله في طاعته وغلب بني عبد المؤمن على دار خلافتهم ومحارسهم وافتتـح طنجة وطوع سبتة مرفأ الجواز الى العدوة وثغر المغرب سما أمله الى بلاد القبلة الجنوب - فوجه عزمـه الى افتتاح سجلماسة من ايدي بـــني عبد الوادي المتغلبين عليها وادالة دعوته فيها من دعوتهم فنهض اليها في العساكر والحشود في رجب من سنة اثنتين وسبعين - وستمائة (١٢٧٤م)- فنازلها وقدحشد اليها

اهل المغرب اجمع من زناتة والعرب والبربر وكافة الجنود والعساكر ونصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة امام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة [1] ترد الافعال الى قدرة باريها، فأقام عليها حولا كاملا يغاديها القتال ويراوحها الى ان سقطت ذات يوم على حين غفلة طائفة من سورها بالحاح الحجارة من المنجنيق عليها فبادروا الى اقتحام البلاد فدخلوها عنوة من تلك الفرجة في صفر من سنة ثلاث وسبعين فقتلوا المقاتلة والحامية وسبوا الذرية وقتل القائدان عبد الملك ابن حنينة، - نسبة الى جدته لأب وهي اخت يغمراسن بن زيان - ويغمراسن ابن حمامه ومن كان معهم من بني عبد الواد وامراء المنباة وكمل فتح بلاد المغرب للسلطان ابو يوسف وتمشت طاعته في اقطاره فلم يبق فيه معقل يدين بغير دعوته ولا جماعة تتحيز الى غير فئته ولا امل ينصرف الى سواه [2] .

ثم عاد السلطان الى مراكش ؛ وهذا ما حمل يغمراسن على نقض الصلح ومحاربة بني مرين في وقعة الملعب المشهورة بأحواز تلمسان سنة ٦٨٠ﻫ (١٢٨١م) التي ادت الى حصار تلمسان ايضاً وانهزام بني عبد الواد ثم كانت هدنة بين السلطان يعقوب المريني وعثمان بن يغمراسن الزياني سنة ٦٨٤ﻫ (١٢٨٥م) .

وفي ربيع الثاني سنة ٦٨٧ﻫ (ماي ١٢٩٠م) عزم السلطان يوسف بن يعقوب المريني على المسير الى غزو تلمسان وفتحها بسبب ايواء صاحبها لبعض الثوار على دولة مرين ، ولقد حاول من قبل استسلام هؤلاء الثوار المشاغبين وانتزاعهم من يد بني زيان فلم يسمحوا له بذلك ؛ وحينئذ تقدم بنو مرين

(١) بهذا يعلم خطأ الرأي القائل بان اول استعمال للبارود كان في معركة كريسي (٧٤٧ﻫ - ١٣٤٦م) ونسبة اختراعه لشوارتز سنة ٧٢٠ﻫ - ١٣٢٠م . وقد حقق المستشرق الاسباني كوندي ان اهل مراكش استقدموا الاسلحة النارية في محاربتهم لسرقوسة (٥١٢ ﻫ - ١١١٨م) ويقول الدكتور غوستاف لوبون : ان العرب عرفوا الاسلحة النارية قبل النصارى بزمن طويل . (حضارة العرب ص ٥٧٧ ط القاهرة ١٩٤٨ م ويقرر المؤرخ الفرنسي لافالي La Vallée فيقول ان العرب هم أول من استعمل المدافع النارية في أوروبا وهم الذين هدوا الاوروبيين الى صناعة البارود .

(٢) ابن خلدون ج ٧ ص ١٨٨ - ١٨٩ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ

لحصاد تلمسان ونصبوا عليها المجانيق واطلقت ايدي الجند فيها فعبثوا بهـــا واخذوها بالنهب والتخريب ثم اقلعوا عنها ؛ وان كل ما كان بعد ذلــك من عداوة او ضغينة بين بني زيان او واقعة حربية انما كان منشؤها هذه الحادثة.

وكان السبب في ذلك هو عصيان ابي عامر وخروجه عن طاعة ابيه السلطان ابي يعقوب - والتجائه الى تلمسان واحتمائه بسلطانها عثمان بن يغمراسن، وقد كان السلطان عقد لوزيره محمد بن عطوا الجناتي على مدينة مراكش وترك معه ولده ابا عامر ، فلما عاد السلطان من حركته التي عقدها في انحـــاء المغرب للتهدئة ورجع الى فاس في منتصف ربيع سنة ٦٨٦هـ - ابريل ١٢٨٧م مشتغلا بعرسه على بنت موسى بن رحو الغرناطية ، خرج عليه ابنه ابو عامر ولحق بمراكش ودعا لنفسه أخريات شوال (٦٨٧هـ - نوفمبر ١٢٨٨م) وساعده على الخلاف والانتزاء عاملها محمد بن عطوا فقاتلهما السلطان وحاصر مراكش اياماً فاضطر الثائران الى الفرار فالتجآ الى تلمسان واحتميا بسلطانها عثمان بن يغمراسن (غرة سنة ٦٨٨هـ - جانفي ١٢٨٩م فآواهما ومهد لهما المكان ولبثا عنده اياماً ثم عطف السلطان على ابنه رحم كما عطف ابنه عليه فرضي عنه وأعاده الى مكانه وطالب عثمان بن يغمراسن ان يسلم اليه ابن عطوا الناجم في النفاق مع ابنه فأبى من اضاعة جواره واخفار ذمته واغلظ له الرسول في القول فسطا به واعتقله فثارت من السلطان الحفائظ الكامنة وتحركت الاحن القديمة والنزلات المتوارثة واعتزم على تلمسان [1] .

وفي سنة (٦٩٤ هـ ١٢٩٤م) استصرخ ثابت بن منديل رئيس مغراوة بالسلطان يوسف بن يعقوب المريني مستشفعا به لدى ملك تلمسان عثمان بن يغراسن في رد هجماته وكف عادية قومه عنه ؛ فأرسل يوسف بشفاعته في ذلك الى عثمان فرفضها ؛ ويومئذ خرج يوسف لغزو تلمسان سنة (٦٩٥هـ-١٢٩٥م) انتقاماً لشرفه ومر في طريقه على مدينة وجدة فحطم اسوارها وحاصر ندرومه اربعين يوما فامتنعت عنه ثم عاد الى مركزه .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢١٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

وفي السنة بعدها هاجم سلطان مرين اعمال تلمسان مشددا عليها الخناق ثم نصب عليها قوس الزيار في رجب سنة ٦٧٩هـ (افريل ١٢٩٨) وانهالت عليها جنوده فخضعت له يومئذ مدينة ندرومة ، وهنين ، ووهران ، ومزغران ؛ وفتحت مازونة ومستغانم وبرشك وونشريس ومليانه والمدية وتنس وشرشال، والبطحاء وتدلس واستولوا على جميع ضواحي شلف كلها واذعن ابن علان صاحب مدينة الجزائر لسلطان مرين فجاء مبايعاً ؛ ومن ثمة اخذ ظل حكومة بني زيان يتقلص عن مملكة الجزائر ، واخذت البلاد الجزائرية تسقط شيئاً فشيئاً بيد دولة مرين الى ان امتلكت جميعها سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) واصبح المغرب الاوسط يدين بطاعته اليها ما عدا مدينة تلمسان فانها - في هذه المرة - لوحدها احتفظت بمركزها السياسي واستقلالها الداخلي .

ويلاحظ انه قد كان لهذه الوقائع والحروب اثر كبير في قفر جهات عديدة ونواح كثيرة من بلاد المغرب وخاصة اصقاع انفا ـ الدار البيضاء ـ واقطارها ، فأخذ حينئذ السلطان يعقوب بن عبد الحق سنة ٦٧٦هـ (١٢٧٧م) في نقل عدد وافر من سكان الجزائر اليها ، وكان اغلبهم من البربر ؛ واتخذ منهم رعاة لشياه الدولة وساسة لابلها ، ومنذ يومئذ اشتهرت هذه الطائفة الجزائرية المنتقلة باسم «الشاوية» وتأكد بذلك امتزاج الشعب الجزائري بأهل المغرب الاقصى وازداد بذلك ارتباطاً وتثبيتا .

وقعة وادي ايسلي

ليس هنالك من شيء يحمل على معاداة بني مرين لبني عبد الواد الزيانيين سوى المزاحمة على الملك وحب الرآسة والاستئثار بها؛ ومن اجل ذلك مد يغمراسن يده اولا للموحدين وربط صلته بهم تفخيا لدولته وتشحيذاً لشوكته وارهابا لمنافسيه .

ويومئذ حشد السلطان ابو يوسف يعقوب المريني جنوده وخرج بنفسه محفوفاً بجيشه العظيم غازيا تلمسان غرة صفر ٦٦٩هـ(سبتمبر ١٢٨٠م) وما كاد يتصل

بتراب الجزائر ويقترب من تلمسان حتى وافاه سفير السلطان ابن الاحمر يستصرخه لنصر الاسلام وحماية المسلمين ودفع عادية العدو عنهم بالاندلس، فحال ذلك بينه وبين المسير الى تلمسان ، وجمع مشيخة الدولة وارباب الشورى يستشيرهم في الامر، فاتفقت كلمتهم جميعاً على تقديم انجاد الاندلس وحمايتها عن غزو تلمسان فعدل السلطان يومئذ عن خطته المرسومة ، وراسل صاحب تلمسان في الصلح فامتنع واكد متابعة الحرب ؛ فالتحمت المعارك الشديدة بينه وبين بني مرين بوادي ايسلى من بسائط وجدة وعلى مقربة منها ، وذلك في منتصف رجب (٦٧٠ هـ - ١٢٧٢م) فانهزم الزيانيون في هذه الوقعة شر هزيمة وفر يغمراسن عن محلته واضرمت فيها النيران وقتل ولده فارس ، وأخذ السلطان ابو يوسف يستقصي ويتتبع اثر يغمراسن في البلاد الى ان حال بينهما الظلام فأتى السلطان مدينة وجدة وأمر بهدمها فعفت آثارها .

وقعة وادي تافنة

ولما حل المرينيون بالاندلس وامتلكوا شطراً منها اخذت عقارب الحسد تدب في قلوب ملوك الاندلس من بني الاحمر وانتشر بينهم داء الاثرة فعمد سلطانهم الى يغمراسن الزياني طالباً مودته وصداقته وواصله بهدايا اندلسية فخمة واموال عظيمة على ان يشغل عنه ملوك بني مرين بمشاغبتهم واحداث مشاكل لهم بالمغرب؛ وما كاد يشيع خبر اتصال اهل الاندلس بيغمراسن حتى بادر السلطان ابو يوسف المريني الى طلب الصلح من صاحب تلمسان وكاتبه في ذلك سنة (٦٧٨هـ - ١٢٨٠ م) فتعصب يغمراسن لفكرته متصلباً في عداوته، فرابأته مرين مدة ثلاثة اشهر ثم اعادت سعيها في طلب الصلح ، فامتنع بنو زيان كذلك ولم يقبلوا في ذلك قولاً لبني مرين فتحرك هؤلاء يومئذ للقتال وكان الميدان بينهم وادي تافنة ، فانتصرت مرين على بني عبد الواد وانتهبت محلة يغمراسن فلشتتت امواله وهدمت قبابه .

تأسيس حاضرة المنصورة

لقد كان حصار السلطان ابي يعقوب المريني لمدينة تلمسان من افظع واشد

ما عرفه التاريخ في حصار مدينة ، وقد طال الحصار ثماني سنين وثلاثة اشهر واياماً ، مات فيها نحو العشرين ومائة الف شخص ، واكل الناس يومئذ الجيف والكلاب والقطط والفئران واشلاء الموتى ، وبلغ ثمن الفأر عشرة دراهم [1].

وفي تلك الاثناء شرع السلطان ابو يعقوب المريني في اقامة بناء وانشاء حاضرة المنصورة على نحو اربع كيلو مترات غربي تلمسان ، وكان ذلك في فصل الشتاء من سنة ٦٩٨هـ - ١٢٩٩ م ، جعلها السلطان معتصماً لجنده المعسكر والمحاصر لعاصمة بني زيان ، وسماها « المحلة المنصورة » او تلمسان الجديدة ، وكان فيما انشىء بها يومئذ قصر الملك حيال الجامع الذي تخلف منه اليوم جزء مهلهل من السور أو قل هو طلل من انقاض منارته القائمة على بابه ، ويقال انه كان بأعلاها تفافيح من الذهب الخالص يقدر ثمنها بسبعمائة دينار ، وكان حول القصر سور يفصله عن سكنى الرعية ، وحول ذلك السور ابتنيت المنازل والقصور الانيقة والحمامات العمومية والفنادق والاسواق واجريت المياه بالبساتين وانشئت بها دور الاسعاف الخ .. ثم احيطت المنصورة هذه بسور انشأته الحكومة المرينية سنة (٧٠٢هـ - ١٣٠٢م) لحمايتها من الطوارىء فاصبحت بعد ذلك من اعمر الامصار الجزائرية وابدعها جمالاً ، قال ابن مرزوق الخطيب : « منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها ، ولا وصف الواصفون مثل وصفها ، واما قصرها ومسكن الإمام بها فقد رأيت كثيراً ممن دخله من المتجولين ممن رأى مباني العراق ومباني مصر والشام والمباني القديمة في الاندلس ومراكش اجمعوا كلهم على ان الذي اجتمع فيه لم يجتمع في غيره ، وبحق ما قالوه ، واما دار الفتح والبستنة وما اتصل بها والمشور فما اظن المعمور اشتمل على مثلها فلحا الله من خربها ، وهو يعني بذلك بني عبد الواد حينما خربوها وحطموا قصورها ودمروها سنة (٧٠٧هـ - ١٣٠٧م) انتقاماً لانفسهم من بني مرين وطمساً لمعالم الهوان والذل والخسف القائمة بارضهم وبلادهم .

---

(١) انظر ابن خلدون ج ٧ ص ٩٥-٩٦-٩٧ .

معركة مرسى الرؤوس

ولما طال الحصار بتلمسان واشتدت وطأته على اهلها بني عبد الواد (٦٩٨ هـ ١٢٩٩ م) استجاش السلطان عثمان بن يغمراسن الزياني بصهره ابي زكرياء الحفصي صاحب بجاية ، فبعث هذا بالنجدة اليه يقودها اخوه ابو يحيى ، وما كادت الحامية تبلغ غايتها حتى اعترضتها جيوش مرين بجبل الزاب فاستلحموا هنالك وكانت الدبرة على حامية بجاية ؛ ولوفرة ما تساقط هنالك من القتلى والجرحى سميت هـــذه الملحمة بمعركة مرسى الرؤوس ؛ قال ابن خلدون : واستمر القتل فيهم وبقيت عظامهم ماثلة بمصارعهم سنين . وارتاح لها امراء المملكة الحفصية الشرقية ـ تونس ـ فاستنصروا بني مرين واستظهروا بهم على حصار بجاية ، وكان ذلك سبباً في تنكر سلطان بني زيان للامرة المالكة الحفصية فرفض دعوتهم واسقط ذكرهم من المنابر . وفي ذلك الاثناء كان سقوط مدينة المدية بيد بني مرين فاحتلوها وبنوا فيها حصناً مكثوا في تشييده سنة كاملة (٧٠٤ ـ ٧٠٥ هـ) واستمر هذا الحصن قائماً الى عهد الاحتلال الفرنسي .

تنازل بني مرين عن ولاية تلمسان

كان اغتيال السلطان ابي يعقوب يوسف المريني سنة (٧٠٦هـ ـ١٣٠٦م) سبباً مباشراً في افراج مرين عن تلمسان وانفكاك الحصار عن اهلها ؛ فتفرقت يومئذ جنودهم واختلفت كلمتهم بموت ملكهم ابي يعقوب ، وتنازع على العرش المريني كل من ولده واخيه وحفيده ابي ثابت عامر بن عبدالله ؛ واستند الحفيد هذا الى بني زيان مستظهراً بهم على مزاحميه ، فحالفهم على تنازل مرين وتخليها عن المملكة التلمسانية ان هو انتصر على خصميه وجلس على العرش ، فكان الامر كذلك ، وبويع ابو ثابت هذا بتلمسان الجديدة ـ المنصورة ـ فتخلى يومئذ لبني زيان عن امارتهم وفوض الامر في الرحلة باهل المدينة الجديدة ـ المنصورة ـ للوزير ابراهيم بن عبد السلام ، وقد كانت كما يقول ابن خلدون : غاصة بالسكن مستبحرة في الاعتمار ممتلئة في الخرشي والآلة ... الى ان كان من امرها ما كان

فخربها بنو عثمان بن يغمراسن عند رحلة بني مرين الى المغرب وتحينوا بهم لذلك فترات فطمسوا معالمها طمساً ونسفوها نسفاً [٢] . وذهب ابو ثابت عامر المريني مرتحلاً عن المنصورة يوم ١٥ شوال (٧٠٧ هـ ٩ افريل ١٣٠٧ م) غازياً شرقاً بلاد مغراوة وبني توجين فتغلب عليها وعلى عرب رياح المقيمين بقلعة ابي طويل والجزائر فقضى وطره منهم ثم عاد الى قاعدة فاس .

نقض الصلح

وفي سنة (٧١٤ هـ - ١٣١٤ م) تحركت عوامل الامس والاضغان السياسية الكامنة في صدور بني مرين ضد بني عبد الواد فنقض السلطان ابو سعيد عثمان المريني الصلح المنعقد بين امارة تلمسان وحكومة فاس ، واغار على عاصمة الزيانيين فاكتسح اقطارها وبلغ الملعب ، فانتهكت حرمات اهل تلك النواحي واقتحمت بعض المعاقل ، ثم عاد السلطان الى فاس ، واستمر بعد ذلك الزحف المريني على تلمسان ست دفعات .

تحالف بني مرين والحفصيين ضد تلمسان

استغاث السلطان الحفصي بابي سعيد المريني على رد غارة بني زيان عن الجزائر الحفصية سنة (٧٣٠ هـ - ١٣٢٩ م) فتظاهرت الدولتان يومئذ وتحالفتا ضد بني عبد الواد واحكما هذا التظاهر بالتصاهر ، ومات ابو سعيد دون بلوغ امنيته فخلفه ولده السلطان ابو الحسن وبعث من حينه الى ابي تاشفين ملك تلمسان ينافح عن مملكة اصهاره الحفصيين ، ويأمره بالتخلي عن كل ما وصلت اليه يده من ملك الحفصيين . وينهاه كذلك عن الاستمرار في الزحف ، فرفض كل ذلك ابو تاشفين واستمر سائراً على خطته ، وحينئذ تضافر المرينيون وبنو ابي حفص ضده وتوحدت القوات العسكرية فاكتنفته احدى الدولتين من الشرق والاخرى من الغرب وهجمت الاساطيل المرينية على سواحل الجزائر وحملت الجنود على تلمسان فتجاوزتها الى تاسالة ، قرب سيدي بلعباس - ونزلت هنالك في شعبان (٧٣٢ هـ - افريل ١٣٣٢ م) وجهز السلطان ابو الحسن

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٢١ و ٢٣٥ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

فرقاً من عسكره اركبهم الاساطيل من سواحل وهران وبعث بهم الى حليفه ببجاية السلطان أبي يحيى الحفصي فانضموا اليه ونهضوا معه الى غزو مدينة « تيكلات » ثغر بني عبد الواد المحتشد يومئذ بالاقوات والجند الكثير المعد لغزو بجاية ، وقبل ان يتصل الغزاة هؤلاء بتيكلات اجفل من كان بها من عسكر بني عبد الواد ، ويومئذ عمل فيها المرينيون فيمن معهم من الجند الحفصي يد التخريب والتدمير فنسفوها نسفاً وتركوها قاعاً صفصفاً وانتهبوا ما احتشده فيها السلطان أبو حمو الاول وولده ابو تاشفين من الاقوات والارزاق، وكان بهامنذلك كما يقول ابن خلدون: بحراً لا يدرك ساحله . وذلك لما ان السلطان ابا حمو كان قد اوعز الى العمال بسائر البلاد الشرقية منذ ان انشأ مدينة البطحاء بنقل اعشار الحبوب وسائر الاقوات اليها وسار على خطته في ذلك ولده من بعده ابو تاشفين الى ان حلت بهم هذه الفاقرة [٣] . وبذلك استعادت الدولة الحفصية ملكها المسلوب بالجزائر ما عدا مدينة تلمسان فانها بقيت محافظة على استقلالها .

الوثوب على عمالتي الجزائر ووهران

اجمع السلطان ابو الحسن المريني على اقتحام الاعمال الجزائرية فبرز اليها سنة ٧٣٥هـ (١٣٣٤م) وبعد ان حاصر وجدة واستولى عليها تقدم الىندرومة وهنين ، فرضة تلمسان ، فبايعته هنالك البطون والقبائل خاضعة، ثم تقدم الى وهران فاحتلها سنة ٧٣٦هـ (١٣٣٥م) وخضعت لسلطانه تلك الاصقاعبأجمعها وتبعتها في ذلك عمالة الجزائر مدينة مدينة سوى عاصمة تلمسان .

القضاء على امارة بني زيان

وبعد ما انهى السلطان ابو الحسن عملية الفتح بالجزائر التفت الى مدينة تلمسان حيث بقيت منحازةالى بني عبدالواد فتجهزاليهاسنة ٧٣٧ هـ (١٣٣٦م) عازما على فتحها ، فخندق حولها وضرب الحصار وسكن المنصورة بعدما

(٣) ابن خلدون ج ٧ ص ٢٥٣ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

ادخل عليها بعض الاصلاحات الضرورية واحاطها يومئذ بسور محكم ثم اوقد نار الحرب على بني عبد الواد فتعددت المعارك بينهم وكانت الحرب فيهاسجالا فصبر لها ابو الحسن حتى انتصر في النهايـة واقتحم تلمسان يوم الاربعاء ٢٨ رمضان من سنته (٣٠ افريل ١٣٣٧م) وقضى بذلك على امارة بني زيان .

ويعلل ابن خلدون سقوط بني زيان في هـــذه المرة بقلة عددهم وضعف دولتهم فتراه يقول :

(لما كان عدد بني مرين لاول ملكهم اكثر من بني عبد الواد كانت دولتهم اقوى منها وأوسع نطاقاً وكان لهم عليهم الغلبة مرة بعد أخرى [١] .

فتح الاعمال الشرقية

اضطرب حبل الدولة الحفصية أثر موت ملكها ابي يحيى - المتوكل ٧٤٧هـ (١٣٤٦م) فنشأت عن ذلـك فتن ومشاكل وخاصة حول تولي منصة الملك ، فنشطلذلك امراء البيت الحفصي واخذ كل في جذب طرف حبل الرئاسة اليه يسعى اليه في تحصيلهـا بكل وسيلة ، وفيهـــم من ذهب مغريا دولة مرين بالانقضاض على دولة الحفصيين واظهر في ذلك رغبة شديدة والحاحا ، وكان السلطان ابو الحسن المريني يتحين لها الفرص من قبل لولا مـكان السلطان ابي يحيى من ولايته وصهره . فتجهز يومئذ ابو الحسن لهذا الفتح بجهازه وجاء محتشداً فاقتحم وهران في صفر ٧٤٨هـ(ماى ١٣٤٧م) وبنىفيهابرجه الاحمر ، وامر بانشاء برج المرسي ايضاً،واحتل مدينة الجزائر فعمل على تشريد الثعالبة من بسيط متيجة الى المغرب الاقصى ونزل ولاية قسنطينة وبجاية فعزل عنهما ولاة الحفصيين وولى عليهما قبيلة من بني مرين .

وحط عن اهل بجاية ربع المغرم ورفع عنهم الظلامات ونظر في أحوال ثغورها فثقفها وسد خروجها وعقد عليها لمحمد بن النوار من طبقة الوزراء

ثم تقدم الى تونس فاحتلها في موكب عظيم يوم الاربعاء ٨ جمادى الثانية

---

(١) المقدمة ص ٨٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

– سبتمبر – من سنته يقول ابن خلدون في وصف ذلك اليوم المشهود: وكان يوماً لم ير مثله فيما عاناه ! وفر عنها اذ ذاك سلطانها ابو حفص الثاني فيمن اجتمع اليه من اولاد مهلهل فلحقت بهم جنود ابي الحسن فأوقعت بهم وتردى ابو حفص قتيلاً ؛ وفي هذا اليوم تم لبني مرين – كما تم للموحدين قبلهم – الاستيلاء على المغرب الاسلامي بأقطاره الثلاثة : المغرب الاقصى والجزائر وتونس .

ثورة بني عبد الواد

اخفقت سياسة بني مرين مع العرب في المملكة التونسية واساء بعض العمال في سلوكهم ومعاملاتهم للرعية ، فثار الناس على السلطة المحلية واثاروا ضدها نقع الفتنة واصلتوا سيف المقاومة فانهزمت مرين سنة٧٤٩ ﻫ (١٣٤٨م) بنواحي القيروان وبالاثر اجتمع بنو عبد الواد بظاهر تونس وبايعوا ابا سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ، وتحالفوا مع مغراوة وتوجين ، وارتحلوا نحو الجزائر في خمسمائة فارس ولحق بهم في الطريق من مغراوة ضعف ذلك ، وهم في سيرهم هذا آخذين في مقاتلة رؤساء بني مرين واستمروا على ذلك منتصرين حتى دخلوا تلمسان يوم ٢٢ جمادى الثانية ٧٤٩ ﻫ (١٧ سبتمبر ١٣٤٨ م) فالقوا القبض على عامل المرينيين المستبد بها ابي سعيد عثمان بن يحيى بن محمد من آل جرار العبد الوادي فأودعوه السجن الى ان مات به غريقاً وفي اثناء ذلك استولى على ابن راشد من آل ثابت بن منديل المغراوي على ما كان لسلفه من الملك بوطن شلف ، وغلب على مليانة وتنس ومازونة وتدلس وبرشك وشرشال وانتزى اعياص الملك بمواطنهم ولم يبق يومئذ بيد مرين في الجزائر سوى وهران وونشريس ، واتفق ان كان حاضراً بأحواز تلمسان يومئذ ابو عنان بن السلطان ابي الحسن المريني فأظهر استبداده بالحكم متوقعاً انتصار والده عليها فخاب ، ثم استولى بنو عبد الواد على وهران ، واخلف رويعيا مظنته .

عودة الجزائر الى بني عبد الواد

عاد السلطان ابو الحسن المريني من تونس بعدالاستيلاءفي شوال سنة ٧٥٠ هـ (ديسمبر ١٣٤٩م) في ستمائة سفينة يريد الجزائر ، وكانت يومئـذ زوابع ورياح وعواصف بحرية ففرقت مراكب السلطان المريني ما بين سواحل دلس وبجاية وكان فيمن هلك من حاشية السلطان ودائرته الخاصة نحو اربعمائة عالم !! ولم يكن لينجو من هذا الموت الزؤام سوى ابي الحسن في شرذمة قليلة من رجال بلاطه دفعت بهم الرياح فأوقعتهم ببعض الجزر حتى لحق به بعض المراكب فنجا فيه الى ميناء الجزائر فكان هذا الحادث اكبر كارثة اصيبت بها الدولة المرينية في اسطولها ؛ ويومئذ انتهز بنو عبد الواد هـذه الفرصة السانحة واستعدوا في شهر ربيع الاول ٧٥١ هـ ـ ماي ١٣٥٠م لاسترجاع مملكتهم وامارتهم الجزائرية فتجهزوا تحت راية زعيمهم ابي ثابت الزياني فخضعت لطاعتهم يومئذ نواحي منداس والسرسو وتيطري وحمزة والمدية ، ثم قفلوا الى تلمسان فدخلوها في شهر رجب سبتمبر ، فنهض يومئذ ابو الحسن مع ولده الناصر مقاتلا بني عبد الواد وكان هؤلاء قـد حالفوا قبيلة مغراوة العتيدة ، فانتصر ابو الحسن اولا على اهل المدية ومليانة ونواحيها ، ثم كانت عليه الدبرة فقهره ابو ثابت الزياني ، كما انهزم ولده الناصر ايضاً امـام علي بن راشد رئيس مغراوة ، وكانت الوقعة الكبرى بينهم بسهول شلف يوم الاربعاء ١٠ شعبان (١٣ اكتوبر) فقتل الناصر المريـني وفر والده السلطان الى جبل العمور ثم اصحر من هنالك الى سجلماسة وانتصر بنو عبد الواد وخلصت لهم ارض الجزائر وجلس على عرشها يومئذ ٧٥٢ هـ (١٣٥١م) السلطان ابو ثابت الزياني .

استيلاء السلطان أبي عنان على أعمال تلمسان

توفي السلطان ابو الحسن المريني سنة ٧٥٢هـ (١٣٥١م) فخلفه ولده ابوعنان فارس ، وان اول ما تقدم اليه من الاعمال وباشره ان غزا يومئذ تلمسان ،

وكان ذلك في السنة الثانية من ولايته ، فبرز لمقاومته السلطان ابو سعيدعثمان الزياني وكان اللقاء بين الفريقين في سهل «انكاد » في شهر جمادى الاول(جوان) انهزم فيها بنو عبد الواد وسقطت تلمسان في ربيع السنة نفسها وأسر ملكهم ابو سعيد عثمان ثم قتل ، فنهض اخوه ابو ثابت بمغراوة في نواحي شلف ، واشتد سعير الحرب بينه وبين الوزير فارس بن ميمون المريني فانكسر ابو ثابت وذهب منهزما نحو بجاية وهنالك القي القبض عليه واحتل المرينيون مدينة الجزائر في شهر رجب ـ اوط ـ ثم حل سلطانهم بالمدية فأطرد منها ولاة بني عبد الواد وعمالهم وقتل هنالك طائفة من وزرائهم ورؤسائهم وهناك وافته بيعة ابن مزني عامل الزاب. ثم عاد بالزعيم ابي ثابت الى تلمسان فقتله بها .

تملك بجاية

وفد ابو عبدالله الحفصي امير بجاية صحبة وزيره الحاجب فارح على السلطان ابي عنان وهو يومئذ بالمدية في شعبان ٧٥٣ ﻫ (سبتمبر ١٣٥٢م)وكان موجب هذه الوفادة: الاستعانة ببني مرين على اهالي بجاية في تمردهم على السلطان وامتناعهم من دفع الجباية ، فاستمع السلطان لشكواه هذه واوعز اليه بالواسطة من زين له التنازل عن ولاية بجاية على ان يعوضه السلطان عنها غيرها ما شاء من بلاد المغرب ؛ فكان الامر كذلك ونزل ابو عبدالله عن ولايته كرها فعقد له السلطان ابو عنان على مكناسة الزيتون بالمغرب الأقصى ثم انتزعها منه وحمله معه الى قاعدته وصارت بجاية لعمر بن علي الوطاسي .

انتقاض بجاية ، وفتح قسنطينة وبونة

اغتاظ اهل بجاية من استيلاء السلطان المريني عليهم وساءهم منه على الخصوص سلوكه السياسي معهم ، فبيتوا على الثورة ، واتفق ان قدم عليهم الحاجب فارح في مأمورية له من طرف اميره الحفصي ، فاجتمع به اهل بجاية وائتمروا بحاكمها الوطاسي فغدوا عليه في داره من القصبة فقتلوه في ذي الحجة

(٧٥٣ هـ - جانفيي ١٣٥٣ م) وكانت هنالك غارة شعواء بين الفريقين، فقبض سلطان مرين على ابي عبدالله الحفصي بتهمة المداخلة مع وزيره فارح ، واعتقل معه طائفة من اشراف بجاية وسادتها ممن كان ملتزماً بابه ؛ ثم لحق اهل بجاية ندم على ما فرط منهم فخشوا بوادر ابى عنان وفتكه فانقلبوا على الحاجب فارح فاغتالوه في جماعته وبعثوا برأسه الى السلطان ابي عنان ؛ فعقد يومئذ لحاجبه ابى عبدالله محمد بن ابي عمرو على بجاية فجاءها في كتائبه مفتتح سنة (٨٥٤ هـ - فيفريي ١٣٥٣ م) فضبط شؤون الحكومة بها واصلح من امرها واخمد الفتن القائمة يومئذ بأحوازها وقبض على رؤوس الفتنة وموقديها من اهل بجاية فاعتقلهم وشردهم الى اقصى المغرب وكان عددهم يناهز المائتين .

وفي العشرين من رجب (٧٥٨ هـ - ١٠ جوليط ١٣٥٧) نازل الوزير فارس بن ميمون مدينة قسنطينة ثم لحق به السلطان ابو عنان في جم غفير من الجند فاحتلها يوم ثاني عشر شعبان - فاتح اوط - واطرد منها اميرها ابا العباس احمد بن محمد بن ابى بكر الحفصي ، وتولى عليها يومئذ المنصور بن الحاج خلوف الياباني من رجال الشورى بدولة مرين فنزل بقصبتها في شعبان من هذه السنة ؛ وفي هذه الاثناء كان استيلاء مرين ايضاً على بونة - عنابة -

الجزائر بين بني عبد الواد وبني مرين

انتصر محمد الحاجب المريني فتغلب على امير قسنطينة سنة (٧٥٥ هـ - ١٣٥٤ م) وبقي يتقلب في وظائف مختلفة بأعمال هذه الولاية ، فدخل ميلة وبلغ الى المسيلة ؛ ثم امتلك سلطان مرين بعدها بجاية وبونة الخ ... وفي سنة (٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م) انتصر السلطان ابو حمو الزياني على بني مرين فانتزع منهم تلمسان ؛ وفي السنة بعدها حمل السلطان ابو سالم المريني على تلمسان انتقاماً من سلطانها الزياني لايوائه الزردالي عامل درعة وقاتل اخ السلطان ، فاحتشد لتلمسان في حملة شديدة في شهر رجب - ماي - واقتحمها يوم ٦ شعبان - ٢٣ جوان - فقاومه ملكها ابو حمو الثاني وابعده عنها يوم ٨ رمضان - ٢٣ جولييط -

وفي سنة (٧٧١ هـ - ١٣٦٩ م) وفد على السلطان عبد العزيز المريني طائفة من خواص اهل مدينة الجزائر ونواحيها لتقديم بيعتهم وهم الى ذلك يشكون اليه حيف دولة بني زيان وشططها في رسم المغرم ؛ فكانت هذه فرصة سانحة لزحف عبد العزيز الى تلمسان واحتلالها يوم عاشوراء (٧٧٢ هـ - اوط ١٣٧٠م) واستولى بذلك على ملك بني زيان ، وانتزع من العرب اقطاعاتهم وفرق يومئذ عماله في بلاد المغرب الاوسط بوهران ومليانة والجزائر والمدينة ووانشريس الخ ... واقام السلطان المريني بتلمسان الى ان ادركه حينه ووافاه حمامه بها سنة (٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م) فبويع آن ذاك ولده محمد الثاني بفاس ؛ ومكث ابو سعيد عثمان بن جرار والياً على تلمسان من قبل مرين الى ان اقتحم عليه المدينة السلطان ابو حمو الثاني في شهر جمادى الاولى سنة (٧٧٦ هـ - نفمبر ١٣٧٤ م) فخرج منها ابو سعيد وعادت الجزائر الى بني عبد الواد .

انقسام بني مرين وتملك بني عبد الواد

كان استبداد عبد الرحمن المريني بملك مدينة مراكش وجلوسه على عرشها سنة ٧٧٦ هـ (١٣٧٤ م) وخروجه عن طاعة ابن عمه سلطان فاس ابي العباس احمد بن سالم سبباً في استقلال بني عبد الواد بملك تلمسان ، وذلك لانتصار سلطانهم ابي حمو لصاحب مراكش ، وفي منتصف السنة هذه غلب صاحب فاس على ابن عمه فدخل عليه مراكش ثم التحق بتلمسان منتقماً من صاحبها المنتقض العهد فانهزم ابو حمو سنة ٧٨٥ هـ (١٣٨٣ م) وهدمت يومئذ اسوار المدينة وقصور الملك بها انتقاماً من ابي حمو حيث انتصر للامير عبد الرحمن المريني وخرب من اجله قصر الملك ومسجده بتازي وهوالمعروف بقصر تازروت ، وقد كانت تلمسان كما يقول ابن خلدون بحيث لا يعبر عن حسنها ! ... وبعث ابو العباس بولده فاحتل مدينة مليانة والجزائر ودلس ثم استرجع ابو حمو مدينة تلمسان في السنة التالية ، فعمد يومئذ ابو العباس الى الحيلة والدهاء فأوحى الى ابي تاشفين الزياني بغدر والده وقتله ليتملك ، فزين الشيطان لهذا الشقي تنفيذ هذه المؤامرة الشنيعة فمات والده شهيد الغدر

والخيانة واقام ابو تاشفين بتلمسان الى سنة ٧٩٥ هـ (١٣٩٢ م) فامتلكها يومئذ ابو العباس سنة واحدة ثم مات فخلفه ولده عبد العزيز الثاني ، وهو الذي اطلق وثاق السلطان ابي زيان من السجن واعاد اليه امارة تلمسان ، فانفردت بملكها يومئذ هذه الاسرة الزيانية من بني عبد الواد واستمرت تحكم البلاد الى الفتح التركي العثماني .

المذاهب والمعتقدات

كان انتصار بني مرين الزيانيين على المصامدة الموحدين فرصة لفقهاء المالكية، فعملوا على اعادة ريعان المذهب المالكي ونصرته بالمغرب بعد ان قضى عليه الموحدون واستبدلوه بالمذهب الظاهري او ما سموه اجتهاداً ؛ فتأسست يومئذ المدارس الحكومية وانتشر التعليم مجاناً بها ، واقبل عليها الطلبة يغرفون من معينها ، ولقد نجحت الحكومة بعملها هذا يومئذ في القضاء على بعض الشخصيات والاسر النبيلة المتطلعة الى الرئاسة باسم التصوف وخدمة العلم فقضت على ما انشىء من طرف هؤلاء من الزوايا والربط ؛ ونشأ عن هذا التزاحم بين مدارس الحكومة وزوايا المتصوفة ما كان فيه خير للعلم والدين فكان لكل من هاتين الناحيتين فضل كبير على المجتمع المغربي من حيث خدمة الفقه المالكي بالخصوص ، فنبغ فيه فطاحل من رجال الشريعة والقانون وان لم يأخذوه بتنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب في المشرق ، ذلك كما يقول ابن خلدون لتغلب البداوة على اهل المغرب ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لاهل العراق فكانوا الى اهل الحجاز اميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم . [1]

ومن نبغاء الفقه بالمغرب يومئذ : عيسى التادلي الفاسي ، فانه كتب المدونة من حفظه بعد ما استأصلها الموحدون واحرقوها كما املاها ابو الحسن علي ابن عشرين على طلبة العلم من حفظه ايضاً ، وقوبلت هذه النسخة على اصول

---

(٢) راجع مقدمة ابن خلدون ص ٢١٩ ط بولاق ١٢٧٤ م

المدونة فلم تختلف عنها الا بواو أو فاء ! ...

واطردت يومئذ حركة التأليف في الفقه وتوسع الفقهاء في الفروع استنباطاً وتخريجاً على مقتضى قواعد المذهب المالكي . اما العقائد فانها لم تحد يوماً قيد انملة عن ما تركها عليه ابن تومرت منذ جاء من المشرق بمذهب الامام الاشعري .

فخامة بلاط بني مرين

يذكر المؤرخون انه كان للسلطان ابى الحسن المريني تعلق شديد بالحرمين الشريفين وانه اهدى للحرم الملكي في موسم الحج لسنة (٧٣٨ هـ - ١٣٣٨ م) مصحفاً سنيا خطه بيمينه متقن الوراقة مهذب الصنعة ، جمع له نبغاء الفنون الجميلة فصنعوا له وعاء مزخرفاً من آبنوس مطعماً بالعاج والصندل مغشى بصفائح من ذهب مرصعة بالجواهر وانواع الدر والياقوت ، واتخذوا له اصونة الجلد للحكة مرقومة بخطوط ذهبية يعلوها غلاف من الحرير والديباج الرفيع وبعث مع وفد الحاج عدداً وافراً من المال لشراء ضياع وحقول بالمشرق وتحبيسها وقفاً على القراء هناك .

خرج هذا الوفد السلطاني من تلمسان وركب البحر من مرسى هنين مصحوباً بهدايا اخرى فخمة ضاخمة ارسل بها السلطان الى صاحب مصر الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحي . وكان من جملة محتويات هذه الهدية الملكية (٨٢٥) حجراً من ياقوت ، و(١٢٨) من زمرد ، ومثلها زبرجداً ، و(٣٦٤) قطعة من الجوهرات النفيسة ؛ وحلل كثيرة منها (١٣) مذهبة ، ومن الاثان (٢٠) مذهبة ايضاً ، ومن الخلادى (٤٦) ، ومن القنوع المذهبة (٢٦) ، ومن المحررات المختمة (٨٠٠) ، ومن الرصان (٢٠) شقة ، من الاكيسة الحريرية (١٨) ، ومن المشقفات (١٥٠) ، ومن احارم الصوف المحررة (٢٠) ، ومن شقق الملف الرفيع (١٦) ، ومن الفضالى المتنوعة والفرش والمخاد المنبوقة والحلل (٨٠٠) ، ومن اوجه واحسن اللحف المذهبة (٢٠) ، وحائطان حلة وحنابل (١١٢) كلها

من حرير، وفرش جلد مطرزة بالذهب والفضة ، و(١٠) سيوف محلاة بالذهب ومنضدة بالجواهر، واغمدتها كذلك مرصعة ، و(١٠) سروج بركاب من ذهب، ومثلها عشرة مطروزة بالفضة ، ومهاميز من ذهب ، وثلاث ركب فضة وستة مزججة ومذهبة ايضاً ، ومضمتان من ذهب وخوذة حديد بذهب مكلل بالجواهر و(١٠) من لزمات الفضة ، و(١٠) علامات مغشاة بالذهب ، ومثلها رايات مذهبة و(١٠) امثلة مرموقة ، و (٣٠) جلد اشرك ، و(٤٠٠٠)درقةلمطية منها مئتان بنهود الذهب وثمانمائة بنهود الفضة ؛ وخباء قبة كبيرة من مائة بنيقة لها اربعة ابواب ، وقبة اخرى مضربة من ست وثلاثين بنيقة مبطنة بحلة مذهبة، وهي من حرير ابيض ومرابطها من حرير ملون وعمودها من عـاج وآبنوس واكبارها من فضة مذهبة ، ومن البزات الاحرار المنتقـات (٣٤) بزة ، ومن عتاق الخيل العراب (٣٣٥) حصـاناً ، ومن البغال (١٢٠) ذكوراً واناثاً ، و(٧٠٠) جمل ، و(٣٢) بازاً . مما كانيقدر يومئذ جميعه بمائة الف دينار.وكان اتصال هذا الوفد بالديار المصرية في اليوم الثاني من رمضان٧٣٨ هـ (٢٤ مارس ١٣٣٨ م) فتلقاه (مهندمار) السلطان الناصر بحفاوة واجلال مما جعل هـذا اليوم في التاريخ من ايام مصر المشهودة ، وحملت الهدايا على ثلاثين قطاراً من بغال النقل – عدا الجمال .

وكافأ الملك الناصر عن هذه الهدية الملكية الفخمـــة العظيمة بما يقاربها من التحف النفيسة والاشياء الثمينة،وفيها ما يستغرب جنسه وشكله فازدادت العلائق الودية بذلك بين ملوك المشرق والمغرب تأكيداً كما ازداد التضـــامن والارتباط الاسلامي بينهم ميثاقاً وعهداً [1] .

وذكر ابن خلدون وليمة السلطان ابى سعيد المريني يوم ان احتفل بزفاف

(١) انظر تفاصيل هذه الهدايا والعلائق الودية والسفارات السياسية التي كانت تقع بين ملوك المشرق والمغرب في تاريخ ابن خلدون ج٥ ص ٤٢٠ و٤٤٠ و٤٧٩ و ٥٠١ و ج ٧ ص ٣٣٦ و٣٦٤و٣٦٦ وفي التعريف بابن خلدون ص ٣٤١ و ٣٤٥ ط القاهرة ١٧٣ هـ وكتاب الاستقصاء ج ١ ص١٧٤ و ج ٢ ص ٤٠ - ٤١ وكتاب الروضتين لابي شامـــة ج ٢ ص ١٧٣ ط مصر ١٢٨٨ هـ

فاطمة بنت السلطان ابي بكر الحفصي وشقيقة الامير ابن زكرياء ، لابنه الامير ابي الحسن فقال : « وكان الشأن في مهرها وزفافها ومشاهد اعراسها وولائمها وجهازها كله من المفاخر للدولتين ، ولم يزل مذكوراً على الايام »[1] وكفانا هذا حجة وبرهاناً يساق للاستشهاد به على فخامة بلاط الدولة المرينية وفخامة سلطانها .

ومما يعد كذلك من رفاهة هذه الدولة وتقدمها في الميدان الفني ما وجد بقصر السلطان ابي عنان من ذلك النموذج العجيب الفريد الذي يمثل شكل قلعة جبل الفتح ـ جبل طارق ـ بجميع ما احتوى عليه هذا الجبل من الابراج والحصون وغير ذلك من مظاهره العمرانية واسواره ومنها ذلك العقد الثمين المنتظم من خرزات الياقوت الفاخرة والدرر النادرة المسمى عندهم بالثعبان ، وهو يشتمل على مئين متعددة من حصباء هذا النوع وقد صار اليهم من خزائن ملوك تلمسان يوم ان سقطت هذه العاصمة بأيديهم الخ ... فلا غرو اذا كان يومئذ هذا البلاط يفوق غيره من قصور قرطبة وبغداد والقاهرة ، وهذا معنى قول ابن خلدون :ان الحضارة الاندلسية انتقلت بالاندلس الى ملوك المغرب من الموحدين وزناتة .

الثقافة والحضارة والعمران

انقضى القرن الثامن الهجري بالمغرب وكله عراك وفتن وحروب واضطرابات سياسية مختلفة اثارتها النزوات السياسية والعصبية القبلية بين بني مرين ومجاوريهم من بني عبد الواد والحفصيين ، ولذلك لم نكد نظفر بأثار عمرانية باقية تذكر لهذه الدولة بالجزائر سوى ما سجله التاريخ من التخريب والتدمير والنسف لما شيدته يد الحضارة الاسلامية بهذه الديار من قبل !...

واذا حاولنا تعليل هذه الظاهرة المتجلية يومئذ في سكان المغرب، فاننا لا نكاد نجد لها تعليلا معقولاً او حلاً مطابقاً للواقع سوى فقر بعض النواحي

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٤١ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

النائية عن الحضارة ومواطن الرفاهية بالمغرب . مما جعل اهلها يزدحمون على الاماكن الخصبة ومواقع الخير .

ورغم ذلك كله فانها لا تزال بعض معالم المدنية من آثار هذه الدولة ماثلة للعيان قائمة بالمغرب الاقصى والجزائر ؛ ممتازة برشاقتها وشكلها الاندلسي البديع ؛ فمنها بفاس المدرسة العنانية ومدرسة العطارين ومدرسة الصفارين ومدرسة الصهريج والمدرسة المصباحية الخ ... ومنها بالجزائر وهي قليلة جداً كما ذكرنا لا تكاد تذكر بالنسبة الى عظمة هذه الدولة وفخامة سلطانها واتساع عمرانها - : المسجد الجامع المتصل بضريح الشيخ ابي مدين شعيب بن الحسين الاندلسي بضاحية العباد في تلمسان وكانت قبيلته مذهبية زاهية الألوان فانكر الفقهاء ذلك فأزيل ما قرب من المصلى ، وكذلك المدرسة المجاورة له ، وكلاهما من منشآت السلطان ابي الحسن المريني سنة ٧٤٨هـ (١٣٤٧م) وكلاهما آية في فن المعمار والزخرفة والنقش ؛ اما الضريح نفسه فهو من بقايا ما انشأه خليفة الموحدين محمد الناصر بن المنصور بالجزائر (٥٩٥ - ٦١١) ، ومنها البرج الاحمر وبرج المرسي بوهران اللذان انشأهما ابو الحسن ايضاً في تلك السنة ، وبقي البرج الأحمر قائماً الى الاحتلال الفرنسي وكان على طراز شكل العمارة الاندلسية الاسبانية مثلث الزوايا ، وكذلك المسجد والجامع بمستغانم ٧٤٢ هـ (١٣٤٠) ، ويذكر ان بالجامع الاعظم في الجزائر جناحا منه هو من زيادات ابي الحسن . وذلك الجامع الجميل مسجد سيدي الحلوى بتلمسان فانه مما اخرجته يد الفن المغربي على عهد السلطان ابي عنان ٧٥٤هـ(١٣٥٣م) وكذلك ما اتصل به من البناء هو مما انشىء في ذلك العصر ، كما يذكر ان الجامع الكبير بقسنطينة هو ايضاً من آثار ابى عنان . وتدلنا الابحاث التاريخية على ان الجامع الجديد مركزه ديوان الافتاء الحنفي اليوم بالجزائر المؤسس سنة ١٠٧٠هـ (١٦٦٠م) انما بني عنان او جامع المدرسة العنانية ، وانه كان يعرف من قبل بجامع زاوية سيدي ابي عنان او جامع المدرسة العنانية ؟... ولا ادري ما العلاقة في ذلك ؟... وكذلك قصبة بلدة المدية فانها انشئت سنة

٧٠٤هـ (١٣٠٤م) على عهد السلطان يوسف بن يعقوب المريني ، ولا تزال الى اليوم بقايا من اطلال مدينة المنصورة التي أقامها هذا السلطان نفسه غربي تلمسان سنة ٦٩٨هـ (١٢٩٩م) تشهد بمنتهى مـــا بلغه فن المعمار المغربي الجزائري من الابداع والاتقان في ميدان الزخرفة والنقش واحكام البناء قال ، ابن مرزوق الخطيب « منصورة تلمسان التي لم ير الراؤون مثلها ، ولا وصف الواصفون مثل وصفها .. »[١] .

اما عن سير الحياة الاقتصادية والحركة التجارية ، فقد كادت المنتوجات المغربية ان تنحصر يومئذ في صناعة الجلد ونسج الصوف والحرير المزركش، ولقد اشتهرت معامل الصوف المغربية في العالم حتى اشتق لها في لغة اوروبا اسم Merinos – ميرينوس – وهو خاص بالنوع الجيد من الصوف ، وهي كما لا يخفى نسبة الى المرينيين، وكذلك صناعـة الجلد اشتهرت في اوروبا بنسبتها الى المغرب Maroquinerie ولا تزال تعرف بهذا الاسم الى الآن .

واذا أردنا ان ننظر الى خصوصية الإقليم الجزائري في ذلك فانه يكفينا ان نعلم ما حكاه ابن خلدون عن الحياة العامة في مدينة المنصورة التي شيدها السلطان ابو يعقوب المريني قرب تلمسان فنجعله كنموذج مصغر نطلع به على سير الحركة الاقتصادية بالجزائر في ذلك العصر ، قال :

واختط بمكان فسطاط المعسكر قصراً لسكناه واتخذ به مسجداً للصلاة وادار عليها السور وامر الناس بالبناء فبنوا الدورالواسعة والمنـــازل الرحيبة والقصور الانيقة واتخذوا البساتين واجروا المياه ثم امر بادارة السور سياجاًعلى ذلك سنة اثنتين وسبعين وصيرها مصراً فكانت من اعظم الامصار والمدن واحفلها اتساع خطة وكثرة عمران ونفاق اسواق واحتفال بناء وتشييدمنعة، وامر باتخاذ الحمامات والمارستان وابتنى مسجداً جامعاً وشيد له مأذنة رفيعة فكان من احفل مساجد الامصار واعظمها وسماها المنصورة واستبحر عمرانها

(١) انظر الجزء السابع من تاريخ ابن خلدون صفحة ٢٢١ و ٣٣٥

ونفقت اسواقها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق فكانت احدى مدائن المغرب كما يحدثنا ايضاً عن مبلغ جباية الزاب التي رفعها عامله يوسف بن منصور ابن مزني لبيت المال من سنة ٧٥٨ هـ – ١٣٥٧ م فذكر انها كانت قناطر من الذهب [١] .

ويصف لنا العبدري (٦٧١ – ٧٥٧ هـ – ١٢٧٣ – ١٣٥٦ م) في رحلته مدينة الجزائر فيقول : « ..... ثم وصلنا الى مدينة الجزائر وهي مدينة تستوقف لحسنها نظر الناظر ، ويقف على جمالها خاطر الخاطر ، فقد حوت قريتي البر والبحر ، وفضيلتي السهل والوعر ، لها منظر معجب انيق ، وسور معجز وثيق وابواب محكمة العمل ، يسرح الطرف فيها حتى يمل ... »

اما عن سير الحركة العلمية ونظام التعليم ، فأنه يكفي ان قد عرف هذا العصر عند المؤرخين بعصر انشاء المدارس والمعاهد وترسيم العلماء والمدرسين بها ، غير اننا نرى القوم يومئذ تغلب عليهم علوم الشريعة والدين ، ولاحظ لهم في غيرها من الفنون العقلية الا قليلاً مما جاءهم عن علماء اندلسيين اومشارقة وذلك لان العلوم الفلسفية نشأت هنا على ايدي افراد متفرقين حركتهم الرغبة اليها فهم متفرقون لا تربطهم مجالس ، وهم فوق ذلك تحت رقابة من علماء الرسوم المترمتين .

وتكاد تلمح سير الحياة العلمية بمراتبها وببرامجها وفي جميع مظاهرها بالمغرب يومئذ فيما سطره ابن خلدون عن نظام التعليم وطريقة المغاربة في ذلك حيث قال :

« وقد شاهدنا كثيراً من المعلمين لهذا العهد الذي ادركنا يجهلون طرق التعليم وافادته ويحضرون المتعلم في اول تعليمه المسائل المقفلة من العلم يطالبونه باحضار ذهنه في حلها، ويحسبون ذلك مراناً على التعليم وصواباً فيه، ويكلفونه وعي ذلك وتحصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١١ ع و ج ٧ ص ٢٢١

وقبل ان يستعد لفهمها ، فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشأ تدريجياً ، ويكون المتعلم اول الامر عاجزاً عن الفهم بالجملة الا في الاقـــل وعلى سبيل التقريب والاجمال وبالامثال الحسية ، ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بمخالفة مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والانتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ، ويحيط هو بمسائل الفن ؛ واذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حينئذ عاجز عن الفهم والوعي وبعيد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكاسل عنه وانحرف عن قبوله وتمادى في هجرانه وانما اتىذلك من سوء التعليم » . وهذا ما نراهاليوم – بوجه عام – مقرراً لدى علماء النفس المتخصصين في التربية والتعليم ؛ ويتمادى ابن خلدون في حديثه عن طرق التعليم واساليبه فيقول :

« وكادت ان تنقرض وتنقطع صناعة التعليم هذه بالمغرب لولا ان ارتحل الى المشرق من افريقيـــة – يعني تونس – القاضي ابو القاسم بن زيتون لعهد اواسط المائة السابعة ، فأدرك تلميذ الامام ابن الخطيب – الفخر الرازي – فاخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات والنقليات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن ...

ثم ارتحل من زواوة في آخر المائة السابعة ابو علي ناصر الدين المشدالي وادرك تلميذ ابي عمرو بن الحاجب واخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة وحذق فيالعقليات والنقليات ورجع الىالمغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية واتصل سند تعليمه في طلبتها ، وربمـــا انتقل الى تلمسان عمران المشدالى منتلميذه واوطنها وبث طريقته فيها،وتلميذه لهذا العهد ببجاية وتلمسان قليل او اقل من القليل ؛ وبقيت فاس وسائراقطار المغرب خلوا من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة والقيروان ، ولم يتصل سند التعليم فيهم فعسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم » .

وفي بيان سوء سلوك الطلبة في تعلمهم وانحطاط خطتهم المتبعة المرسومة

يومئذ في تلقيهم للعلم يقول :

« انك تجد طالب العلم منهم – المغاربة – بعد ذهاب الكثير من اعمارهم في ملازمة المجالس العلمية سكوتاً لا ينطقون ولا يفاوضون، وعنايتهم بالحفظ اكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من يرى نفسه منهم انه قد حصل تجد ملكته قاصرة في علمه ان فاوض او ناظر او علم ، وما اتاهم القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده ، والا فحفظهم ابلغ من حفظ سواهم لشدة عنايتهم به وظنهم انه المقصود من الملكة العلمية ، وليس كذلك ؛ ومما يشهد بذلك في المغرب ان المدة المعينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة ، وهي بتونس خمس سنين ، وهذه المدة بالمدارس على المتعارف هي ما يتأتى فيها لطالب العلم حصول مبتغاه من الملكة العلمية او اليأس من تحصيلها فطال امدها في المغرب لهذه المدة لاجل عسرها من قلة الجودة في التعليم خاصة لاما سوى ذلك . وان ايسر الطرق للحصول على هذه الملكة العلمية والحذق في العلوم هو فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة في المسائل العلمية فهو الذي يقرب شأنها ويحصل مرامها »

وهكذا نرى كذلك القاضي المقري (٧٩٥ هـ – ١٣٩٢ م) ينعى على طلبة عصره في اقتصارهم لاخذهم للعلم ودراسة كتبه على ارهاق انفسهم في حفظ المختصرات والانكباب على الشرح والتقاييد الهزيلة واعراضهم عن كتب الائمة في كل فن فيقول : (... ثم كل أهل هذه المائه – الثامنة – عن حال من قبلهم من حفظ المختصرات وشق الشروح والاصول الكبار فاقتصروا على ما قل لفظه ونزر حفظه ، وافنوا اعمارهم في حل لغوزه وفهم رموزه .

ولم يصلوا الى رد ما فيه الى اصوله بالتصحيح فضلا عن معرفة الضعيف من ذلك والصحيح ، بل هو حل مقفل ، وفهم امر مجمل ، ومطالعة تقييدات زعموا انها تستنهض النفوس ، فبينا نحن نستكبر العدول عن كتب الائمة الى كتب الشيوخ اتيحت لنا تقييدات للجهلة بل مسودات المسوخ ، فانا لله وانا

اليه راجعون »[1] وعلى هذا النمط نرى علماء المغرب مستمرين في دروسهم وتآليفهم منذ ذلك العصر الى عصر النهضة العلمية بعدالاستقلال السياسي الذي احرز عليه المغرب العربي باقطاره الثلاثة في هذا القرن .

ورغم هذا الالتواء والتعقيد في طرق التحصيل يومئذ فانه نبغ بالقطر الجزائري في هذا العصر علماء فطاحل اشتهروا بالزعامة في العلم والرئاسة في الدين كبيت العقباني والمشدالي وابن مرزوق والعبدري وابن قنفذ القسنطيني وشقرون الوهراني شيخ الحافظ الذهبي وغيرهم من اعيان علماء الجزائر

ونأسف لمدينة الجزائر نفسها فانها لم تكن يومئذ بدار علم ولا مرجعاً للتحصيل وقد حل بها الرحالة العبدري وذكر لنا من حالها وقتئذ (٦٨٨ هـ- ١٢٨٩ م) ما يلي : « وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربة ، واديب يؤنس غربة ، فكاني اسأل عن الابلق العقوق ، او احاول تحصيل بيض الانوق ... »

ولقد اشتهر ملوك هذه الدولة المرينية بنصرة العلم والاخذ بيد العلماء فان مجالسهم كانت لا تخلو من طائفة كبيرة منهم وفيهم من كان لا يستغنى عنهم حضرا أو سفرا كالسلطان ابي الحسن وولده ابي عنان مثلا ؛ وخزائنهم مملوءة بمختلف المؤلفات النفيسة في شتى انواع الفنون ولم يكن ليشغلهم عن جلب الكتب الى المدارس والمساجد وتوزيعها على المعاهد العلمية شيء، بل وحتى في احرج المواقف واشدها فان عنايتهم دائماً وابداً مصروفة الى العلم ، فها انت ترى السلطان ابا يوسف يعقوب المريني كيف اشترط على ملك الاسبان « سانشو الرابع » في معاهدة الصلح التي عقدها معه : ان يعيد اليه جميع المخطوطات العربية التي حازها ايام استيلائه على قرطبة واشبيلية ، فبعث اليه سانشو المذكور بثلاثة عشر حملا من الكتب ، فرقها ابو يوسف ووزعها بين خزائن مساجد المغرب ؛ وكان رحمه الله يعد ذلك في نفسه انتصاراً عظيما - يفتخر به وانه لا يقل عن انتصاراته العظيمة في الحروب والغزوات

(١) البستان لابن مريم ص ٢١٧ ط الجزائر ١٣٢٦ - ١٩٠٨ م

ويعود ابن خلدون فيحدثنا عن سير التعليم الابتدائي بالمغرب ايضاً فيقول بعد تقديم الكلام على اختلاف مناهجه وطرقه وتنوع اساليبه عند الامم :

... فأما اهل المغرب فمذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط، واخذهم اثناء المدارسة بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم لا من حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى ان يحذق فيه او ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعاً عن العلم بالجملة ، وهذا مذهب اهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قوى البربر امم المغرب في ولدانهم الى ان يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا رجع مدارسة القرآن بعد طائفة من عمره ، فهم لذلك اقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم ....

« وأما اهل افريقية – تونس – فيخلطون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدارسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها ، الا ان عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان اياه ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته اكثر مما سواه ، وعنايتهم بالخط تبع ذلك ، وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن اقرب الى طريقة اهل الاندلس لان سند طريقتهم في ذلك متصل بمشيخة الاندلس الذين اجازوا عند تغلب النصارى على شرق الاندلس واستقروا بتونس وعنهم اخذ ولدانهم بعد ذلك »ويذكر لنا ابن خلدون نتيجة ملاحظته الدقيقة في خصوصية نظام التعليم هذا بتونس والمغرب فيقول :

«فأما اهل افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة اللسان جملة؛ وذلك ان القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لماان البشر مصروفون عن الاتيان بمثله ؛ فهم مصروفون لذلك عن الاستعمال على اساليبه والاحتذاء بها وليس لهم ملكة في غير اساليبه فلا يحصل لصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجمود في العبارات وقلة التصرف في الكلام ، وربما كان اهل افريقية –تونس– في ذلك اخف من اهل المغرب لما يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلناه فيقتدرون على شيء من التصرف ومحاذاة المثل بالمثل ، الا ان ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما ان اكثر

محفوظهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة »

وعن السبب الباعث لهم على الاقتصار على استظهار القرآن الكريم وجعله عندهم اساساً للتعليم هو ما يذكره ابن خلدون ايضاً : « ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايثاراً للتبرك والثواب وخشية ما يعرض للولد من جنون الصبي من الافات والقواطع عن العلم فيفوته القرآن لانه مـا دام في الحجر منقاداً للحكم ، فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربقة القهر فربما عصفت به رياح الشبيبة فالقته بساحل الطالة فيغتنمون في زمـان الحجر وريقة الحكم تحصيل القرآن ليلا يذهب خلوا منه » .

ونرى مؤرخنا آسفاً جـد الأسف على ان لا يسير اهل المغرب العربي على المنهاج الذي رسمه الامام ابو بكر بن العربي لتعليم الاطفال إنـْقـَدّمَفيه دروس اللغـة والادب والحساب على تعلم القرآن كما يفعل اهـــل الأندلس ، فقال : « ولو حصل اليقين باستمراره – المتعلم – في طلب العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي اولى ما أخـــذ به اهل المغرب والمشرق . واخيراً قال : « ويا غفلة اهل بلادنا في ان يؤخــذ الصبي بكتاب الله في أول امره يقرأ ما لا يفهم وينصب في امر غيره أهم عليه .

وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لمتصفحهـا منها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائـع بنقص الحضارة وفساد الدول »

ويشير ابن خلدون الى ما كان عليه حال المعلم في هيئة المجتمع الاسلامي من انحطاط رتبته وحقارة شأنه ومهانته بين الناس فيقول :

« ان التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع المعاشية البعيـدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم مستضعف مسكين منقطع الجذم ... واختص انتحـال التعلـيم

بالمستضعفين ، وصار منتحله محتقراً عند اهل العصبية والملك »[1]

كما يفيدنا مؤرخنا العظيم بتاريخ تطور الخط العربي وعن صناعة نسخ الكتب بهذا المغرب الاسلامي فيقول : « واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية ... وكان الخط البغدادي معروف الرسم وتبعه الافريقي المعروف رسمه القديم لهذا العهد ، ويقرب من اوضاع الخط المشرقي وتحيزملك الأندلس بالأمويين فتميزوا باحوالهم من الحضارة والصنائع والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسي كما هو معروف الرسم لهذا العهد.. ثم لما ارتحل نظام الدولة الاسلامية وتناقصت تناقص ذلك اجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافة فانتقل شأنها من الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة، فلم تزل بها اسواقه نافقة لهذا العهد وله بها معلمون يرسمون لتعليم الحروف .

وأما أهل الأندلس فافترقوا في الاقطار عند تلاشي ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم امم النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وافريقية من لدن الدولة اللمتونية الى هذا العهد ، وشاركوا اهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب خطهم على الخط الافريقي وعفي عليه ونسي خط القيروان والمهدية بنسيان عوائدهما وصنائعهما،وصارت خطوط افريقية كلها على الرسم الأندلسي بتونس وما اليها لتوفر اهل الأندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس ، وبقي منه رسم ببلاد الجريد الذين لم يخالطوا كتاب الاندلس ولا تمرسوا بجوارهم انما كانوا يفدون على دار الملك بتونس ، فصار خط اهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة الموحدية بعض الشيء ، وتراجع امر الحضارة والترف بتراجع العمران نقص حينئذ حال الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعلم بفساد الحضارة وتناقص العمران وبقيت فيه آثار الخط الاندلسي تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من ان الصنائع اذا رسخت بالحضارة فيعسر محوها .

---

(١) المقدمة ص ٢٧٨ ط بولاق ١٢٧٤ ﻫ

وحصل في دولة بني مرين من بعـــد ذلك بالمغرب الاقصى لون من الخط الاندلسي لقرب جـوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس قريبـاً واستعمالهم اياهم سائر الدولة ونسي عهد الخط فيما بعدعن سدة الملك وداره كانه لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغربين مائلة الى الرداءة بعيدة عن الجودة ...

وكذلك نراه يتعرض لصناعة الوراقة ونسخ الكتب والتدوين نادباً حظها قائلاً : « ولقد ذهبت هذه الرسوم لهـــذا العهد جملة بالمغرب واهله لانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبداوة اهله ، وصارت الامهات والدواوين تنسخ بالخطوط البدوية تنسخهـــا طلبة البربر صحائف مستعجمة برداءة الخط وكثرة الفساد والتصحيف فتستغلق على متصفحهـا ولا يحمل منها فائدة الا في الاقل النادر ..» .

وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصـل لمتصفحها منها الا بالعناء والمشقة لكثرة ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد تقرأ الا بعد عسر ، ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول » .

كما نجده في بحثة لتعليم الخط حريصا على افادتنا بالطريقة والاسلوب الذي كان يجري عليها قانون التعليم عند معلمي الخط العربي بالمغرب والاندلس فيقول:

« وليس الشأن في تعليم الخط بالاندلس والمغرب كذلك، في تعلم كل حرف بانفراده على قوانين يلقيها المعلم للمتعلم ، وانما بمحاكاة الخط في كتابة الكلمات جملة ، ويكون ذلك من المتعلم ومطالعة المعلم له الى ان يحصل له الاجادة ، ويتمكن في بنائه الملكة ويسمى مجيداً .

اما عن صناعة الطب وفنون الحكمة فانها نقصت كذلك في هـــذا العصر لوقوف العمران وتناقصه ؛ واما الغناء وفن الموسيقى فقد بقيت منه صبابة كما يقول ابن خلدون تناقلت عن بلاد الاندلس بعد ذهاب غضارتها الى بلادالعدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على امصارها على تراجع عمرانها وتناقص دولها[1].

---

[1] مقدمةابن خلدون ص ٢٠٥ - ٢٠٦ و ٢١٠ - ٢١١ و ٢٤٠ و ٢٧٥ - ٢٧٧ - ٢٧٨ط بولاق ١٢٧٤ هـ و ج ٣ ص ٣٣٩ ط باريس ١٨٥٨ م

والمعروف عن اهل الاندلس انهم اخذوا فن الغناء وورثوه عن زرياب غلام الموصليين فاليه يرجع سند فن الالحان والغناءوموسيقى اهل العواصم من الحضر باقطار المغرب الثلاثة .

انهيار الجزائر المرينية

امضت دولة مرين كل ايامها بالجزائر في عراك ومقاتلة ضد مزاحميها من بني ابي حفص وبني عبد الواد ، بله ما كان يتجاذبها من حوادث الثوار بالمغرب الاقصى والاندلس ومحاربتها المتواصلة في رد هجوم القشتاليين والبرتغال والايطاليين عن بوغاز جبل طارق وسواحل المغرب الخ ... فظهر يومئذ عجزها عن القبض على ادارة المغرب الاسلامي كله، ولا سيما منه الجزائر حيث خرجت عن طاعة الدولة يوم وقعة « شدبونة » بنواحي شلف ومملكة الناصر ابن السلطان ابي الحسن يومئذ (٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م)

ولما افضى امر الدولة الى السلطان ابي سالم ابراهيم بن ابي الحسن نفض يده من شرق مملكة الجزائر وكتب في ذلك الى المنصور بن خلوف ليسلمها الى ابي العباس الحفصي ؛ فتسلمها بنو ابي حفص في رمضان سنة ٧٦١ هـ (جوليط ١٣٦٠ م) وبقي غرب الجزائر متصلا بالمملكة المرينية الى ان انتصب السلطان ابو زيان بن ابي حمو الثاني على عرش تلمسان سنة ٧٩٦ هـ (١٣٩٣م) فقطع دعوة المرينيين عنها كما المعنا الى ذلك فيما تقدم ، وكما سنوضحه فيما يلي ان شاء الله من تاريخ دولة بني زيان .

ويومئذ انحازت دولة مرين الى المغرب الاقصى الى ان صار ملكها الى ابي سعيد عثمان فأخذ البرتغاليون يومئذ في بسط نفوذهم ونشر سلطتهم على الشواطىء المغربية بدافع التنافس والتزاحم بينهم وبين الاسبان في سبيل الوصول الى الهند فسقطت بعض المواني المغربية بيد الاجانب واحتلت معظم المرافىء واهمها، وساءت يومئذ سياسة السلطان عبد الحق بن ابي سعيد فاقتسم الوزراء النفوذ بينهم والسلطة وتسلط اليهود على الادارة العليا فحازوا اسمى مناصب الدولة فكان هارون وزيراً وشاويل حاكما بفاس ، فسقطت بذلك

هيبة السلطان من نفوس الرعية ووهت العلائق بينها وتضعضعت دعائم الملك فانحل تماسكها وعم الاضطراب والفشل سائر اعضاء الدولة ورجالها المسؤولين فثارت الرعية ساخطة على السلطان عبد الحق فقتلته وقتلت معه ولاته اليهود ٨٦٩ هـ (١٤٦٥م) وبقتله انتهى دور اسرة بني عبد الحق ، وانتصب مكانها بنووطاس - وهم من بني مرين ايضا فبقى الامر فيهم الى ان تغلب عليهم ابو عبد الله محمد الشيخ القائم بأمر الله السعدي فاحتل مدينة فاس سنة ٩٦١ هـ (١٥٥٤ م) فانقرضت يومئذ دولة بني مرين بالمغرب الاقصى وحلت محلها الدولة السعدية ، وذلك لثلاث وتسعين ومائتي سنة قضتها هذه الدولة في حكم المغرب الاسلامي ، امضت منها بالجزائر ١٢٤ سنة ، وباشرت الحكم فيها بنفسها نحو ربع قرن ثم تركتها لبني عبد الواد فحكموها طيلة بقية هذه المدة تحت امرها وطاعتها الى ان انفردوا بها .

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة الجزائر على عهد المرينيين يحيى بن سليمان العسكري عقدله السلطان ابو الحسن على فتح القطر الجزائري فسار اليه سنة ٧٣٦ هـ (١٣٣٥م) وفتح امصاره حتى انتهى الى بلدة المدية ؛ وكما عقد هذا السلطان لولديه عبدالله على مدينة الجزائر وابي عنان على تلمسان وسائر المغرب الاوسط ، فتولى ذلك ابو عنان سنة ٧٤٧ هـ (١٣٤٦ م) وكانت اليه جبايته ، كما تولى نفس هذه الولاية محمد المهدي على عهد والده ابي عنان ايضاً : ولما ظهر انتصار بني زيان على المرينيين وخرج ابو عنان من تلمسان سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) ترك على ولايتها عثمان بن يحيى بن جرار فدعا لنفسه اشهراً الى ان دخل عليه بنو عبد الواد فاستأمن فأمنوه بعد ما عزلوه ثم سجن ومات غريقاً من سنته ، وكثيراً ما تولى مشيخة بني عبد الواد هذه الولاية تحت طاعة بني مرين . واشتهر من ولاة الثعالبة بمتيجة ابو الحملات بن عايد بن ثابت بن محمد بن سباع الثعالبي هلك في طاعون سنة ٧٤٩ هـ (١٣٤٨ م) فخلفه ابراهيم بن نصر ابن حنيش بن ابي حميد ثابت ، ولما هلك ايام ابي عنان تولى مكانه ابنه سالم

وعقد السلطان ابو عنان للحاجب محمد بن ابي عمرو على ثغور بجايـــة وسائر اعمالها وعلى حرب الموحدين بقسنطينة . وقد جمع له من قبل ما بين الحجابة والقيادة والعلامة والسفارة وديوان الجنـــد والحساب والقهرمة ومنحه سائر القاب وظائف الدولة ، وحتى خصوصيات الدار ، فسار ابن ابي عمرو الى بجاية سنة ٧٥٤ ﻫ (١٣٥٣ م)وتولى زمامها الى وفاته في المحرم ٧٥٦ ﻫ (جانفيى ١٣٥٥ م) فتولى بعده الوزير عبد الله بن علي بن سعيد الياباني : ثم عزل واعتقل ، فتولى مكانه القائـــد يحيى بن ميمون بن امصمود فتغلب عليه الحفصيون واعتقلوه بتونس سنة ٧٦٠ ﻫ - ١٣٥٩ م كما تولى على بجاية ايضاً كل من محمد بن النوار وموسى بن ابراهيم اليرنياني وكلاهمـــا من طبقة الوزراء وعمر بن علي بن الوزير بن ابي وطاس؛ وابي عبدالله محمد بن الامير ابي زكرياء ولاه ابو عنان اقليم بجاية ليدفع عنه حملة ملوك تونس يومئذ ، واذن لاساطيله بوهران فركبها الامير عبدالله الى تدلس ومنهـــا الى بجاية . كما انه ولى على قسنطينة يوم ان فتحهـــا ٧٥٨ﻫ (١٣٥٧) المنصور بن الحاج خلوف الياباني المريني ، ثم امره بالنزول عنها سنة ٧٦١ﻫ - ١٣٥٩م وتركها للامير ابيالعباس الحفصي ؛ ثم كانت للأمير أبي زيد بن الامير ابي عبدالله الحفصي وهي محـــل امارة ابيه وكان على ولاية بونة الفضل بن يحيى فثار ضـــد الحكومة المركزية سنة ٧٤٩ﻫ (١٣٤٨م) وغلب على قسنطينة وبجايـــة برهة من الزمن وكان على ولاية دلس يحياتن بن عمر شيخ بني ونكاسن المرينيين ، وعلى ولايـــة الجزائر ابن علان ، والقائد محمد بن يحيى بن العسكري وجعلت جبايتهـــا للمسعود بن ابراهيم اليرناني من طبقة الوزراء وكان على اعمال قسنطينة محمد بن العباس ، وعلى ولاية بسكرة يوسف بن مزني وهو صـــاحب زمـــام رياح ، ومن شيوخ طولقة ومقدميها يومئذ عبد الرحمن بن احمـــد بن يا شلدة بن مزني ورآسة مليانة كانت لعـــلي بن حسون بن ابي علي الهساطي - او الينـــاطي ! .. - وهو احد قادة السلطان ومواليه : اجتمع به ابن خلدون في دار حكمه بمليانة سنة ٧٧٤ﻫ (١٣٧٢ م) ؛ ومشيخة المدية لعلي بن يوسف بن عبد القوي .

ويذكر ابن خلدون قبيلة « بني راتن » فيقول ان رئاستها كانت لبني عبد

الصمد من بيوتاتهم وقد كان فيمن ترأس عليها زمن تغلب السلطان ابي الحسن المريني على المغرب الاوسط شيخة او زعيمة منهم تدعى « شمسى » كان لها عشرة اولاد كلهم من ابناء عبد الصمد فاستفحل شانها بهم وملكت عليهم امرهم .

وكانت رآسة قبائل احياء العطاف في اولاد يعقوب ، ورآسة بني عامر لصغير بن علي ، ورآسة كومية لابراهيم بن عبد الملك الوهاصي نسبة الى قبيلة وهاصة بساحل التافنا فاستبد بهذه الولاية برهة واضرمها على بني مرين وبني عبد الواد ناراً تلظى الى ان قضى عليه بنو عبد الواد فكان حاله مثل ابي سعيد عثمان بن جرار حين ولاه ابو عنان تلمسان، وكانت امارة البدو وبضاحية مدينة بجاية وقسنطينة ليعقوب بن علي بن احمد سيد الدواودة.

وكانت رآسة سدويكش – البسائط الواقعة بين قسنطينة وبجاية – لبني علاوة بن سواق، واشهرهم مهنا بن تازير بن طلحة بن علي بن علاوة بن سواق؛ فقتله بنو عمه اولاد يوسف بن حمود بن سواق ، وحينئذ ترأس عليهم عدوان ابن عبد العزيز بن زروق بن علي بن علاوة ، ثم هلك فافترق بعده امرهم . وبقيت رآسة سدويكش لاولاد يوسف المذكور ؛ قال ابن خلدون « ويرادف اولاد سواق في الرآسة على بعض احياء سدويكش بنو سكين . ومواطنهم جوار لواته بجبل بابوروما اليه من نواحي بجاية ، ورآستهم في بني موسى بن ثابر ادركنا ابنه صخر بن موسى »(١) وكان فيمن تولى هذه الولاية : الوزير موسى بن ابراهيم بن عيسى من بني يرنيان المغراويين ، تولاها على عهد السلطان ابي عنان ؛ وفي ايام السلطان عبد العزيز تولى ابو بكر بن سليمان مشيخة « وارجلان » – وارفلا –

وكان على رآسة بني يزيد بسهل حمزة موسى بن ابي الفضل ، وعلى رآسة وانشريس نصر بن عمر بن عثمان ، وكانت رآسة مسراته بالقلعة المطلة على البطحاء من نواحي سيق غربي نهر مينة ، لبني عبد العزيز ، ثم انتقلت الى

١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٤٩ - ١٥٠

بني عمهم بني اسحاق؛ وكانت رآسة قبيلة ونيفن الهوارية مما يلي تبسة لاولاد سليم بن عبد الواحـد بن عسكر بن محمد بن بعرة ، وكانت قبلهم لسارية . وكان في جملة من عرف ممن عقد لهم السلطان على جميع بلاد مغراوة : علي بن محمد من عظماء بني ورتاجي ، وعمر بن ويغري بن منديل ومحمد بن عمر بن منديل .

وكان على ولاية وهران القائـــد عبوس بن سعيد من صنائع بني مرين ؛ واقطع ابو عنان وزيره ابا يعقوب ونزمار بن عريف سهل « السرسو » وقلعة ابن سلامة ومواطن من بلاد توجين – ما بين قلعة سعيدة غرباً الى المديـــة شرقاً –

واما عن امراء البحر فانـــه لم يحضرني الآن من اسمائهم سوى اثنين منهم وهما القائد أبو عبد الله محمد الاحمر ومحمد بن علي بن العزفي .



ملوك الدولة المرينية

بنو عبد الحق :

	تاريخ التولية .
ابو محمد عبد الحق بن ابي خالد محيو	٥٩٢ هـ – ١١٩٦ م
ابو سعيد عثمان بن عبد الحق (ادغال)	٦١٤ هـ – ١٢١٧ م
محمد (الاول) بن عبد الحق	٦٣٧ هـ – ١٢٣٩ م
ابو يحيى ابو بكر بن عبد الحق	٦٤٢ هـ – ١٢٤٤ م
ابو يوسف يعقوب بن عبد الحق	٦٥٦ هـ – ١٢٥٨ م
ابو يعقوب يوسف بن يعقوب ، الناصر لدين الله	٦٨٥ هـ – ١٢٨٦ م
ابو ثابت عامر بن عبد الله بن يوسف	٧٠٦ هـ – ١٣٠٧ م
ابو الربيع سليمان بن ابي عامر	٧٠٨ هـ – ١٣٠٨ م
ابو سعيد عثمان (الثاني) بن يعقوب	٧١٠ هـ – ١٣١٠ م
ابو الحسن علي بن عثمان	٧٣٢ هـ – ١٣٣١ م
ابو عنان فارس المتوكل بن علي	٧٤٩ هـ – ١٣٤٨ م
ابو زيان محمد بن فارس ابي عنان – ولي ثم عزل في الحال –	٧٥٩ هـ – ١٣٥٨ م
محمد السعيد بن ابي عنان	٧٥٩ هـ – ١٣٥٨ م
ابو سالم ابراهيم بن علي	٧٦٠ هـ – ١٣٥٩ م

	تاريخ التولية
ابو عامر تاشفين بن علي	٧٦٢ هـ – ١٣٦١ م
عبدالحليم بن ابي علي عمر –انفرد بسجلماسة منذ ربيع الاول–	٧٦٣ هـ – ١٣٦١ م
ابو زيان محمد (الثاني) المنتصر بن ابي عبد الرحمن	٧٦٣ هـ – ١٣٦٢ م
ابو فارس عبد العزيز المستنصر بن علي	٧٦٨ هـ – ١٣٦٦ م
ابو زيان محمد (الثالث) السعيد بن عبد العزيز	٧٧٤ هـ – ١٣٧٢ م
ابو العباس احمد المستنصر بن ابراهيم	٧٧٦هـ – ١٣٧٤م
موسى بن ابي عنان	٧٨٦هـ – ١٣٨٤م
ابو زيان محمد (الرابع) المنتصر بالله بن احمد	٧٨٨هـ – ١٣٨٦م
ابو زيان محمد (الخامس) الواثق بالله بن ابي الفضل	٧٨٨هـ – ١٣٨٦م
المستنصر – للمرة الثانية –	٧٨٩هـ – ١٣٨٧م
ابو فارس احمد	٧٩٦هـ – ١٣٩٣م
عبد العزيز بن احمد	٧٩٩هـ – ١٣٩٦م
عبدالله بن احمد	٨٠٠هـ – ١٣٩٧م
ابو سعيد عثمان (الثاني) بن احمد	٨٠١هـ – ١٣٩٨م
ابو مالك عبد الواحد بن موسى	٨٣١هـ – ١٤٢٧م
ابو محمد عبدالحق بن ابي سعيد عثمان (الثاني)	٨٣١هـ – ١٤٢٨م

بنو وطاس :

ابو زكرياء يحيى بن زيان الوطاسي	٨٣١هـ – ١٤٢٨م
علي بن ابي الحجاج يوسف بن منصور	٨٥٢هـ – ١٤٤٨م
محمد (الاول) – ابو زكرياء يحيى بن يحيى	٨٦٣هـ – ١٤٥٨م
محمد (الثاني) الشيخ البرتقالي بن محمد (الاول)	٨٧٥هـ – ١٤٧٠م
احمد بن محمد (الثاني)	٩٣١هـ – ١٥٢٤م
محمد بن احمد	٩٥٧هـ – ١٥٥٠م

من مشاهير الجزائر

ابو الحسن علي الخزاعي التلمساني

٧٨٩ هـ - ١٣٨٧ م

هو الكاتب الكبير والاديب الشاعر المؤرخ العلامة الشيخ ابو الحسن علي بن محمد بن احمد بن موسى بن مسعود الخزاعي التلمساني ، ينتمي الى امرة هي من اعيـــان الاسر الاندلسية المنتقلة الى الجزائر ، المشهورة هنـالك بالرئاسة في السياسة والعـلم والقضاء ، وكان والده فقيهاً كاتباً بارعـاً فحظي عند ملوك وامراء تلمسان وجمـع بين خطتي السيف والقلم فاشتهر بلقب ذي الوزارتين ، انجب ولده عليـا – صاحب الترجمة – بتلمسان سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠م) فنشأ مقتفياً خطة آبائه واجداده النبلاء جـاداً في تحصيل العلم والادب ، وكان من مشائخه ابن مرزوق الخطيب ، والقاضي البلفيقي ...

برز رحمه الله في الادب والفقه والحساب والتاريخ ؛ واشتهر بالايثار وكرم الاخـــلاق وحسن السيرة ، فتنـافس في مصاحبته ملوك المغربين : الاوسط والاقصى ، فكتب اولاً العـلامة للسلطان ابي سالم ابراهيم المريني ، ثم كتب في بلاط بني زيان بتلمسان واخيراً استقر في بلاط بني مرين كاتباً للاشغـال فحاز لديهم رئاسة قلم الدولة ونال من الحظوة ما يستحقه امثاله النبغاء من العلماء عند الملوك .

وله من الشعر قوله لما كبى بموسى بن ابي عنان المريني فرسه بالشماعين اثر صلاة الجمعة :

مولاي لا ذنب للشقراء ان عثرت ومن يلمهـــا لعمري فهو ظالمها
وهالها ما اعتراها من مهابتكم من اجل ذلك لم تثبت قوائمها
ولم تزل عادة الفرسان مذ ركبوا تكبو الجياد ولم تنبو عزائمها
وفي النبي رسول الله اسوتنا اعلا النبيئين مقداراً وخاتمها
كبا به فرس ابقى بسقطتـــه في جنبه خدشة تبدو مراسمهـــا
حتى لصلى صلاة جالساً ثبتت لنا بها سنة لاحت معالمهـــا
صلى عليه الاله دائماً ابـــداً ازكى صلاة تحييهـــا نواسمها

ولم اقف على تأليف له رحمه الله سوى ذلك الكتاب العجيب الذي انفرد به بين علماء الاسلام بتدوين تاريخ الحضارة الاسلامية على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم واعنى به كتاب « تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهـــد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية » وهو لعمري كتاب نفيس فريد في بابه مستوعب لموضوعه ، لم يترك فيه خطة او وظيفة او رتبة او صناعة او حرفة او اي عمل من اعمال المجتمع الاسلامي في ميدان المصالحة الادارية عسكرية كانت او مدنية ، او شرعية او علمية ، الخ . . الا واثبت اصلها في الاسلام ودليلها من السنة وعمل الخلفاء الراشدين فيها مع التعرض الى ذكر اول من باشر تلك الاعمال بنفسه من الصحابة او كان ممن ولاه رسول الله عليها ؛ فكان الخزاعي بذلك من اسبق العلماء الى تدوين تاريخ المدنية الاسلامية وتفصيل الحالة الاجتماعية والسياسية والاقتصاديـــة في صدر الاسلام فجاء عمله هذا مفخرة من مفاخر الجزائر التي يحق لها ان تباهي بهـــا وتتطاول !. . .

وكان تاريخ وضعه لهذا الكتاب الجليل سنة ٧٨٦ هـ (١٣٨٤ م) اي قبل وفاته رحمه الله بثلاث سنوات ، الفه برسم السلطان المتوكل على الله ابي فارس المريني ، وكان من حسن الاتفاق ان ظفر الشيخ عبد الحي الكتاني بنسخـــة

مخطوطة منه عثر عليها بخزانة جامع الزيتونـــة المعمور في تونس تحت عدد ٧٥٧٢ فادمجها في كتابه الجامع « التراتيب الادارية ... » المطبوع في جزئين برباط الفتح سنة ١٣٤٦ هـ وكانت وفاة الخزاعي بمدينـة فاس بعد عصر يوم الاحد الخامس من ذي القعدة سنـــة ٧٨٩ هـ (١٧ نوفمبر ١٣٨٧ م) ودفن غداة يوم الاثنين تغمده الله برحمته .

وفي مكتبة شهيد علي باشا باستانبول نسخة كاملة من كتابه هذا : تخريج الدلالات السمعية ... تحت رقم ١٨٥٣ مكتوبة سنة ٨٣٦ هـ .

محمد بن مرزوق الخطيب

٧٨١ هـ = ١٣٧٩ م

هو شمس الدين ابو عبدالله محمد بن احمد بن ابي بكر محمد بن مرزوق التلمساني الشهير بلقب الخطيب والجد والرئيس .

كان رحمه الله آية في فنون العلم والأدب والسياســة والدين ومن ابرز الشخصيات الجزائرية التي عرفها العالم في القرن الثامن الهجري ولا سيما بالمغرب والاندلس ومصر والشام ؛ وكان موطن اسرته بعجيسة بزاب افريقيـــة ، فانتقلت الى تلمسان صحبة الشيخ ابي مدين شعيب بن الحسين الاشبيلي في اواخر القرن السادس الهجري ، نزلت ضاحية العباد وسكنت هنالك ملتزمة خدمة الشيخ حال حياته ثم سدانة ضريحه وملازمة رباطه بعد وفاته الى ان علا شأنها بعد ذلك وارتفع كعبها بالعلم فنبه ذكر الكثير من ابنائها وكان من بينهم مترجمنا ابو عبدالله محمد بن مرزوق .

قال المقري : وبيتهم بيت علم وولاية وصلاح ، كعمه وجده وأبيه وجد ابيه ، وكولديه محمد واحمد وحفيده عالم الدنيا البحر ابي عبدالله محمد بن أحمد بن مرزوق ، وولد حفيده المعروف بالكفيف وحفيده المعروف بالخطيب وهو

آخر المذكورين منهم فيما نعلم (١) .

ولد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠ هـ - ١٣١٠ م وبها نشأ وتربى وحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادي العلوم حتى اذا بلغ الثامنة عشرة من عمره ارتحل مع والده الى الحجاز فحج وزار وجاور وهناك اجتمع بالمشيخة فأخذ عن كثيرين من اهل الحجاز وغيرهم من قصاد تلك البقاع المطهرة ، ثم سافرمنفرداً بنفسه عن والده فدخل بلاد الشام ومصر فسمع وروى عن عدد عظيم من علماء المشرق هنالك كما اخذ عن علماء بجاية وفاس وتونس فكان عدد شيوخه يفوق الالفين ، وقد اودعهم كلهم فهرسته المسماة « عجالة المستوفز المستجاز في ذكر من سمع من المشائخ دون من اجاز ، من ائمة المغرب والشاموالحجاز»، فبرز قدس الله روحه في علوم متنوعة كثيرة وخاصة منها الحديث الشريف فانه اشتهر به اكثر من غيره ، والف فيه اكثرمن سواه،وقد كتب من محبسه في احدى نكباته التي نكب بها: انه لا يوجد اليوم من يسند احاديثالصحاح قراءة وسماعاً من باب الاسكندرية الى البرين والاندلس غيره ؛ كما ذكر انهفي احدى رسائله التي كتبها من السجن ايضاً سنة ٧٦٢ هـ - ١٣٦٠ م انه خطب على ثمانية واربعين منبرا في بلاد الاسلام شرقاً وغربا واندلسا .

وبعد ان ملأ وطابه بالعلم امره والده بالعودة الى بلدة لتانيس عمه محمد بن مرزوق خطيب جامع السلطان ابي الحسن بالعباد ، فانكفأ راجعا الى وطنه، وصادف ان كان يومئذ السلطان ابو الحسن المريني محاصراً لتلمسان سنة ٧٣٣هـ - ١٣٣٢ م - فنزل الشاب العالم على عمه ولم يلبث عمه هذا ان توفي الى رحمة الله فاقامه السلطان مقام عمه المرحوم ، فابان الشاب الخطيب يومئذ عن علم واسع وادب جم ، وسياسة فائقة وحصافة نادرة وحكة باهرة،منقطع النظير في ذلك بين اقرانه من العلماء فاستخلصه السلطان لنفسه واصطفاه لحضرته فكان لا يفارقه حضراً وسفرا حربا وسلما . قال ابن خلدون : « ولما ابتنى السلطان ابو الحسن مسجد العباد - بتلمسان . ولاه الخطابة وسمعه يخطب على

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٣٨ ط القاهرة ١٣٦٩ هـ - ١٩٤٠ م

المنبر وقد احسن في ذكره والدعاء له فحلا بعينه وجعله خطيباً يحث يصلي في مساجد المغرب وذلك ما جعله يعرف بالخطيب ، وسافر عنه الى الملوك .

وغدا معه الى الحرب في وقعة طريف ٧٤٠ هـ - ١٣٤٠ م وبعث به سفيراً الى صاحب قشتالة النصراني فغدا اليه سنة ٧٤٨ هـ - ١٣٤٧ م وعقـــد معه الصلح وافتك منه الاسرى .

ولما عاد ابن مرزوق من سفارته الى قشتاله طلب من السلطان ابي عنان المريني اعفاءه من الخدمة وتسريحه فاعفاه ، وعاد يومئذ الى بلده تلمسان، وقد تملكها يومئذ بنوزيان فاوفده الملك ابو سعيد الى دولة بني مرين في مهمة سياسية وما كاد يتصل بالبلاط المريني حتى لحق به خصوم ابي سعيد ومنافسوه في الملك فاسروه ونكبوه واودعوه السجن الى ان تداركه الله بلطفه فأجيز الى الاندلس ودخل غرناطه سنة ٧٥٢ - ١٣٥١م - فنزل على سلطانها ابي الحجاج بن الاحمر فقربه منه واستعمله على الخطبة بجامع الحمراء فبقي عليها مدة سنتين الى ان استدعاه ابو عنان بعد مهلك ابيه واستيلائه على تلمسان واعمالها فنظمه في اكابر اهل مجلسه ثم اوفده الى تونس عام ٧٥٨ هـ-١٣٥٧م ليخطب له بنت السلطان ابي يحيى ابي بكر الحفصي فردت الخطبة: ويومئذ وشى بابن مرزوق فاودعه ابو عنان السجن فكانت هذه نكبته الثانية ثم اطلقه السلطان بين يدي موته.

ولما تولى السلطان ابو سالم ملك مرين اعاد للشيخ مكانته وحرمته العلمية وعلت منزلته عنده وعند كل رجال البلاط حتى صار زمام الدولة بيده.

قال ابن خلدون : (... فانصرفت اليه الوجوه وخضعت ووطىء عقبه الاشراف والوزراء وعطف على بابه القواد والامراء وصار زمام الدولة بيده، وكان يتجافى عن ذلك أكثر أوقاته حذراً من سوء المغبة ويزجر من يتعرض له في الشكاية ويوهم الى اصحاب المراتب والخطط بباب السلطان ، وهم يعلمون انهم قد ضرب على ايديهم فنقموا ذلـــك وسخطوا الدولة من اجله ومرضت قلوب اهل الحل والعقد من تقدمه ونفس عليه الوزراء ما ثبت له عند السلطان

من الحظ فتربصوا بالدولة ...) [1] .

ثم كانت حوادث الانقـــلاب الحكومي سنة ٧٦٢ هـ – ١٣٦٠ م فذهب الشيخ ضحيتها فسجن للمرة الثالثة ، ثم اطلق عقاله فالتحق يومئذ بتونس سنة ٧٦٤ هـ - ١٣٦٢ م فاكرمه سلطانهـا ابو اسحاق وصاحب دولته ابو محمد بن تافراكين وولياه خطابة جامع الموحدين فأقـام الشيخ بتونس سنوات الى ان دفعته عنها السياسة وحملته على مفارقتهـا فركب البحر في شهر ربيع الاول ٧٧٣ هـ – سبتمبر ١٣٧١م ملتحقا بالبلاد المصرية فنزل الاسكندرية ومنهـا ذهب الى القاهرة فتلقاه هنالك العلماء واكابر اعيان الدولة والامراء فأوصلوه الى السلطان الاشرف شعبان بن حسين فأجرى عليه الملك من الخيرات والمبرات ما يليق بمقامه وولاه الوظائف العلمية فخطب ودرس في اكبر المدارس واشهرها كالشيخونية والصرغتمشية والنجمية الخ ... ولم يزل موفور الكرامة محترمـاً مرشحاً للقضاء الى ان وافاه حمامه رحمه الله في شهر ربيع الاول سنة ٧٨١ هـ (جوان ١٣٧٩م) ودفن بمقبرة القرافة الصغرى بين الامامين ابي القاسم واشهب رحم الله الجميع .

ولقد ترك رحمه الله ثروة علمية عظيمة اودعها بطون مؤلفاته الجليلة التي نأسف كثيراً لذهاب اكثرها فلم يبق لنا اليوم منها سوى قائمة اسمائها ؛ منها كتابه النفيس – المسند الصحيح الحسن في محاســن مولانا ابي الحسن وضعه في توريخ سيرة مخدومــه السلطان ابي الحسن علي بن عثمان المريـــني ، توجد منه نسخة بمكتبة الاسكوريال قرب عاصمة مادريد تحت عدد (١٦١٦) . ومنها فهرسته المستوفز ، المتقدمة الذكر ... وشرحه على كتاب الشفاء للقاضي عياض لم يكمل ، وشرح عمدة الأحكام في اسفار خمسة ، جمع فيه بين الفاكهاني وابن دقيق العيد مع زوائد كثيرة ، وشرح الاحـكام الصغرى لعبد الحـــق الاشبيلي ، وازالة الحاجب عن فروع ابن الحاجب ، وكتاب تحفـة الطرف ، الى الملك الاشرف ؛ والاربعـــين المسندة في الخلافة والخلفاء، وكتاب الامامة ، وديوان خطب وقصائد، وايضاح المراشد،

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣١٢ ط بولاق ١٢٨٤ هـ

فيما تشتمل عليه الخلافة من الحكم والفوائد، وشرح لصحيح البخاري، وكتاب جمع فيه ما قيل في الصبر واربعون حديثاً خرجها من مرويات السلطان ابي الحسن: وكتاب في التنجيم وكتاب ضاهى به كتاب العفو والاعتذار، وجنى الجنتين في فضل الليلتين : ليلة القدر وليلة المولد ؛ توجد منه نسخة محفوظة بمكتبة خاصة في مدينة فاس ...

ومن شعره برد الله ضريحه قوله لما ركب مع السلطان ابي الحجاج بن الاحمر خارج الحمراء في ايام الربيع مرتجلا :

انظر الى النوار في اغصانه ... يحكي النجوم اذ تبدت في الحلك
حيى امير المؤمنين وقال قد ... عميت بصيرة من بغيرك مثلك
يا يوسفا حزت الجمال بأسره ... فمحاسن الايام تومي هيت لك
انت الذي صعدت به اوصافه ... فيقال فيه ذا مليك او ملك

وله في اغراض الشعر وفنون النثر كثير من القطع والفصول الجميلة التي تكفلت بها كتب التراجم والادب فلتراجع هنالك .

احمد المغراوي

٨٢٠ هـ - ١٤١٧ م

هو شهاب الدين احمد بن محمد بن عبدالله المغراوي (نسبة الى قبيلة مغراوة الجزائرية) ، كان رحمه الله عالماً فقيهاً اصولياً نحوياً ، برز على كثير من كبار علماء المشرق فكانوا يحترمونه كثيراً حتى قال التقي بن قاضي شهبة « ما تركت بمصر والشام فى المالكية مثله » ، كان يناظر ابن خلدون ويفتي عليه وكان العز بن جماعة يعظمه كثيراً ، واما هو فيقول : متى كان العز ؟ انما اشتغل على كبر وكان جندياً ، وانا اشتغلت قبله بزمان ، وروى على الشرف عيسى المالكي القاضي قال : ان المغراوي بحث مع البساطي يوماً في مسألة فقال له اعرفها وانت في مغراوة خلف البقر ا... فأجابه المغراوي بقوله:

يا جاهل ، يا ولد (كذا) مغراوة ما فيها بقر قط ، اولئك عرب اصحاب ابل ترحل وتنزل ، واما انا فوالله العظيم هو ذاك الذي اعرفهـــا وانت في بساط ترعى البقر ! ...

ومع فضله كما يقول السخاوي في ضوئه : كان خاملاً جداً لامور ؛ منها انه كان ممن صحب السالمي وتمكن منه وعادى بسببه اكابر الدولة ، فلمـا ذهب السالمي آذوه سيما مع عدم تردده للاكابر وتحامقه عليهم ، وقـدم دمشق سنة ٨١٤ هـ ١٤١١م ونزل بالمدرسة الزنجية واخذ عنه الطلبة وعين مدة للقضاء فلم يتم ذلك ثم عاد الى بلده وترك الاشتغال بحيث قل استحضاره ، وتوفي رحمه الله في شوال سنة ٨٢٠ هـ - نوفمبر ١٤١٧ م

ابراهيم بن فائد الزواوي

٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م

هو العالم المتفنن ابو اسحاق ابراهيم بن فائد بن موسى بن عمر بن سعيد بن علال بن سعيد النبرولي الزواوي ، ولد بجبل جرجرة سنة ٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م وانتقل الى بجاية وبها قرأ القرآن الكريم ، واشتغل بها في الفقه على ابي الحسن علي بن عثمان المنجلاتي فقيه بجاية ، ثم ارتحل الى تونس فأخذ الفقه والمنطق عن ابي عبدالله الابي ، والفقه ايضاً عن يعقوب الزغبي ، كما انه اخذ التفسير والفقه كذلك عن القاضي القلشاني ، والاصول عن عبد الواحد الغرياني ، ثم عاد الى جبال بجاية فأخذ علوم اللغة عن عبد العالي بن فراج ، ثم دخل قسنطينة فسكن بها ، وفيها اخذ الاصلين والمنطق عن حافظ المذهب ابي زيد عبـــد الرحمن الباز ، وعلم المعاني والبيان عن ابي عبدالله محمد القيسي الحكيم الاندلسي حين ورد عليهم حاجـــاً ؛ والاصلين والمنطق والبيان كذلك والفقه وغالب العلوم المتداولة يومئذ بين علماء الاسلام عن ابي عبدالله بن مرزوق عالم المغرب لما قدم عليهم قسنطينة فأقام بها نحو ثمانية اشهر ، وحج الشيخ مراراً وجاور

ولم ينفك رحمه الله عن مزاولة العلم تعلماً وتعليماً حتى برع في جميع هذه الفنون الموماً اليها ولا سيما الفقه . والف تفسيراً للقرآن الحكيم ، وشرحاً لمختصر خليل في ثمان او ثلاث مجلدات ؟... سماه : تسهيل السبيل ، لمقتطف ازهار روض خليل ، وشرحا آخر في جزئين ، سماه فيض النيل : قال في نيل الابتهاج (وقد وقفت له على السفر الثالث من شرحه على خليل المسمى تسهيل السبيل من القسمة الخ ... حسن من جهة النقول يستوفيها ، وفي آخره جامع كبير محتو على فوائد لخصها من البيان لابن رشد وغيره ، ورأيت في خزانة جامع الشرفاء بمراكش السفر الاول من شرح آخر له على خليل قدر الثلث الى الجهاد سماه تحفة المشاق في شرح مختصر خليل بن اسحاق مجلد ضخم) [1] . وله شرح على الفية ابن مالك في مجلد واحد ، وشرح على تلخيص المفتاح سماه تلخيص التلخيص في مجلد ؛ وحج رحمه الله مراراً وجاور ، ولقيه البقاعي في سنة ٨٥٣ هـ حين حج ايضاً وقال انه رجل صالح من المشهورين بين المغاربة بالدين وعليه سمت الزهاد وسكونهم ؛ وتوفي رحمه الله فيما قال ابن عزم سنة ٨٥٧ هـ - ١٤٥٣ م .

سالم بن ابراهيم الصنهاجي

اواسط القرن التاسع الهجري ...

هو العالم النظار الامام القاضي سالم بن ابراهيم بن عيسى الصنهاجي المغربي ، ولد كما ذكره السخاوي بمشدالة بعد السبعين وسبعمائة تقريباً ونشأ ببجاية واشتغل بتونس الى ان تضلع في العلم وفضل فارتحل عنها سنة ٨٣٤ هـ فوقع في اسر الكفار وناظر الاساقفة ببلادهم فافحمهم ودام عندهم مدة ثم اخرجوه وسمع بالحجاز ومصر ودمشق ، قال السخاوي : وقد رأيته فيمن عرض عليه ابن ابي اليمن بمكة ، وحدث ودرس وافتى وكان من محفوظاته كتاب الشفاء

(١) احمد بابا التنبكتي نيل الابتهاج ص ٥٣ ط القاهرة ١٣٢٩ هـ .

رواه بالسماع عن الجمالين المحمدين ابن علي النويري وابن ابي بكر المرشدي رحمهما الله .

تولى رحمه الله قضاء المالكية بدمشق ثم قضاء القدس ثم عاد الى الشام ، ولقد شهد له التاريخ بحسن السيرة والصرامة والحرمة ونفوذ الكلمة في القضاء مع عفة ونزاهة ؛ ولم اقف على زمان ولا مكان وفاته بالضبط رحمه الله .

محمد بن عمر المليكشي

٧٤٠ هـ – ١٣٣٩م

الاديب الكبير والشاعر الناثر ابو عبدالله محمد بن عمر بن علي بن محمد بن ابراهيم بن عمر المليكشي البجائي ثم التونسي الجزائري ، هكذا كتب نسبه بخطه رحمه الله .

اخذ علمه وادبه بالجزائر وله رحلة الى المشرق فحج وروى عن جماعة بالحجاز ومصر والاسكندرية كالرضى الطبري سمع عليه الكتب الخمسة ، والسراج محمد بن طراد قاضي المدينة وخطيبها، وابي محمد الدلاصي والنجم الطبري وغيرهم .

ذكره الحضرمي في مشيخته فقال : كان صدراً في الطلبة والكتاب فقيهاً كاتباً اديباً حاجاً راوية متصوفاً فاضلاً صاحب خطة الانشاء بتونس ذا تواضع وايثار وقبول حسن ، له شعر رائق ، ونثر فائق ، وكتابة بليغة ، وتآليف مستظرفة ، وعرفه المقري في نفحه نقلاً عن كتاب الاكليل الزاهر لابن الخطيب فقال بعدما ذكر اصله ونسبه حسب ما تقدم ... « كاتب الخلافة، ومشعشع الادب الذي يزري بالسلافة . كان بطل مجال ، ورب رواية وارتجال ، قدم على هذه البلاد وقد نبا به وطنه ، وضاق ببعض الحوادث عطنه ؛ فتلوم به تلوم النسيم بين الخمائل ، وحل منها محل الطيف من الوشاح الجائل ، ولبث مدة اقامته تحت جراية واسعة ، ومبرة يانعة ، ثم آثر قطره ، فولاه وجهه وشطره ، واستقبله دهره بالانابة ، وقلد خطه

الكتابة ، فاستقامت حاله ، وحطت رحـــاله ، وله شعر انيق ، وتصوف وتحقيق ، ورحلة الى الحجاز سعيها في الخيروثيق، ونسبها في الصالحات عريق.

« حدث بعض من عني بأخباره ، ايام مقـــامه بمالقه واستقراره ، انه لقي بباب الملعب من ابوابها ظبية من ظبيات الانس ، وقينة من قينات هـذا الجنس ، فخطب وصالها ، واتقى بفؤاده نصالها ، حتى همت بالانقيـــاد ، وانعطفت انعطاف الغصن المياد ، فأبقى على نفسه وامسك ، وانف من خلع العذار بعدما تنسك وقال :

لم انس وقفتنا ببـــاب الملعب بين الرجا واليـأس من متجنب
وعدت فكنت مراقباً لحديثها بأذل وقفـــة خائف مترقب
وتدللت فذللت بعـــد تعزز يأتي الغرام بكل امر معجب
بدوية ابدى الجمال بوجهها ماشئت من خد شريق مذهب
تدنو وتبعد نفرة وتجنبـــاً فتكاد تحسبها مهاة الربرب
ودنت بلحظ فاتن لك فاتر انضى وامضى من حسام المضرب
وارتك بابل سحرها بجفونها فسبت وحق لمثلها ان تستبي
وتضاحكت فحكت بنير ثغرها لمعان نور ضياء برق خلب
بمنظم في عقد سمطي جوهر عن شبه نور الاقحوان الاشنب
وتمايلت كالغصن اخضله الندى ريان من ماء الشبيبة مخصب
تثنيه ارواح الصبابة والصبا فـــتراه بين مشرق ومغرب
ابت الروادف ان تميل بميله فرست وجال كأنه في لولب
متتوجاً بهـلال وجه لاح في حلل السحاب لحاجب ومحجب
يا من رأى فيها محباً مغرماً لم ينقلب الا بقلب قلب
ما زال مذ ولى يحاول حيلة تدنيه من نيل المنى والمطلب
فأجال نار الفكر حتى اوقدت في القلب نار تشوق وتلهب
فتلاقت الارواح قبل جسومها وكذا البسيط يكون قبل مركب

وتوفي المليكشي رحمه الله بتونس غرة المحرم سنة ٧٤٠ه (٩جوليط ١٣٣٩م)

جدول تاريخي

٦٦٨ ـ ٩٦١ هـ – ١٢٦٩ – ١٥٥٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وأبرز الاحداث
٦٦٨ هـ ـ ١٢٦٩ م	تأسيس الدولة المرينية وتملكها المغرب
٦٧٠ هـ ـ ١٢٧٢ م	وقعة ايسلي الشهيرة
٦٧٨ هـ ـ ١٢٨٠ م	انتصار مرين بوقعة وادي التافنة
٦٨٠ هـ ـ ١٢٨١ م	انهزام بني عبد الواد في وقعة الملعب
٦٩٧ هـ ـ ١٢٩٨ م	فتح اعمال الجزائر
٦٩٨ هـ ـ ١٢٩٩ م	انشاء حاضرة المنصورة ومعركة مرسي الرؤوس
٧٠٦ هـ ـ ١٣٠٦ م	تنازل مرين عن مملكة تلمسان
٧١٤ هـ ـ ١٣١٤ م	ابتداء الزحف على مملكة تلمسان
٧٣٠ هـ ـ ١٣٢٩ م	تحالف بني مرين وبني ابي حفص ضد امراء تلمسان
٧٣٦ هـ ـ ١٣٣٥ م	فتح عمالتي الجزائر ووهران
٧٣٧ هـ ـ ١٣٣٧ م	القضاء على امارة بني زيان
٧٤٨ هـ ـ ١٣٤٧ م	فتح اعمال قسنطينة وبجاية
٧٤٩ هـ ـ ١٣٤٨ م	ثورة بني عبد الواد
٧٥١ هـ ـ ١٣٥٠ م	عودة الجزائر لبني عبد الواد
٧٥٢ هـ ـ ١٣٥١ م	استيلاء السلطان ابي عنان على اعمال تلمسان
٧٥٣ هـ ـ ١٣٥٢ م	امتلاك بجاية وثورة اهلها
٧٧٦ هـ ـ ١٣٧٤ م	انقسام دولة مرين بين حكومتي فاس ومراكش
٧٩٦ هـ ـ ١٣٩٣ م	نهاية حكومة مرين بالجزائر
٩٦١ هـ ـ ١٥٥٤ م	سقوط الدولة المرينية في قبضة السعديين

الدولة العبدالوادية ـ الزيانية

٦٣٣ – ٩٦٢ ﻫ – ١٢٣٥ – ١٥٥٤ م

منشاها ونشأتها

منتمى هذه الدولة الى قبيل بني عبد الواد [١] احد بطون القبيلة الجزائرية العتيدة – زناتة – [٢] كانت مواطنهم ما بين جبال سعيدة شرقا ووادي ملوية غربا ؛ ومنهم فصيلة متوطنة بجبل اوراس ، وهم من اهل الوبر يعيشون معيشة النجعة يرتادون صحراء المغرب الاوسط ما بين مصاب ـ مزاب ـ الى ملوية وفيجيج ثم الى سجلماسة ـ تافيلالت ـ ومنها كذلك الى ارض الزاب ، وهم تلو بني مرين في الكثرة والقوة ، ولم يزالوا كذلك الى ان فتح الموحدون المغرب الاوسط فكانوا عونا لهم على ذلك فأقطعوهم علامة بلاد بني يلومي وبني وماتو بنواحي شلف واستقروا منذ ذلك العهد بأحواز تلمسان [٣] ووطدوا اقدامهم بها هنالك ببطولتهم الحربية وشجاعتهم الادبية وحنكتهم السياسية فأحرزوا يومئذ على ثقة الموحدين ، ومنهم ملوك هذه الدولة ـ بني زيان ـ ،

---

(١) أصله عابد الوادي صفة لجدهم المتبتل بواد هناك

(٢) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا ص ١٥ و ١٩٦

(٣) اسم بربري مركب من كلمتين اثنتين ، اولاهما : تلم ، بكسر التاء ومعناها تجمع ، والثانية سان ، ومعناها اثنين ، فهو كما ترى اسم وصفي للمدينة بالنظر الى موقعها الطبيعي حيث كانت جامعة بين الصحراء والتل ، ويقول ابن خلدون : يعنون الى البر والبحر .

واولهم يغمراسن بن زيان بن ثابت .. ولا مستند لمن عزاهم الى آل البيت ؛ فان يغمراسن نفسه لما ذكر له ذلك ورفع نسبه الى ادريس بن عبدالله الكامل قال برطانتهم ما معناه : « ان كان هذا صحيحاً فينفعنا عند الله » واماالدنيا فإنما نلناها بسيوفنا »[1] .

اشتهر هذا القبيل في اول امره بمقاومته لانتشار نفوذ الموحدين، ولما ظهر عجزه امام تيار قوات دولة بني عبد المؤمن ووجد نفسه كناطح صخرة اذعن في النهاية واخلص في طاعته للموحدين واستعمل في ذلك براعته السياسية فأذهب عنه السخائم ونال حظوة عظيمة لدى ملوك هذه الدولة فاقطعته بلاد بني « واماتو » وبني « يلومي » بنولص «وادي ميناس » واحواز غيليزان ، فتمكن بذلك يومئذ من تثبيت قدمه بتلك الجهات فمكث بها محافظاً على مكانه ووحدته الذاتية والسياسية ؛ وهكذا بقي يعمل لصالحه الى ان استأنس من الحكومة ضعفاً حيث اخذت ايامها في التدهور واشرفت الدولة على النهاية كما تقدم تفصيله في الجزء الاول . فتطلع بنو عبد الواد يومئذ الى التملك على المغرب الاوسط ، وعملوا على حمل الدولة الموحدية على التنازل لهم عن امارة تلمسان ، وقد نالوا ذلك بعقد الامارة لشيخ قبيلهم عهدئذ جابر بن يوسف ٦٢٧ هـ - ١٢٣٠م فانتصب للحكم وادارة شؤون البلاد بنفسه وبادر الى الاشتغال بجمع فصائل بني عبد الواد وفروعهم فادخلهم تحت رايته فبايعه جمعهم منضوياً تحت حكمه وسلطته ولم يفلت عنه يؤمئذ الا مدينة ندرومة فتوجه اليها سنة ٦٢٩ هـ - ١٢٣٢م مشدداً عليها الحصار فرماه من سورها يوسف الغفاري التلمساني بسهم فقتله ، فجلس ولده الحسن مكان ابيه محتمياً في الظاهر بدولة الموحدين ثم بعد ستة اشهر من ولايته تخلى عنها لعمه عثمان بن يوسف فمكث بها نحو سنة ونصف فظهر منه زيغ في سياسته فعزله قومه وولوا مكانه ابا عزة زيدان بن زيان ، فأطاعه قومه ولم يخرج عن مبايعته يومئذ سوى بني مطهر من بني عبد الواد فذهب لمقاتلتهم فقتلوه خارج تلمسان

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٢ وانظر المقدمة ص ٦٥ ط بولاق ١٣٧٤ هـ ،

سنة ٦٣٣ هـ ١٢٣٥م فكانت ايامه نحو ثلاث سنوات ، وبموته انقطع نفوذ الموحدين تماماً من تلمسان وبويع لاخيه يغمراسن .

تملك يغمراسن بعد اخيه ابي عزة واظهر شارة الملك والسلطان واعلن استبداده واستقلاله بهذه الامارة ٦٣٣هـ – ١٢٣٥م ولم يبقَ للموحدين بها سوى الخطبة ؛ فاستاء لذلك خليفة الموحدين ابو الحسن السعيد الملقب بالمعتصم وكان اهل المغرب يومئذ في ثورة عامة ضد حكومة المعتصم هذا : بنوابى حفص شرقاً وبنو مرين غربا ، فخرج المعتصم من مراكش ٦٤٥هـ (١٢٤٧) حاشداً لجموعه الكثيرة فقصد اولا مكناسة الزيتون وبلغ الى تازا في المحرم ٦٤٦ هـ (افريل ١٢٤٨م)فأطاعته مرين،ثم تقدم الى تلمسان فخرج اليه يغمراسن في قومه واهله معتصما بقلعة تامذدكت-تامرجديبة- بجنوب وجدة وعلى مقربة منها ، ومن هناك بعث يغمراسن في طلب الصفح من الخليفة معتذراً اليه عما فعل فرفض المعتصم اعتذاره مجمعا الانتقام منه واسرع الى القلعة فحاصرها ثلاثة ايام ، وفي الرابع : الثلاثاء ١٠ صفر ٦٤٦ هـ (٤ جوان ١٢٤٨) امتطى الخليفة بنفسه ظهر فرس له وخرج في وقت الظهيرة مستكشفا عورة يتوصل منها الى الاستيلاء على القلعة المذكورة ، فتسلق الجبل واخذ يبحث ويتجسس خلال الديار ، وبينما هو كذلك اذ رآه يوسف الشيطان احد فرسان بني عبد الواد المنيخين بساحة القلعة للحراسة، واتفق ان كان يغمراسن بن زيان وابن عمه يعقوب بن جابر قريبين منه فعرفوا الخليفة فانقضوا عليه امثال العقبان وطعنه يوسف فكبه عن فرسه ثم قضى من جراحه فدفن هنالك بالعباد ، وقتل وزيره يحيى بن عطوش على يد يعقوب واستلحم القوم مواليه وبعض اولاده وابقوا على الحرم واضطرب يومئذ جيش الموحدين وانتشرت الفوضى بينهم وعمهم القلق فتفرقوا شذر مذر فاستولى بنو عبد الواد يومئذ على ما كان هناك من الاسلاب والغنائم والاثاث ، واختص يغمراسن بفسطاط الخليفة فكان له خاصة دون قومه ، واستولى على الذخيرة التي كانت فيه ومنها

المصحف الشريف [1] الذي يقال انه احد المصاحف الاربعة التي نسخت في

(١) كان اول ما ظهر هذا المصحف الشريف بالمغرب ان وجد بخزائن قرطبة عند ولد عبد الرحمن الداخل ، ثم صار في خزائن دولة المرابطين فيما صار اليها من ذخائر ملوك الطوائف بالاندلس ، ثم صار الى خزائن الموحدين من يد لمتونة ، فانتقل في حادثة قلعة « تامرزدكت » المذكورة اعلاه الى يغمراسن بن زيان وبني عبد الواد من ملوك تلمسان ثم صار الى ملوك بني مرين فيما استولوا عليه من ذخائر آل زيان ، وذلك عندما تغلب السلطان ابو الحسن المريني على تلمسان سنة ٧٣٧ هـ - ١٣٣٦م فحصل المصحف الشريف عنده فكان يتبرك به ويحمله في اسفاره على العادة الى سنة ٧٥٠ هـ - ١٣٤٩ م حيث ركب السلطان ابو الحسن البحر من تونس قافلا الى المغرب بعد استيلائه على افريقية وكان ذلك في أبان ثورة البحر وهيجانه فغرقت مراكبه وهلكت نفوس كثيرة وفقدت نفائس يعز وجود مثلها ، ومن ضمنها هذا المصحف الكريم فاستأثر البحر به، وكان ذلك آخر عهد المغرب ببركته ؛ واليك تفاصيل ملخصة مما ذكره المقري في النفح نقلا عن رحلة ابن رشيد فيما وصف به شكل هذا المصحف الجليل وما ابدعه في صنعته وخدمته اهل الفنون الجميلة وارباب الصناعات الميكانيكية والهندسية مما يدلك على مبلغ اوج الحضارة والمدنية الباهرة يومئذ بالمغرب ، قال :

« ثم انهم - اي بني عبد المؤمن الموحدين - لما أرادوا من المبالغة في تعظيم المصحف المذكور واستخدام البواطن والظواهر فيما يجب له من التوقير والتعزيز ، شرعوا في انتخاب كسوته ، واخذوا في اختيار حليته ، وتأنقوا في استعمال احفظته ، وبالغوا في استجادة أصونته ،فحشروا له الصناع المتقنين ، والمهرة المتفننين ، مما كان بحضرتهم العلية ، وسائر بلادهم القريبة والقصية ، فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة ، من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين ، والنجارين والزواقين والرسامين والمجلدين ، وعرفاء البنائين ، ولم يبق من يوصف ببراعته ، او ينسب الى الحذق في صناعة ، الا أحضر للعمل فيه ، والاشتغال بمعنى من معانيه ، فاشتغل أهل الحيل الهندسية بعمل أمثلة مخترعة ، وأشكال مبتدعة ، وضمنوها من غرائب الحركات ، وخفي امداد الاسباب للمسببات ما بلغوا فيه منتهى طاقتهم ، واستفرغوا فيه جهد قوتهم ...

« فكسي المصحف كله بصوان واحد من الذهب والفضة ذي صنائع غريبة من ظاهره وباطنه لا يشبه بعضها بعضاً ، قد أجرى فيه من ألوان الزجاج الرومي ما لم يعهد له في العصر الاول مثال ، ولا عمر قبله بشبهه خاطر ولا بال ، وله مفاصل تجتمع اليها أجزاؤه وتلتئم ، وتتناسق عندها عجائبه وتنتظم ، قد أسلست للتحرك اعطافها ، واحكم انشاؤها على البغية وانعاطفها ، ونظم على صفحته وجوانبه من فاخر الياقوت ونفيس الدر وعظيم الزمرد ... فانتظم عليه منها ما شاكله زهر الكواكب في تلألؤه واتقاده ، واشبه الروض المزخرف غب سماء اقلعت عن امداده ، واتى هذا الصوان الموصوف رائق المنظر ، آخذاً بمجامع القلب والبصر ، مستوليا بصورته الغريبة على جميع الصور ،يدهش العقول بهاء ويحير الالباب رواء، ويكاد يغشى الناظر ←

عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه وبعث بها الى الامصار ؛ ولم يثبت انها منسوخة بخط يده .

نظامها الحكومي

اشتهرت هذه الحكومة الجزائرية في أول نشأتها باسم «دولة بني عبدالواد» الى ان كان عصر الاستيلاء المريني على تلمسان سنة ٧٣٧هـ (١٣٣٧م) فعرفت بعد ذلك في عصر الانبعاث على عهد السلطان ابي حمو الثاني باسم « الدولة الزيانية » نسبة الى زيان بن ثابت والد يغمراسن اول ملوك هذه الدولة

عاشت هذه الدولة مستقلة بالحكم بعيدة عن سيطرة الغير ، وعاصمتها دائماً «تلمسان» ، والنفوذ الاداري فيها يعود الى السلطان الملقب بأمير المسلمين وهو دائماً من بيت آل زيان ، وولايته تكون غالباً بالعهد من الملك السابق وقد تكون بالغلبة والقهر والسطوة او العصبية القبلية ، ولم يثبت عن ملوك هذه

← تألقاً وضياء ...

وتلطف القوم في وجه يكون به هذا الصوان المذكور طوراً منصلا وطوراً منفصلا ؛ ويتأتى به للمصحف الشريف العظيم ان يبرز تارة للخصوص متبذلا وتارة للعموم متجملا اذ معارج الناس في الاستبصار تختلف ، وكل له مقام اليه ينتهي وعنده يقف فعمل فيه على مشاكلة هذا القصد وتلطف في تتميم هذا الغرض المعتمد .

وكسى المصحف العزيز بصوان لطيف من السندس الاخضر ذي حلية عظيمة خفيفة تلازمه في المغيب والمحضر ؛ ورتب ترتيباً يتأتى معه ان يكسي بالصوان الاكبر ؛ فيلتئم به التئاماً يغطي على العين من هذا الاثر ، وكمل ذلك كله على اجمل الصفات واحسنها ، وابدع المذاهب واتقنها .

وصنع له محمل غريب الصنعة ، بديع الشكل والصبغة ، ذو مفاصل ينبو عن دقتها الادراك ، ويشتد بها الارتباط بين المفصلين ويصح الاشتراك ، مغشى كله بضروب من الترصيع ، وفنون من النقش البديع ، في قطع من الآبنوس والخشب الرفيع ، لم تعمل قط في زمان من الازمان : ولا انتهت قط الى ايسره نوافذ الاذهان ، مدار بصنعة قد اجريت في صفائح الذهب ، وامتدت امتداد ذوائب الشهب ، وصنع لذلك المحمل كرسي يحمله عند الانتقال ، ويشاركه في اكثر الاحوال ، مرصع مثل ترصيعه الغريب ومشاكل له في جودة التقسيم وحسن الترتيب .

وصنع لذلك كله تابوت يحتوي عليه احتواء المشكاة على انوارها ، والصدور على محفوظ افكارها ، مكعب الشكل سام في الطول ، حسن الجملة والتفصيل ، بالغ ما شاء من التتميم في اوصاله والتكميل جار مجرى المحمل في التزيين والتجميل ؛ وله في احد غواربه باب ركبت عليه ←

الدولة دعوى الخلافة الا في ايام قلائل دعت اليها الظروف وحملتهم عليها تقلبات السياسة

واشهر الموظفين في هذه الحكومة هم الوزراء والقادة والكتاب والحجاب واصحاب الاشغال والقضاة والعمال والمحتسبون وشيوخ المدن والمحافظون ورؤساء الحاميات والشرطة ؛ ولكل من هذه المناصب ديوان - او ادارة - خاصة بهذه المصلحة ، واعلاها عندهم وظيفة الحجابة ، فللحاجب الاتصال بشخص السلطان نفسه متى شاء وهو الذي ينوب عن الملك في غيبته حربا أو سلما ، ويسمى صاحب هذه الوظيفة « بالمزوار » والموظفون في هذه الحكومة هم اكثر عدداً من اعضاء دولة بني مرين .

واما الجيش فانه يتألف من اربعة اصناف: الاعيان وهم الرؤساء والقواد، والقبيل وهم من مطلق رعايا بني عبد الواد ورئيسهم يعرف بلقب « الشيخ » والانصار وهم نخبة الجيش وخلاصته ، ومكانهم في الزحف دائماً حول السلطان محدقين به ، والرابع المماليك وهم خليط من العرب والبربر والزنوج وغيرهم؛

← دفتان قد احكم ارتتاجهما ، ويسر بعد الابهام انفراجهما، ولانفتاح هذا الباب وخروج هذا الكرسي من تلقائه وتركب المحمل عليه ما دبرت الحركات الهندسية، وتلقيت التنبيهات القدسية ، وانتظمت العجائب المعنوية والحسية ، والتأمت الذخائر النفيسة والنفسية ؛ وذلك ان بأسفل هاتين الدفتين فيصلا فيه موضع قد اعد له مفتاح لطيف يدخل فيه ، فاذا ادخل ذلك المفتاح فيه ،اديرت به اليد انفتح الباب بانعطاف الدفتين الى داخل الدفتين من تلقائهما وخرج الكرسي من ذاته بما عليه الى اقصى غايته ، وفي خلال خروج الكرسي يتحرك عليه المحمل حركة منتظمة مقترنة بحركته ؛ يأتي بها من مؤخر الكرسي زحفا الى مقدمه ، فاذا كمل الكرسي بالخروج وكمل المحمل بالتقدم عليه انغلق الباب برجوع الدفتين الى موضعها من تلقائهما دون ان يمسهما احد ، وترتيب هذه الحركات الاربع على حركة المفتاح فقط دون تكلف شيء آخر ، فاذا ادير المفتاح الى خلاف الجهة التي ادير اليها اولا انفتح اولا الباب ،واخذ الكرسي في الدخول والمحمل في التأخر عن مقدم الكرسي الى مؤخره ، فاذا عاد كل الى مكانه انسد الباب بالدفتين ايضاً من تلقائه ، كل ذلك يترتب على حركة المفتاح كالذي كان في حال خروجه ، وصحت هذه الحركات اللطيفة على اسباب ومسببات غائبة عن الحس في باطن الكرسي ،وهي مما يدق وصفها ، ويصعب ذكرها ....

راجع نفح الطيب ج ٥ ص ١٥٢-١٨٤ نشر دار المأمون بمصر ١٣٥٥ هـ - ١٩٣٨ م

ولقد بلغ عدد الجنود من قبيلة بني راشد فقط ما يفوق الخمسة والعشرين الف نسمة ، وكان للنصارى العلوج في اول نشأة الدولة مشاركة في الجندية وذلك ما يشبه الفرقة الاجنبية المختلطة في الجيش الفرنسي اليوم ، وقد بلغ عددهم يومئذ نحو الالفي فارس ، واستمرت هذه الفرقة تعمل في الجيش الزياني الى ان افتضح أمرها وظهرت خيانتها بقتل الامير محمد اخ السلطان يغمراسن يوم استعراضه للجيش بباب القرمدين – شمال غربي تلمسان – فحذفت اذ ذاك هذه الفئة منسلك الجيش الزياني تماما سنة ٦٥٢ هـ (١٢٥٤م)

وكان لجميع فرق الجيش هذه جراية يتسلمها الجند منخزينة الدولـــة كل بحسب مقامه ورتبته ، فان اقل ما كان يعطى الجندي الزياني : ثلاثمائة دينار شهريا ، وكان للفارس على عهد ابي حمو الثاني ثلاثة من الذهب ؟... وعشرون برشالة من القمح ، وثلاثون من الشعير ، ويعطى له فرس ومهماز وسيف ورمح وكان عدد هؤلاء الفرسان يومئذ يفوق الخمسة عشر الف فارس

ولجميع هذه الفرق والكتائب رايات خاصة تتميزبها عن سواها وتعرف بها في يوم العرض العام بين يدي الملك في ايام معلومة من السنة ؛ وفيها يمنح الجند درجاته وترقياته في مراتب الجندية وفيها يبدي السلطان ملاحظاتهالعسكرية على الجند فيأخذ بأحسنها

واما التعبئة الحربية فهي يومئذ على ما تعارفه الناس بينهم من التراتيب العسكرية المعهودة في الجيش العربي : المقدمة ، ومكانها في الحرب دائماً امام الملك او نائبه ، والميمنة عن يمينه ، والميسرة عن يساره، والقلب وفيه يكون القائد الاعلى ، ووراءهم الساقة ، وبهذا سمي الجيش خميسا

واما الخزينة المالية فانها متكونة من الجبايةوالمغانم والمكوس والاجلاب، وللدولة عملتها الخاصة المضروبة بتلمسان وعليها اسم ملوكها

وللحكومة علاقات ومعاهدات سياسية واقتصادية مع غيرهـا من دول الشرق والغرب حسبما دلت على ذلك الوثائق الديبلوماسية . وان كانت بالنسبة

الى جارتها – دولة بني مرين – هي اقل واضعف منها بكثير في كلا الناحيتين، الاقتصادية والحربية .

حدود الجزائر الزيانية

كانت تمتد مملكة الجزائر الزيانية غرباً الى مدينة تاوريرت[1] التي هي اليوم داخل التراب المراكشي على بعد ١٣٦ كيلومتراً غربي وجدة وتبلغ في بعض الاحيان شرقاً الى اعمال قسنطينة ودلس وبجـاية وهي في ذلك تسير حسب تقدم الدولة وانتصاراتها على منافسيها ومزاحميهـا من بني أبي حفص وبني مرين ، وبلغت حدودها الجنوبية الغربية الى سجلماسة – تافيلالت – وهكذا استمرت حدود هذه الدولة ما بين مـد وجزر بحسب ما تواتيها الظروف كما ستعرف ذلك فيما يلي .

ولاية السلطان يغمراسن

هو ابو يحيى يغمراسن بن زيان بن ثابت من بني «اطاع الله»، العبدالوادي راس الاسرة الملكية الزيانية ، ولد سنة ٦٠٣ هـ (١٢٠٦م) وبويع الملك يوم ان توفي اخوه الامير ابو عزة زيدان: الاحد ٢٤ ذي القعدة ٦٣٣هـ ٣١جوليط ١٢٣٦م) وكان معروفاً بين قومه بالدهاء السياسي والشجاعة والحزم وجزالة الرأي ومكارم الاخلاق وايثار ذوي الفضل والعلم .

ويشهـد لعلو همته وعزة نفسه انه كان أهدى مرة الى ملك الاندلس ابن الاحمر تحفاًونفائس من منتوجات بلاده وكان من بينها ثلاثون من عتاق الخيل وثياب من عمل الصوف الجيد الرفيع : فرد اليه ابن الاحمر صحبة ابن مروان التجاني كفء ذلك عشرة الاف دينار فلم يرض يغمراسن بالمـال في هديته وردها على صاحبها[2].

---

(١) قال ابن خلدون : وكانت ـتاوريرت ـ تخماً لعمل بني مرين وبني عبد الواد في جانبها عامل السلطان ابي يعقوب ، وفي جانبها الآخر عامل عثمان بن يغمراسن ج ٧ ص ٣١٩، ٣٥٤ ط بولاق ١٢٨٤ .

(٢) ابن خلدون ج. ٧ ص ٣٠٢ بولاق – ١٢٨٤ هـ.

تولى الملك وامر الرعية في اضطراب وقلق من ظلم الرؤساء المستبدين وجور الولاة والحكام المتعسفين ، فساس الشعب الجزائري بحكمة وجدارة حتى اطمأن اليه الناس وخضعوا لحكمه العادل فبايعوه البيعة العامة واذعن اليه القاصي والداني ، ولم يمنعه يومئذ حداثة دولته الناشئة ولا ضعفها المادي من القبض على ايدي الاعداء والخصوم والاعلان بتأسيس الدولة العبد الوادية واستقلالها بالحكم رغم ما كان يحيط بها من الخطر المهدد لها من طرف الامارات المحدقة بها شرقاً وغرباً ، فأظهر بذلك مقدرة عظيمة وسياسة صائبة في تسيير دفة المملكة الجزائرية وسط تلك العوائق والعراقيل وقادها الى النصر .

اغارة الحفصيين على تلمسان

كان من دهاء يغمراسن وحسن سياسته ان عمل على توثيق عرى الصداقة واحكام اسباب الولاء بينه وبين سلطان الموحدين سنة ٦٣٩ ﻫ (١٢٤١م) فحصلت المؤانسة بين العاهلين وصفا بينهما الجو ؛ فاستشعر سلطان الحفصيين يومئذ ابو زكرياء بمؤامرة دبرت ضد مملكته الشرقية فكتم شعوره وعواطفه نحو يغمراسن واخذ في الاستعداد الى مهاجمة النواحي الغربية بمعاضدة عبد القوي بن العباس شيخ بني توجين والعباس بن منديل واخوته من امراء مغراوة الثائرين ضد يغمراسن . ولما استكمل استعداده خرج بجيوشه بغتة فنازل تلمسان يوم الاربعاء ٢٩ المحرم ٦٤٠ ﻫ (٢٩ جوان ١٢٤٢م) واحاطها باثني عشر الف رام مترجل من غير ما كان معه يومئذ من عدد الفرسان والركبان ، فانحاز بنو عبد الواد عنها الى جبال بني يزناسن ، ويقال انهم وقفوا لصق البلد بجبل ترني من بني ورنيد ، واحتل الحفصيون تلمسان وعاثوا في البلد بقتل النساء والصبيان واكتساح الاموال ، ثم كانت الهدنة ووقعت المفاوضة في عقد الصلح بانتداب والدة يغمراسن ـ سوط النساء ـ فقامت بذلك كنائبة عن دولة بني زيان احسن قيام ؛ وكان فيما اشترطه الحفصيون في هذه الدولة : سهام بمائة الف دينار سنوياً ، وان يذكروا

بالدعاء لهم على منابر الجمعة ؛ فرضي يغمراسن بذلك وقال : تلك اعوادهم يذكرون عليها من شاؤوا ، واستمر على ولايته [1].

اخفاق الموحدين في حملتهم على تلمسان

اثار هذا التعاقد او الحلف الواقع بين دولة بني زيان الناشئة ودولة بني ابي حفص سخائم واحقاداً في صدور رؤساءالدولة الموحدية وساءها انفرادهما دونها بذلك : فخشيت من اتحادهما ضدها واحفظ ذلك الخليفة ابا الحسن السعيد بمراكش ، فتحرك من هنالك بجيوشه سنة ٦٤٥هـ - ١٢٤٧م بقصد الايقاع بالدولتين المتعاقدتين فكانت يومئذ بينه وبين يغمراسن الواقعة المشهورة حول قلعة « تامززدكت » فانهزم فيها الموحدون كما ذكرناه قريباً .

منشأ الخلاف بين بني عبد الواد وبني مرين

لا يخفى وان المغرب الاوسط - الجزائر - كان في ايام نشأة امارة بني عبد الواد الزيانية ملحقاً بالدولة الحفصية ، وان هذه الامارة الجزائرية كانت تابعة للحفصيين ؛ وكان المرينيون يومئذ يحاولون التوسع شرق مملكتهم المغربية ، فوقف في وجه هؤلاء بنو عبد الواد الذين استشرفوا لحكم هذه الاوطان منذ ان نزل بها سلفهم صدر دولة الموحدين ؛ فكان لذلك ما نراه من استمرار الحروب والفتن بين هذين القبيلين طيلة مجاورتها حسبما توجبه السنة الطبيعية في تنازع البقاء ؛ وكثيراً ما انتصرت مرين على عدوتها المزاحمة غير انها لم تستطع القضاء عليها نهائياً بسبب احتمائها بقبائل من زناتة كمغراوة وبني توجين .

طموح يغمراسن نحو المغرب الاقصى وخيبته

استمر النزاع والخلاف بين دولة الموحدين المدبرة ودولة بني مرين المقبلة واشتد ذلك بينهما سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) فتوترت العلائق وحمي الوطيس

---

(١) راجع ص ١٥ من هذا الجزء

الى ان افضى الأمر بينهما الى ايقاد نار الحرب ، فاستجاش الموحدون جيوش بني زيان ، وكان ليغمراسن يومئـذ غرض في مناهضة دولة بني مرين والقضاء عليها فمد يده الى الموحدين ، وكانت الملحمة عظيمة بوادي اسلي – من بسيط وجدة – انهزم فيها يغمراسن وترك محلته للنهب والسلب وعاد الى تلمسان ؛ ثم كان استيـــلاء محمد بن عبد القوي سنة ٦٤٧ هـ – ١٢٤٩ م على جبال ونشريس وبرشك وشرشال ؛ وفيهـــا تملك ايضاً محمد بن منديل المغراوي بمدينة مليانة وغيرها من الاعمال الشرقية الى سنة ٦٦٨ هـ –١٢٦٩ م فاستردها منه يغمراسن قهراً .

وفي سنة ٦٥٥ هـ – ١٢٥٧ م نهضت مرين منتقمة من بني زيان لانحيازهم الى خصمائهم الموحدين ، وكانت المعركـة بينهما بأبي سليط ، فانهزم يغمراسن بها وتكررت عليه الهزائم فيمم نحو سجلماسة ودرعة عله يعوض بفتحها مـا فاته من النصر هناك ؛ وما كاد يبلغ مقصده حتى كانت مرين قد سبقته الى تلك النواحي بيوم قبله ، فسقط في يـــده وحاول التغلب عليهم بسلاحه فلم يفلح .

ويوم ان توفي السلطان ابو بكر او هو ابو يحيى المريني ٦٥٦ هـ – ١٢٥٨م حاول يغمراسن الاستيلاء على عرش المغرب الاقصى فقاتل بني مرين ، فرده السلطان يعقوب منهزماً على اعقابـــه ، ثم تكررت الوقائع والحروب بينهم واشهرها وقعة وادي تلاغ سنة ٦٦٦ هـ (١٢٦٧ م) ، ووقعـــة ايسلي قرب وجدة ٦٧٠ هـ (١٢٧١ م) وفيها حطم المرينيون مدينـــة وجدة وحاصروا تلمسان ، ووادي التافنـــا ، وتامسونت ، وبني بهلول .... وكان النصر في جميعها لبني مرين .

المنافسة وحب الاستئثار

لقد اثار تتابـــع انتصارات السلطان ابي يوسف يعقوب المريني بالاندلس امتعاضاً شديداً وحسداً في قلوب ملوك غرناطـة من بني الاحمر حيث توهموا

بذلـك القضاء على مملكتهم الاندلسية ، فسعوا حينئذ في مشاغبته وعملوا على إقصائه بربط صلتهم بملك الاسبان واوعزوا الى يغمراسن باشغال مرين عنهم وترددت بذلك الرسل والسفراء بين تلمسان والاندلس، فارتاح لذلك يغمراسن لحاجة في نفس يعقوب ، ووجد فيها شفاء نفسه فسعى يومئـذ بكل جهوده في انزال العراقل والعوائق ببني مرين وشغلهم عن الجهاد بمشاغباته ومناوآته، فالح عليه يومئذ السلطان ابو يوسف المريني في الكف عن غيه فأبى، وحينئذ نهضت مرين فأوقعت ببني زيان في معركة خرزونة سنة ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ثم توالت بعدها هجمات وزحوف أخرى .

حزم يغمراسن ونشاطه

قضى موقع دولة بني زيان ووضعيتها الطبيعية بين مملكتي مرين غربـــاً والحفصيين شرقاً بأن تكون مسرحاً وميداناً فسيحاً للمباراة بين هاتين الدولتين فى جمع أقطار المغرب الإسلامي والاستيلاء على طرفيه ؛ وكانت هذه الوقائع المتكررة بين دول المغرب والحوادث السياسية المتجددة هناك درســاً عملياً ليغمراسن ، فأخذ حينئذ فيتحصين بلاده واحاطتها بما يدرأ عنها العدو، فجاء بقبيلة بني عامر العربية من صحراء بني يزيد وأقطعها نواحي وهران وتلمسان ، وكانت له هناك خير وقاية احتمى بها عن مهاجمة خصومه المعاقيل المقيمين بسهول متيجة ؛ وجاء كذلك بقبيلة حميان الهلالية فأقامهـا بصحراء تلمسان فكانت له حصناً منيعاً من بني مرين ، وأسكن فريقـاً من عكرمة بجبل « كركرة » قبلة « السرسو » وعمل كذلك على ربط صلته بالسلطان أبي اسحاق ابراهيم الحفصي ، واكد هذه الصلة بالمصاهرة فخطب كريمته لولده وولي عهده أبي سعيد عثمان ، وكثيراً ما كان يستعمل قرابتـه على الممالك ويوليهم رئاسة العمالات .

ثم تفرغ يغمراسن بعد ذلك لإخضاع القبائل المنشقة والمخالفة عنه من مغراوة وتوجين [1] فناهضها عدة مرات حتى استقامت له وجنحت الى السلم فكف عنها بأسه ، ونزل له يومئذ عمر بن منديل المغراوي عن مدينة مليانة – عاصمة مغراوة – فاحتلها يغمراسن سنة ٦٦٨ هـ (١٢٧٠ م) .

وكانت مبايعة أهل سجلماسة ليغمراسن سنة ٦٦٢ هـ (١٢٦٣ م) ، فاستعمل عليهم ولده يحيى ، ثم خرجوا عن الطاعة منسلخ صفر سنة ٦٧٣ هـ (٥ سبتمبر ١٢٧٤ م) واحتلتها يومئذ مرين عنوة ، وفي سنة ٦٧٢هـ(١٢٧٣م) نزل عائد بن منديل واخوه ثابت أميرا مغراوة عن مدينة تنس وأحوازها ليغمراسن فضمها الى ملكه .

غدر الفرقة الافرنجية بالسلطان والقضاء عليها

كان من بين الجيش الزياني فرقة من علوج النصارى تعمل مع الجند فحازت بطول مرانها ثقة السلطان وتقديره فكان يباهي بها بين جموعه في جميع مواقفه الحربية وفي السلم ايضاً ، وهي مع ذلك تعمل في الخفاء لقلب نظام الحكومة والقضاء على السلطان فتربصت به الدوائر حتى اذا كان يوم استعراض الجيوش على السلطان ضحى يوم الاربعاء ٢٥ ربيع الثاني ٦٦٢هـ(٢٥ فيفري ١٢٦٤ م) ، وكان يغمراسن يومئذ قائماً بباب القرمادين بعاصمة تلمسان فاعتدى عليه رئيس هذه الفرقة الاجنبية وحمل عليه السلاح وبادرت الفرقة المذكورة الى محمد بن زيان أخ يغمراسن فقتلته غدراً ونجا السلطان ، وكان هنالك فزع واضطراب عظيم في الجيش فاندفع الناس حين ذاك الى القضاء على هذه الفرقة المشتملة على نحو ألفي فارس ، فكان ذلك آخر العهد بهذه الفرقة الافرنجية ولم يستخدم بعدها أحد من نصارى الافرنج بالجندية في دول المغرب .

---

(١) مواطن مغراوة هي بشمال وانشريس ووادي شلف الى البحر ، وتنتهي شرقاً الى وادي السبت قرب متيجة وغرباً الى البطحاء بناحية نهر مينة . أما مواطن توجين فشرقي بني عبد الواد وجنوب مغراوة فيما بين سعيدة والمدينة ؛ ولقد بقى هاتان القبيلتان على ثورتها طيلة ملك بني زيان .

وفاة يغمراسن

تقدم أن ذكرنا اصهار يغمراسن الى السلطان الحفصي في أبنته لولي عهد المملكة الزيانية ابي سعيد عثمان ولد يغمراسن ، وكان موعد الزفـاف في ذي القعـدة سنة ٦٨١ هـ (مارس ١٢٨٣ م) فخرج موكب العروس من تونس برئاسة الأمير أبي عامر ابراهيم بن يغمراسن ، وما كاد ليقترب الموكب من الحدود حتى خرج السلطان نفسه لاقتباله وحمايته من غارات توجين ونزوات مغراوة ، فاتصل بالقافلة في مليانة وفي منصرفه الى تلمسان أدركه حِمامه فمات بوادي « رهيو » بشلف ، وذكر ابن خلدون مكاناً آخر هناك في بلاد مغراوة يسمى شدبونة او سدلونة ! وذلك يوم الاثنين ٢٩ ذي القعدة سنـة ٦٨١ هـ (٢٨ مارس ١٢٨٣) فكتمت الخاصة وفاته حتى بلغت به تلمسان فاعلنت وفاته واشتغلت حينئذ بدفنه ، ويشاع ان قبره بالجـامع الأعظم من تلمسان !.. فكان عمره يومئذ ٧٦ سنة ، ومدة حكمه ٤٤ سنة وخمسة اشهر واثنا عشر يوماً ، فبايع الناس يومئذ ولده أبا سعيد عثمان .

ولاية السلطان ابي سعيد عثمان

ولد السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤١ م) وكانت مبايعته بالملك بعد وفاة والده في أوائل شهر ذي الحجة سنة ٦٨١ هـ (مارس ١٢٨٣ م): وكان ملكاً شهماً حسن السياسة والتـدبير مقداماً صبوراً على حوادث الدهر وضرباته .

وقد كان اوصاه والده من قبـل بمسالمة بني مرين ليتفرغ فيما بعد الى فتح ما ولاه شرقاً من بلاد الحفصيين ففعل، وبعث في ذلك بأخيه محمدالى السلطان يعقوب بن عبد الحق المريـني وكان إذ ذاك بالاندلس (٦٨٤ هـ – ١٦٨٥ م) فهادنه وسالمه .

اشهر فتوحاته ووقائعه

وفق أبو سعيد في سلوكه السياسي الى جمع كلمـة قومه واكتساب قلوب

الرعية وعطفها عليه وذلك بحسن التدبير ومعرفة للأساليب المنتجة والطرق الجدية، فانتشر بذلك سلطانه على نواح كثيرة كانت متمردة عليه بالقطر الجزائري، وكان من غزواته الموفقة حملته على مازونة وانتزاعها من مغراوة وفتحها في منتصف رمضان ٦٨٦ هـ (اكتوبر ١٢٨٧ م) واستيلاؤه ايضاً على «تفرجينت أو تافركينت ؟..» التي كانت لتوجين ؛ واناخ في هذه السنة بعساكره على بجاية ثم افرج عنها، واستولى على وانشريس واخرج منها ملكها موسى بن زرارة التوجيني، واحتل مدينة تنس والمدية يوم ٢٦ ربيع الثاني ٦٨٨ هـ (٢٠ ملي١٢٨٩م)، ثم تقدم في السنة بعدها الى تدويخ بلاد مغراوة فأخضعها كلها، وحاصر مدينة برشك - بين تنس وشرشال - مدة اربعين يوماً ففتحت عليه سنة ٦٩٣ هـ (١٢٩٤ م) وفر عنها صاحبها ثابت بن منديل المغراوي فأبحر الى حيث لا يعلم مكانه.

ونازل اولاد سلامة بقلعتهم - تاوغزوت - جنوبي غربي مدينة فرندة، فأطاعوه بعد امتناعهم عليه مراراً وهلك فيها رئيسهم يغمراسن بن سلامة منشئ هذه القلعة ومؤسسها.

ولهذا السلطان ايام ووقائع كثيرة ومواقف حازمة وقفها ضد توجين لتحالفها وتآلفها مع خصومه بني مرين. وكان على يده القضاء على ملك القبيلين: مغراوة وتوجين - معاً - وانتظم له ملك المغرب الاوسط كله.

محاصرة تلمسان ووفاة ابي سعيد

لقد بلغ من أمر العداوة المستمرة بين بني عبد الواد وبني مرين انه ما سنحت فرصة لاحد الطرفين للايقاع بصاحبه الا وانتهزها أخذاً بثأره واخماداً لغلته، فتعددت الوقائع والحروب بين القبيلين، وكان منها هذا الحصار الطويل الذي ضربه ابو يعقوب يوسف المريني على تلمسان بسبب ما قامت به هذه الدولة من ربط صلتها بخصومهم في الأندلس بملوك بني الأحمر ومشاغبتها الدائمة على بني مرين.

تحرك ابو يعقوب يوسف من مدينـــة فاس في ربيـــع الثاني ٦٨٧ هـ (ماي ١٢٩٠ م) فنزل بذراع الصابون من ظهر تلمسان يوم الثلاثاء ٢٥ جمادى الثانية – ٦ جوليت – ومكث محـاصراً للمدينة نحو ثلاثة اشهر ، فكانت هناك حروب طاحنة اشتد فيها الامر على الفريقين فانكسر فيها أولاً ابو يعقوب فأقلع عن الحصار مدبراً الى مركزه بالمغرب الأقصى ، ثم تكرر منـه الهجوم على تلمسان ومحاصرتها اربع مرات، ثم كانت الخامسة بعد انتقاض زكرياء بن يخلف المطغري (١) قائد ندرومة وفي هذه المرة ضرب يوسف بن يعقوب عليها سياجاً من أسوار بناها محيطة بها وجعل لها ابواباً مداخل لحربهـا ثم شرع ابو يعقوب في بناء المحلة المنصورة ٦٩٨ هـ(١٢٩٩م) فاشتد يومئذ الكرب ببني عبدالواد الزيانين ونال منهم الجهد والعناء بمـــا لا نظير له في تاريخ المغرب قبله ولا بعده ، بل ولا في تاريخ غيره من الامم فيما علمناه ، وناهيك انه قد طال بهم ذلك الحصار الشديد ثماني سنين وثلاثة أشهر !.. ، اضطروا فيها الى اكل الجيف والقططة والفيران حتى قيل انهم اكلوا اشلاء الموتى من الناس ! وخربوا السقف للوقود وغلت اسعار الاقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجاوز حدود العوائد وعجز وجدهم عنه ، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمونـه البرشالة ويتبايعون به مقداره اثنا عشر رطلا ونصفاً مثقالين ونصفا من الذهب العين ، وثمن الرأس الواحد من البقر ستون مثقالاً، ومن الضأن سبعة مثاقيل ونصف واثمان اللحم من الجيف الرطل من لحم البغال والحمر بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكتهم تكون عشر المثقال، والرطل من الجلد البقري ميتة او مذكي بثلاثين درهما ، والهر الداجن بمثقال ونصف ، والكلب بمثله ، والفأر بعشرة دراهم والحية بمثله !!!. والدجاجه بثلاثين درهما وبعشرة دنانير

---

(١) كثيراً ما يشتبه على الكتاب كتابة هـذه الكلمة ويخطئون في رسمها ؛ فيكتبها بعضهم كيفما اتفق : تارة بالطاء وتارة بالدال بدون تثبت ولا تمييز بينهما ؛ والصحيح انهما اسمان مختلفان لفظاً وخطاً لاماكن ثلاثة مختلفة ، فأما بالدال فهو اسم مكان بأعمال سجلماسة يقال له «مدغرة» واما بالطاء فهو اسم يقع على موضعين مختلفين ؛ احدهما بعمل تلمسان والآخر بعمل تازا من بلاد المغرب الاقصى وكلاهما يقال له «مطغرة» .

والبيضة الواحدة بستة دراهم والعصافير كذلك والاوقية من الزيت باثني عشر درهما ومن السمن بمثلها ومن الشحم بعشرين ومن الفول بمثلها ومن الملح بعشرة ومن الحطب كذلك ، والاصل الواحد من الكرنب بثلاثة اثمان المثقال ، ومن الخس بعشرين درهما ، ومن اللفت بخمسة عشر درهما ؛ والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما والخيار بثلاثة اثمان الدينار ، والبطيخ بثلاثين درهما، والحبة من التين والاجاص بدرهمين ، واستهلك الناس اموالهم وموجودهم وضاقت احوالهم واستفحل ملك يوسف بن يعقوب بمكانه من حصارها واتسعت خطة مدينة المنصورة المشيدة عليها ورحل اليها التجار بالبضائع من الآفاق واستبحرت في العمران بما لم تبلغه مدينة [1] ولقد هلك في هذا الحصار من بني عبد الواد نحو العشرين ومائة الف شخص

وفي اثناء الحصار الشديد هذا بعث سلطان مرين باخويه ابي سرحان وابي يحيى للتوغل بشرقي بلاد الجزائر فنهضا اليها معا سنة ٦٧١ هـ -١٢٧٢م واحتلا مواطن توجين فشردا اهلها وحطما حصون جبل وانشريس،وفتحتا اذ ذاك مدينة (لمديه) صلحا واختط ابو يحيى قصبتها وأطاعه اهل تافركينت ثم عاد الى اخيه السلطان أبي يعقوب .

ورغم كل هذه الشدائد فقد ثبت بنو عبد الواد تجاه بني مرين ثبوت الجبال الراسيات مدافعين عن حرمهم بالمهج الى ان جاءهم الفرج ، وفي اثناء ذلك هلك السلطان ابو سعيد عثمان الزياني وذلك لخمس سنين من الحصار قيل انه داف السم في شرابه تفاديا من معرة الهزيمة والانكسار ، وكانت وفاته بغتة يوم السبت غرة ذي القعدة سنة ٧٠٣ هـ (٥ جوان ١٣٠٤ م) فبويع لولده ابي زيان الاول

ولاية السلطان ابي زيان الاول

هو ولد السلطان ابي سعيد عثمان ، واسمه محمد ، ولد بتلمسان سنة ٦٥٩هـ

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٥ — ٩٦

(١٢٦١م) وكانت مبايعته اثر وفاة والده يوم الاحد ثاني شهر ذي القعدة سنة ٧٠٣ هـ (٦ جوان (١٣٠٤م) وكان مشتهراً بالنشاط والحزم ورقة الحاشية ودماثة الطبع فاضلا حسن التدبير

تولى الملك في احزج الظروف واعسر الاوقات ؛ فلقد ولى عرش بني زيان وعاصمتهم مهددة بالانقراض ودولتهم بالانهيار وحياتهم بالاضمحلال وذلك لما نزل بهم من الحصار المريني وما نكبهم من الرزايا والفجائع والآلام ؛ فتحمل عبء كل ذلك ابو زيان وحده وتزعم قومه مجمعا رايه على الكفاح والمقاومة الى النهاية فاما ملك واما هلك !... وصرخ في قومه اثر مبايعته بكلمته الخالدة : تعالوا نخرج في قومنا فنستميت!... وبينما هو كذلك مزمعا على الحرب اذا بصوت الناعي ينعي سلطان بني مرين ابا يعقوب يوسف صاحب الحصار !...

قال ابن خلدون : و « حدثني شيخنا محمد بن ابراهيم الآبلي قال جلس السلطان ابو زيان صبيحة يوم ذلك الفرج وهو يوم الاربعاء في خلوة من زوايا قصره واستدعى ابن حجاف خازن الزرع فسأله كم بقي من الاهراء والمطامير المختومة ؟... فقال له انما بقي عولة اليوم وغد !!.. فاستوصاه بكتمانها ، وبينما هم في ذلك دخل عليه اخوه ابو حمو فأخبروه فوجم لها وجلسوا سكوتا لا ينطقون !.. واذا بالخادم «دعد» قهرمانة القصر من وصائف بنت السلطان ابي اسحاق وحظية ابيهم خرجت من القصر اليهم وحيتهم تحيتها وقالت : تقول لكم حظايا قصركم وبنات زيان حرمكم ما لنا وللبقاء ؟!.. وقد احيط بكم واسف عدوكم لالتهامكم ولم يبق الا فواق بكية لمصارعكم ، فأريحونا من معرة السبي واريحوا فينا انفسكم وقربونا الى مهالكنا،فالحياة في الذلعذاب والوجود بعدكم عدم !... فالتفت ابو حمو الى اخيه وكان من الشفقة بمكان وقال قد صدقتك الخبر فما تنظر بهن ؟...

فقال يا موسى ارجئني ثلاثاً لعل الله يجعل بعد عسر يسرا ..ولا تشاورني بعدها فيهن ، بل سرح اليهود والنصارى الى قتلهن !.. وتعال إليّ نخرج مع

قومنا الى عدوّنا فنستميت ويقضي الله ما يشاء ؛ فغضب ابو حمو وانكر الارجاء في ذلك ، وقال : انما نحن والله نتربص المعرة بهن وبأنفسنا ، وقام عنه مغضباً وأجهش السلطان ابو زيان بالبكاء !.. قال ابن حجاف – خازن الزرع – وأنا بمكاني بين يديه واجم لا أملك متأخراً ولا متقدماً الى ان غلب عليه النوم ؛ فما راعني إلا حرَسي الباب يشير الى ان اذن السلطان بمكان رسول من معسكر بني مرين لسدة القصر ، فلم أطق رجع جوابه إلا باشارة، وانتبه السلطان من خفيف اشارتنا فزعاً فأذنته واستدعاه فلما وقف بين يديه قال له : ان يوسف بن يعقوب هلك الساعة !.. وأنا رسول حافـــده أبي ثابت اليكم ؛ فاستبشر السلطان واستدعى اخاه وقومه حتى أبلغ الرسول رسالته بسمع منهم ، وكانت احدى المغربات في الايام [1] .

كان اغتيال السلطان ابي يعقوب المريني على يد خصي من العبيد اسمه سعادة اسخطته بعض النزغات الملوكية فاعتمده في كسر بيته ومخدع نومه وطعنه بخنجر قطع أمعاءه ؛ وقد وقع ذلك يوم الاربعاء ٧ ذي القعدة ٧٠٦ ﻫ (١٠ ماي ١٣٠٧ م) ، فاختلفت بعده كلمة اصحابه وتشتت قومه حسب تشتت اغراض رؤسائهم فكان منهم من اعتصم بالفرار ، ومنهم غير ذلك ، فذهب يومئذ العناء عن آل زيان وقومهم وجميع سكان عاصمتهم فكأنما نشروا من أجـــداث ، وكتبوا على سكتهم « ما أقرب فرج الله » استبشاراً وتعجباً وشكراً لله !..

ثم كان الصلح بين الدولتين، وأعيدت لبني عبد الواد جميع البلاد والثغور التي احتلها المرينيون بالجزائر ؛ واوصى ابو ثابت المريني بعدم التعرض لمدينة المنصورة بسوء ؛ غير ان بني عبد الواد لم يكن ليستطيعوا تحمل رؤية شبحها المشؤوم فحطموها تحطيماً .

مقاومة القبائل المشاقة

نشط السلطان ابو زيان الاول بمرافقة اخيه ابي حمو الى بسط نفوذ الدولة

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٦ – ٩٧ ط بولاق ١٣٨٤ .

العبد الوادية على كامل الوطن الجزائري بدون استثناء ؛ وكان اندفاعها من تلمسان يوم الخميس ٢٠ ذي الحجة ٧٠٦ هـ - ٢٢ جوان ١٣٠٧ م فحلا بمواطن مغراوة من نواحي القطر الجزائري الغربي ؛ فأجفلت بطون مغراوة يومئذ الى الصحراء ؛ فاستولى ابو زيان على السرسو الذي كان قد احتله العرب ايام الحصار ، كما انه قد احتوى على جميع ارجاء « شلف » وذلل قبائل توجين فانضوت بأجمعها تحت طاعته ؛ واستمرت الحروب بين بني عبد الواد وبني راشد ، وما كانت لتنتهي الا لتتكرر وتسوء العلائق بينهما من جديد [1] ...

وعاد السلطان الى عاصمته في رمضان ٧٠٧ هـ - فيفري ١٣٠٧م وفي نفس هذه السنة كان القضاء على حاضرة المنصورة التي اشادها المرينيون قرب تلمسان فطمسها بنو زيان ومحوا آثارها تفاديا من بقاء معالم العدو بينهم قائمة مرئية

وفي شهر شوال - مارس - من هذه السنة توفي السلطان ابو زيان الاول اثر مرض لم يمهله اكثر من اسبوع فقط ، فدفن صبيحة يوم الاحد ٢١ شوال - ٢٦ افريل - وبويع لاخيه ابي حمو الاول

ولاية السلطان ابي حمو الاول

هو السلطان ابو حمو موسى « الاول » بن السلطان ابي سعيد عثمان بن السلطان يغمراسن بن زيان ، ولد سنة ٦٦٥ هـ - ١٢٦٦ م وبويع بتلمسان يوم وفاة اخيه السلطان ابي زيان الاول : الاحد ٢١ شوال ٧٠٦ هـ - ٢٦ افريل ١٣٠٧ م - وكان شجاعاً شديداً في غير قساوة : ليناً في غير ضعف ؛ حازماً صارماً؛ وهو اول من احدث في هذه الدولة مراسيم الملك ومصطلحات تنظيمات القصر وتشريفاته Protocole وسك النقود باسمه .

وينعته لنا ابن خلدون فيقول : « ... وكان صارماً، يقظا، حازماً داهية قوي الشكيمة ، صعب العريكة ، شرس الاخلاق مفرط الذكاء والحدة ،

(١) راجع تفاصيل هذه الحوادث في تاريخ ابن خلدون ج ص ١٣٣ و ٣٣٠ - ٣٣١ ط بولاق ١٣٨٤ هـ

وهو أول ملوك زناتة رتب مراسم الملك وهذب قواعده وارهف في ذلـــك لاهـل ملكه حده وقلب لهم مجن باسه حتى ذلوا لعز ملكه وتأدبوا بآداب السلطان . قال – سمعت عريف بن يحيى امير سويد من زغبة وشيخ المجالس الملوكية يقول ويعنيه : موسى بن عثمان هو معلم السياسة الملوكية لزناتة ، وانما كانوا رؤساء بادية حتى قام فيهم موسى بن عثمان فحد حدودهـــا وهذب مراسمها ، ونقل عنه ذلك امثاله وانظاره فتقبلوا مذهبه واقتدوا بتعليمه[1].

غارات ابي حمو وفتوحاته

كان اول ما افتتح به ابو حمو اعماله الادارية ان سعى في مسالمة بني مرين ومهادنتهم؛ ثم لما اطمأن على ملكه من الناحية الغربية اشتغل بتطهير الحواشي والجوانب المحيطة به فأخذ في تذليل القبائل المنشقة عنه كمغراوة وتوجين ، فانتصر عليهم واحتل مليانه ولمدية وتنس ، ولكنه لم يظفر بالامير المغراوي راشد بن محمد لفراره ، ثم التفت نحو الشرق ، فبعث بجنوده اولا الى الزاب الجزائري فاستولى عليه سنة ٧١٠هـ – ١٣١٠ م واذعنت لطاعته بلاد الجزائر الشرقية ، فتقلص عنها ظل بني ابي حفص ثم بعد سنتين خرج السلطان ابو حمو بنفسه متوجهـــا نحو مدينة الجزائر ، فاحتل بلدة – تدلس – دلس – وخضع له اميرها ابن خلوف ؛ تمكن من مدينة الجزائر فاقصى عنها حاكمها المستقل بها ابن علان بعد ما استبد بها مدة اربع عشرة سنة : ودوخ جبل ابي ثابت واشاد قصراً «بأصفون» في مدة لا تتجاوز اربعين يوماً ، وهو نفس مكان المدينة المعروفة اليوم بالساحل الشرقي الجزائري باسم– ازفون– فشحنه بالأقوات واقام به الحامية ثم تركه منصرفاً الى غزواته ، وفي عودة السلطان ابي يحيى الحفصي من قسنطينة الى بجاية (٧١٤هـ – ١٣١٤م) بعث بعسكره الى هذا القصر براً وباسطوله بحراً فحطموا القصر وانتهبوا اقواته وعدده.

القضاء على امارة الثعالبة بمتيجة

يذكر المؤرخون انه كان بسهول متيجة الى وادي الست حيث تخوم مغراوة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٩٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

نحو الثلاثين مدينة وكلها كانت للثعالبة الذين هم من عرب المعقل ؛ وكان موقف هؤلاء السياسي دائماً في جانب المرينيين ضد بني عبد الواد ، ولا سيما ايام الحصار الشديد الذي ضربه السلطان ابو يوسف يعقوب على تلمسان ، وقد لاحظ ذلك منهم بنو عبد الواد فكاتموهم العداوة مصانعة الى ان حانت لهم الفرصة في هذه المرة وطعن سلطان مرين وارتفع الحصار واسترد الزيانيون مملكتهم الجزائرية الى تخومها فجهز يومئـذ السلطان ابو حمو الاول عساكره بقيادة ابن عمه محمد بن يوسف بن يغمراسن ووجههم الى سهل متيجة حيث انقضوا على الثعالبة فخربوا قصورهم وحطموا ديارهم وقضوا على اكثريتهم ، ولم ينج منهم يومئذ في هذه الوقعة سوى نفر قليل التجأ الى احلافه بني مرين بالمغرب الاقصى،ومنهم من ذهب الى الصحراء ومنهم من اقام بجبال وانشريس ثم حاصر الجيش العبد الوادي مدينة بجايـة (٧١٥ هـ - ١٣١٥ م) وضيق على صاحبها يومئذ ابي زكرياء الاوسط حليف مرين

اغارة بني مرين وثورة الاعراب

اشتعل المغرب الاوسط في هذه الآونة نارا بسبب مهاجمة مرين على مراكز اعدائهم وخصومهم الملتجئين الى تلمسان المحتمين بملوكها ، فنازل السلطان ابو سعيدالمريني مدينة وجدة (٧١٤هـ - ١٣١٤م) واكتسح بسائط تلمسان فالتجأ بنوزيان يومئذ في صرفه عنهم الى استعمال الحيلة والدهاء فانصرف عنهم بسلام ثم كان اندلاع الثورة من البربر والاعراب فعمت الفتنة جميع اعمال وهران ، فانبرى لاطفائها يومئذ السلطان ابو حمو الاول ونزل بوادي « نهل » من شلف وهناك ابتنى قصره المعروف الى اليوم باسمه «حمو موسى» قبل ان تحرفه العامة الى - عمى موسى - وهو بالجنوب الشرقي من موقع «عين كرمان»،ويومئذ فر امامه راس الثوار راشد بن محمد المغراوي فذهب الى بلاد القبائل؛فأمر ابو حمو بغزوها ايضاً، فاحتلتها جيوشه ودخلت بجاية فجاست هنالك خلال الديار ، واشيدت هنالك يومئذ مدينة « آقبو » الباقية الى اليوم واذعنت جميع تلك النواحي لبني زيان ، ثم وقعت بقبضتهم مدينة المديـــة ومليانة سنة ٧١٧هـ

(١٣١٧م) وتمكن ابو تاشفين بفضل جيوشه من بسط نفوذه وانتشار الأمن في البلاد ، واعتنى بصفة خاصة بجمع الضرائب والاموال لتحصين مدينة تلمسان واعداد جيش قوي .

وفي هذا العهد اخذ الضعف يسري في عروق القبيلة الجزائرية العتيدة: زناتة ، فابتدرها الهرم الذي هو سنة الكون في الكائنات افراداً وجماعات ، وحلت محلها الجاليات العربية المهاجره .

مصرع السلطان ابي حمو الاول

لقد عملت عوامل الغيرة والانفة اعمالها في الامير ابي تاشفين بسبب ما كان عليه والده ابو حمو من تقديم ابن عمه ابي السرحال مسعود بن برهوم ابي عامر عليه وتدنية مجلسه منه ، نظراً لصرامته ودهائه ونجابته بل وكثيراً ما كان يظهر ذلك امام ولده ابي تاشفين فيستشير ابا السرحان بن ابي عامر ويحادثه في شؤون الدولة واعمالها وابو تاشفين جالس بدون ان يلتفت اليه ؛

واتفق أن دفع السلطان أبو حمو يوماً بمحضر ولده – لابي السرحان مالاً كان اودعه والده عنده ، فظنه أبو تاشفين انه من مالية الدولة .

فاستنكف أبو تاشفين لهذه الاهانة واغتاظ لذلك واستمر ساخطاً على والده الى ان ضاق منه ذرعاً ودبر له مكيدة ذهب السلطان ضحيتها فاغتاله بعض العلوج بقصره يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الاولى سنة ٧١٨ هـ (٢٢ جوان ١٣١٨ م) وهلك معه الوزراء من بني الملاح وطائفة من اقربائه وخاصته وتملك بعده ولده ابو تاشفين .

ولاية السلطان ابي تاشفين عبد الرحمن الاول

هو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن بن السلطان ابي حمو موسى الاول ؛ولد سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٣ م) وبويع صبيحة الغد من يوم اغتيال والده : الخميس ٢٣ جمادى الاولى ٧١٨ هـ (٢٣ جوان ١٣١٨ م) .

عرف ابو تاشفين بين ملوك هذه الدولة بميله الشديد وتعلقه بالفنون الجميلة ولا سيما فن المعمار فان له به شغفاً كبيراً فأشاد الدور والقصور وسك النقود، مع ما كان عليه من الامعان في اللهو والقصف ؛ ولم يكن هذا كله ليمنعه من التحمل لأعباء الدولة والقيام بمهامها احسن قيام .

ولما كان توليه الملك على الصفة المرعبة المتقدمة ، اشتد به الحذر وخشي من الفتك به فأسرع بابعاد جميع قرابته وذويه من ابناء يغمراسن عن حاضرة ملكه وبعث بهم الى الاندلس ، واعتقل عمه السعيد بن عثمان عنـــده لهذا الغرض نفسه فأبقاه بالسجن الى ان هلك فيه .

القضاء على سلطة مغراوة :

لم يتولَّ احد من ملوك بني زيان الا وجعل همه الوحيد القضاء على سلطة مغراوة ، تلك القبيلة المناهضة لسلطان بني عبد الواد ، وسار ابوتاشفين الاول على خطة اسلافه من ملوك بني زيان : فكان اول ما قام به من الاعمال ان اغار على هذه القبيلة المنشقة سنة ٧١٩ هـ (١٣١٩ م) وحاصرها في ربوة « تاوكلال » من جبل وانشريس وشدد عليها الخناق فانقطعت عنهـــا جميع المواصلات ونفدت الميرة حتى لم يبق هنالك عندهم ما يسد به الرمق فانتشرت المجاعة بتلك الارجاء ثمانية ايام وفر زعماء مغراوة من الميدان فاقتحم ابوتاشفين البلاد واخذ رئيسهم محمد بن يوسف المغراوي من مكمنه بحصن« توكال »بنواحي جبل وانشريس فقتله وبعث برأسه مرفوعاً على قناة الى تلمسان حيث نصب بشرفات البلد وصلب شلوه بالحصن الذي امتنع فيه ثم نازل بجاية ومنهـــا عاد الى مركزه

فتح اعمال قسنطينة وبجاية :

ما كان ليغفل بنو عبد الواد او يتناسوا تلك الحملة الشنعاء التي شنها عليهم الحفصيون على عهد ابي زكرياء الاول سنة ٦٣٩ هـ (١٢٤٢ م) ، وما كانوا كذلك ليتجاوزوا عن انكسار مؤسس دولتهم السلطان يغمراسن وانهزامه

امام هذه الغارة الحفصية ، فمكثوا في انتظار الفرصة ليثأروا من خصمهم حتى ايام ابي تاشفين الاول هذا حيث حدث اضطراب بين سكان اعمال قسنطينة تقوضت منه اركان الدولة الحفصية ، فخف لذلك سلطان بني زيان وبعث بطائفة من الجند لاستطلاع احوال التخوم الشرقية وهو بذلك - في آن واحد - يختبر قوات الخصم الحربية المقيمة بالحدود ، فذهبت الطليعة الزيانية الى غرضها ثم عادت بالظفر والغنيمة .

ويومئذ نهض ابو تاشفين ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) فأوقع بأهل قسنطينة وحاصر بجاية مرتين ؛ ثم تعددت الوقائع بين بني ابي حفص والزيانيين الى ان كان النصر فيها لبني زيان سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٨ م) ، فأقاموا بأعلى وادي بجاية وشيدوا هنالك : « قصر بكر » كذكرى لهذا الانتصار الباهر الذي عم القطر الجزائري ، ويليه الحصن والبلد المسميان بتامزيزدكت وخلص يومئذ ابو يحيى ابو بكر الثاني الحفصي الى مدينة بونة جريحاً ؛ ثم كان بعد ذلك بسنة استيلاء الدولة العبد الوادية على تونس .

ظهور الدعوة الموحدية بوهران :

نهض ابراهيم بن عبد الملك الكوفي الثائر بجبال « ترارة » من مركزه سنة ٧٤٥ هـ (١٣٤٤ م) متظاهراً بأعادة دعوة الموحدين واقامتها بالمغرب الاوسط ، فاستولى على الساحل الوهراني واحتل فرضة هنين وندرومة وحاصر مدينة وهران وكان بها يومئذ عبو بن سعيد بن اجانا والياً عليها من قبل الدولة الزيانية ، وجاءت الحامية من تلمسان لرد حملة الثائر إبراهيم فاخفقت وسقطت وهران بيده ، فأقام بها الدعوة الموحدية الى ان اغار عليها الزعيم ابو ثابت وفتحها عنوة في اليوم التاسع من جمادى الاول سنة ٧٥٠ هـ (جوليبط ١٣٤٩ م) وقضى على دعوة الكوفي بها وعفا عن اهلها ثم عاد الى مركزه .

نهاية الدور الزياني الاول :

لقد كان لانهزام الدولة الحفصية امام قوات الزيانيين سنة ٧٢٩ هـ

(١٣٢٨ م) اثر شديد ووقع كبير في نفوس الحفصيين فاستظهروا يومئذ بالسلطان ابي سعيد المريني وتوسلوا به لاسترجاع مملكتهم من بني عبد الواد فاستشفع لهم هذا السلطان في ذلك لدى بلاط بني زيان فلم ينجح ؛ ثم لما تولى ولده من بعده ابو الحسن - صهر بني ابي حفص - اعاد عليه الحفصيون اقتراحهم في التوسط لدى ملوك بني زيان في التخلي لهم عن المملكة الشرقية ففعل ابو الحسن مثل والده وقام بعرض القضية على ملوك تلمسان قصداً للتسوية فاخفق في وساطته هذه ايضاً؛ويومئذ نشأت - او قل تجددت - العداوة والبغضاء بين بني مرين وبني عبد الواد ، واخذ ابو الحسن في الاستعداد للغزو، وجاء الاسطول المريني غازياً سواحل تلمسان ومدافعاً عن احواض بجاية ؛ ونهض ابو الحسن اواسط سنة ٧٣٥ هـ (١٣٣٥ م) مغيراً على المغرب الاوسط فاحتل ندرومة وهنين - فرضة تلمسان - وحطم أسوار وجدة ونزل اتسالة - بالقرب من سيدي بلعباس - وفتح وهران ومليانة وتنس والجزائر ومثلها النواحي الشرقية ، حتى انتهى الى مدينة لمدية ثم نزل بالمنصورة يوم ١١ شوال - ٤ جوان - من هذه السنة ، وادار نطاق الحصار على تلمسان فاحتلها يوم الاربعاء ٢٧ رمضان ٧٣٧ هـ (٢٩ افريل ١٣٣٧ م) وخرج منها يومئذ ابو تاشفين في حاشيته وابنائه الثلاثة مدافعاً بنفسه عن حرمه ؛ ولزم الجميع مكانهم في الدفاع عن النفس والأهل بازاء القصر الى ان استشهد جميعهم في الميدان فسقطوا بساحة القصر وبقي ابو تاشفين منفرداً فألقي عليه القبض ثم قتل يوم ٣٠ رمضان - ٢ ماي - بأمر الامير عبد الرحمن بن السلطان ابي الحسن المريني ؛ فكان ذلك آخر العهد بالدور الاول من ملك بني زيان ، وعادت الجزائر الى سيادة بني مرين وطاعتهم .

قال ابن الخطيب : واستولى السلطان صاحب المغرب - الأقصى - على تلك الامارة المسؤولة بما اشتملت عليه من نفيس الحلى،وثمين الذخيرة ، وفاخر المتاع ، وخطير العدة ،وبديع الآنية ، وصامت المال ، وضروب الرقيق..[١]

(١) رقم الحلل ص ٧٣ - ٧٤ ط تونس ١٣١٦ هـ

ملوك الدولة الزيانية

الدور الاول

	تاريخ التولية
ابو يحيى يغمراسن بن زيان	٦٣٣ هـ – ١٢٣٦ م
ابو سعيد عثمان بن يغمراسن	٦٨١ هـ – ١٢٨٣ م
ابو زيان محمد (الاول) بن عثمان	٧٠٣ هـ – ١٣٠٤ م
ابو حمو موسى (الاول) بن عثمان	٧٠٧ هـ – ١٣٠٨ م
ابو تاشفين عبد الرحمن (الاول) بن موسى	٧١٨ هـ – ١٣١٨ م

من مشاهير الجزائر

الاخوان ابنا الامام | **ابو زيد عبد الرحمن ٧٤١ هـ - ١٣٤٠ م**
ابو موسى عيسى ٧٤٩ هـ - ١٣٤٩ م

للامام محمد بن عبدالله التلمساني ابنان، هما ابو زيد عبد الرحمن وابو موسى عيسى ، اجمع علماء التاريخ والسير والتراجم بالمغرب العربي بانـه لم يكن في زمنهما اعظم رتبة ولا اعلم منهما ، واكبرهما ابو زيد عبد الرحمن، كلاهما اشتهر بالامامة والرئاسة في العلم ورسوخ القدم فيه وكلاهما نشأ بمدينة برشك[1] بالساحل الغربي الجزائري ما بين مدينة شرشال وتنس ، حيث كان والدهما اماما باحد مساجد هذه المدينة فاشتهرا يومئذ بهذه النسبة وعرفا بها

ولما استولى زيري بن حماد المكلاتي المعروف بزيرم على مدينة برشك واستبد بها سنة ٦٨٣ هـ ١٢٨٤ م رمى امـام المدينة وهو والد الاخوين العالمين بتهمة احتوائه على وديعة مالية لبعض اعداء زيرم وطالبه بهـا فانتفى الامام منها فقتله زيرم غيلة ، ويومئذ تكـــدر الجو واكفهرت الدنيا بعـــين الاخوين فحزنا لذلـك وارتحلا في اواخر القرن السابع الهجري الى تونس حيث لقيا هنالك الاجلة من علمائها كابن القطان وابن جماعة والمرجاني الخ ... كما اجتمعا بفاس بالشيخ السطي والطنجي واليفرني وتلاميذ ابن زيتون واصحاب ابي عبدالله بن شعيب الدكالي وغيرهم

(١) ضبطها ابن خلدون بقلمه بفتح الباء الموحدة وكسر الراء وسكون الشين

وبعد ان انهى الاخوان رحلتهما العلمية بالمغرب العربي وانتهيا من الطواف بمجامع العلم واندية الادباء توجها الى بلدهما ومسقط رأسهما برشك ، فلما بلغا اليها امتنعت عليهما لحلول زيرم المستبد بها ، فانصرفا عنها الى مدينة الجزائر فأقاما فيها يبثان العلم وينشران ما طوى بها من معالمه، وكان السلطان ابو يعقوب يوسف المريني يومئذ محاصراً لتلمسان ذلك الحصار الطويل الشهير ، وانتشرت جنوده مستحوذة على اكثر عواصم القطر الجزائري وامصاره ، فارتحل الاخوان من مدينة الجزائر الى مليانة عاصمة مغراوة وكان بها الكاتب منديل بن محمد الكناني ضابط جباية مرين وصاحب اشغالهم ، فعرف منزلتهما وعلو كعبهما في العلم فاصطفاهما وقربهما منه واتخذهما لتعليم ولده محمد ، ثم استعملهما على خطة القضاء بمليانة .

وبعد مهلك السلطان ابي يعقوب المريني وتأكد الصلح بين بني مرين وبني عبد الواد وارتفع الحصار عن تلمسان انتقل الاخوان صحبة الكناني المذكور وحلا بتلمسان فاتصلا بالسلطان ابي حمو موسى الاول فاغتبط بهما وابتنا لهما مدرسة بناحية المطهر كما يقول ابن خلدون – او داخل باب كشوط كما عند ابن مريم – وجعل لهما فيها ايوانين معدين للتدريس ، وابتنى لهما بجانب المدرسة دارين للسكنى ، واختصهما بالفتوى والشورى وضمهما الى خاصته واعيان مجلسه ، فاقاما هنالك ملحوظين ممتازين بين اهل العلم والفضل .

ولما انتصر ابو حمو على بلاد مغراوة وتجاوزت طاعته الآفاق توجس منه خيفة زيرم المكلاتي فخطب مودته وامل منه الامان لنفسه ونزل له عن ولايته ، وكان ابو زيد عبد الرحمن بن الامام هو سفير السلطان الى زيرم ببرشك ، وكانت بينهما طائلة كما ذكرنا فاستأذن السلطان في اخذ ثأره منه فأذن له ، واخذ ابو زيد يومئذ في التردد على زيرم ببرشك حتى تمكن منه فثأر منه بأبيه القتيل ، وكان ذلك سنة ٧٠٨ ﻫ (١٣٠٨ م) وصار امر برشك يومئذ لبني زيان .

استمر الاخوان العالمان على صحبتهما لابي حمو الاول بتلمسان الى وفاته

بقُربهما اليه يومئذ ولده السلطان ابو تاشفين الأول فلأزما مجلسه مدة سنتين ثم غادراه الى المشرق ، سنة ٧٢٠ هـ (١٣٢٠ م) وهناك اجتمعا بأكابر العلماء كالشيخ علاء الدين القونوي الذي كان يقال عنه انه لا نظير له في العلم في عصره ، واخذا عن الجلال القزويني صاحب التلخيص في البلاغة ، وسمعا صحيح البخاري عن الشيخ الحجار ، واجتمعا هنالك بشيخ الاسلام تقي الدين ابن تيمية فناظراه وظهرا عليه ، فكان ذلك مما زاد في محنة الشيخ .

عاد ابنا الامام من المشرق وقد طار صيتهما في الآفاق واشتهرا بالتبحر في العلم حتى صارا يعرفان بالامامة والاجتهاد المطلق والتفرد بالرئاسة ، فانهال يومئذ عليهما الطلبة من كل حدب وصوب ، وكثر المنتسبون اليهما واللائذون بهما والآخذون عنهما حتى غصت رحاب مجالسهما العلمية بالطلبة ، فتخرج عليهما اعلام منهم العلامة الشريف التلمساني والعلامة الخطيب ابن مرزوق – الجد – والامام المقري جد صاحب النفح ، وابو عثمان العقباني، وابو عبد الله اليحصبي في جماعة كثيرة ممن اخترقت شهرتهم الآفاق .

وذكر ابن خلدون من تلامذتهما القاضي ابا عبدالله محمدبن عبدالله بن عبدالنور الندرومي فقال : « كان مبرزاً في الفقه على مذهب الإمام مالك بن انس تفقه فيه على الاخوين ابي زيد وابي موسى ابني الإمام وكان من جملة اصحابهما ولما استولى السلطان ابو الحسن على تلمسان رفع من منزلة ابني الإمام واختصهما بالشورى في بلدهما ، وكان يستكثر من اهل العلم في دولته ويجري لهم الارزاق ويعمر بهم مجلسه فطلب يومئذ من ابن الامام ان يختار له من اصحابه من ينظمه في فقهاء المجلس فاشار عليه بابن عبدالنور هذا – وهو من اعمال ندرومة ونسبه في صنهاجة – فادناه السلطان وقرب مجلسه وولاه قضاء عسكره ولم يزل في جملته الى ان هلك بالطاعون بتونس سنة تسع واربعين وسبعمائة وكان قد خلف بتلمسان اخاه عليا رفيقه في دروس بن الامام إلا انه اقصر باعاً منه في الفقه فلما خلع السلطان ابو عنان طاعة ابيه السلطان ابي الحسن ونهض الى فاس استنفره في جملته وولاه قضاء مكناسة ... وهلك حاجاً في مكة عند

طواف القدوم سنة أربع وستين وسبعمائة [1] .

عاش ابنا الامام يومئذ في كنف السلطان ابي تاشفين الاول مبالغاً في اكرامهما وتقديرهما فلازماه في قصره الى آخر نفس حيث استشهد في وقعة سقوط تلمسان بيد المرينيين سنة ٧٣٧ هـ – ١٣٣٧ م

وبعد ان استولى السلطان ابو الحسن المريني على تلمسان جاء بابني الامام الى قصره وازدادت حظوتهما عنده حتى كاد لا يفارقهما البتة ، واحضرهما معه وقعة طريف بالاندلس آخر سنة ٧٤٠ هـ – ١٣٤٠ م .

ورغم كل هذا التفوق العلمي وبعد الصيت ، فانه لم يبلغنا عن مؤلفاتهما شيء سوى ما اشار اليه اصحاب التراجم من شرح ابي زيد عبد الرحمن على مختصر ابن الحاجب الفرعي ، ويقول ابن فرحون ان لهما التصانيف المفيدة ؛ ولعلها ضاعت وسط تلك الحوادث والاضطرابات التي مني بها المغرب العربي يومئذ ؟ ! . .

ويذكر اهل السير ان ابا زيد عبد الرحمن اورع من اخيه موسى وانه كان يمتاز عليه بالخشية ، فقد حكي عنه ابو الفضل بن ابي مدين الكاتب وقد رآه يوما بباب السلطان ينتظر خروجه فسأله عن حاله ؛ فأجابه بقوله : اما الآن فأنا مشرك !... فقال الكاتب : اعيذك من ذلك !... فقال الشيخ: لم ارد الشرك في التوحيد ، لكن في التعظيم والمراقبة ، والا فأي شيء جلوسي ها هنا ?...

وكانت وفاة ابي زيد في العشر الاوسط من رمضان سنة ٧٤١ هـ –اوائل مارس ١٣٤٠م ودفن ببلدته برشك ، وبفقده ازداد مقام اخيه رفعة عند السلطان ابي الحسن ، فعاش في اكنافه عزيز الجانب مكرما الى ان شغل السلطان بحوداث تونس والقيروان فسرحه الى بلده فذهب اليها واقام بها قليلا فوافاه اجله في الطاعون الجارف سنة ٧٤٩ هـ – ١٣٤٩م رحمهما الله ، ويذكر

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٩٤ط بولاق ١٢٨٤ هـ

ابن خلدون ان للشيخين اعقابا بقوافي تلمسان دارجين في مسالك تلك الكرامة ومتوقلين قللها طبقا عن طبق الى هذا العهد .

وجاء ذكر أعقابهما في كتاب البستان لابن مريم نقلا عن تقايبد الشيخ ابي العباس الونشريس قال : اما بنو الامام فأعلام طبقة الشيخان الراسخان الشامخان العالمان المفتيان : ابو زيد ، ثم العلامة النظار وجامع اشتات المعارف ابو موسى ابنا محمد بن الامام ، ثم الشيخ ابو سالم ابراهيم بن ابي زيد وابن عمه الشيخ الصالح ابو محمد عبد الحق بن ابي موسى ثم الشيخ العلامة القاضي الرحال ابو الفضل بن الشيخ ابي سالم . ولم يبق لهما الآن عقب بتلمسان الا صاحبنا وتلميذنا الطالب الخير الفاضل ابو العباس احمد بن ابي الفضل بن ابراهيم المذكور رحمهم الله تعالى .

وحكي السخاوي عن ابي الفضل هذا انه لما قدم دمشق وعلم النّاس بفضله تزاحموا عليه وأجلوه . وذكره المقريزي فقال : انه صاحب فنون عقلية ونقلية قلّ علم إلا ويشارك فيه مشاركة جيدة. وقال ابو العباس الونشريس : هو شيخ شيوخنا له قدم راسخ في البيان والتصوف والادبيات والشعر والطب وهو اول من ادخل الى المغرب شامل بهرام وشرح المختصر له وحواشي التفتزاني على العضد وأبا هلال على ابي الحاجب الفرعي وغيرها من الكتب العربية وتوفي عام (٨٤٥ هـ ١٤٤١م) وذكره القلعاوي في رحلته فقال: حضرت مجلسه وكان فقيها اماما صدراً عالماً بالمعقول [١]

محمد بن ابراهيم الآبلي

٧٥٧ هـ - ١٣٥٦ م

هو ابو عبد الله محمد ابراهيم بن احمد الآبلي ، اصله من مدينة آبلة بالشمال

---

(١) البستان ص ٣٧-١٣٦ - ٣٣٠ ط الجزائر ١٩٠٨ م

الغربي لمقاطعة مجريط من بلاد الاندلس ، اجاز ابوه وعمه احمد الى تلمسان فاستخدمها السلطان ابو يحيى يغمراسن بن زيان في الجندية فكان ابوه قائداً بهنين – مرفأ تلمسان –

اصهر والده ابراهيم الى ابي الحسن محمد بن غلبون المرسي قاضي تلمسان في بنته فأنجبت له مترجمنا محمداً .

ولد المترجم بتلمسان سنة ٦٨١ هـ – ١٢٨٢ م وبهـا نشأ في كفالة جده القاضي فحبب اليه العلم ورغب فيه معرضاً عن وظيفة الجندية التي كان عليها والده ، فبرع في فنون الحكمة والتعاليم واشتغل بالمعقولات فكان فيها اوحد زمانه وعالم عصره واوانه وعكف الناس عليه في تعلمها وهو لا يزال في سن المراهقة .

اخذ الاصلين والمنطق عن ابي موسى ابن الامام وعن جده القاضي وقرأ على ابي الحسن التنسي . ولما امتلك يوسف بن يعقوب تلمسان استخدمه فكره ذلك وسافر الى الحج آخر القرن السابع الهجري فدخل مصر والعراق ولم يتح له القدر الانتفاع بعلماء المشرق لمرض لازمه في سفره فعاد الى بلده تلمسان وكان السلطان ابو حمو الاول قد استفحل ملكه وقد بلغه عن الآبلي تقدمه في علم الحساب فدفعه الى ضبط امواله ومشارفة عمـاله ، فتفادى منها الشيخ ، فأ كرهه السلطان على العمل في قيادة بني راشد من كور بلده فشمخ الآيلي بأنفه وربأ بنفسه من ان يسخر علمه في خدمة الحكومة والمشي في ركابها ، فأعمل الحيلة في الفرار ولحق بفاس في حدود سنة عشر وسبعمائة للهجرة مختفياً عند شيخ التعاليم بها خلوف المغيلي اليهودي فاستكمل عليـه فنونه الحكمية ، ثم دخل مراكش فلازم العلامة الامـام ابا العباس احمد بن البناء ، فكرع يومئذ من علومـه على اختلاف انواعها ، واستدعاه شيخ الهساكرة علي بن محمد بن ترومیت – بضم التـاء – للقراءة عليـه فصعد اليه الشيخ واقام عنده مدة انتفع فيهـا ونفع وكثر حوله الطلبة واجمع الناس على محبته وتعظيمه وامتثال امره واطاعته .

ثم نزل الشيخ مدينة فاس وبها انتشر ذكره وذاع صيته وفضله وصـــار يعرف بعــالم الدنيا .. وينعت بأعلم خلق الله في فنون المعقول ... ويذكره اهل التراجم بقولهم : الجمع على امامته ... الخ ... ويومئذ انثال عليه طلبة العلم من كل جهة وصوب فكثر الانتفاع به وعم نفعه البلاد.

ولما فتح السلطان ابو الحسن المريني مدينة تلمسان ولقي بها العلامة موسى ابن الامام ذكر له الآبلي واثنى على علمه وفضله ووصفه بالتقدم على اقرانه في العلوم وذكره باطايب الذكر فضمه يومئذ ابو الحسن الى مجلسه ونظمه في سلك طبقة العلماء ، وعكف الشيخ حينئذ على التدريس ومصاحبة السلطان وحضر معه وقعتي طريف والقيروان ، وفي هذه المرة كان اتصــال اهل تونس بالشيخ وتيسر لهم الانتفاع به .

ثم طلبه السلطان ابو عنان من صاحب تونس فجاء الشيخ الى بجاية مكث بها نحو شهر أخذ عليه طلبتها كتاب مختصر ابن الحاجب في الاصول ثم التحق بابي عنان في تلمسان فنظمه في طبقة العلماء وجعله من اشياخه .

ولكثرة تلامذته قـــال يحيى بن خلدون وهو احــدهم : اني لا اعرف بالمغرب وافريقية فقيهـــاً كبيراً الا وله عليه مشيخة . ومن اشهر تلامذتــه السلطان ابو عنــان – والمؤرخ الكبير ابن خــلدون – واخوه يحيى – وابن الصباغ المكناسي – والشريف التلمساني – والشريف الرهوني – وابن مرزوق الجد – وابو عثمان العقباني – وابن عرفة – والولي بن عبـــاد في آخرين لا يعدون كثرة ، اما تآليفه فلم يرو لنا التاريخ عنها شيئاً ؟.. الا انه كان يقول انما افسد العلم كثرة التآليف واذهبه بنيان المدارس .

ومن كلامه المأثور قوله رحمه الله : لولا انقطاع الوحي لنزل فينا اكثر مما نزل في بني اسرائيل ، لاننا اتينا اكثر مما أتوا .

وكانت وفاته رحمه الله بمدينة فاس في ذي القعدة سنة ٧٥٧ هـ (اكتوبر ١٣٥٦م)

محمد بن خميس
٧٠٨ هـ (١٣٠٩ م)

هو ابو عبدالله محمد بن عمر بن خميس التلمساني ، منتماه الى حجر ذي رعين ابي قبيلة من اليمن ولد رحمه الله بتلمسان سنة (٦٥٠ هـ - ١٢٥٢ م) ولم يلبث ان نبغ واشتهر بين قومه بالعلم والادب والزهد وبعد الهمة ، فكان اوحـد زمانه وعالم قطره واوانه ، عارفا بفنون الادب والفلسفة والحكمة والنجامة والسيمياء مؤرخا مطلعاً على اخبار الامم والفرق والطوائف على اختلاف مللها ونحلها ، كاتباً بليغا وشاعراً مفلقاً وكان لغزارة علمه يوصف بين اهل العلم بشيخ الادباء ولاه السلطان ابو سعيـد بن يغمراسن رئاسة ديوان الانشاء وأمانة سره

قال عنه ابن خلدون« كان لا يجارى في البلاغة والشعر» وقال ابن الخطيب في «عائد الصلة» : كان رحمه الله نسيج وحده زهداً وانقباضا وادبا وهمة ، حسن الشيبة ، جميل الهيئة ، سليم الصدر ، قليل التصنع ، بعيداً عن الرياء والهوى ، عاملا على السياحة والعزلة ، عارفا بالمعارف القديمـة ، مضطلعاً بتفاريق النحل ، قائماً على العربية والاصلين ، طبقة الوقت في الشعر ، وفحل الاوان في المطول ، اقدر الناس على اجتلاب الغريب وقال ابن خاتمة : « كان رحمه الله من فحول الشعراء واعلام البلغاء؛ يصرف العويص ويرتكب مستصعبات القوافي ويطير في القريض مطار ذوي القوادم الباسقة والخوافي. وقال في مدحه ابو بكر بن خطاب من ابيات :

لك في البلاغة والفصاحة بعض ما   تحويـه من اثر محـل رسيس
نظم ونثر لا تجـارى فيهما   عززت ذاك وذا بعلم الطوسي

ويعنى الشاعر بالطوسي هنا الامام ابا حامد الغزالي ، وذلـك لمكانة ابن خميس وتضلعه من الفلسفة والتصوف

حدث عنه ابن خاتمة في كتابه «مزية المرية على غيرها من البلاد الاندلسية»

فقال انه علاوة على علمه وفضله : كان صنع اليدين حاذقا ماهراً فيما يصنعه بيده، فلقد صنع قدحاً من الشمع ابدع في شكله ولطافة جوهره واتقان صنعته وكتب بدائر شفته ما يلي حاكيا لسان حال القدح :

وما كنت الا زهرة في حديقة   تبسم عني ضاحكات الكمائم
تنقلت من طور لطور فها انا   اقبل افـــواه الملوك الاعاظم

قال واهداه الى صديقه ابي عبدالله بن الحكيم وزير ملك غرناطة محمد الثالث من ملوك بني نصر وذلك ايام اقامة ابن خميس عنده في آخر حياته

ولقد حل ابن خميس بغرناطة اواخر سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٤م) بعدما تجول وطاف اقطار المغرب وجلس فيها لاقراء العربية فارتفع بها صيته، ونبه ذكره، فضمه الوزير المذكور الى مجلسه وخصه بكرمه واحسانه

ومن شعره قوله رحمه الله مفتخراً بعروبته واسلاميته

انا بني قحطـــان لم نخلق لغيـ   ـر غياث ملهوف ومنعة لاجي
نفري طلا الاعراب في الهيجا وفي   اللاواء (نقريهم على منهاج)
بسيوفنا البيض اليمانية الـتي   طبعت لحز غـــلاصم ووداج
تأبى لنا الاحجام من اعدائنا   يوم اللقـــاء طهارة الامشاج
انصار دين الهاشمي وحزبـــه   وحماته في الجحفل الرجراج
وحماتـــه بنفوسهم ونفيسهم   من غدر مغتال وسورة هاج
هم صفوة الخلق التي اختيرت له   وسواهم همج مـــن الاهماج
الا الاولى سبقوا بباهر فضلهم   من سائر الاصحاب والازواج
وكفى بحكمتنا اقامـــة حجة   وبركتنا من كعبة الحجاج
ولنا مفاخر في القديم شهيرة   كالصبح في وضح وفي ابلاج
منا التبابعـــة الذين ببابهم   كانت تنيـخ جباة كل خراج
ولامرهم كانت تدين ممالك الـ   ـدنيا بـــلا جبر ولا احراج
من يقتدح زندا فان زنادهم   في الجود وارية بلا اخراج

ابوابهم مفتوحـــة لضيوفهم ابداً بلا قفـــل ولا مزلاج

وكان السلطان ابو عنان المريني كثير العناية بحفظ شعره ورواية اخباره، وحدث عنه يوما فقال :

اخبرني شيخنا الامام العالم العلامة وحيد زمانه ابو عبدالله محمد بن ابراهيم الآبلي التلمساني فقال : لما توجه الشيخ الصالـــح الشريف ابو اسحاق التنسي التلمساني الى بلاد المشرق ، اجتمع هناك بقاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ، فكان من قوله له : كيف حال الشيخ العالم ابي عبدالله بن خميس ?.. وجعل يحليه بأحسن الاوصاف ويطنب في ذكر فضله،فبقي الشيخ ابو اسحاق متعجبا !... وقال : من يكون هذا الذي حليتموه بهذا الحلى ولا اعرفـــه ببلده ?... فقال له ابن دقيق العيد هو القائل :

عجبا لها ايذوق طعم وصالها من ليس يأمل ان يمر ببالها

وتلا عليه القصيدة بطولها ، وهي تحتوي على ست واربعين بيتا ؛ قـــال فقلت له ان هذا الرجل ليس عندنا بهذه الحالة التي وصفتم ، انما هو عندناشاعر فقط ؛ فقال له : انـــكم لم تنصفوه ، وانه لحقيق بما وصفناه به . قـــال ابو عنان واخبرنا شيخنا الآبلي المذكور ان ابن دقيق العيد كان قد جعل القصيدة المذكورة بخزانة كانت تعلو موضع جلوسه للمطالعة وكان يخرجهـــا من تلك الخزانة ويكثر تأملها والنظر فيها ، ولقد تعرفت انه لما وصلت هذه القصيدة اليه لم يقرأها حتى قام اجلالا لها !...

قال ابن خاتمة : وقد جمع شعره ودونه صاحبنا القاضي ابو عبد الله محمد ابن ابراهيم الحضرمي في جزء سمـــاه « الدر النفيس ، في شعر ابن خميس » وعرف به صدر الجزء .

عاش ابن خميس فقيراً بئيساً ، وهو يعزو فقره وبؤسه الى مهنة الأدب فيقول : يأبى ثراء المال علمي وهل يجتمع الضدان علم ومال ? .

وكانت وفاته رحمه الله اغتيالاً بغرناطة ضحوة يوم عيد الفطر سنة ٧٠٨ هـ

(١٤ مارس ١٣٠٩ م)طعنه الرئيس علي بن نصر الشهير بالابكم فأصماه وذلك اثر الانقلاب الحكومي الذي اودي بصديق ابن خميس الوزير ابن الحكيم .

ومن غريب الاتفاق وعجائب الصدف ما يقال ان الوزير المذكور كان قد اقترح على ابن خميس نظم قصيدة هائية ، فنظم مطلعها .

لمن المنازل لا يجيب هواهـــا   محيت معالمها وصم صداها ! ...

وكان ذلك آخر شهر رمضان ، وما كادت شمس يوم العيد تذكو وتحسر قناعها الا وهما مقتولين معاً رحمهما الله ؛ فكان هذا البيت آخر ما صدر عنه من الشعر ، وقد اشار معناه الى منعاه !! .

ابو الروح عيسى المنكلاتي

٧٤٣ هـ – ١٣٤٢ م

هو ابو الروح عيسى بن مسعود بن المنصور بن يحيى المنكلاتي الحميري الزواوي كانت له اليد الطولى في علم الفقه والأصول والعربية متفنناً في العلوم ولد بزواوة سنة ٦٦٤ هـ – ١٣٦٥ م وتفقـه ببجاية على ابي يوسف يعقوب الزواوي يحكى انه حفظ مختصر بن الحاجب الفرعي في مدة ثلاثـــة أشهر ونصف ثم عرضه وحفظ موطأ مالك . وقدم الاسكندرية فتفقه بها وارتحل الى قابس فأقام بها مدة وولي القضاء بها ثم انتقل الى ثغر الأسكندرية فمكث بها مدة يسيرة ثم ارتحل عنها الى القاهرة مشتغلا بتدريس العلوم بالأزهر وسمع كتب الحديث الستة وحدث عن شرف الدين الدبياطي وولى نيابـــة القضاء بدمشق نحو سنتين ثم انتقل الى الديار المصرية فولى نيابة القضاء بها عن قاضي القضاة زين الدين بن مخلوف المالكي ثم من بعده عن قاضي القضاة تقي الدين الأفنائي المالكي ثم ولي تدريس بزاوية المالكية بمصر ، قال ابن فرحون : وكان اماماً في الفقه واليه انتهت رئاسة الفتوى في مذهب مالك بالديار المصرية والشامية .

وترك الشيخ ولاية الحكم منصرفاً الى خدمة العلم بالتدريس والتأليف فشرح صحيح مسلم في اثني عشر مجلداً وسماه اكمال الاكمال ، وجمع فيه اقوال المازري والقاضي عياض والنووي واتى فيه بفوائد جليلة من كلام ابن عبدالبر والباجي وغيرهما . وشرح مختصر ابي عمرو بن الحاجب في الفقه فوصل فيه الى كتاب الصيد في سبعة مجلدات واختصر جامع ابن يونس شرح المدونة ، وصنف في الوثائق والمناسك وفي علم المساحة ومناقب مالك ورد على ابن تيمية في مسألة الطلاق ،وله في التاريخ كتاب حافل في نحو عشرة مجلدات بيض منه نصفه،ذكر فيه من أول بدء الدنيا وقصص الانبياء واخبار الامم من آدم الى زمانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٣ هـ - ١٣٤٢م .

ابو عثمان سعيد العقباني

٨١١ هـ - ١٤٠٨ م

ان من اشهر الاسر الماجدة والبيوتات النابهة في العلم والرئاسة بالجزائر بيت العقباني بتلمسان فهو صنو بيت آل ابن مرزوق وابناء الامام بتلمسان ، والهند الى بجاية والمانجلاتي – او المنكلاتي- بزواوة وابن باديس في قسنطينة فاهلها هم جلة الوقت واقطاب الزمان في ذلك العصر .

وكان فيمن يشار اليه من بيت العقباني هو مترجمنا امام المغرب العلامة ابو عثمان سعيد بن محمد العقباني التلمساني – وعقبان قرية بالاندلس اصله منها : تجيبي النسب – ترجم له ابن فرحون فقال : هو أمام عالم فاضل فقيه في مذهب مالك متفنن في العلوم وصدارته في العلم مشهورة .

ولد العقباني بتلمسان سنة ٧٢٠ هـ - ١٣٢٠ م فاخذ علمه عن ولدي الامام الاخوين ابي زيد وابي موسي وتفقه بهما، واخذ الاصول عن ابي عبدالله الآبلي وغيره ، واخذ الفرائض عن الحافظ السطي ، وروى البخارى والمدونة عن السلطان ابي عنان المريني سنده عزالدين بن جماعة وغيره .

تولى التدريس بالمدرسة التاشفينية بتلمسان كما انه تولى قضاء الجماعة بعدة مدن منها بجاية وتلمسان وسلا ومراكش، وذكرها ابن فرحون فقال: ان له في ولاية القضاء مدة تزيد على اربعين سنة وكان معاصراً له ، واثنى عليه ابن صاعد التلمساني فقال : كان فقيهاً علامة خاتمة قضاة العدل بتلمسان ، ولغزارة علمه كان يقارن بأبي سعيد بن لب ، والشاطبي والقباب وابن عرفة ، والشريف التلمساني ، وكان ينعت برئيس العلماء العقلاء .

وكتب في فنون شتى شروحاً وتفاسير منها تفسير لسورة الفاتحة وآخر لسورتي الانعام والفتح اتى فيه بفوائد جليلة ، وشرح لكتاب ابن الحاجب في الاصول وشرح الجمل للخونجي في المنطق ، وشرح التخليص لابن البناء وشرح قصيدة ابن الياسمين في علم الجبر والمقابلة ، وشرح العقيدة البرهانية في اصول الدين وشرح البردة ، وشرح الحوفي في الفرائض ، قال ابن فرحون: لم يؤلف عليه مثله .

وكان فيمن اخذ عنه وتخرج على يده جماعة من اعيان العلماء منهم ولده العلامة الامام المجتهد قاضي الجماعة بتلمسان ابو الفضل قاسم بن سعيد وابو الفضل بن الامام وابراهيم المصمودي ، وابو يحيى الشريف وابو العباس بن زاغو في آخرين... وتوفي ابو عثمان العقباني بتلمسان سنة ٨١١ هـ - ١٤٠٨م فخلفه على قضاء الجماعة بها ولده ابو الفضل قاسم المتوفي سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠م وكان له احفاد كلهم اشتهروا بالعلم والادب ، منهم احمد بن قاسم العقباني المتوفي سنة ٨٤٠ هـ - ١٣٣٧ م ومحمد بن احمد بن قاسم المتوفي سنة ٨٧١هـ- ١٤٦٦ م وابو سالم ابراهيم بن قاسم المتوفي سنة ٨٨٠ هـ ١٤٧٥ م وعبدالواحد ابن احمد بن قاسم المتوفي سنة ٨٩٦ هـ - ١٤٩١م تغمدهم الله برحمته .

جدول تاريخي

٦٣٣ – ٧٣٧ ﻫ – ١٢٣٦ – ١٣٣٧ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الأحداث
٦٣٣ ﻫ – ١٢٣٦ م	تأسيس دولة بني عبد الواد الزيانية .
٦٤٠ ﻫ – ١٢٤٢ م	اغارة الحفصيين على تلمسان ومصالحتهم لبني زيان .
٦٤٥ ﻫ – ١٢٤٧ م	انهزام الموحدين في زحفهم الى تلمسان .
٦٥٥ ﻫ – ١٢٥٧ م	انهزام يغمراسن بن زيان في وقعة ابي سليط .
٦٥٦ ﻫ – ١٢٥٨ م	خيبة يغمراسن في نهضته الى المغرب الاقصى .
٦٦٢ ﻫ – ١٢٦٤ م	حادثة غدر فرقة الجيش الافرنجي بالسلطان ومبايعة اهل سجلماسة .
٦٦٦ ﻫ – ١٢٦٧ م	انهزام بني عبد الواد في وقعة وادي تلاغ .
٦٦٨ ﻫ – ١٢٧٠ م	فتح مدينة مليانة عاصمة مغراوة .
٦٧٠ ﻫ – ١٢٧١ م	هزيمة وادي اسلي .
٦٨١ ﻫ – ١٢٨٣ م	وفاة السلطان يغمراسن وولاية ابنه ابي سعيد عثمان .
٦٨٦ ﻫ – ١٢٨٧ م	غزو بجاية وفتح مازونة وتفرجينت .
٦٨٧ ﻫ – ١٢٨٨ م	الاستيلاء على جبال وانشريس .
٦٨٨ ﻫ – ١٢٨٩ م	فتح مدينة تنس والمدية .
٦٨٩ ﻫ – ١٢٩٠ م	ابتداء حصار المرينيين لتلمسان .
٦٩٣ ﻫ – ١٢٩٤ م	حصار الزيانيين لمدينة برشك وفتحها .
٦٩٨ ﻫ – ١٢٩٩ م	محاصرة بني مرين لتلمسان واشادة « المنصورة » .
٧٠٣ ﻫ – ١٣٠٤ م	وفاة السلطان ابي سعيد عثمان وولاية ولده ابي زيان محمد الأول .

٧٠٦ هـ - ١٣٠٨ م	اغتيال السلطان ابي يعقوب المريني وارتفاع الحصار عن مدينة تلمسان؛ ومناهضة القبائل المنشقة؛ ووفاة السلطان ابي زيان محمد الاول وولاية اخيه ابي حمو الاول
٧٠٧هـ - ١٣٠٨ م	طمس معالم مدينة « المنصورة »
٧١٠ هـ ١٣١٠ م	فتح اعمال الزاب وتخطيط مدينة اصفون -ازفون- بالساحل الشرقي من مدينة دلس
٧١٢ هـ - ١٣١٢ م	امتلاك تدلس -دلس- ومدينة الجزائر وسهل شلف
٧١٤ هـ - ١٣١٤ م	رد هجمات بني مرين عن الجزائر وبناء قصر حمو موسى - عمي موسى-بالجنوب الشرقي من عين كرمان؛ وانشاء مدينة آقبو
٧١٧ هـ - ١٣١٧ م	امتلاك مدينتي المدية ومليانة
٧١٨ هـ - ١٣١٨ م	مصرع السلطان ابي حمو الاول وولاية ولده ابي تاشفين الاول
٧١٩ هـ - ١٣١٩ م	القضاء على قبيلة مغراوة
٧٢٠ هـ - ١٣٢٠ م	طلائع بني زيان بأعمال قسنطينة
٧٢٩ هـ - ١٣٢٨ م	الاستيلاء على شرقي القطر الجزائري وتونس
٧٣٧ هـ - ١٣٣٧ م	انتهاء الدور الزياني الاول باستيلاء السلطان ابي الحسن المريني على تلمسان

سيادة بني مرين

٧٣٧ – ٧٦٠ هـ – ١٣٣٧ – ١٣٥٩ م

اعاد المرينيون في هذه المرة كرتهم على شرقي المغرب الاسلامي كله ، واستولوا عليه برهة من الزمن ولم تطل ايامهم بالمغرب الاوسط اكثر من ثلاث وعشرين سنة ؛ ولقد حقق المؤرخون ان استيلاءهم في هذه المرة كان في صالح الوطن الجزائري ماديا وادبياً وانهم لم يعملوا يومئذ على تقويض كيان الشخصية الجزائرية كما فعلوا اول مرة بل حافظوا على جميع مظاهرها ونظمها ومقوماتها وسائر مراسيم الدولة الناشئة بها مع مسايرة رؤساء القبائل والمشيخة غير ان ذلك كله لم يكن ليرضي دولة بني عبد الواد الجزائرية الحرة الابية، فسكنت مرغمة وكلما سنحت لها فرصة المقاومة نشطت لها.

نهضة بني عبد الواد

ولما استقر شأن المغربين الاوسط والاقصى لبني مرين حاولوا فتح القطر التونسي ليتم لهم الاستيلاء على المغرب العربي بتمامه ؛ فنهض لذلك سلطانهم ابو الحسن المريني في صفر سنة ٧٤٨ هـ (ماي ١٣٤٧م) واتخذ معه جنوداً من بني عبد الواد ومغراوة وتوجين ، فاحتل بهم قسنطينة واعمالها، وبينما هو سائر في طريقه الى تونس اذ انعزلت عنه جيوش المغرب الاوسط وتركته في قومه ذاهباً الى الحرب فانهزم في وقعة القيروان المشهورة في المحرم ٧٤٩ هـ (افريل

١٣٤٨م) فاستثمر بنو عبد الواد يومئــــذ انهزام اعدائهم بني مرين وبادروا بمبايعة ابي سعيد عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن، واهدروا كل ما كان بينهم وبين مغراوة وتوجين من دفائن الضغائن والاحقاد وارتحلوا باجمعهم نحو اوطانهم بالمغرب الاوسط ، وكانوا يومئــــذ في نحو الخمسمائة فارس ، ولقد انضم اليهم في ممرهم على بجاية نحو هذا العدد نفسه من الناقمين على سياسة مرين ؛ ورغم كل ما بذله يومئذ المرينيون في رد هؤلاء المنشقين الى الطاعــة فانهم لم ينجحوا في ذلك ، واستمرت الحملة الجزائرية سائرة في طريقها موفقة منتصرة الى ان بلغت سهول شلف فذهب المغراويون الى اوطانهم ، وانسلت عنهم توجين كذلك منحازة الى مراكزها ، وانفرد بنو عبد الواد بحمل راية المقاومة فشنوا غارتهم الشعواء على تلمسان المحتلة ففتحوها عشية يوم الاربعاء ٢٢ جمادى الثانية – ١٨ سبتمبر – من نفس هذه السنة ، وقبضوا على عاملها المريني ابن الجرار المستبد فأودع السجن الى أن مات في رمضان من سنته ، وتوزع عندئذ الاخوان : ابو سعيد وابو ثابت السلطة بينهما واقتسما ادارة الحكومة العليا ، فاستقل ابو سعيد بالادارة المدنيـــة ، وجعل لاخيه النفوذ المطلق في ادارته العسكرية .

وسرعان ما نهض ابو ثابت مضطلعاً بمحاربة الثوار ومقاومة المنشقين عن الدولة من فصائل مغراوة وغيرها ، فاستعاد بذلك الى حكومته كلا منمدينة وهران وندرومة ومازونة ومواطن مغراوة وعاصمتهم مليانة ، والمدية وتنس وبرشك وشرشال والجزائر وتدلس – دلس – ؛ وأطاعته الثعالبة ومليكش وقبائل حصين فبعث ببيعتهـــا الى اخيه السلطان ابي سعيد وكانت هنالك حروب طاحنة بنواحي وادي شلف ووادي رمهيو والعطاف وفحص حمزة ، وطالما حاولت حكومة مرين اعتراض بني عبد الواد ملحة في دفع صولتهم عن مغراوة فلم تنجح .

وما كاد يطمئن بنو عبد الواد الى هذا النصر الباهر حتى فاجأهم السلطان ابو عنان فارس المريني آخر شهر ربيع الثاني ٧٥٣ ﻫ (١٤ جوان ١٣٥٢م)

بحملة عنيفة كان النصر فيها لبني مرين بوقعة وادي القصب المشهورة وظفر القوم يومئذ بالامير ابي سعيد الزياني فاعتقلوه ثم بعد اسبوع قتلوه ، وحينئذ انتقل الميدان الحربي الى سهول متيجة واحواز الجزائر ، ثم عادت الحرب الى سهل شلف، وهنالك انكسرت جيوش الامير ابي ثابت الزياني فخرج متنكراً الى مدينة الجزائر ثم حل ببجاية ، وكان بصحبته يومئذ جماعة منهم ابو زيان ولد اخيه ابي سعيد ، وموسى بن يوسف ووزيرهم يحيى بن داود ، فاعترضهم قوم من زواوة فانزلوهم عن خيلهم وانتهبوا اسلابهم وتركوهم حفاة عراة يسعون على الاقدام ، ويومئذ ظفر بهم اشياع بني مرين ، فاعتقلوهم وجاءوا بالامير ابي ثابت ووزيره يحيى فأسلموهما الى سلطان بني مرين وكان وقتئذ حالا بالمدية فنقلهما الى تلمسان حيث قتلا معاً هنالك ، وبقي ابو زيان في السجن .

انبعاث الدولة الزيانية :

رغم كل ما تقدم ذكره من الحروب والوقائع والانهزامات التي توالت على هذه الدولة الجزائرية فانه لم يقع خور ولا فشل في صفوف ابنائها البررة الذين قد وطدوا عزمهم على استرجاع سيادتهم بهذه البلاد وفكها من ايدي مرين ؛ وكان استرجاع هذا المجد على يد احد افراد الاسرة الزيانية ، وهو البطل المغوار ابو حمو موسى بن يوسف « الثاني » .

كان ابو حمو هذا ملتجئاً في تونس منذ ايام حرب ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) مستجيراً بالوزير الحاجب محمد بن تافراكين ؛ ولقد بعث ابو عنان المريني الى هذا الوزير في طلب ابي حمو فيمن معه من بطانته فأبى الوزير تسليمهم اليه وجاهر باجارتهم ، ولما وقعت تونس بيد الدولة المرينية في اواخر شعبان سنة ٧٥٨ هـ (اوط ١٣٥٧ م) خرج منها ابو حمو في زمرة سلطانها ابي اسحاق ابراهيم الثاني الملقب بالمستنصر الى ناحية الجريد ، ثم حل بكورة تبسة ، ومنها تحرك في طائفة من الدواودة وبني عامر الى انقاذ قسنطينة من الاحتلال المريني ؛ فامتنعت عنه ، فاحتل مدينة ميلة في شوال – سبتمبر –

ثم قرية « بني ورا » من كور بجاية ، ومن هنالك دعى ابو حمو من طرف قومه لانقاذ تلمسان والجلوس على عرش آبائه الزيانيين ، فتجهز لذلك مستعيناً بالحفصيين مؤيداً بكل ما تدعو اليه الحرب من عتاد واسلحة وجند ، فسار اذ ذاك ابو حمو بين جبلي عياض واوراس مصحراً فنزل الزاب ثم ريغ ووارجلان ثم غرب الى جبل مصاب ثم الى وادي زرقون فنزل وادي يسر ثم سلك قنطرة وهران وهو في ذلك كلـــه يشن غاراته على بني مرين وانصارهم ، وكانت له يومئذ وقائع مشهورة انتصر فيها على خصومه فبايعه العرب واذعنوا له واستولى حينئذ على نواحي تلمسان واطرافها ، وبعد ما نازل العاصمة الزيانية مدة ثلاثة ايام اقتحمها في جموعه صبيحة اليوم الرابع : الخميس ٨ ربيع الاول سنة ٧٦٠ هـ (٧ فيفري ١٣٥٩م) وكان دخوله الى المدينة من باب كشوط ، فتلقاه الولاة والرؤساء بالبيعة والتسليم عليه بالامارة ؛ وفي وصف هذه الحرب يقول السلطان ابو حمو في قصيدته التي طالعها :

جرت ادمعي بين الرسوم الطواسم ... لما شحطتها من هبوب الرواكم
وقفت بهـا مستفهما بخطابهـــا ... واي خطاب للصلاد الصلادم

ومنها :

قطعت الفيافي بالقــلاص وانمــا ... تجاب الفــلى بالخف او بالمناسم
وقد خلتها بين الرياح زوابعا ... تسابق في البيدا ظليم النعــائم
مكحلة الاحقاد فيها هشاشة ... مهملجة الاطراف سود المباسم
ومعها اسود الحرب تطوى بها الفلى ... يرون المنايا بعض تلك الغنائم
وخضت الفيافي فدفدا بعد فدفد ... لنيل العلى والصبر اذ ذاك لازمي
وكم ليلة بتنا على الجدب والطوى ... نراقب نجم الصبح في ليل عاتم
على متن صهـــال اغر محجل ... مديد الخطى لم يخش صعب الصلادم
تسربلت كردوسين من آل عامر ... ومن آل ادريس الشريف بن قاسم
رجال اذا جاش الوطيس تراهم ... اسود الوغى من كل ليث ضبارم
وجبت الفيافي بلدة بعد بلدة ... وطوعت فيها كل باغ وباغم
وجئت لارض الزاب تذرف ادمعي ... لتذكار اطلال الربوع الطواسم

وشبكت عشري فوق راسي فلم اجد   بها مخبرا غـير الربى والمعالم
وجاوزتها ما بين هوج هجائن   رقاق الهوادي عاليات القوائم
وجزت بأرض ريغ راغت بأهلها   ببلقعة قفر قفتها عزائمـي

والقصيدة طويلة تحتوي على اثنين وتسعين بيتاً [1] !

ثم انه ليس عندنا ما نسجله من حوادث هذه السنة مما يستحق الذكر سوى ذلك الزلزال الهائل الذي حطم مدينة الجزائر في اليوم الثالث من شهر ربيع الثاني ٧٦٠ ه (٤ مارس ١٣٥٩ م)

ولاية السلطان ابي حمو موسى «الثاني»

لقد بلغ من حرص السلطان أبي تاشفين الاول على الرآسة والملك والضن بتولي مقاليد الحكم على أقاربه وبني عمه ان كان اول عمل قام به يوم توليه الملك (٧١٨ ه – ١٣١٨م) هو ابعاد جميع ذوي القربى عن حاضرته وسجن الاخرين من اسرته وعشيرته، وكان فيمن ابعد عمومته وذوو رحمه: ابويعقوب يوسف بن عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان ؛ **فنفي الى الاندلس** : وهناك ولده (ابو حمو موسى) سنة ٧٢٣ ه (١٣٢٣م) وكانت نشأته بتلمسان آخذا بحظ وافر من علم وادب وسياسة وحزم وسداد وفروسية ، وكان شاعراً مفلقاً له القصائد الغراء الطويلة، فما كانت تمر ليلة من ليالي المولد النبوي الشريف الا ونظم فيها قصيدا جيدا في الموضوع؛ وهو مؤلف كتاب «واسطة السلوك في سياسة الملوك» لخص فيه كتاب « سلوان المطاع» لابن ظفر وألحقه بفوائد كثيرة من عنده واورد فيه من نظمه وما جرى له من الحوادث مع معاصريه من ملوك بني مرين وغيرهم من مشايخ العرب وزعماء المغرب الخ.. صنفه برسم ولده وولي عهده ابي تاشفين عبد الرحمن .والكتاب مطبوع بتونس سنة ١٢٧٩ ه وترجمه الى الاسبانية المستشرق ماريانو كاسپا Mariano Gaspa (١٨٩٩م) واكثر شعره يوجد بكتاب « راح الأرواح فيما قاله ابو حمو وقيل

(١) راجع بغية الرواد ، ج ٢ ص ٣٠ - ٣٦

فيه من الأمداح ، لمحمد بن عبدالله التنس التلمساني (٨٩٩ هـ – ١٤٩٤ م)

بويع ابو حمو موسى الثاني بيعة الخلافة بتلمسان يوم ٨ ربيع الاول (٧٦٠ هـ - ٧ فيفري ١٣٥٩ م) . وكان رحمه الله شهما غيورا وبطلا باسلا ذا كرم ومروءة وسياسة ودهاء ، لين العريكة كريم الاخلاق، يتبرع في كل سنة على اهل الاندلس بالمال والخيل والزرع الكثير ، ويرى ذلك كله من الجهاد في سبيل الله تحريراً لارض الاندلس من ازمة الاسبان وكانت له مواقف شريفة في انقاذ اهل الاندلس من الهلاك ؛ قال يحيى بن خلدون: «وفي هذه السنة – يعني سنة ٧٦٣ هـ – (١٣٦١) - وصل الى الباب العلي الفقيه الكاتب ابراهيم ابن الحاج رسولاً من الأندلس يطلب من امير المسلمين ايده الله ارفاد المسلمين بالاندلس واعانتهم على محاربة عدو الله ورسوله حسبما جرت عادته بذلك ، فوجه اليهم خمسين الف قدح من الزرع ، وثلاثة آلاف من الذهب للكراء عليه في البحر ، وكان ممن وصل معه الفقيه ابو محمد عبدالعزيز بن علي بن يشت فرفع لمولانا امير المسلمين ايده الله قصيدتين غراوين ...»[1]

وفي ذلك يقول لسان الدين بن الخطيب :

وقالوا الجزيرة قد صوحت فقلت غمام الندى ننتظر
اذا وكفت كف «موسى» بها غماماً يعود الجناب الخضر

والسلطان ابو حمو « الثاني » هذا هو الذي امر باطلاق لقب « الدولة الزيانية » على الحكومة بعد انبعاثها بدل النسبة العبد الوادية ، التي كانت اشتهرت بها قبل ذلك ، واظهر ابهة الملك وصولة السلطان ، فاستعادت الدولة يومئذ شبابها ومجدها المفقود .

فتح مدينة وهران :

كان من اوليات اعمال الفتح التي قام بها ابو حمو الثاني ، ان بعث بوزيره الحاج موسى بن علي بن برغوث الى فتح مدينة وهران وافتكاكها من بني

(١) انظر بغية الرواد ج ٢ ص ١١٤

مرين ، فغزاها الوزير المذكور يوم ٢٨ ربيع الاول ٧٦٠ ﻫ (٢٧ فيفريي ١٣٥٩) فانهزم ووقع اسيراً في قبضة قائد حامية مرين عامر بن ابراهيم بن ماسا ، فبعث به بحراً الى المغرب الاقصى ؛ وفي يوم الاثنين ١٣ شوال ٧٦٣ ﻫ (٧ سبتمبر ١٣٦١ م) اغـــار ابو حمو بنفسه على وهران فهدم اسوارها واستولى عليها .

مقاطعات ومشاغبات بني مرين :

ولما استوثق الامر للسلطان ابي حمو الثاني انضم اليه عبد الله بن مسلم الزردالي وهو من أحلاف بني عبد الواد وكان عامل بني مرين على درعـــة وجاءه بقومه وثروته واحلافه العرب طائعـــاً . فسخطت لذلك دولة مرين وكتب في شأنه السلطان ابو سالم المريني الى ابن حمو فـــلم يعد اليه جواباً فاخذت حكومة المغرب الاقصى في شن غاراتها المتكررة على مملكـــة بني زيان الجزائرية واثارت العرب والبربر على سياسة ابي حمو وبالغت في مقاومته فأوعزت الى من نازعه الملك من اسرته فانتصر عليه ابو حمو اولاً ثم قهرته مرين وهزمته منتصف سنة ٧٦١ ﻫ (١٣٦٠ م) واحتلت تلمسان يوم ثالث رجب – ٢٠ ماي – وخرج منهـــا يومئذ ابو حمو منتقماً لدولته وشرفه فخرب مواطن كثيرة وحطم امصاراً من بلاد المغرب الاقصى ، فأحفظ ذلك السلطان ابا سالم المريني فأسرع بتولية ابني زيان محمد الفتى او القبي ؟. ابن ابي سعيد عثمان بن ابي تاشفين الاول على تلمسان بعد ما امـــده بالاموال والعساكر والعتاد وأنزله بالقصر القديم من تلمسان [1] واقامه هنالك حاجزاً لابي حمو عن دخول تلمسان واغذ ابو سالم السير الى المغرب فأجفل أمامه ابو حمو متفلتاً الى تلمسان فاحتلها ويومئذ جاءته بيعة اهل الآفاق ، كأهل ندرومة ووجدة وهنين ومستغانم وتمزغران الخ ... وبعث من هنالك في فتح وهران وتنس والمدية ومليانـــة ومتيجة ؛ وحوصرت الجزائر مرتين ، وفي الثالثة تنازل عنها بنو مرين فاحتلها ابو حمو في اليوم الثامن من ذي القعدة

---

(١) كان يوجد هذا القصر بالجانب الغربي للجامع الاعظم حيث توجد الثكنة العسكرية اليوم

٧٦٢ هـ (٧ سبتمبر ١٣٦١ م) ثم تصالح الفريقان ، وفي السنة بعدها استولى ابو حمو على بلاد زواوة وقبض على ولاتها ورؤسائها الحفصيين ، ثم قاطعته مرين في وقعة وادي سيق في ذي الحجة ٧٦٥ هـ (اوط ١٣٦٤ م) فهزمها .

التنافس على العرش

كان ابو زيان الفتى المعروف ايضاً بالقبي وشرح معناه ابن خلدون فقال وهو عظيم الرأس — بن السلطان ابي سعيد عثمان الزياني في قبضة بني مرين منذ انتصارهم على بني عبد الواد في وقعة وادي القصب سنة ٧٥٣ هـ (١٣٥٢ م) المتقدمة الذكر ، وفي هذه اللحظة ظهرت حاجتهم اليه ، فزينوا له منافسة ابي حمو ومزاحمته في الاستيلاء على العرش الزياني وامدوه بالجندية واسباب الحرب وأنزلوه قصر ابيه بتلمسان فاندفع ابو زيان من المغرب الاقصى سنة ٧٦٥ هـ (١٣٦٤ م) مغيراً على احواز ملوية ، ثم حل بنواحي تلمسان وانحاء البطحاء وتعددت المعارك والوقائع هنالك بين الطرفين كان الظفر فيها لابي حمو وخاب ابو زيان فانحاز الى بني مرين بأمصار الشرق من البطحاء ومليانة ووهران وخابت معه آمال بني مرين ثم عقب ابو حمو على خيبة خصومه هؤلاء بالاغارة على المغرب الاقصى فأثخن في اعدائه هنالك قتلاً واسراً وعظمت نكايته في التخوم وثقلت وطأته على اهلها فصالحوه وانعقدت الهدنة بين الجانبين ؛ ثم كانت بعد ذلك حوادث وفتن اثارها ابو زيان على ابي حمو بدون طائل .

وفي ربيع الثاني سنة ٧٦٦ هـ (جانفيي ١٣٦٥ م) كان حادث الزلزال الهائل بمدينة الجزائر فسقط من وقعه كثير من دور المدينة وقصورها ووقع من جرائه خراب عظيم ورضّ وتحطيم مات تحته عدد وافر من الناس .

وقعة بجاية وتبعاتها

بينما السلطان أبو حمو الثاني في يوم من أيام مسرته لاهٍ باستعراض الجيش الزياني إذ وافاه الخبر بموت صهره الامير أبي عبد الله محمد بن يحيى الحفصي

المقتول بيد ابن عمه أبي العباس أحمد المتغلب على بجاية في تاسع عشر شعبان ٧٦٧ هـ (فاتح ماي ١٣٦٦ م)؛ فتظاهر ابو حمو بامتعاضه من ذلك مسراً حسواً في ارتغاء - وجمع حوله طوائف من زغبة العامريين والعطاف الخ ... فزحف بهم في ذي الحجة - اوط - الى بجاية فنازلها أياماً مشدداً عليها الحصار ، وهنالك اتصلت به وفود بسكرة والزاب فبايعوه، ويومئذ استنهض أبو العباس الحفصي معتقله أبا زيان بن عثمان لمقاومة أبي حمو الثاني ، وجعل معه قائد العسكر الحفصي بشيراً ، وسرعان ما احتدمت الحرب واشتبكت المعارك وانتشر الإرجاف في معسكر ابي حمو بموت السلطان فأجفلت جنوده وذعر لذلك أبو حمو الثاني ونجا بنفسه بعد غصة الريق ملتجئاً الى مدينة الجزائر وهو لا يكاد يرد النفس من شناعة ذلك الهول ، ومنها لحق بتلمسان ، وخسر من الأثقال والاحمال والعيال والكراع والسلاح ما لا يحيط به الوصف ، وفي اثناء ذلك كان استيلاء أبي زيان على المدية ومليانة والجزائر، ومنحه يومئذ سالم بن ابراهيم رئيس الثعالبة سهول متيجة ؛ وذلك لوحشة كانت بينه وبين ابي حمو الثاني ، وتألب يومئذ كل من أهالي هذه البلاد ضد أبي حمو واشترك في هذه الحرب يومئذ أغلب القبائل والبطون الجزائرية ، وكانوا في ذلك فريقان : فريق مع أبي زيان وفريق مع ابي حمو ، وكانت الحرب بينهما سجالا الى أن ظفر السلطان ابو حمو بالثائر سالم بن ابراهيم المستبد بمتيجة والجزائر فقتله ونصب شلوه وجاء بولده ابي تاشفين الذي كان والياً على لمدية وما والاها من بلاد حصين فأبعده عن العرب المجلين في الفتى وولاه ولاية وهران وأعمالها وأنزل معه هنالك بعض وزرائه فجعلهم عيناً عليه كما انه عقد لابنه المنتصر على ولاية مليانة واعمالها وانفذه إليها ثم كانت وهران والجزائر كلتاهما لولده ابي تاشفين وذلك نزولاً عند إرادته .

اعتداء قراصنة الافرنج

كانت القرصنة العالمية يومئذ منتشرة بكامل طول هذا البحر وعرضه كما هي كذلك في غيره من البحار كما هو معروف ، وكان من اشهر الامم يومئذ

في ذلك واسبقهم الى هذا الميدان هم الاسبان والبرتغال والانكليزوالفرنسيون؛ فاتفق ان كان هنالك مركب أندلسي كان يحمل هدايا وتحفاً نفيسة بعث بها أحد ملوك بني الاحمر النصريين الى ابي حمو الثاني ، كما هي العادة جارية بين ملوك الجزائر والاندلس ؛ وبينما المركب سائراً في طريقه الى مرسى هنين إذ انقضّ عليه قراصنة الافرنج في الثامن من شهر ربيع الثاني ٧٦٨ ﻫ (١٦ سبتمبر ١٣٦٦ م) فأسروه ولم يسمحوا بمضيه الى هدفه حتى افتداه منهم السلطان ابو حمو بأمواله الخاصة نقداً .

حصار مدينة الجزائر

نهض السلطان ابو حمو في احلافه من العرب والبربر الى متيجة لمباغتة الثعالبة حلفاء مرين بالجزائر فدحرهم وأخذ بمخنق مدينة الجزائر فامتنعت عليه، فعاد الى حاضرته ومعه الثعالبة آخذاً بهم طريق برشك وشرشال حتى بلغ بهم وادي شلف وهناك ألزمهم باستخلاص ما تخلفوا عنه في السنين الماضية من المغرم ، ثم اتصل بحاضرة تلمسان وامر الجيش بالعودة الى غزو الجزائر وحصارها من جديد براً وبحراً ، وكانت رئاستها يومئذ لسالم بن ابراهيم ابن نصر شيخ الثعالبة الذي كان يراوغ في سياسته ، فتارة نراه يبايع لبني مرين ، وتارة يظهر في جانب بني زياد ، وطوراً نراه مع بني ابي حفص فحاصره ابو حمو بجبال متيجة اياماً قلائل واستنزله على عهده ثم أحضره وتقبض عليه كما يقول ابن خلدون فقاده الى تلمسان وقضى عليه (٧٨٠ ﻫ — ١٣٧٨ م) وبذلك انتهت رئاسة الثعالبة على متيجة [١] .

الزحف المريني على تلمسان

كنا ألمعنا فيما تقدم قريباً الى التجاء الزردالي مع عرب المعقل من سكان المغرب الاقصى الى حاضرة تلمسان ، محتمين بسلطانها ابي حمو ، فأعطاهم

«١» ابن خلدون ج ٨ ص ٦٥ - ٦٥ ط بولاق ع ١٣٨ ﻫ

عهده وذمته وذلك لما وجد فيهم من العون والاستظهـــار بهم على أعدائه وخصومه المرينيين ، فكان ذلك مما اسخط حكومة فاس ؛ وكان ممـــا زاد في اثارة غضبها على هذه الدولة هو ما قام به ابو حمو الثاني من اجـــلاء القبائل المخالفة عليه كسويد وبني يعقوب من تلمسان الى المغرب الاقصى ؛ فنهض حينئذ السلطان ابو فارس عبدالعزيز المريني مطالباً حكومة تلمسان بارجاع عرب المعقل وردهم اليه ، فامتنع ابو حمو الثاني ورفض طلبـــه ، فتحرك ابو فارس من فاس مستنهضـــاً معه جميع اهل المغرب الاقصى من سوس الى صحراء درعة والى سبتة ، وجاء في جحفل جرار فاحتل تلمسان يوم عاشوراء الاحد ٧٧٢هـ (اوط ١٣٧٠ م) ، وخرج منها ابو حمو في قومه مستجيشاً احلافه يتقرى المدن والقرى الجزائرية ؛ وعمت الفتنة يومئذ جميع بلاد المغرب الاوسط - الجزائر - وكان فيمن شارك في هذه الحرب مشاركة فعالة الامام ابن خلدون نفسه فانه كان يعمل الى جانب بني مرين ضد ابي حمو واستمرت الحرب متأججة اكثر من عامين وضل ابو حمو متنقلا متشرداً في في بلاد الصحراء والواحات الجزائرية الى وفاة ابي فارس المريني يوم ٢٢ ربيع الثاني ٧٧٤ هـ (اكتوبر ١٣٧٢ م) فاهتبل اهل تلمسان هذه الفرصة السانحة وانتقضوا على بني مرين وخفوا الى الانقضاض على السلطة المرينيـــة المحتلة ، وكان قائدهم في ذلك عطية بن موسى الركاب مولى ابي حمو ، فبادر السلطان يومئذ الى العودة الى عاصمته تلمسان فدخلها يوم ٢٤ جمادى الاولى - نوفمبر - من هذه السنة واقتعد أريكته وكانت احلى الغرائب ، كما قال ابن خلدون ، وشرع اذ ذاك في القضاء على رؤوس الفتنة والمشاغبين عليه من عصاة القبائل فقضى وطره منهم ؛ ويومئذ اشرك معه ولده ابا تاشفين في الحـكم وجعل اليه النظر في كلتا ناحيتي الدولة السياسية والحربية وعقد له بولاية العهد بعده ، وانزله في مدينة الجزائر وذلك في منسلخ شهر شعبان ٧٧٦ هـ (فيفرى ١٣٧٥ م) .

مبايعة تدلس : والمجاعة العامة

استمرت مدينة تدلس – دلس – طيلة هذه المدة المتقدمة خاضعة لحكم الحفصيين الى ان استتب الامر الى ابي حمو الثاني وقويت شوكته فنزل له عنها صاحبها الامير ابو عبدالله الحفصي يوم ٢٦ شعبان ٧٧٦ هـ (٣١ جانفيى ١٣٧٥ م) وبايعه اهلها بالبيعة العامة في تاسع رمضان (١١ فيفريى) فعفا عنهم يومئذ وصفح .

ويذكر المؤرخون ان هناك ريحاً عاصفاً هوجاء عجت في هذه السنة على المغرب الاوسط فأهلكت الحرث والنسل واقتلعت كل شيء فانتشرت المجاعة بالجزائر حتى اكل الناس بعضهم بعضاً!..ويومئذ تصدق السلطانبنصف جباية خزينة الدولة على الرعية وفتح ابواب خزائنه الخاصة للمحاويج ؛ وأمر بجمع الفقراء والمساكين ومن لا مأوى لهم من الناس بالمارستانات والمحلات العمومية وقدر لهم فيها ارزاقهم حتى انفرج عنهم الكرب وارتفعت المسغبة .

وفى فاتح المحرم من سنة ٧٧٦ هـ (١٣٨٢ م) استصرخ الوزير ابيالخطيب بالسلطان ابي حمو حينما اشتدت مخافته من بني مرين وبعث له بقصيدة غراء ميمية الروي ، والسلطان إذ ذاك محاصر لمغراوة ، غير ان الامتحان عاجل ابن الخطيب قبل ان يتفرغ ابو حمو للشفاعة فيه لدى السلطان الغني بالله محمد ابن نصر .

وفي سنة ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م) بعث السلطان ابو حمو بولده ابي تاشفين لنصرة الامير عبد الرحمن بن يفلوسن ونجدته بالمغرب الاقصى ضد سلطان مرين ابي العباس احمد بن ابي سالم ، ثم لحق ولده بنفسه فخاب ، ولم يمكث إلا قليلا حتى فاجأه السلطان المريني بغزو تلمسان فاحتلها وخرج منها ابوحمو لاجئاً الى معقل تاجحمومت فلحق به ولده المنتصر وكان بمليانة ، ولم يعد ابو حمو الى دار ملكه حتى غادرها ابو العباس الى عاصمة فاس .

عصيان ابي تاشفين واستشهاد ابي حمو «الثاني»

لم تفتر مرين عن العمل باجتهاد في تفريق كلمة آل زيان وتشتيت مملكتهم الجزائرية وذلك ببث بذور الشقاق والنزاع بين رؤساء الدولة وزعمائها ، وبالغت في التدخل في شؤون المملكة حتى كادت ان تحول بين المرء وقلبه ، وسعت في فصل ولي عهد المملكة ابي تاشفين عن والده السلطان ابي حمو الثاني وفعلاً انتقض على أبيه آخر سنة ٧٨٨ هـ (١٣٨٦ م) وحاربه وكان من قبل عمل على اغتيال كاتب سر أبيه وموضع ثقته يحيى بن خلدون فاضطر ابو حمو يومئذٍ الى مغادرة عاصمته تلمسان والانتقال بعرشه الى مدينة الجزائر فاعترضه ولده وولي عهده ابو تاشفين فرده الى تلمسان ثم خلعه واستخلص ما كان معه من الاموال والذخيرة . وألقى به في سجن وهران ؛ وخرج في طلب اخوته فمر على مليانة وبها اخوه المنتصر فامتلكها فامتنع عنه بعضهم متحصنين بجبل تيطري وبقي آخرون بتلمسان ؛ فبعث من مقره هناك الى من كفاه قتلهم ؛ واستمر على سيره مجداً في البحث عن اخوته ومحاربة من عاداه .

وبينما ابو تاشفين منهمكاً في استقصاء اثر خصومه وتقتيل اخوته وغيرهم بنواحي تيطري اذا بوالده السلطان ابي حمو ينجو من معتقله بحيلة ويتخلص من سجنه فيتدلى منه بعمامته ، فاجتمعت الامة عليه يومئذ واحاط به انصاره فبوأوه عرشه المغصوب ، وهناك ادركه حفيده ابو زيان بن ابي تاشفين ثم اجفل امامه ملتحقاً بأبيه ، وما كاد ابو حمو يتصل بعاصمة ملكه حتى كانت خراباً يبابا .

واسرع ابو تاشفين من مقامه بتيطري واغذ سيره الى تلمسان فاقتحمها والتجأ والده الى مأذنة المسجد معتصماً بها ، فاستنزله ولده المذكور عن العرش متجافياً عن قتله ، فأظهر السلطان ابو حمو يومئذ إطاعته لولده وذكر له رغبته في الحج فأسعفه ولده ابو تاشفين تفادياً منه واركبه السفين مع بعض تجار النصارى القبطانيين المسافرين من وهران الى الاسكندرية واوصاهم به ، فلما حاذى المركب مرسي بجاية لاطف ابو حمو اولئك النصارى في نزوله

بفرضة المدينة فاستأذنوا له امير بجاية في ذلك فأذن له فنزل بها ومنها سار الى الجزائر ثم الى متيجة آخــذاً في تعبئه الجيوش استعداداً لمنازلة تلمسان فاستعصت عليه فخرج الى الصحراء ثم غزاها من جهة المغرب فاحتلها في رجب عام ٧٩٠ هـ – ١٣٨٨ م ويومئذ خرج ابو تاشفين من تلمسان ملتحقـاً بفاس مستجيشاً دولة بني مرين فانطلقت معه الجنود وكان اللقـاء بينه وبين والده ابو حمو في ناحية « الغيران » بجبل بني ورنيد – وراء جبل بني راشد – المطل على تلمسان وهناك ذهب ابو حمو ضحية كبوة فرسه فسقط صريعاً على يد بعض من عرفه من فرسان مرين وذلك غرة شهر ذي الحجة ٧٩١ هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩ م) ودفن بالقصر القديم وعمره يومئذ ٦٨ سنة وكانت ايام ملكه منها ٣١ سنة .

واستمرت الجيوش المرينية محاصرة لتلمسان محيطة بها الى ان استلمت من أبي تاشفين ما اشترط عليه من الاموال ثم عادت الى مراكزها بالمغرب الأقصى واقام ابو تاشفين بتلمسان مقيما الدعوة للسلطان ابي العباس المريني يخطب باسمه على منابر تلمسان واعمالها ويبعث اليه بالضريبة كل سنة حسب الاتفاق المبرم بين الحكومتين [1] .

ولاية السلطان ابي تاشفين عبد الرحمن « الثاني »

هو السلطان ابو تاشفين عبد الرحمن « الثاني » بن ابي حمو موسى « الثاني » ولد بندرومة في شهر ربيع الاول سنة ٧٥٢ هـ (افريل ١٣٥١ م) تولى ولاية عهد المملكة آخر شعبان ٧٧٦ هـ (فيفريي ١٣٧٢ م) وامضى غالب ايامــه الاولى في خدمة دولة بني مرين الى ان قضى على والده غرة ذي الحجة ٧٩١ هـ (٢١ نفمبر ١٣٨٩) فتولى مكانه ، وضرب السكة باسمه تحت رعاية بني مرين وحمايتهم ؛ وكان يدعو اليهم ويخطب باسمهم ويدفع لهم الاتاوة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٣٦٣ ط بولاق ١٣٨٤ هـ

محاربة الاخوين ابي زيان وابي تاشفين

كان ابو زيان والياً من قبل والده ابي حمو الثاني على مدينة الجزائر فلما سقط والده في وقعة « الغيران » نهض مطالباً بثـأر أبيه وملكه منتقماً من اخيه مستصرخاً بأحياء حصين من العرب فاجابه منهم طوائف تقدم بها الى حصار تلمسان في رجب ٧٩٢ ه (جوان ١٣٩٠ م) وما كادت تبلغ جموع ابي زيان من العرب الى تلمسان حتى غمرها ابو تاشفين بأمواله فتفرقت يومئذ عن ابي زيان وتركته في فئة قليلة فخرج اليه حينئذ ابو تاشفين فهزمه في شعبان – جوليط – من سنته ، فالتجأ أبو زيان عندئذ الى الصحراء مستألفاً احياء المعقل من العرب ؛ ثم عاد الى حصار تلمسان في شوال – سبتمبر – فردته عنها جنود مرين فاجفل الى الصحراء للمرة الثانية ثم اجمع رأيه على استصراخ مرين ايضاً فوفد على ملك فاس فتلقاه بكل تقدير ووعده بالمؤازرة والانتصار له من اخيه ، فأقام ابو زيان هنالك ينتظر الوفاء من حكومة بني مرين الى مهلك اخيه ابي تاشفين (٧٩٥ ه – ١٣٩٣ م) وذكر الباحث المستشرق الفرنسي بروسلارد Brosselard قبر هذا الملك وقال انه عثر عليـــه بأقبية قلعة تلمسان القديمة(١).

تنكر مرين لأبي تاشفين

استمر أبو زيان مقيماً بفاس منتظراً من حكومتها تنفيذ وعودها في نصره على أخيه أبي تاشفين ، وطال صبره بقدر ما طالت هنالك اقامته . ولم يلبث أن حدث ما غير نظرة حكومة فاس الى ابي تاشفين فانقلبت عليه وأظهرت سخطها بتجهيز حملة عنيفة وجهتها الى تلمسان وجعلت قيادتها لأبي زيان ، وما كادت تبلغ هذه الى تازا حتى توفي السلطان ابو تاشفين أثر مرض ملازم في اليوم السابع عشر من شهر ربيع الثاني وقيد في رمضان سنة ٧٩٥ ه (آخر فيفري ١٣٩٣ م) فبادر يومئذ وزيره احمد بن العز ببايعة صبي من أبنـاء

(١) M. C. Brosselard, mémoire epigraphique et historique sur les tombeaux des Emirs Beni Zeiyan 12 - 73 Paris 1876

السلطان الهالك وقدم نفسه كوصي على العرش واخذ في تدبير شؤون الدولة والتصرف في مهام السلطنة الزيانيـــة مباشرة ، فغضب لذلك والي الجزائر يوسف بن ابي حمو المشهور بابن الزابية فنهض الى تلمسان فاقتحمها وقتـــل الوزير المذكور والصبي المكفول ، وكان لهذا الحادث اضطراب وقلق عظيمين في الرعية .

تقوض عرش بني زيان

ويومئذ خرج المستنصر سلطان بني مرين الى ابي زيان فرده عن تازاواخذه معه معتقلاً الى فاس ، ومن هناك بعث بولده ابي فارس في جنوده الى تلمسان فامتلكها وأقام بها دعوة ابيه ، ثم اندفع الجند المريني متوجهاً نحو الشرق من بلاد المغرب الاوسط فاستولى على عواصمه مثـل مليانة والجزائر وتدلس الى حدود بجاية ، فأتى بذلك على دولة بني زيان من المغرب الاوسط ، وذهب يوسف بن الزابية معتصما بحصن تاجحمومت .

وفي هذه الاثناء نهض ابو ثابت بن ابي تاشفين الثاني محاولاً الاستيلاء على عرش أسلافه الزيانيين فلم يلبث على عرشه اكثر من اربعين يوماً إذ فاجأه عمه أبو الحجاج يوسف بن ابي حمو الثاني فخلعه عن ولايته وقتله في جمادى الاولى ٧٩٦ هـ (مارس ١٣٩٤ م) ودفن بالقصر القديم ، وتزعـــم يوسف المملكة عشرة اشهر وهو اكبر الاخوة وكان كما ذكر ابن خلدون محباً للخير ملتزماً للصمت منتحلاً لطرق الخير لا يريد علواً في الارض ولا فساداً ثم زحزحـــه المرينيون بتولية أخيه ابي زيان بن ابي حمو « الثاني » .

ولاية السلطان ابي زيان محمد « الثاني »

هو السلطان ابو زيان محمد « الثاني » بن السلطان ابي حمو موسى «الثاني» كان معتقلا بمدينة فاس الى ان توفي السلطان ابو العباس احمد المريني في المحرم سنة ٧٩٦ هـ (نوفمبر ١٣٩٣ م) وتولى مكانه ولده ابو فارس وانتقـــل من تلمسان التي كان والياً عليها الى فاس فأطلق يومئذ وثاق ابي زيان ومكنه من

امارة تلمسان ليقوم فيها بدعوة مرين ، فسار اليها ابو زيان وجاس على عرشها منفرداً بحكمها غرة ربيع الثاني ٧٩٦ هـ (٣ فيفربي ١٣٩٤ م) وقاتل أخاه يوسف بن الزابية فخرج يوسف منهزماً الى قبيلة بني عامر [١] وبقي هنالك يعمل على تأليب الرعية وايقاد نار الثورة ضد ابي زيان الى ان اغتاله العرب في ربيع الاول سنة ٧٩٧ هـ (ديسمبر ١٣٩٤ م) وحملوا رأسه الى السلطان ابي زيان فسكن يومئذ روعه ، فلم ينعم يوسف بالملك سوى اربعين يوماً .

ويذكر لنا التاريخ من صفات هذا السلطان - ابي زيان - انه كان عالماً اديبا شاعرا ناثرا متأنقا في شعره بليغا في ترسله ، ومن شعره قصيدته الرنانة التي نظمها مادحـــا سلطان مصر الملك الظاهر برقوق وارفقها بهديـــة ثمينة

---

(١) ويقال لهم العوامر ايضاً نسبة الى جدهم عامر بن ابراهيم بن يعقوب المنحدر نسبه من عامر بن زغبة الهلالي ؛ وهم اخوة بني سعد بن بكر بن هوازن الذين استرضع فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ كانت مواطنهم الاولى عند الطائف بجبل زغوان : ويقول الألوسي في تاريخ نجد - « أن في قرى الوادي بنجد بقعة تسمى الهلالية » فلعلها مما بقي من آثارهم هناك ؟. وبعد ان تنقلوا في أزمنة مختلفة بأطراف العراق والشام والبحرين وأرض الصعيد المصري وتغلبوا على ملوك صنهاجة بالمغرب في أواخر القرن الخامس الهجري كما قدمنا في الجزء الاول من تاريخنا هذا انتقل بنو عامر من طرابلس وقابس وشرقي افريقية - تونس الى جنوب المغرب الأوســط - الجزائر - فسكنوا مـــا بين أرض مصاب « أمزاب » وجبـــل راشد وهو جبـل العمور وتجـــاوروا مع بني بادين وتعاقدوا على امر واحـــد فسكن بنو بادين بالتلول والضواحي وسكن زغبة بن معهم في القِفار ، الى ان ملك يغمراسن بن زيان تلمسان ونواحيهـــا ودخلت زناتة للتلول والارياف وظهر عبث المعقل المجاورين لهم وهم أهل « أنكاد » فنقلهم من صحراء بني يزيد وأنزلهم بينه وبين المعقل وقاية له ، فصاروا بصحراء تلمسان بعد أن كانوا ما بين المسيلة شرقاً الى جنوب تلمسان غرباً وبقوا مستمرين على إقامتهم هنالك الى أن كادت حروب ابي عنان المريني أن تفتك وتقضي على بني زيان ، فنقلهم السلطان أبوحمو موسى بن يوسف الزياني في حدود سنة نيف وستين من القرن الثامن الهجري من ضواحي تلمسان الجنوبية الى بلاد تاسالة واتصلت مجالاتهم بها الى حدود سنة ١١٦٠ هـ - ١٧٤٧ م - فانتقلوا الى سهول ملاته وجبالها وذلك أيام ولاية الحاج عثمان باي وهران فسكنوا بها الى الآن ؛ « انظر بهجة الناظر للشيخ عبد القـــادر المشرفي ، طبع في الجزائر ١٩٢٤ م »

اليه [1] فقال :

لمن الركائب سيرهـن ذميـل ... والصبر - الابعدهن - جميل
يا ايها الحادي رويدك انهـا ... ظعن يميل القلب حيث تميل
رفقا بمن حملنه فوق ظهورهـا ... فالحسن فوق ظهورها محمول
لله آيـة أنجـم شفافـة ... تنجاب عنها للظلام سدول
شهب بآفاق الصدور طلوعها ... ولها باستار الجدول افـول
في الهودج المزرور منها غادة ... تزع الدجى بجبينهـا فيحول
فكانهـا قمر على غصن على ... متني كثيب والكثيب مهيل
ثارت مطاياها فثار بي الهوى ... واعتاد قلبي زفرة وغليـل
اومت لتوديعي فغالب عبرتي ... نظر تخالسه العيون كليل
دمع اغيض منه خوف رقيبها ... طوراً ويغلبني الاسى فيسيل
وبح المحب وشت بـه عبراته ... فكأنها قال عليه وقيـل
صان الهوى وجفونه يوم النوى ... لمصون جوهر دمعهن تذيـل
وتهابه اسد الشرى في خيسها ... ويروعه ظبي الحمى المكحول
تأبى النفوس الضيم الا في الهوى ... فالحر عبـد والعزيز ذليل
يا بانة الوادي ويا اهل الحمى ... هل ساعة تصغين لي فأقول
مالي اذا هب النسيم من الحمى ... ارتاح شوقا للحمى واميـل
خلوا الصبا يخلص إلي نسيمها ... ان الصبا لصبابـتي تعليل
مالي احلأ عن ورود محله ... وأذاد عنـه وورده منهول
والباب ليس بمرتج عـن مرتج ... والظن من مولى الجميل جميل

ومنها بعد ما أبدى اشواقه ، وحنينه الى زيارة البقاع المقدسة في خمسة عشر بيتا يتخلص لذكر ممدوحه فيقول :

---

(١) تشتمل هذه الهدية على ثلاثين من الجياد بمراكبها المموهة واحمال من الاقمشة الانيقة الخ ... انظر تفاصيل المهاداة وعقد الصلات بين ملوك المشرق والمغرب في كتاب العبر ج٧ص ١٣٨ – ٢٢٦ – ٢٦٣ و ٢٦٤ و ٢٦٦ وارجع الى صفحة ٩٥ - ١٠٠ من هذا الجزء - تاريخ الجزائر العام — والتعريف بابن خلدون ص ٣٣٥ - ٣٤٦ ط القاهرة ١٣٧٠ هـ (١٩٥١م)

وعن المليك ابى سعيد فلتنب ... فلكم له نحو الرسول رسول
متحمل لله كسوة بيتـــه ... يا حبذاك المحمــل المحمول
سعد المليــك ابي سعيد انه ... سيف على اعدائـــه مسلول
ملك يحج المغرب الاقصى به ... فلهم به نحو الرسول وصول
ملك بـــه نام الانام وامنت ... سبل المخاف فلا يخاف سبيل
فالملك ضخم والجناب مؤمل ... والفضل جم والعطاء جزيل
والصنع اجمل والفخار مؤثل ... والمجد اكمل والوفاء اصيل
يا مالك البحرين بلغت المنى ... قد عاد مصر على العراق يصول
يا خادم الحرمين حق لك الهنا ... فعليك من روح الاله قبول
يا متحفي ومفاتحـــي برسالة ... سلسالة يزهي بهـــا الترسيل
اهديتها حسناء بكرا ما لهـــا ... غيري، وان كثر الرجال، كفيل
ضاء المداد من الوداد بصحفها ... حتى اضمحل عبوسه المجبول
جمعت وحاملهـــا بحضرتنا كما ... جمعت بثينة في الهوى وجميل
وتأكدت بهدية وديـــة ... هي للاخاء المرتضى تكميل
اطلعت فيهـــا للقسي اهلة ... يرتد عنها الطرف وهو كليل
وحسام نصر زاهيـــا بنضاره ... راق العيون فريده المعسول
ماضي الشبا لمصابه تعنو الظبا ... فبه تصول على العدا وتطول
وبدائع الحلل اليمانية التي ... روى معاطفها بمصر النيل
فأجلت فيها ناظري فرأيتها ... تحفاً يجول الحسن حيث تجول
جلت محاسنها فأهوى نحوها ... بفم القبول اللثم والتقبيل
يامسعدي وأخي العزيز ومنجدي ... ومن القلوب الى هواه تميـــل
ان كان رسم الود منك مذيلا ... بالبر وهو بذيـــله موصول
فنظيره عندي وليس يضـيره ... بمعارض وهم ولا تخييـــل
ود «يزيد» و« ثابت » شهدا به ... و« لخـــالد » بخلوده تذييل
واليكها تنبيك صدق مودتي ... صح الدليـــل ووافق المدلول
فاذا بذاك المجلس السامي سمت ... فلديك اقبال لهـــا وقبول

دام الوداد على البعاد موصلاً بين القلوب وحبله موصول
وبقيت في نعم لديك مزيدها وعليك يضفو ظلها المسدول

وللسلطان الشاعر هذا عناية بالتأليف أيضاً ؛ فله كتاب في علم النفس سماه « الاشارة في الحكم بين النفس المطمئنة والنفس الامارة» ؛ ومن الأسف اننا لا نعلم عن هذا الكتاب اليوم شيئاً سوى اسمه!..وقد يكون له غيره ?..

ويمتاز عصر ابي زيان بنشاط العلماء الى التأليف ورواج سوق العلم والأدب العربي فيه ووضع المصنفات الكثيرة التي نرى اسماءها مبثوثة في الفهارس وكتب التراجم والطبقات .

واستمر ابو زيان على ولايته الى ان تنكرت له مرين واغرت به اخاه ابا محمد عبد الله بن ابي حمو – كما هو شأنها مع ملوك بني زيان دائماً – فغزا تلمسان واحتلها – بمساعدة ملوك فاس طبعاً – وذلك غرة القرن التاسع الهجري (١٣٩٨ م) وخرج منها ابو زيان مشرداً في البلاد مهدماً مهزوم القوى فبقي متنقلاً بين احياء العرب الى ان قتل سنة ٨٠٥ هـ (١٤٠٢ م) .

ولاية السلطان ابي محمد عبدالله «الاول»

هو السلطان ابو محمد عبدالله بن السلطان ابي حمو موسى الثاني؛ انتصب للحكم سنة ٨٠١ هـ (١٣٩٨ م) واظهر من النشاط والحزم وحسن التدبير والصرامة في الحق والعدل في الحكم بين الناس ما خشي عقباه اولئك المماذقون المخادعون من بطانة السوء ورجال البلاط الماكرين فأثاروا يومئذ كمين الضغائن بين حكومتي فاس وتلمسان وسعوا بكل جهودهم في عقد المؤامرات السرية لايقاد الفتنة بين الدولتين حتى ظفروا ببغيتهم فكانت يومئذ اغارة مرين على تلمسان سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) فاحتلتها واسرت السلطان ابا محمد ونصبت مكانه اخاه ابا عبدالله محمد المعروف بابن خولة .

وليس لدي فيما يتعلق بتاريخ عصر هذا السلطان مما يستحق التسجيل من

الحوادث الهامة سوى غزاة مرين المتقدمة او ما يذكر عن تقاعس الافرنج في تسعين سفينة حربية عن بونة بعد ان ردهم عنها اهلها المسلمون ؛ ثم توجهت الحملة الافرنجية يومئذ الى مرسى القل ودلس فانتهبتها او ما وقع من احتلال الاسبان لبلدة تدلس فجوة يوم الاثنين ١٢ ذي الحجة ٨٠٠هـ= او ط ١٣٩٨ م وكان فيمن شهد هذه الغزاة الاسبانية وخاطر بنفسه الشيخ عبدالرحمن الثعالبي ولم يكن سنه يومئذ يتجاوز الخمسة عشر سنة .

ولاية السلطان ابي عبد الله محمد «الثالث»

هو السلطان ابو عبد الله محمد «الثالث» الملقب بالواثق الشهير بابن خولة ، احد ابناء السلطان ابي حمو موسى الثاني ، توج على عرش اسلافه سنة ٨٠٤ هـ (١٤٠١ م) وكان عفيفاً عن الدماء شغوفاً بالعلم والفن عاملاً على تنشيط العلماء وبعثهم على البحث والانتاج الفكري ، فعاش الناس وقتئذ في رخـــاء وهناء رغم الحوادث الثورية والمشاغبات السياسية والمشاكل المستحدثـة المطرة بين الدولتين المتجاورتين ، وهكذا الى وفاته (رحمه الله يوم الثلاثاء ٧ ذي القعدة سنة ٨١٣ هـ (مارس ١٤١١ م) فتولى مكانه ولده عبدالرحمن ودفن والده بتربة سيدي ابراهيم المصمودي .

ولاية السلطان عبد الرحمن «الثالث»

هو السلطان عبدالرحمن «الثالث» ابن السلطان ابي عبدالله محمد « الثاني » الشهير بابن خولة ، تولى الملك اثر وفاة والده يوم الثلاثاء ٧ ذي القعدة سنة ٨١٣ هـ (٣مارس ١٤١١ م) وما كاد يستقر على عرشه حتى كانت هنــالك فتنة هوجاء منشأها شيئان : التزاحم على الملك ودسائس مرين ، ففاجأه عمه السعيد في جيش عرمرم أحاط بقصره وألزمه بالتنازل عن الملك ، فاختلع عبدالرحمن عن عرشه اواخر المحرم ٨١٤ هـ (ماي ١٤١١ م) فــلم تزد ايام توليه الملك عن شهرين فقط وتولى مكانه عمه المذكور .

ولاية السلطان السعيد بن ابي حمو

هو السلطان السعيد ابن السلطان ابي حمو موسى«الثاني» توّج اثر اختلاع عبدالرحمن الثالث – ابن اخيه – في اواخر المحرم سنة ٨١٤ هـ (ماي١٤١١م) وكان ملكاً جواداً كريماً كثير الانفاق والعطاء ، ولقد اصيبت الخزينة في ايامه بأزمة مالية فعمد الى التخفيف عنها بالتثقيل على كاهل الرعية بالمطالب « الجرجية » فأحدث ذلك قلقاً واضطراباً في الناس طالما انتظرته دولة بني مرين التي كانت ترقب راصدة مثل هذه الحوادث والفرص المواتية لها عن كثب ؛ فأظهرت يومئذ الاهتمام بشأن هذه التشعبات الشعبية وتدخلت في القضية الجزائرية بحمل امير فاس الامير ابي مالك عبدالواحد بن ابي حمو «الثاني» على محاربة اخيه السلطان الحالي كما هو شأنها في تغليب امير على امير وأمدته بالعدة والعدد فبادر ابو مالك الى اختطاف هذه الفرصة السانحة لتملكه وهاجم تلمسان فاحتلها في منتصف رجب ٨١٤ هـ (اكتوبر ١٤١١م) وأبعد أخاه السعيد الى منفاه فتركه هنالك الى ان هلك حتف أنفه من عامه هذا .

ولاية السلطان إبي مالك عبدالواحد

هو السلطان ابو مالك عبدالواحد ابن السلطان ابي حمو موسى« الثاني » تغلب على أخيه السعيد بمؤازرة مرين فانتصب على العرش الزياني في رجب سنة ٨١٤ هـ (اكتوبر ١٤١١ م) وقيل ان ذلك كان في السنة بعدها ؟...

اشتهر ابو مالك بالشجاعة والحزم والسجايا الكريمة والتدين ونشر الثقافة والسهر على مصالح الدولة واصلاح الرعية ؛ وقد بلغ بعزمه وشدة حزمه الى استرجاع كل ما كان بيد الحفصيين من بلاد الجزائر الشرقية ، وتوسع غرباً الى عاصمة مرين فخضد من شوكتها واستولى على فاس ونصب عليها واليا او اميراً من قبله فكان ذلك آخر العهد بتدخل دولة بني مرين في الجزائر .

ولأول مرة سقط المرسى الكبير – بوهران – بيد البرتغال ٨١٨–٨٤١هـ (١٤٣٧ م) .

اغارة الحفصيين على تلمسان

كان لاستيلاءالسلطان ابي مالك على ما كان بيد الحفصيين من احواز الجزائر الشرقية وقع عظيم لدى دولة بني ابي حفص ، وكان مما زادها رعباً وذعراً من هذه الدولة الجزائرية هو توسعها غرباً واستيلاؤها على عاصمةالمرينيين—فاس— فشرع لذلك السلطان ابوفارس عزوز الحفصي في اخذ الحذر منها والاستعداد لمواجهتها والتدبير في خطة الهجوم للقضاء على دولة المغرب الاوسط الآخذة في النمو والانتشار باقطار المغرب الثلاثة ؛ وبرز ابو فارس في خمسين الف مقاتل مهاجماً مملكة الجزائر فرده السلطان ابو مالك عنها وكانت هنالك وقائع ومعارك متعددة صبر لها الحفصيون وصمدوا لها حتى انتصروا على تلمسان ففتحوها يوم السبت ١٣ جمادى الثانية ٨٢٧ هـ (١٣ ماي ١٤٢٤ م) وخرج منها يومئذ سلطانها ابو مالك منحازاً الى الجبال فاحتلها ابو فارس ونزل بقصبتها مستحوذاً على جميع ما فيها ، وبعد ان تمكن من ناصيتها نصب عليها الامير محمد «ابن الحمرة »ابن السلطان تاشفين وخرج متوجهاً نحو فاس حتى لم يبق بينه وبينها إلا مسيرة يومين فجاءته بيعة مرين فعاد يومئذ الى مركزه بتونس ثم جاءته بيعة صاحب الاندلس ، فكان المغرب الاسلامي عهدئذ بتمامه تحت رعاية السلطان ابي فارس الحفصي

ولاية السلطان محمد « الرابع »

هو السلطان ابو عبدالله محمد «الرابع» المعروف بابن الحمرة بن السلطان عبد الرحمن تاشفين «الثاني» كان صاحب حكمة وحنكة وتدبير توج على عرش تلمسان سنة ٨٢٧ هـ (١٤٢٤م) تحت رعاية الدولة الحفصية كما اسلفنا ؛ فعمل على اكتساب قلوب الرعية بحسن سلوكه وسداد سياسته فمال اليه الناس وتوحدت كلمتهم حوله فثبت بذلك قدمه في الملك وتوطد سلطانه ويومئذ رفض دعوة بني ابي حفص فألغى ذكرهم من الخطبة والمكاتبات واعلن بتحرير البلاد واستقلال الدولة الجزائرية الزيانية عن غيرها من دول المغرب

وكذلك فعل عامل قسنطينة ورئيسها الحاج ابو عبدالله محمد الدهان فانه رفض طاعة دولة الحفصيين واعلن معارضة الولاة والامراء في سياستهم الداخلية وتصرفاتهم بالبلاد غير انـــه لم ينجح فقبض عليه السلطان ابو فارس في ذي القعدة من سنة ٨٣٠ هـ (اوط ١٤٢٧ م) واعتقله بقصبة تونس

السلطان أبو مالك عبد الواحد « للمرة الثانية »

بعد ان ظهرت خيبة ابي مالك – السلطان المخلوع – واخفاقه في استعمال جميع الوسائل السياسية والمكائد الدبلوماسية لاسترجاع عرشه ، التجأ الى بني مرين فلم تغن ايضا عنه هذه المرة شيئاً ، ويومئذ اذعن للحفصيين خصومـــه بالامس : فزودوه بالجيش والعدة وغزا تلمسان فأكدى ؛ ثم تحرك لها السلطان ابو فارس الحفصي ففتحها في رجب ٨٣١ هـ (افريل ١٤٢٨م)واعاد ابا مالك الى عرشه

ثورة (ابن الحمرة) ونهايته

خرج ابو عبدالله محمد الثالث « ابن الحمرة» من تلمسان منهزما واخذ في نشر الدعاية لنفسه بين العرب والبربر وثابر متنقلا بـــين أصقاع جبال وانشريس وبرشك وتنس واكثر من الحركة والتجوال بين الاحياء هنالك يستثير الهمم ويستأنف العواطف والقلوب الى ان احرز على الثقة بينهم فأخذ منهم البيعة لنفسه وسار بهم زاحفاً نحو تلمسان ففتحها يوم الخميس رابع ذي الحجة٨٣٣ هـ (٢٤ اوط ١٤٤٠ م) وتمكن من قتل عمه ابي مالك ودفنه بالقصر القديم ،وما كاد ينعم بنشوة الملك حتى فاجأه السلطان الحفصي – لثمانية واربعين يوماً من تملكه – فأسره ونصب مكانه عمه ابا العباس احمد «العاقل» وذهب بابن الحمرة الى تونس فاعتقله بقصبتها هنالك الى وفاته سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦م)

ولاية السلطان ابي العباس احمد المعتصم

هو السلطان ابو العباس احمد المعتصم بالله المشهور بـ« العاقل» ابن السلطان

ابي حمو موسى « الثاني » تولى عرش تلمسان بفضل الحفصيين كما ذكرناه ، وذلك يوم الخميس غرة شهر رجب سنة ٨٣٤ ﻫ (١٥ مارس ١٤٣١ م)فسك النقود واظهر من حسن السيرة والعناية بنشر العدل وخدمة العلم ما اكسبه عطف الرعية واجماع الناس على مودته ويومئذ اظهر باسه للحفصيين واعلن برفض عهدهم سنة ٨٣٧ ﻫ (١٤٣٣ م) فتحرك لقتاله السلطان ابو فارس الحفصي فاحتل جبل وانشريس قهراً وانضم اهله تحت طاعته ثم ما كاد يتصل بتلمسان حتى وافاه اجله فتوفى بطريقه اليها وعاد اصحابه من حيث اتوا .

ثورة ابي يحيى واستيلاؤه على وهران

هو احد امراء البيت الزياني – اخ السلطان العاقل – حمله داعي الاثرة والتنافس وحب الرئاسة الى الخروج عن طاعة اخيه فشن غارته على تلمسان وشايعه على ثورته هذه احياء من العرب ،فردهم عنها السلطان منهزمين،ويومئذ ذهب ابو يحيى الى وهران فاستولى عليها سنة ٨٤٠ ﻫ (١٤٣٧ م) وكثيراً ما حاول السلطان مطاردته فلم يفلح .

ظهور المستعين بالله وقتله

ان من ينظر في تاريخ الجزائر السياسي على هذا العهد يجده كله انقضى بين تناحر المتزاحمين وتشاكس المتنافسين،وسواء ذلك بين الدولتين المتجاورتين المكتنفتين لهذا القطر شرقاً وغرباً ام بين اعضاء الاسرة المالكة نفسها ، فهذا ابو زيان محمد « المستعين بالله » الذي كان بتونس وهو من اعضاء الاسرة الزيانية قد عملت فيه عوامل النخوة والكبرياء ودبت في قلبه عقارب الحسد فذهب مستنجداً بحكومة تونس فانجدته وايدته بجند من العرب والبربر فجاء بهم مغيراً على المغرب الاوسط سنة ٨٤٢ ﻫ (١٤٣٨ م) فاحتل مدينة الجزائر ومتيجة وتنس ومليانة الخ .. واوغل في التقدم نحو الغرب الى ان تاخم حدود مملكة السلطان العاقل ثم عاد الى مدينة الجزائر فاستقر بها واتخذها

مركزاً لانشاء دولته بها ، وما كاد يتم له الامر حتى فاجأه صاحب وهران الامير ابو يحيى اخو السلطان العاقل فاثار الرعية ضده فقتلته في شهر جمادى الثانية – نوفمبر – من سنته .

انهزام ابي يحيى عن وهران

ما كان للسلطان العاقل ان يترك اخاه ابا يحيى مستبداً بوهران [1] منذ ان استولى عليها سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٧ م) كما تقدم فعمل على اقصائه منها واعادتها الى مملكته وناجزه الحرب حتى غلبه عليها في شعبان ٨٥١هـ(اكتوبر١٤٤٧م) وجعلها الحاضرة الثانية للجزائر فخرج منها ابو يحيى الى تونس فبقي بها الى وفاته سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢ م) .

ثورة محمد « المتوكل » ونهاية « العاقل »

لقد كان مما جرته هذه القلاقل السياسية والانقلابات الادارية ان انتشرت الفوضى بالبلاد الجزائرية وعم الخلاف ، فنهض آنئذ الامير محمد بن محمد بن ابي ثابت « المتوكل » منتهزاً فرصة فشو هذا الاضطراب ورفض طاعة السلطان معلناً عصيانه واخذ في سيره لفتح البلاد في شهر ربيع الاول سنة ٨٦٦ هـ (ديسمبر ١٤٦١ م) واستولى على مستغانم ووهران وتنس واخيراً تلمسان فعزل عنها عم ابيه السلطان اباالعباس غرة جمادى٢ فاتح فيفري ١٤٦٢م) فانتقل ابو العباس يومئذ الى سكنى ضاحية العباد ثم ابعد عنها الى الاندلس ، وهنالك سعى في تكوين جيش عاد به الى الجزائر محاصراً تلمسان مدة اسبوعين عن غير طائل ثم كانت وفاته في ذي الحجة ٨٦٧ هـ (او ط ١٤٦٣م) ودفن بالعباد .

---

(١) اختلف في بانيها على قولين قيل انهم جماعة من الاندلسيين المذكورين في الجزء الاول من كتابنا هذا وذلك في أواخر القرن الثالث الهجري كما تقدم ، وقيل هو خزر بن حفص بن صولات المغراوي باذن مواليه امراء بني امية بالاندلس وصححه المشرفي في تقييده « بهجة الناظر » المطبوع بالجزائر سنة ١٩٢٤ م

الزحف الحفصي .

كان الحفصيون كغيرهم من ملوك المغرب الاقصى ينظرون دائماً الى نشوب الخلاف والشتات بين امراء البيت الزياني ليتوسعوا أو قل يتوصلوا الى نيل غرضهم من الاستيلاء على هذا القطر وضمه الى مملكتهم الشرقيـة او الغربية ؛ وكان الدور في هذه المرة للحفصيين؛ فخرج السلطان ابو عمرو عثمان الحفصي من تونس سابـع شهر شوال ٨٦٦ ﻫ (٥ جوليط ١٤٦٣م) ميمماً عاصمة المغرب الاوسط – تلمسان – فأخضع في طريقه قلعة حليمـة – احدى قلاع جبـل اوراس ثم تقدم غرباً فنزل بأرض بني راشد ، وهنالك جـاءته وفود العرب من سويد وبني يعقوب وبني عـامر والدواودة واعيان بني عبد الواد وكلهم ناقم على السلطان الزياني راغب في طاعـة الحفصيين ، فأحسن اليهم ابو عمرو وفرق ولاته على تلك الانحاء، ويومئذ اوفد المتوكل ملك تلمسان وفداً لينوب عنه لدى ابي عمرو في المبايعة وعقد الصلح ، وكان هذا الوفد مركباً من ثلاثة أعضاء : الشيـخ ابي عبدالله محمـد بن الشيخ ابي القاسم العقباني ، والشيخ احمد بن الحسن، ويرأسها خال السلطان ابو الحسن علي بن حمو بن ابي تاشفين.

ثم عاد الملك الحفصي الى مركزه معرجـاً على قسنطينة فعقد لحفيـده ابي عبد الله محمد المنتصر بن ابي عبدالله محمد المسعود عليها وجعل بين يديه القائد ابا علي منصور الصبان مزواراً . وعين بشيراً قائداً على البلد بدل ظافر المعزول عنها ، وصرف محمد بن سعيد بن صخر الى وطنه بجاية .

ابتداء الهجرة الاندلسية الى المغرب وسقوط بونة

كان لطغيان الاسبان بالاندلس واعتـداءاتهم المتكررة على المسلمـين تأثير عظيم على جمعهم وجماعتهم هناك كما هو معروف من تاريخهم الحزين، فأخذوا يتسللون لواذاً ملتجئين الى هذا الشمال الافريقي ابتداء من سنة ٨٥٦ ﻫ (١٤٥٢م) فحل اكثرهم يومئذ بالجزائر فلحقهم الاسبان بمراكبهم ، فكان ذلـك ابتداء الحروب البحرية بين الجزائريين والافرنج ، وكان اتحاد الجالية الاندلسية مع

اهل الجزائر على مناوأة العمارة الافرنجية بهذا البحر الابيض المتوسط ، سبباً في سقوط بونة بيد الاسبان سنة ٨٦٧ هـ (١٤٦٢م) ثم تبعها غيرها من السواحل الجزائرية .

ولاية السلطان ابي ثابت محمد الخامس

هو السلطان ابو ثابت ابو عبدالله محمد المتوكل علي بن ابي زيان محمد المستعين بالله بن يوسف ؛ تولى الملك غرة جمادى الاولى سنة ٨٦٦ هـ (فاتح فيفري ١٤٦٢م) بعد ان كان قد اقتطع لنفسه في ربيع الاول (ديسمبر ١٤٦١م) مدينة الجزائر ومليانة ووهران ومستغانم وتنس واستولى عليها كما تقدم وبسط عليها نفوذه وسك نقوده . وكان ملكاً شهماً شجاعاً شغوفاً بالملك ، اخضع لسلطته العرب وجميع المخالفين عليه ، وقام في مملكته بأعمال جليلة فوحد كلمة الرعية واصلح من شأن الوطن ما تصدع ، فأحبه الشعب والتف حوله ممتثلاً له منفذاً لأوامره ونواهيه ، وكثيراً ما غزت اساطيله مدن الاسبان والطليان انتقاماً لما احله هؤلاء بمسلمي صقلية والاندلس .

وللمرة الثانية وقع المرسى الكبير بوهران بيد البرتغال (٨٧٥ هـ = ١٤٧١م) ثم خرجوا منها سنة ٨٨١ هـ = ١٤٧٧ م .

رفض الدعوة الحفصية

مضى هذا السلطان على الخطة المرسومة المتبعة التي سار عليها من قبله من ملوك بني عبد الواد الزيانيين ، من المحافظة على استقلال هذه الدولة والذود عن حرمتها ورفض كل تدخل أجنبي في شؤون الجزائر مهما كان شأنه ، ففي سنة ٨٦٨ هـ (١٤٦٣ م) أعلن السلطان أبو ثابت رفض الدعوة الحفصية وطرد ولاتها من أعمالهم . فسعى به أعراب تلمسان من بني عامر وسويد وغيرهم لدى السلطان الحفصي فجاء بجنوده الى بعض قلاع جبل اوراس فاحتلها وأخضع القبائل العربية هناك ، ثم كانت هدنة وصلح ؛ ثم أعاد ابو ثابت نهضته مماكساً دعوة ابي حفص معلناً استقلاله التام بمملكته ، فقاومه الحفصيون

وتكرر ذلك منهم مرتين ، وفي الثانيــة منهما بالغوا في تشديد الحصار عـلى تلمسان فأذعنت لسطوتهم يومئذ مدينة مليانة والمديــة وتنس واستسلم لهم ابو ثابت وكتب بيعته للسلطان الحفصي ؛ ومما جاء فيها بخطه قوله : « شهد على نفسه عبد الله المتوكل عليه محمد لطف الله به ولا حول ولا قوة إلا بالله ، واعطى ابنته بكراً للمولى ابي زكريا يحيى بن المولى المسعود دون خطبة » ، وقفل حينئذ سلطـان تونس الى حضرته وبقي ابو ثابت على عرشه الى وفاته بتلمسان سنة ٨٩٠ هـ (١٤٨٥ م) فخلفه بعده ولده تاشفين .

ولاية السلطان تاشفين بن ابي ثابت

هو السلطان تاشفين بن ابي ثابت محمـد الرابع ، لم يكد يستقر على عرش أسلافه حتى فاجأه أجله بعد اربعة اشهر من سلطنتـه فتوفي من سنته بدون ان يترك أي أثر له يذكر به في تاريخ دولته فيما نعلم .

ولاية السلطان محمد (السادس)

هو ابو عبد الله محمد (السادس) بن ابي ثابت المتوكل تولى السلطنـة بعد أخيه تاشفين فسك النقود وتلقب بلقب أبيه : ابي ثابت ايضاً ، وكان ضعيف الارادة عاجزاً عن القيام بأعباء الملك وتدبير شؤون الدولة السياسية وتسيير الرعية فكثرت الفتن والاضطرابات على عهده وانتشرت الفوضى ثم مات سنة ٩٠٢هـ (١٤٩٦ م) ولم نظفر له كذلك بأثر يذكر به سوى اسمـه المرسوم على سكته .

ولاية السلطان محمد (السابع)

هو ابو عبد الله محمد (السابـع) بن ابي ثابت الثاني ؛ اشتهر بالثابتي نسبة الى جده ، تملك بعد أبيه عـام ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م) وكان من ذوي الفطانة والذكاء ورجاحة العقل وحسن التدبير منصرفاً الى توفير ماليــة خزينةالدولة والإكثار من الأوقاف الخيرية . وفي ايامه ٨٩٥ هـ (١٤٩٠ م) كان ذلك

الحدث الجلل بالأندلس فسقطت غرناطة عاصمة بني الأحمر النصريين آخر معاقل الإسلام بذلك الفردوس المفقود !.. فالتجأ ملكها المنكوب ابو عبدالله محمد بن سعد المعروف بالزغل الى وهران فيمن ضوى إليه من الأعيان والكبراء الذين أيقنوا بنهاية الأندلس الإسلامية ، ثم انتقلوا الى تلمسان وبها ترك الزغل عقباً له عرف بعد ذلك ببني سلطان الاندلس فاقتبلهم الملك بأوفى ما يجب ان يكرم به الملوك والامراء والسادة وما توجبه الروابط الاسلامية، فكان ذلك مما زاد في اثارة حقد الاسبان فسخطوا على الجزائر واستشاط ملكهم غيظاً على بلاط تلمسان، فادرك ذلك السلطان الزياني وتحقق انه لا محالة هامة اليوم او غداً، فبادر الى السعي في ترضية (فرديناند الخامس) وتألفه بالسفر الى اسبانيا[1] مصحوباً بهدايا ثمينة، منها خيول عربية عتاق ، ولؤلؤة فخمة ملكية نادرة ، وطيور مصنوعة من الذهب الخالص ، فيها من الدواجن دجاجة متبوعة بست وثلاثين نقفا الخ ..، وقدم ذلك بنفسه الى ملك الاسبان فانكسرت حدة غضبه وذهبت عنه شرته ثم عاد بعدها السلطان الى وطنه آمنا، وكانت وفاته سنة ٩٠٩هـ (١٥٠٣م) فخلفه اخوه ابو زيان « الثالث» غير انه لم يمكث الا قليلا ففاجأه عمه ابو حمو الثالث

ولاية السلطان ابي حمو موسى (الثالث)

هو ابو حمو موسى « الثالث» الملقب بأبي قلمون بن محمد «الرابع» انتصب قهراً على عرش تلمسان سنه ٩٠٩ هـ (١٥٠٣م) فعزل ابن اخيه محمد «السابع»

---

(١) كانت المملكة الاسبانية أيام ولاية الرومان عليها « ١٣٤ - ٤٠٦ م » منقسمة الى ولايتين يفصلها نهر« ابرو » وسموهما هسبانيا الخارجة وهسبانيا الداخلة ، ثم سموا البلاد كلها « هسبانيا » يريدون المملكة ذات الولايتين أو المقسمة الى قسمين ، وقيل ان اطلاق اسم « إسبانيا » عليها كان زمن الفنيقيين قبل الرومان ، وان كلمة « Span » فينيقية معناها المحتجب أو المستور ، وذلك لأن هذه البلاد كانت بعيدة عن الفينيقيين محجوبة عن أنظارهم في أقصى الأرض جهة الغرب ، وقيل أنما سموها بذلك لأنهم رأوا فيها أرانب كثيرة ، والأرنب بلغتهم « اسبان » . أنظر تعليقات أحمد يوسف نجاتي على نفح الطيب ج ٢

وباشر الحكم والبلاد يومئذ في اضطراب وحبل حكومتها في انحلال وضعف وتفرق وتشتيت

احتلال الاسبان لوهران والسواحل الجزائرية

لقد اخذ صرح بني عبد الواد يتساقط منذ ان ركن ملوك هذه الدولة من بني زيان الى التواكل والتخاذل وأخلد رؤساؤهم الى الدعة واستمهد حكامهم الراحه وتثاقلوا عن القيام بالمصالح العامة بانهاكهم في التهالك على الرئاسة وقصر اشتغالهم على انفسهم شخصيا ، فانمحت يومئذ هيبتهم من نفوس الرعية وانتشرت الفوضى بين الناس في كل من ميادين السياسة والاجتماع واستبد الولاة ورؤساء القبائل والشيوخ وعمال الجهات وولاة النواحي وقادة الجيش بما اتصل بايديهم من اسباب الولاية والحكم ، فتشتتت الوحدة الجزائرية وانحلت الرابطة الاجتماعية بين الراعي والرعية فاضطربت الاحوال وتعددت المشاكل ، وملوك الاسبان يومئذ يترصدون مثل هذه الفرص خلسة، ويترقبون الظروف المواتية للقضاء على دولة الاسلام بهذا الشمال الافريقي بعد ان شفوا منها صدورهم واطفأوا غلتهم في حوادث الاندلس الدامية، وقد كانوا تعاهدوا على ذلك وتواصوا به منذ انعقاد مؤتمر « طوردزيلاس » Tordesillas ٨٩٩ ه (١٤٩٤م) للنظر في شؤون سير السياسة بالهند ، فهناك وقع التعاقد بين الصليبيين على استئصال المملكة الاسلامية بهذا الشمال الافريقي ، وقد تطلع الى ذلك دولة الاسبان والبرتغال فتواطآ على ان يتوزعا بينهما بلاد المغرب العربي غنيمة باردة على ان يكون خط الاسبان منها سواحل بلاد الجزائر وللبرتغال المغرب الاقصى .

ولما كانت الجزائر في هذه الفترة على ما وصفنا من الانحلال السياسي والاضمحلال الاداري اخذ الاسبان في التمهيد والاستعداد لاحتلالها ببعث البعوث الاستطلاعية اليها واذكاء العيون والجواسيس حولها للكشف عن حالة

---

(١) م Henri Garrot. histoire genéral de l'Algérie p : 344 Alger 1910

البلاد العامة والاطلاع على عوراتها ، ومنها كانت بعثة « لورينثودي باديا » الى مملكة تلمسان على عهد السلطان ابي عبدالله محمد الثابتي

وما كاد القرن العاشر الهجري - السادس عشر الميلادي - يأذن بالحلول حتى كان الاسبان على استعداد تام لمهاجمة الجزائر، لا ينتظرون في ذلك سوى اذن ملكهم ومباركة البابا . وقد حصل ذلك بالفعل،فابحرت الحملة الاسبانية من «مالقة» يوم الاربعاء ٣ ربيع الثاني ٩١١ ﻫ (٣ سبتمبر ١٥٠٥م) متوجهة نحو الضفة الجنوبية من هذا البحر الابيض المتوسط فارست تجاه وهران مهاجمة لمرساها الكبير غربي المدينة وعلى ثمانية كيلوميترات منها ؛وبعد ان اشتبكت المعارك هنالك احتلته السلطة الاسبانية المهاجمة يـــوم الثلاثاء ٩ ربيـــع الثاني - ٩ سبتمبر - ثم كانت بعدئذ معركة قرية « مسرغين » الواقعة على خمسة عشر كيلومترا من وهران انهزم فيها الجيش الاسباني ومات منه ثلاثة آلاف جندي - باعترافهم - ، وفر الباقون الى المرسى الكبير معتصمين باسواره المنيعة ؛ ثم توالت الغزوات والهزائم على السواحل المغربية واشهرها بالجزائر تلك الحملة الشعواء التي ترأسها وأنفق عليهـا من امواله الخاصة : الكاردينال «كسيمينس» نفسه بمؤازرة الجنيرال «بيدرونافاروه .

ابحرت هذه الحملة الاسبانية العتيدة من ثغر قرطاجنة صبـاح يوم الاربعاء ٢٦ المحرم ٩١٥ ﻫ (١٥ ماي ١٥٠٩ م) فصبحت الجزائر صبيحة الغد ونزل المشاة بساحل وهران ضحى يوم الجمعة ؛ وما هي الا سويعات قليلة حتى كان الجيش الاسباني مشرفاً على ربى المرسى الكبير وتلال وهران ، وتقدم الجنـد الى المدينة - بدون مقاومة من الجيش الزياني تذكر - يقتـل ويأسر من غير شفقة ولا رحمة ، واستمر سائراً في طريقه حتى اتصل باسوار مدينة وهران محدقاً بها ، وفي جنح الليل من تلك الليلة نفسها فتح القائدان الخائنان القائمان بحراسة الثغر[1] باب المرسى للعدو فتدفقت جنوده بخيلهـا ورجالهـا وجاءت كالسيل الجارف ، وساعدهم على ذلك بعض الخونة ممن باع ذمته تلقاء دريهمات

---

(١) احدهما منافق يتظاهر بالاسلام والاخر يهودي اسمه اشطورا

معدودات مثل بني عامر ، وشافع ، وكرشتل ، وحميان ، وغمرة ، وقيزة ، واولاد عبـدالله ، واولاد علي والونازرة [1] وما كاد يتنفس فجر يوم السبت حتى كان الاحتلال تاماً فاقتحم الجيش المهـــاجم المدينة معتدياً على حرمات الدين والانسانية مرتكباً كل فاحشة من غير استثناء ولا محاشاة فقتـل بيده ذبحـــاً نحو الثمانية آلاف من البرءاء العجزة الذين قعد بهم الاضطرار والهرم والقصور عن الفرار من المذبحة ؛ وانتهكت حرمات المساجد والبيوتات الشريفة بما ينـــدى لذكره الجبـين وتصفر لهوله الوجوه وتنخلـع له القلوب ، تكاد السماوات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدّاً ! ..

ويومئذ انطلقت السنة العلماء والشعراء بتوجيه الصريخ الى الولاة والرؤساء وامراء القبائل لانقاذ وهران من هذا الاحتلال الغاشم والعود باللائمـة والخزي على مشايعي الاسبان من بني عامر وغيرهم ، وهذه قصيدة الشيخ ابي العباس احمد بن القاضي سيدي عبدالله بن ابي محلى السجلماسي شيخ العلامة ابي عثمان سيدي سعيد قدورة الجزائري تنبئك بذلك :

فمن مبلغ عني قبائل عامر ... ولا سيما من قد ثوى تحت كافر
وكل كمي من صناديد راشد ... بتيجانهم مع راسها عبد قادر
وجيرانهم في الغرب من كل ماجد ... طويل القنا اهل الوفا والمغافر
وطلحة والاحلاف في غرب هذه ... وشيخ سويد بل وكل مفاخر
وشيخ بني يعقوب والكمى الفتى ... بكل قبيـل مولـع بالعساكر
ويا معشر الاسلام في كل موطن ... وفي كل ناد سالف ومعاصر
ويا سادة العربان من آل هاشم ... وغيرهم ، بالله ما صبر صابر ؟!..
ويا معشر الاتراك يا كل عالم ... وكل ولي حـــافظ للاوامر
اناشدكم بالله ما عذر جمعكم ... لدى الله في وهران امر الخنازر الخ..

والقصيدة مدرجة بتمامها في بهجة الناظر للشيخ عبد القادر المشرفي فانظرها

---

(١) راجع بهجه الناظر في اخبار الداخلين تحت ولايــة الاسبان كبني عامر ، للمشرفي ط الجزائر ١٩٢٤ م)

هناك ، كما نظم غيره من الادباء في هذا الموضوع القصائد السائرة الطويلة [1]

وفي اواخر رمضان سنة ٩١٥ هـ (٦ جانفيي ١٥١١ م) جاء « بيدرو نافارو » في ارمادة تحتوي على اربعة عشر مركباً حربياً مشتملة على عشرة آلاف جندي ، فاقتحم بهم اسوار بجاية مدينة الحضارة الحمادية الجزائرية ، واخذ في تحطيمها ونقل جميع ما بها من تحف ونفائس في ثلاثين مركباً غرق اكثرها في طريقه الى اسبانيا ، وهدم منار قصر اللؤلؤة البالغ طوله نحو سبعين ذراعاً ، والذي يعتبر من اعظم آيات فن المعمار الجزائري الجميل ؛ كما حطم يومئذ قصر الكوكب وبنى مكانه حصن « برال » الحالي Fort Barral وحطم المسجد الجامع الاعظم وتغير شكل المدينة الى ما لا يسر منظره ولا مخبره، ورغم كل ذلك مما وقع تسجيله من حوادث الاحتلال الاسباني العنيف فاننا لم نر من الحكومة الجزائرية المسلمة ما يقابل ذلك ويستحقه من الدفاع والمقاومة الشديدة المتوقعة ! .

ومن تأمل في ذلك وجد ان مرجعه الى ما كانت عليه الدولة الجزائرية من الضعف والانحلال الشامل لنظام الحكم وتخبطها في مشاكلها السياسية والادارية

وواصل الاسبان فتوحاتهم بالجزائر فاستحوذوا على مدينة تدلس –دلس– وشرشال واحتلوا فرضة هنين سنة ٩٣٨ هـ (١٥٣١ م) ونزلوا بالأمكنة الاستراتيجية بالسواحل الجزائرية خاصة ، وتحاشوا المدن مقابل مغارم باهظة وكان غرضهم الوحيد يومئذ من هذه الغزوات هو مواصلة الحروب الصليبية بالمغرب ، فأحدث ذلك قلقاً واضطراباً عظيماً في الراعي والرعية وما وسعهم جميعاً إلا الرضوخ لهذه السلطة الاجنبية المفروضة الحتمية حتى يتجلى الامر .

وما خص الاسبان احتلالهم بسيف البحر دون التوغل في الوطن الجزائري إلا لحاجة في انفسهم ؟.. ولعل تشوفهم كان متجهاً نحو جهات اخرى

---

(١) انظر شرح الجامعي على قصيدة الحلفاوي – مخطوط – وكتاب التحفة المرضية في تاريخ الدولة البكداشية في بلاد الجزائر المحمية لمحمد بن ميمون الجزائري – مخطوط –

كنواحي « البيريني » او بلاد ايطاليا او خوفاً من سوء المنقلب او غير ذلك لا ادري ؟..

ثورة الامير يحيى بن الثابتي

اهتبل الامير يحيى هذا الهيجان والاضطراب العـــام في الجزائر واغتنم فرصة انحلال الحكومة وضعف السلطة المركزية فنهض مستصرخاً بالاسبان محتمياً بهم معلناً ثورته على ابي حمو الثالث ، فتغلب على مدينة تنس ٩١٢ ﻫ (١٥٠٦ م) فقهره السلطان ورده عنها ، ثم انتصر عليه فتحطم جيش ابي حمو وأحجم عن القتال، فاحتل الاسبان يومئذ بسهولة مدينة بونة—عنابه— وفرضوا على السلطان ضريبة سنوية باهظة قدرها اثنا عشر الف دوقـــة [1] واثناعشر فرساً وست بزات ؛ واستمرت هذه الضريبة المزرية المهينة مفروضة على ملوك بني زيان الى سنة ٩٣٦ ﻫ (١٥٣٠ م) فاسقطتها ارادة الشعب وارادة الشعب من ارادة الله .

ثغور الجزائر تحت نير الاسبان

ولما اشتدت حملات الاسبان بالثغور الجزائرية وانكشفت عداوتهم جهاراً لأهل المغرب الاسلامي ، أخذ الجزائريون في انشاء الاجفان لدفع هجـــمات العدو ورد عاديته عن الوطن وشرعوا في شن غاراتهم البحرية على السواحل الاسبانية واسر المعتدين وسبيهم ؛ وبما ان دولة الاسبان هذه كانت في جدة ايامها ودولة بني زيان بالجزائر كانت في اعقابها ، تغلب الاسبان عليهم واضطروهم الى طلب الصلح والهدنة ، وخضع لهم أهل مدينة الجزائر ايضاً .

ففي شوال سنة ٩١٦ ﻫ (جانفيي ١٥١١ م) خرج الوفـد الاسلامي من الجزائر برئاسة شيخها « سالم التومي الثعالبي » متوجهاً نحو بجاية حيث مركز

---

(١) الدوقة نوع من نقود الذهب الاسبانية ، قيمة القطعة الوأحدة منهـــا من العشرة الى اثني عشر فرنكاً أي قبل ارتفاع قيمة النقود ،

قيادة « بيـــدرو النافاري » عامل الاسبان ومفوضهم العسكري بالجزائر وهنالك ابرم عقد الهدنة والصلح بين الطرفين ، والتزم الجزائريون بالخضوع لسلطة الغالب عليهم والافراج عن جميع الاسرى من نصارى الاسبان وغيرهم. ثم في السنة بعدها شكل الجزائريون وفداً آخر ذهب الى اسبانيا حيث اتصل بالملك « فرديناند الخامس » فأكد له حسن العلاقة بين القطرين وتقدم له رئيس الوفد سالم التومي بهدايا نفيسة فتقبلها منه الملك وافترض عليهم تسليم احدى « الصخرات » – او قل الجزر – الأربع الكبرى التي كانت بارزة تجـــاه مدينة الجزائر ، حيث شرع الاسبان في بناء حصن (بنيونش Penon » فوقها سنة ٩١٥ هـ (١٥١٠ م) [١] وهو مكان مركز القيادة البحرية العليا اليوم بالجزائر ، وألزمهم ايضاً بدفع مغرم باهظ سنوياً ، فاستسلموا لذلك ، وانزل الاسبان بهـــذا الحصن نحو المائتي جندي أبقوهم هنالك لرصد غزاة المسلمين وحماية الثغور الجزائرية المحتلة الى ان قضى عليهم الاتراك فيما بعد .

اصبحت الجزائر يومئذ تجاه هؤلاء الاسبان الذين اقبلوا يغزون البـــلاد ويأسرون العباد مرغمـــة على الاندفاع نحو فتح واجهـــة حربية بحرية لمحاربة القرصنة الاجنبية ، او الدخول في حلف احد كبار البحـــارة الملاحين المسلمين الذين دانت لهم البحار والثغور بهذا البحر الابيض المتوسط ؛ ولم يكن لأهل الجزائر يومئذ بد من احد هذين الحلين مع طي حضارتهم القائمة على ما بنوه واشادوه من دولتهم الناشئة ، والالتفات الى هذه الحرب البحرية الشديدة؛ وتلك هي الظروف نفسها التي لابست الجزائر والقت بها في احضان الدولة التركية العثمانية ووصلت اسبابها بأسباب المجموعة الاسلامية الكبرى في شرق البحر الابيض المتوسط وما يليه وبذلك انتهى الدور الزياني الثاني .

---

(١) انظر الجزء الاول .

ملوك الدولة الزيانية

- الدور الثاني -

	تاريخ التولية
ابو سعيد عثمان «الثاني» بن عبد الرحمن	٧٤٩ ﻫ = ١٣٤٨ م
ابو ثابت الزعيم بن عبد الرحمن	٧٤٩ ﻫ = ١٣٤٨ م
ابو حمو موسى « الثاني » بن يوسف	٧٦٠ ﻫ = ١٣٥٩ م
ابو زيان محمد «الثاني» بن عثمان	٧٦٠ ﻫ = ١٣٥٩ م
ابو تاشفين عبد الرحمن «الثاني»	٧٩١ ﻫ = ١٣٨٩ م
ابو ثابت يوسف الاول بن عبد الرحمن	٧٩٥ ﻫ = ١٣٩٣ م
ابو الحجاج يوسف بن موسى	٧٩٦ ﻫ = ١٣٩٤ م
ابو زيان محمد «الثاني» بن موسى	٧٩٦ ﻫ = ١٣٩٤ م
ابو محمد عبدالله « الاول » بن موسى	٨٠١ ﻫ = ١٣٩٨ م
ابوعبدالله محمد«الثالث»الواثق باللهبن موسى	٨٠٤ ﻫ = ١٤٠١ م
عبد الرحمن « الثالث » - بن خولة -	٨١٣ ﻫ = ١٤١١ م
السعيد بن ابي حمو موسى	٨١٤ ﻫ = ١٤١١ م
ابو مالك عبد الواحد بن موسى	٨١٤ ﻫ = ١٤١٢ م
ابو عبدالله محمد «الرابع» - بن الحمرة -	٨٢٧ ﻫ = ١٤٢٤ م

	تاريخ التولية
ابو مالـــك عبد الواحـــد « ثانياً »	٨٣١ هـ = ١٤٢٨ م
ابوالعباس احمد المعتصم ـ العاقل ـ بن موسى	٨٣٤ هـ = ١٤٣١ م
ابو ثابت محمد « الخامس » - المتوكل على الله ـ	٨٦٦ هـ = ١٤٦٢ م
تاشفين بن ابي ثابت	٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م
ابو ثابت محمد « السادس »	٨٩٠ هـ = ١٤٨٥ م
ابو عبد الله محمد « السابع »	٩٠٢ هـ - ١٤٩٦ م
ابو حمو موسى الثالث - ابو قلمون	٩٠٩ هـ = ١٥٠٣ م

من مشاهير الجزائر

الشريف التلمساني

٧١٠-٧٧١ هـ (١٣١٠-١٣٧٠ م)

هو العلامة امام المغرب ابو عبد الله محمد بن احمد بن علي الشهير بالشريف التلمساني المعروف بالعلوي نسبة الى «العلويين» بسكون اللام وكسر الواو ، قرية من اعمال تلمسان ، حسني راسخ النسب لا يدافع في شرفه ، ولد رحمه الله بتلمسان سنة ٧١٠ هـ (١٣١٠ م) ونشأ بها عفيفاً صيناً مكباً على الطلب شغوفاً بالعلم .

حكى عنه خاله عبد الكريم وكان يحبه صغيراً لذكائه ويصطحبه معه دائماً الى مجالس العلم والعلماء ، قال: حضرنا مجلس ابي زيد بن الامام في تفسير القرآن فذكر الشيخ نعيم الجنة ، فقال له الشريف وهو صبي : هل يقرأ فيها العلم ؟ فقال له الشيخ نعم ، فيها ما تشتهيه الانفس وتلذ الأعين ، فقال له لو قلت لا لقلت لك لا لذة فيها !... فعجب منه الشيخ ودعا له .

تجول الشريف في انحاء المغرب الاسلامي شرقيه وغربيه ؛ طالباً العلم ، فأخذ عن علماء فاس وتونس كما اخذ عن مشيخة الجزائر ، وكان من اشهر اساتذته ولدا الامام ، والمجاصي ؛ والقاضي ابو عبدالله التميمي ، وابو عبدالله البروني ، وابو موسى عمران المشدالي ، والآبلي والسطي ، وابن عبد السلام التونسي في آخرين ؛ وتتلمذ له هذا الاخير في علوم الهيئة والحكمة والفلسفة ، وشهد له شيوخه كلهم بوفور العقل وحضور الذهن وكثرة التحصيل .

ثم عاد الشيخ الى موطنه ومسقط رأسه تلمسان متصدياً للافادة والاستفادة وشرع في تدريس العلم وارشاد العامة فأقبل عليه الناس على اختلاف طبقاتهم والتف حوله الطلبة يأخذون عنه فنوناً من العلم فكثر تلامذته وملأ المغرب علوماً ومعارف وتلاميذ فأحيا السنة وأمات البدعة ؛ ويذكر انه ابتدأ الإقراء وهو ابن احدى عشرة سنة ؛ وكان في تعليمه يترك الطالب وما تميل إليه نفسه من أنواع العلم ، فلا يحمل أحداً على نوع دون نوع ويرى الكل من السعادة ويقول : من رزق في باب من العلم فليلازمه .

ولما تملك السلطان ابو عنان المريني تلمسان سنة ٧٥٣هـ (١٣٥٢م) استخلص الشريف أبا عبد الله لمجلسه العلمي مع من اختاره من المشيخة ، ورحل به الى فاس كما ذكره ابن خلدون : فتبرم الشريف من الاغتراب وردد الشكوى ، فاحفظ السلطان بذلك ، وارتاب به ، ثم بلغه اثناء ذلك ان السلطان أباسعيد عثمان ملك تلمسان أوصاه على ولده ، وأودع له مالاً عند بعض الأعيان من اهل تلمسان ، وان الشريف مطلع على ذلك ، فانتزع الوديعة وسخط على الشريف بذلك ونكبه وأقام في اعتقاله اشهراً ، ثم أطلقه اول سنة ست وخمسين وأقصاه ، ثم أعتبه بعد فتح قسنطينة وأعاده الى مجلسه الى أن هلك السلطان آخر سنة تسع وخمسين .

ولما ملك السلطان ابو حمو بن يوسف بن عبد الرحمن الزياني تلمسان من يد بني مرين استدعي الشريف من فاس ، فسرحه القائم بالأمر يومئذ : الوزير عمر بن عبد الله ، فانطلق الى تلمسان ، وتلقاه ابو حمو براحتيه وأصهر له في ابنته ، فزوجها إياه وبنى له المدرسة الشهيرة باسمه سنة ٧٦٣هـ (١٣٦٢م) وجعل في بعض جوانبها مدفن أبيه وعمه ، وأقام الشريف يدرس العلم الى أن هلك سنة ٧٧١ هـ (١٣٧٠ م) [١] .

انقطع الشيخ في مدرسته بتلمسان للبحث والنظر والدرس والتعليم والإرشاد

(١) أنظر ابن خلدون ج ٧ ص ٤٠١ - ٤٠٢ ط بولاق ع١٣٨٤

فكان يمضي جل اوقاته في ذلك مع ما كان عليه من التعبد والتهجد والزهد وتلاوة القرآن ، حكى عنه ولده ابو محمد عبد الله قال انه بقي دهراً - ما يزيد على ستة اشهر - لم ير فيها أهله وولده اشتغالاً بالدرس والبحث ، وهو مقيم بينهم! ذلك انه كان عندما يستيقظ بكرة يغدو في حينه الى المدرسة وهم نائمون ، ولا يعود اليهم إلا ليلاً وهم نائمون ، ثم انه كان لا ينـام من الليل إلا قليلا ، - كانوا قليلا من الليل ما يهجعون - واذا غلبه النوم نام نومة خفيفة ثم اذا استيقظ لا يعود ويقول : أخذت النفس حقهـا فيتوضأ والوضوء من أخف الأشياء عنده ثم يرجع للنظر ، وربما وضع له الطعام في رمضان فيشغله النظر ويؤتى بسحوره فيتركهما معـاً كذلك حتى يصبح ويواصل الصوم !.. وكان من كثرة ازدحام الطلبة عليه يوزع بينهم ساعات الدرس بالرملية .

أجمع أهل التراجم والطبقات على امامة المترجم وكماله في علمـه وصلاحه وأخلاقه ، فذكروا انه كان من أحسن الناس وجهاً وقدراً : مهيباً ، ذا نفس كريمة وهمة نزيهة ولهجة صادقة ، حليماً لا يغضب ، واذا غضب قام فتوضأ ، قويّ النفس ، رفيع الملبس بلا تصنع ولا تكبر ، جميـل العشرة بساماً ، منصفاً عادلاً ، متوسطاً في أموره ، طويل اليد كريماً ، يكرم ضيفه ويقرب له ما حضر ، يطعم الطلبة طيب الأطعمة ولذيذهـا ولا يؤثر عنهم غيرهم ؛ وكثيراً ما كانت ترد عليه الأسئلة من السلطان فما دونه فيوجههـا الى الطلبة ويسميهم بأسمائهم لرفع منزلتهم عند السلطان وغيره، فكانوا بذلك على عهده من أعز الناس واكثرهم عدداً وأوسعهم رزقاً.

كان فيمن أخذ عن الشيخ ممن اشتهر ذكره من علـماء المغرب وأعيانه : العلامـة ابن خلدون ، والامام الشاطبي ، وابن زمرك ، وابراهيم الثغري ، وابو عبد الله القيسي ، وابن عباد ، وابن السكاك ، وابن محمد بن علي المورقي ، وابراهيم المصمودي الخ ..

وذكره ابن خلدون فقال : هو صاحبنا - يعني صاحب الترجمة - الامام العالِم الفذّ ، فارس المعقول والمنقول ، وصاحب الفروع والاصول . وذكره

الونشريسي فقال : انه كان اماماً في العلوم العقلية كلها ، منطقاً وحساباً ، وفرائض ، وتنجيماً ، وهندسة وموسيقى ، وتشريحاً ، وفلاحة وكثيراً غيرها من العلوم القديمة – يعني بها علوم الحكمة – ؛ وذكره السراج في فهرسته فقال انه بلغ رتبة الاجتهاد ؛ كما ذكره بذلك ايضاً الجد بن مرزوق . وقال ابن مرزوق الحفيد هو شيخ شيوخنا أعلم اهل عصره باجماع؛ وتذاكر المترجم يوما مع الامام ابن عرفه ، فقال له الامام : غايتك في العلم لا تدرك ؛ وكان الامام بن عبد السلام يقول عنه : ما اظن في المغرب عالما مثل هذا . واما الرئيس ذو الوزارتين لسان الدين بن الخطيب فانه كان قلما الف او كتب كتابا الا وبعث به الى الشريف طالباً منه ان يكتب عليه بخطه . وكان العلامة ابو سعيد بن لب شيخ علماء الاندلس يستفتيه ويستشيره فيما اشكل عليه من مسائل العلم فقها او غيره

ولشدة عناية الاستاذ المترجم بالاقراء والدرس لم يسعه الزمن وضع الكتب والتصنيف والتأليف ، فأنه لم يبلغنا بالنسبة الى غزارة علمه وسعة اطلاعه من خبر تآليفه ، الا القليل منها كتابه الجليل «مفتاح الوصول الى بناء الفروع على على الاصول» طبع بتونس سنة ١٣٤٦ هـ كما طبع بالقاهرة ، ايضاً (١٩٦٣م) كتب عليه شيخنا الامام عبد الحميد بن باديس شرحاوجيزا وضعه للطلبة حال تدريسه للكتاب ولم يطبعه ، وله شرح على جمل الخونجي في المنطق انتفع به خلق كثير ، وكتاب في القضاء والقدر ،وكتاب في المعاوضات او المعاطاة؟... وله فتاوى ورسائل واجوبة في مسائل من العلم مختلفة ؛ منها ما اجاب به عالم توزر الشيخ يحيى الرهوني ومنها غير ذلك

وكانت وفاة الشيخ رحمه الله ليلة الاحد الرابع من ذي الحجة سنة ٧٧١هـ (٢٩ جوان ١٣٧٠م) ببلدة تلمسان وحضر لدفنه السلطان ابو حمو الثاني قائلا في تعزيته لولده : مامات من خلفك وانما مات ابوك لي،لاني اباهي به الملوك. وولاه مدرسة والده ورتب له جميع مرتباته.وقال ابن عرفة حين بلغه وفاته : لقد ماتت بموته العلوم العقلية

احمـــد بن علي المليانى

٧١٥ هـ (١٣١٥م)

هو الاديب الكاتب والشاعر العظيم صاحب العلامة ببلاط ملوك المغرب ابو العباس احمد بن علي المليانى ترجم له لسان الدين بن الخطيب في الاكليـــل وعرف بـــه في الاحاطة قائـلا : « الصارم الفاتك ، والكاتب الباتك ، اي اضطراب في وقـار وتجهم تحته انس العقار ، اتخـذه ملك المغرب صاحب علامته ، وتوجه تاج كرامته ، وكان يطالب جملة من اشياخ مراكش بثأر عمه ، ويطوقهم دمه بزعمه ،ويقصر على الاستنصار منهم بنات همه ، اذ سعوا فيه حتى اعتقل ، ثم جدوا في امره حتى قتل ، فترصد كتابـا الى مراكش يتضمر امراً جزماً ، ويشمل من امور الملك عزماً ، جعل فيه الامر بضرب رقابهم ، وسبي اسبابهم ، ولما اكد على حامله في العجل ، وضايقه في تقدير الاجل، تأنى حتى علم انه قد وصل ، وان غرضه قد حصل ، فر الى تلمسان وهي بحال حصارها ، فاتصل بانصارها ، حالاً بين انوفها وابصارها،وتعجب من فراره ، وسوء اغتراره ، ورجمت الظنون في آثاره ، ثم وصلت الاخبار بتمام الحيلة ؛ واستيلاء القتل على اعلام تلك القبيلة فتركها شنيعة على الايام ، وعارا في الاقاليم على حملة الاقلام ، وأقام بتلمسان الى ان حل مخنق حصارها وازيل هميان الضيقة عـن خصرها ، فلحق بالاندلس ولم يعـدم براً ورعياً مستمراً حتى اتاه حمامه وانصرمت ايامه فتوفي بغرناطة يوم السبت ٩ ربيع الاخر عام ٧١٥ هـ (١٣ جوليبط١٣١٥م) ودفن بجبانة باب البيرة ومن شعره قوله في الفخر

العز ما ضربت عليه قبابي	والفضل ما اشتملت عليه ثيابي
والزهر ما اهداه غصن يراعتي	والمسك ما ابداه نقش كتابي
فالجد يمنع ان يزاحم موردي	والعزم يأبى ان يسام جنابي
فاذا بلوت صنيعة جازيتهـــا	بجزيل شكري او جزيل ثوابي

واذا عقـــدت مودة اجريتها   مجرى طعامي من دمي وشرابي
واذا طلبت من الفراقد والنهى   ثارا فاوشك ان انال طلابي

محمد بن مرزوق الحفيد

(٧٦٦ - ٨٤٢ هـ (١٣٦٤ - ١٤٣٩ م)

كان ممن اشتهر بالعلم والرئاسة والفضل من بيوتات الجزائر واعيانها في هذا العصر بيت ابن مرزوق الذائع الصيت ، وقد تقدم لنا الكلام على هذا البيت الرفيع العماد فيما اسلفناه من ترجمة ابن مرزوق الجد الشهير بالخطيب .

لقد تألق في سماء بيت ابن مرزوق بدور واقمار كان كوكبها الدري ونجمها الثاقب مترجمنا هذا العلامة الامام شيخ الاسلام ومفتي الانام ابو عبدالله محمد ابن احمد بن مرزوق الحفيد العجيسي ، (١)

ولد رحمه الله بتلمسان ليلة الاثنين ١٤ ربيع الاول سنة ٧٦٦ هـ (١٠ ديسنبر ١٣٦٤ م) ونشأ على غرار نشأة آبائه مستمسكاً بالعلم والدين فأخذ عن والده وعمه ابني الخطيب بن مرزوق ، وعن سعيد العقباني ؛ وابي اسحق المصمودي ؛ وابي الحسن الاشهب الغماري وعن ابي محمد عبد الله بن الشريف التلمساني ؛ ثم ارتحل الى تونس فلقي بها الامام بن عرفة ؛ وابا العباس القصار ثم دخل فاسا فاخذ بها عن الشيخ ابي زيد المكودي وابن حياتي ، والحافظ محمد بن مسعود الصنهاجي الفيلالي ، ثم اتصل بعد ذلك بالمشرق فدخل مصر القاهرة ، آخذاً عمن لقي بها من جلة العلماء كابن خلدون والفيروزابادي صاحب القاموس ، والنويري صاحب النهاية ، ومحب الدين بن هشام ولد صاحب المغني ، والسراج البلقيني ، والحافظ العراقي ، والشمس الغماري ،

---

(١) نسبة الى القبيلة الجزائرية العظيمة « عجيسه » المقيمة بجبال المسيلة شرقي صنهاجه وجنوب زواوة ، اي في نفس المكان الذي انشئت به قلعة بني حماد .

والقاضي ناصر الدين التنسي ، وابن الملقن، في آخرين من ذوي الفضل والتبريز ثم عاد الى المغرب .

وحج سنة ٧٩٠ هـ (١٣٨٨ م) رفقة الامام ابن عرفة فلقي بمكة المكرمة البهاء الدماميني ، والنور العقيلي فاخذ عنهما ، وروى صحيح الامام البخاري عن ابن الصديق ثم رجع الى وطنه ، وحج ثانياً عـــام ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) فكان ممن لقيه واخذ عنه في هذه المرة الامام ابن حجر ، واجــازه من علماء الاندلس جماعة منهم محمد بن جزي ، وابن الخشاب ، وابو عبدالله القيجاطي، والمحدث الحفار ، والحافظ ابن علاق وغيرهم .

اشتهر ابن مرزوق الحفيد بما اشتهر به جده الخطيب من الرسوخ في العـلم والاطلاع الواسع والتحقيق المدقق في الدرس والذكاء وحسن البيان والخطابة والتوسع في الرواية ، والاحاطة بمذاهب الفقه الاسلامي وحل مقفلات المسائل العلمية والمشكلات ، هــذا بالاضافة الى كرم الاخلاق مع شدته على اهـــل الاهواء والبدع ، فاجمع الناس يومئذ على فضله من المغرب الى الديار المصرية ، واشتهر ذكره في البلاد فصار يدعى بشيخ الاسلام وعالم الدنيا .

اثنى عليه تلميذه الشيخ عبدالرحمن الثعالبي فقال : « هو سيدي الشيــخ الامام الحبر الهمام حجة اهل الفضل في وقتنا وخاتمتهم ،ورحلة النقادوخلاصتهم ورئيس المحققين وقادتهم ، السيد الكبير والذهب الابريز ، والعلم الذي نصبه التمييز ، ابن البيت الكبير ، والفلك الاثير ، ومعدن الفضل الكثير..» وقال ايضاً في موضع آخر : « شيخي الامام العلم الصدر الكبير المحدث الثقة المحقق بقية المحدثين ، وامام الحفظة الاقدمين والمحدثين ، سيد وقته وفاروق اوانه ، ذو الاخلاق المرضية ، والاحوال الصالحة السنية ، والاعمال الفاضلة الزكية. » وقال تلميذه ابو الفرج بن ابي يحيى الشريف التلمساني : « شيخنا الامــام العالم العلم جامع اشتات العلوم الشرعية والعقلية حفظاً وفهماً وتحقيقاً ، راسخ القدم رافع لواء الامامة بين الامم ناصر الدين بلسانه وبنانه وبالعلم، محيي السنة بفعله ومقاله وبالشيم ، حجة الله على العلم والعالم ... »

وقال تلميذه الشيخ يحيى بن ادريس المازوني في نوازله : « شيخنا الامام الحافظ بقية النظار والمجتهدين ، ذو التآليف العجيبة ، والفوائد الغريبة . مستوفى المطالب والحقوق .. » وقال الحافظ التنسي وهو من تلامذته ايضاً: « شيخنا الامام العلامة رئيس علماء المغرب على الاطلاق ... » وذكره ابو الحسن القلصادي في رحلته فاثنى عليه وقال : « ادركت بتلمسان كثيراً من العلماء والزهاد والعباد والصلحاء واولادهم بالذكر والتقديم الشيخ الفقيه الامام العلامة الكبير الشهير شيخنا وبركتنا ابو عبد الله بن مرزوق العجيسي رضى الله عنه ...» ويكفيه فخراً ان كان من بين تلامذته رحمه الله مثل هؤلاء الجلة : الثعالبي والمازوني والتنسي والقلصادي وابو الفرج بن يحيى الشريف التلمساني ؛ والعلامة ابو الفضل المشدالي ، ونصر الزواوي ، والحسن ابركان وقاضي الجماعة بتونس عمر القلشاني ، وابراهيم بن فائد الزواوي ، واحمد بن زكرى ، والسيد الشريف قاضي الجماعة بغرناطة ، واحمد بن يونس القسنطيني وابو العباس احمد بن عبد الرحمن الندرومي وعيسى بن سلامة البسكري ، والشهاب بن كحيل الخ ...

ومما يعد من فرط ذكائه وتوقد ذهنه وسعة علمه ما حكاه المقري عن سفر الشيخ الى تونس في بعض المأموريات السلطانية قال :

وحدثني عمي الامام سيدي سعيد القري – رحمه الله – ان العلامة ابن مرزوق لما قدم تونس في بعض الرسائل السلطانية ، طلب منه أهل تونس ان يقرأ لهم في التفسير بحضرة السلطان ، فاجابهم الى ذلك ، وعينوا له محل البدء فطالع فيه ، فلما حضروا قرأ القاري غير ذلك ، وهو قوله تعالى : (فمثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث .. الآية ...) وارادوا بذلك افحام الشيخ والتعريض به فوجم هنيهة ثم تفجر بينابيع العلم – وقد فطن للمسألة ! – الى ان اجرى ذكر ما في الكلب من الخصال المحمودة وساقها احسن مساق وانشد عليها الشواهد وجلب الحكايات ، حتى عد من ذلك جملة ، ثم قال في آخرها: فهذا ما حضرني من محمود افعال الكلب

وخصاله ، غير ان فيه خصلة ذميمة : وهي انكاره للضيف ، ثم افترق المجلس – قال المقري – واخبرني انه اطال في ذلـــك المجلس من الصبح الى قرب الظهر . [1]

واما تآليفه فقد ذكر له اهل التراجم والسير منها عدداً جما ، ولم يصلنا منها الا القليل ؛ فمن ذلك وهو ما وقفت عليه بنفسي : جزآن من شرح البخاري كلاهما كان موجوداً بالجامع الجديد بالجزائر وهما بخط المؤلف . ثم فقد الاول منهما وبقي الثاني ! .. وبعد مدة وقفت على نسخة من الجزء الاول وهي بخط مغاير لخط الجزء الثاني واجمعنا على انها بخط الثعالبي؟ ... ولايزال الجزآن بخزانة الجامع الجديد تحت عـــدد ١٤٣ و ٤٤٣ وهو شرحه المسمى بالمتجر الربيح ، والمسعى الرجيح ، والمرحب الفسيح ، والوجه الصبيح ، والخلق السميح ، في شرح الجامع الصحيح ، وهو لعمري من اوسع الشروح واغزرها مادة واجزلها مباحث، وربما هو كما قال مؤلفه : اغنى عن الشروح الكاملة ..

وكتاب اظهار صدق المودة ، شرح به بردة المديح ، تكلم على كل بيت منها وشرحه بسبعة فنون ، رأيت منه نسخة مخطوطة في حجم ضخم عنـد صديقنا الاستاذ احمد بن حمودة في منزله بالابيار بضواحي مدينـــة الجزائر ؛ والمفاتيح المرزوقية لحل الاقفال واستخراج خبايا الخزرجية في علـم العروض والقوافي ، وهو بمكتبتنا الخاصة ، وكتاب اسماع الصم في اثبات الشرف من جهة الام منه نسخة بالمكتبة الوطنية بالجزائر رقم (٢٠٦٧) هذا ما وقفت عليه وعاينته من تآليفه رحمه الله واما غيرها مما لم اره فكثير منهـــا ما تم تأليفه وكمل ومنها ما لم يتم واليك قائمة اسمائهـا : شرحان آخران للبردة ، اوسط واصغر ، والمفاتيح القرطاسية في شرح الشقراطسية ، ورجزان في علم

---

(١) نفح الطيب ج ٧ ص ٣٥٢ ط القاهرة ١٩٤٩ م - ١٣٦٩ هـ وسعود المطالع للابياري ج ١ ص ٣٤٨ ط بولاق ١٢٨٣ هـ

الحديث : الكبير المسمى بالروضة جمع فيه بين الفيتي ابن ليون والعراقي ، ومختصر الحديقة اختصر فيه الفية العراقي ، وارجوزة في الميقات اسماها بالمقنع الشافي في الف وسبعمائة بيت، وارجوزة الفية في محاذاة الشاطبية، وارجوزة نظم بها تلخيص المفتاح ، وارجوزة اخرى في تلخيص ابن البناء وارجوزة نظم بها جمل الخونجي في المنطق ، ذكر الصبان في حاشيته على شرح الملوي على سلم الاخضري ان المترجم نظم الخونجي في عهد صباه بحيث لم يتجاوز سنه ست سنين ؟ .. وقال ان ذلك اشار اليه ابن مرزوق نفسه في نظمه ، ولا أدري كيف امكن له ذلك وهو في هذا السن من العمر ، اللهم الا اذا كان ذلك من قبل معجزة عيسى عليه السلام : ويكلم الناس في المهد .... وله ارجوزة في اختصار الفية ابن مالك ، ونهاية الامل في شرح جمل الخونجي واغتنام الفرصة في محادثة عالم قفصة يعني ابا يحيى بن عقيبة – والمعراج الى استمطار فوائد الاستاذ ابن سراج « اجاب به قاضي الجماعة بغرناطة العلامة ابن سراج عن مسائل نحوية ومنطقية ؛ ونور اليقين في شرح اولياء الله المتقين والدليل الموفى في ترجيح طهارة الكاغد الرومي ، والنصح الخالص في الرد على المدعي رتبة الكمال للناقص ، كتبه في سبعة كراريس رد به على فتوى عصريه وبلديه الامام قاسم العقباني الذي افتى باصابة بعض اعمال واقوال صدرت عن بعض المتصوفة . فخالفه فيها ابن مرزوق . ومختصر الحاوى في الفتاوى لابن عبد البر التونسي . والروض البهيج في مسألة الخليج وانوار الدراري في مكررات البخاري . ورسالة في ترجمة شيخه ابراهيم المصمودي وتفسير سورة الاخلاص على طريق الحكماء . وله فتاوى واجوبة متنوعة اورد بعضها المازوني والونشريسي في كتابيهما ، وله شرح على ابن الحاجب وشرح على التسهيل .

وميز بعضهم مؤلفات الشيخ التي لم تكمل فذكر منها المتجر الربيح وروضة الاريب في شرح التهذيب ، والمنزع النبيل في شرح مختصر خليل ، شرح منه الطهارة في مجلدين ضخمين ، ومن باب الاقضية الى آخر الكتاب في سفرين

لخصه العلامة الراعي ، وايضاح المسالك في شرح الفية ابن مالك انتهى فيه الى باب اسم الاشارة او الموصول ، وهو مجلد واحد ، ومجلد في شرح شواهد شراحها الى باب كان واخواتها ، وعقيدة اهل التوحيد المخرجة من ظلمة التقليد وعلى منحاه بنى السنوسي عقيدته الصغرى ، والآيات الواضحات في وجه دلالة المعجزات ، والدليل الواضح المعلوم في طهارة كاغد الروم، واسماع الصم .

كانت وفاته رحمه الله يوم الخميس ١٤ شعبان سنة ٨٤٢ هـ (٣٠ جانفيي ١٤٣٩ م) وصلي عليه بجامع تلمسان الاعظم ، وذكر صاحب البستان انه دفن به كما هو الضريح المعروف به اليوم وحضر جنازته السلطان والاعيان .

محمد بن يوسف الثغري

اواخر القرن الثامن الهجري

هو العالم الاديب الكاتب البارع والشاعر المفلق ابو عبد الله محمد بن يوسف القيسي التلمساني المعروف بالثغري من اشهر شعراء تلمسان وبلغائها المبرزين المقدمين لدى سلاطينها وملوكها، وصفه المازوني في نوازله بالشيخ الفقيه الامام العالم العلامة الاديب الاريب الكاتب ، وترجم له ابن ابي مريم فقال : اخذ عن الشريف التلمساني وغيره وحلاه المقري في ازهار الرياض بقوله : الفقيه العلامة الناظم الناثر .

كان رحمه الله ملازماً لبلاط السلطان ابي حمو موسى « الثاني » ولهالقصائد الغراء الطوال التي كان ينظمها بمناسبة احتفال السلطان بليلة المولد الشريف ، ويلقيها بنفسه في ذلك المحفل الجميل ، منها ما نظمه في مطلع قصيدته التي انشدها ليلة مولد سنة ٧١٧ هـ (٩ اكتوبر ١٣٦٩ م) :

اقصر فان نذير الشيب وافاني ... وانكرتني الغواني بعد عرفان

وقد تماديت في غي بلا رشد | والنفس تأمرني والشيب ينهاني
فقلت للنفس اذ طالت بطالتها | مهلاً الم يان ان تخشى الم يان
كم من خطا في الخطايا قد خطوت ولم | تراقب الله في سر واعلان
فلا تغرنك الدنيا بزخرفها | فيا ندامة من يغتر بالفاني

وله قصيدة رفعها الى السلطان ابي حمو يصف بها تلمسان فيقول :

ايها الحافظون على عهد الوداد | جددوا انسنا بباب الجياد
وصلوها اصائلاً بليال | كلآل نظمن في الاجياد
في رياض منضدات المجاني | بين تلك الربا وتلك الوهاد
وبروج مشيدات المباني | باديات السنى كشهب بوادي
رق فيها النسيم مثل نسيبي | وصفا النهر مثل صفو ودادي
وزها الزهر والغصون تثنت | وتغنت عليه ورق سوادي
وانبرى كل جدول كحسام | عاري الغمد سندسي النجاد
وظلال الغصون تكتب فيه | احرفاً سطرت بغير مداد
تذكر الوشم في معاصم خود | قضب فوقه ذوات امتداد
وكؤوس المنى تدار علينا | يجنى عفة ونقل اعتقاد
واصفرار الاصيل فيها مدام | وصفير الطيور نغمة شادي
كم غدونا بها لانس ورحنا | جادها رائح من المزن غادي
ولكم روحة على الدوح كادت | ان تريح الصبا لنا وهو غادي
رقت الشمس في عشاياه حتى | احدثت منه رقة في الجماد
جددت بالغروب شجو غريب | هاجه الشوق بعد طول البعاد.. الخ.

وتحتوي القصيدة على تسع واربعين بيتاً ، وله غير ذلك من غرر الشعر ولطائفه اورد له علامة الجزائر واديبها المتفنن ابو العباس احمد بن عمار نبذة طيبة في رحلته « نحلة اللبيب » والمقري في « الازهار » فراجعها .

جدول تاريخي

٧٣٧ - ٩١٦ هـ

١٣٣٧ - ١٥١١ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
٧٣٧ هـ - ١٣٣٧ م	بسط سيادة بني مرين على المغرب الاوسط - الجزائر -
٧٤٩ هـ - ١٣٤٨ م	نهضة بنى عبد الواد لاسترجاع سلطتهم على الجزائر
٧٦٠ هـ - ١٣٥٩ م	انبعاث الدولة الزيانية على يد السلطان ابي حمو « الثاني »
٧٦١ هـ - ١٣٦٠ م	احتلال بني مرين لتلمسان ومحارباتهم لبني زيان
٧٦٥ هـ - ١٣٦٤ م	ثورة ابي زيان الفتى على ابي حمو
٧٦٦ هـ - ١٣٦٥ م	خراب مدينة الجزائر بالزلزال الهائل
٧٦٧ هـ - ١٣٦٦ م	انكسار ابي حمو في وقعة بجاية ضد الحفصيين
٧٧١ هـ - ١٣٧٠ م	انحصار الثعالبة بمتيجة والجزائر
٧٧٢ هـ - ١٣٧٠ م	سقوط تلمسان في قبضة بني مرين وخروج ابي حمو الى البراري
٧٧٤ هـ - ١٣٧٢ م	عودة ابي حمو الى ملكه
٧٧٦ هـ - ١٣٧٥ م	مبايعة اهل مدينة تدلس - دلس - لبني زيان وانتشار المجاعة الكبرى بالجزائر
٧٩١ هـ - ١٣٨٩ م	ثورة ابي تاشفين ولد ابي حمو واستشهاد والده
٧٩٢ هـ - ١٣٩٠ م	ثورة ابي زيان بن ابي حمو
٧٩٥ هـ - ١٣٩٣ م	تنكر مرين لبني زيان وسقوط تلمسان في ايديهم
٧٩٦ هـ - ١٣٩٤ م	تناحر امراء الاسرة الزيانية على الملك - بايعاز المرينيين -
٨٠٢ هـ - ١٣٩٩ م	هجوم الافرنج على مدينة بونة ومرسى القل
٨٠٤ هـ - ١٤٠١ م	اغارة مرين وقبضها على السلطان ابي محمد عبدالله « الاول »

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث
٨١٤ هـ – ١٤١١ م	انتصار الامير ابي مالك عبد الواحد على اخيه السلطان السعيد باعانة مرين
٨٢٧ هـ – ١٤٢٤ م	زحف الحفصيين الى مملكة تلمسان وتدخلهم في سياستها
٨٣٣ هـ – ١٤٣٠ م	ثورة الامير ابن الحمرة ونهايته
٨٤٠ هـ – ١٤٣٧ م	ثورة الامير ابي يحيى على اخيه السلطان العاقل واستيلاؤه على نواحيها
٨٤٢ هـ – ١٤٣٨ م	ظهور المستعين بالله بالجزائر واستيلاؤه على نواحيها .
٨٥١ هـ – ١٤٤٧ م	استرجاع السلطان العاقل لوهران
٨٥٦ هـ – ١٤٥٢ م	ابتداء الهجرة الاندلسية الى السواحل الجزائرية
٨٦٦ هـ – ١٤٦٣ م	ثورة الامير المتوكل واستيلاؤه على اطراف المملكة الجزائرية
٨٦٧ هـ – ١٤٦٣ م	استيلاء الاسبان على بونة – عنابة –
٨٦٨ هـ – ١٤٦٣ م	استقلال الجزائر عن الحكومة الحفصية ورفض دعوتها ثم الاستسلام لها
٨٩٧ هـ – ١٤٩١ م	التجاء السلطان ابي عبدالله بن سعد المعروف بالزغل ـ من بني الاحمر النصريين ملوك غرناطة ـ الى وهران ثم الى تلمسان، وبها اعقب من عرف هناك من بنيه ببني سلطان الاندلس
٩١١ هـ – ١٥٠٥ م	احتلال الاسبان للمرسى الكبير بوهران
٩١٥ هـ – ١٥٠٩ م	احتلال مدينة وهران ثم دلس، ثم بجاية وتنس وشرشال وسقوط السواحل الجزائرية بيد الاسبان
٩١٦ هـ – ١٥١١ م	الجزائر تحت الخطر الاسباني

الجزائر المكافحة

الحملة الاسبانية والأتراك

كانت الجزائر في اوائل القرن العاشر الهجري مرتعاً للحروب الاهلية الممزقة وغرضاً ملحوظاً للاجانب المتوثبين ، تعاني الامرين من الملوك المتنافسين والرؤساء الجائرين المتنازعين والنصارى المغيرين تتميماً لبرامجهم وخططهم الصليبية المرسومة فكثر يومئذ ازدحامهم واشتد تحاككهم على هذا الشمال الافريقي وخاصة منه الجزائر ، وذلك بعدما قضوا على دولة الاسلام والمسلمين بالاندلس وصقلية ، وقد من الله على اهل الجزائر واولاهم بمن يدافع عنهم ويرد صولة هذه الاعتداءات الافرنجية ويفل سلاحها ، وذلك بالهامهم الى الالتجاء الى الامير البحري أروج بن يعقوب المدلي التركي واخيه خير الدين المتجولين بمراكبها القرصنية بهذا البحر الابيض المتوسط ، وقد اظهرا من البطولة الخارقة والغيرة الاسلامية على اهل الجزائر والاندلس ما يسجله التاريخ لهما بافخر الذكر وجزيل الشكر ، فكان انقاذ الموقف بمقاومتها العنيفة لهؤلاء المغيرين من الاسبان وغيرهم من دول النصرانية ، ودفعهما عن الجزائر كل ما كانت مهددة به من الاخطار كما سنذكره في محله من تاريخ الاتراك بالجزائر في هذا الكتاب .

ومنذ يومئذ والجزائر في كفاح واحتجاج مستمر ضد الاجنبي الذي تكررت اعتداءاته المتنوعة عليها في احيان وظروف مختلفة الى اليوم ، وستقف بنفسك فيما نعرضه عليك من مراحل تاريخ الجزائر على تفاصيل مدققة

مضبوطة تنبئك بما كان ولا يزال عليه الجزائريون المغاوير الامجاد من الكفاح وتطلعك على مبلغ ايمانهم وثباتهم على المبدأ واستماتتهم في سبيل تحرير البلاد من ربقة الاستعباد .

وقاوم الاتراك الاسبان واحتـــلوا تلمسان سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) كما سنقصه عليك مفصلاً ، ونقلوا سلطانها ابا حمو الى وهران ونصبوا مكانـــه ابا زيان احمد الثاني .

ولاية السلطان ابي زيان احمد « الثاني »

هو السلطان ابو زيان احمد « الثاني » بن عبد الله « الثـــاني » انتصب على عرش تلمسان سنة ٩٢٣ ﻫ (١٥١٧ م) وكان اول ما قام به من الاعمال ان اخذ في دفع الاتراك عن ولايته باعتبارهم اجانب مزاحمين فاجتهد في اجلائهم عن مملكته وقاتلهم حتى استشهد في طائفة عظيمة من ذويه واقربائه وبـني عمه ومات يومئذ من جنده نحو الف نسمة ونزل أروج بتلمسان .

زحف ابي حمو واستشهاد أروج

كان اثر ما احتل أروج تلمسان ان اسرع ابو حمــو الى استنجاد الاسبان والاحتماء بهم ضد الاتراك فاعانوه وحاصروا معه تلمسان وضربوا اوتادهم بها في جمادى الاولى سنة ٩٢٤ ﻫ (ماي ١٥١٨ م) ، وكان من حسن حظه ان تأخر المدد عن أروج فاضطر الى الانسحاب من العاصمة الزيانية وغادرهـــا منصرفاً الى ناحية الوادي الملح ، وفي منصرفه هنـــاك بقرب مقطع الوادي اخذه فرسان الاسبان من مكمن لهم غيلة فقاتلهم حتى استشهد رحمـــه الله بالميدان فحزوا رأسه واخذوه معهم الى اسبانيا يطوفون به الشوارع تسكيناً للرعية التي كانت ترتعد فرائصها فرقاً لذكره . ويروى على السن بعض القـالة ان جثته نقلت الى الجزائر فدفنت بجوار ضريح « سيدي رمضان » بجانب

المسجد الجامع المعروف الى اليوم ، وفي هذه السنة كانت وفاة السلطان ابي حمو « الثالث » .

ولاية السلطان ابي محمد عبدالله « الثاني »

هو السلطان ابو محمد عبدالله « الثاني » بن السلطان ابي ثابت « الثاني » المعروف باسم محمد المتوكل على الله ، تولى عرش تلمسان سنة ٩٢٤ هـ (١٥١٨م) والجزائر يومئذ تتدافع وتتقاذف بين جاذبيتين عظيمتين، ما بين اتراك واسبان كل منهما يحاول الاستيلاء عليها وضمها اليه ؛ فاحدث ذلك قلقاً واضطراباً ، فاجتهد السلطان ابو محمد في اخماد نار الفتنة واطفائها والسعي في اكتساب مسالمة الطرفين او المتاركة على الاقل فلم ينجح .

ثورة الامير ابي سرحان وتملكه

كان الامير ابو سرحان المسعودالزياني مبعداً بفاس من طرف اخيهالسلطان المذكور ، واتفق ان فاز يوماً بعفوه فخرج من منفاه معتزماً على اخذ ثأره من اخيه بعزله عن العرش ، فتنكب في طريقه الى تلمسان وذهب مستنجداً بخير الدين التركي ، فامده امير البحر هذا بكل ما لديه من القوة من جيش ومال ، على ان ينضوي تحت سلطة الدولة التركية ويبايع السلطان سليم العثماني مع دفع ضريبة سنوية الى خزينة الدولة ، فتم عقد ذلك بينهما واقتحم ابو سرحان مدينة تلمسان فامتلكها سنة ٩٢٥ هـ (١٥١٩ م) وطرد عنها اخاه ابا محمد .

عودة ابي محمد الى الملك

ولما تمكن ابو سرحان من الملك واستقر على عرشه لم يلبث ان نزت في رأسه سورة الانفة ، وملكته عزة النفس فرفض العهد الذي ابرمه مع خير

الدين واعلن استقلال دولته عن كل سلطة اجنبية ، فاظلم الجو بينه وبين الاتراك ، وكان اخوه ابو محمد في انتظار مثل هذه الفرص السانحة ليثب الى غرضه ، وبمجرد ما ظهرت هذه البادرة من ابي السرحان اسرع ابو محمد الى استثمار الموقف وبادر الى خير الدين فضمن له الوفاء بما عاهده عليه اخوه من قبل ، فآزره خيرالدين وايده على خطته فانتصر ابو محمد على اخيه واسترجع حقه الشرعي في العرش وعاد الى ملكه كما كان . وفر ابو سرحان متنقلاً في انحاء القطر مصلتاً سيف الفتنة الى ان وقع في قبضة السلطان فاسره. ويومئذ انقطع الملك الى مقاومة الاسبان ومطاردتهم من الجزائر .

نقض معاهدة الاتراك

بما ان الدولة التركية حديثة العهد بالجزائر يومئذ وانها لم تزل في بداية امرها فلم تستكمل عدتها ولم تتمكن من بسط يدها على اطراف الوطن ، نظر اليها السلطان ابو محمد نظرة استصغار واستخفاف وبادر باعلان نقض المعاهدة والميثاق الذي ابرمه مع خير الدين ، فتنمر له الاتراك يومئذ واروه شدة بأسهم ، فخضع صاغراً لتنفيذ مواد الوثيقة بحذافيرها ، ثم كانت وفاته سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) فخلعه ولده محمد .

ولاية السلطان محمد « السابع »

هو السلطان ابو عبد الله محمد « السابع » بن السلطان ابي محمد عبد الله « الثاني » تولى الملك عن ابيه سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤ م) وشأن الحكومة الزيانية يومئذ في ادبار وانهيار ، فانحاز الى الاسبان محتميا بهم ضد الاتراك ، واليك رسالته الحربية التي كتبها الى امبراطورة الاسبانية « دنيا ايزابيل » تمثل لك مبلغ امله في الاسبان وتعلقه بهم في سياسته ضد خصومه الاتراك ، كما تستشف منها ايضاً نموذجاً من اسلوب الانشاء العربي الديبلوماسي ببلاط ملوك الجزائر يومئذ ، جاء اولا في عنوان الوثيقة — او الرسالة — ما يلي :

« الحمد لله تعالى ، حمداً كثيراً يتجدد ويتوالى ، ولا حول ولا قوة الابالله العلي العظيم .

« الحضرة التي جل في الاقدار قدرهـــا ، واشتهر في الفضائل والمفـاخر فضلها وفخرها ، حضرة السلطانة الجليلة المرفعة الاصيلة الفاضلة الكاملةالشهيرة الخطيرة ، الانبراطريس ، دونيا ايزابيل اسعدها الله بتقواه ووفقها لمـا يحبه ويرضاه كتبناه اليكم من حضرتنا تلمسان حرسها الله ، ونحــن نحمد الله الذي لا شيء كمثله ، ونشكره على جميل احسانه وفضله ، ونسأله اليمن والتوفق في شأننا كله ، وعندنا لجنابكم المرفع كرامة نستوفيها ، ومبرة لا شك فيهـــا ، وعلمنا بمجدكم الشهير ، وقدركم الخطير ، يستدعي الزيادة من ذلك ويقتضيها ، والى هذا فموجب كتبنا اليكم ، هو اعلامنا واياكم بما نحن عليه من الوفاء القديم والتمادي من الاسباب المرعية على المنهج القويم ، وقــد وصلنا كتابكم المعظم ، وخطابكم المكرم ، صحبة خديمكم الفارس المحترم لويش هرندس ، وعرفنا منه جميع ما ذكرتم : واستوفينا ما شرحتم ، فقابلنا تعريفكم بالشكر الجزيل ، واثنينا على مقامكم الثناء الجميل ؛ عملاً على ما ثبت لدينا من ودكم ، وتقرر ، وتردد وتكرر ، واننا الآن وجهنا اليكم من يجدد العهد بهذا الغرض ، ويقوم منه بالواجب المفترض ، ويقرر لديكم معتقدنا من صدق الوداد وخالص الاعتقاد وهو اعز قوادنا ببابنا الكريم ، والمعتمد منا بمزيد التفضيل والتقديم ، الاصيل المجد في ذوي الحسب الصميم ، القائد المرفع المحترم ، الثقة الامين على اسرارنا في البدء والمختتم ، الفارس ابن عبد الله ابن وزير دولتنا وبلادنا ورئيس حماتنا وانجادنا الشيخ الوزير محمد بن ابي غانم حفظ الله رتبته ، وحرس وجهته ، ومعه خديمكم لويش هرندس اكرمه الله فوجهناه اليكم ليطالعكم بعيون الاخبـــار وجميع المتزايدات بهذه الاقطـــار ؛ ولتلقوا اليه ما ينفذ به امركم من جلب المصالح ؛ وما يعود علينا وعليكم نفعه من النظر السديد والرأي الناجح فان نيتنا في ودكم ما زالت ، واغراضنا جارية على ما يليق بنا وبكم ما تبدلت ولا حالت ، ولا تلتفتوا لما كنا موهناً به في العام السالف من تقديم من قدمناه

بوطن اغيال ، وما خيلنا من تلك الاحوال ؛ فمقامكم اوسع فضلا ، وارجح عقلاً ؛ من ان يظن ان ذلك كان منا عن حقيقة ؛ او انا ارتضينا سلوك تلك الطريقة ؛ بل في صحيح علمكم ما هو حالنا عليه من نكاية صاحب الجزائر وما هو يرومه من تشغيبنا في الباطن والظاهر ، ففعلنا ذلك طمعاً منا في مهادنته وحيلة لجلب محاسنته ، ولما اعيانا أمره واشتد تنكيره وضره ، اظهرنا له ما كنا نخفيه من عداوته وقابلناه بما يليق بفساد نيته وخبث سريرته وقد توفر الآن عزمنا في اعمال الحركة عليه والتوجه بكل وجه يمكن اليه ، فجميع العرب والقبائل على حربه متفقون والى تضييقه وحصاره شارعون ، وغرضنا منكم ان تبادروا بتوجيه العمارة في الحين والوقت بالجد والعزم وتجتهدوا في ذلك غاية الاجتهاد والاخذ بالحزم وتكونوا عليه براً وبحراً يداً واحدة وفئة مساعدة وتجاوبونا مع الرسولين المذكورين بما يظهر لكم وما يقتضيه في ذلك نظركم وفعلكم ، هذا ما عندنا عرفناكم به شافياً ، ولتكميل المقاصد كافياً ان شاء الله ، وكتب عن امر عبد الله المتوكل على الله امير المسلمين عبد الله بن مولانا امير المسلمين ابي عبد الله ايده الله ونصره في ثامن عشر جمادى الأخرى عام تسعة وثلاثين وتسعمائة . »

ولا يزال اصل هذه الوثيقة محفوظاً ضمن مجموعة المخطوطات والوثائق السياسية الدبلوماسية المختلفة بدار المحفوظات في قلعة « سيمانقا » قرب بلد الوليد « Walla dolid » باسبانيا . ويوافق تاريخ هذه الوثيقة من التاريخ الشمسي ١٥ جانفي ١٥٣٣ م .

والسبب في ان سلطان تلمسان يوجه رسالته هذه باسم – الأنبراطريس دونيا – دون زوجها شارلكان ؛ هو ان زوجها الامبراطور كان يومئذ بعيداً عن اسبانيا مشتغلاً بمحاربة جيوش السلطان سليمان العثماني على ضفاف نهر الدنوب .

ونجحت سفارة امير تلمسان ورأى الاسبان ان لا تفوتهم هذه الفرصة يومئذ فارسلوا اليه من اسطولهم اربع عشرة سفينة رست كلها بمرسى هنين القريبة

من تلمسان ، وكان قد سبق ان عقد السلطان مع الاسبان حلفاً على قتال خير الدين وتعهدوا له بمقتضاه ان ينزلوا له عن مدينة الجزائر اذا استولوا هم عليها .

وقد سوغت هذه المعاهدة (لشارل الخامس) حق تشييد ثكنة لجنوده بمدينة ارشقول – رشقون – الواقعة عند مصب نهر مينة وطالما كانت هذه أمنية ملك الاسبان منذ امد بعيد وذلك للحيلولة بين مستعمرته وبين الاتراك حتى لا يجدوا منفذاً يسلكونه او يقربهم الى نهر مينة .

وجمع امير المسلمين قواته العسكرية المجتمعة من العرب والبربر وزحف بهم الىمدينة الجزائر،وقد تشجع بمؤازرة الاسبان لهفتحدىخيرالدين،فبادر يومئذ خير الدين الى اعلان الحرب والتقى الفريقان على مقربة من الجزائر ، فنشبت بينهما معركة عنيفة هزم فيها سلطان تلمسان ومزقت قواته ففر في فلول جيشه ورجع القهقرى الى عاصمته ، واستمر خير الدين مكراً في اثره . وعندئذ اضطر السلطان الى طلب الهدنة والصفح عنه من خصمه الظافر فعفا عنه خيرالدين . اما سفن الاسبان فبقيت في مرساها ترقب الفرص ، ولم تشترك يومئذ في القتال فلم يغن وجودها عن السلطان شيئاً [1] بل كانت عليه فيما بعد حيث غزا الاسبان بعد ذلك تلمسان في ثلاث دفعات مستعينين باحلافهم بني راشد فنجحوا فيها كلها ، واحتلوا تلمسان واهانوا بها المساجد والمعابد وعبثوا بكتب العلم والدين ؛ ثم انقلب عنهم أحلافهم فانكسروا واسر عدد منهم فصاروا في قبضة بني زيان ومن بينهم قائدهم « مارطان دي آكيلو » ويومئذ جنحوا الى السلم فكانت هذه المعاهدة في مصلحتهم فاضطرب لذلك اهل المملكة الجزائرية قاطبة واشتد هيجانهم لهذه المعاهدة المشؤومة عليهم فنهض لها ابو زيان فخلع اخاه وتولى مكانه .

---

(١) محمد عبدالله عنان : مجلة الكتاب ؛ جمادى الاولى ١٣٧٢ هـ

ولاية السلطان ابي زيان «احمد الثاني»

هو السلطان ابو زيان احمد (الثاني) بن السلطان ابي محمد عبدالله (الثاني) استوقد غضبه وساءه ما رأى عليه حالة مملكته الجزائرية من الانحلال والاضمحلال وتساقطها شيئاً فشيئاً بيد الاسبان ؛ فاشتد لذلك غيظه ونهض نشطاً الى انقاذها وتخليصها من هؤلاء الغزاة الغاصبين فاجتهد اولاً في مقاومة اخيه محمد (السابع) حتى ظفر به فخلعه عن العرش وتولى مكانه سنة ٩٤٩ هـ (١٥٤٢م) فذهب آنئذ محمد الى وهران مستجيراً بالاسبان وحينئذ عمل ابو زيان على الارتباط بدولة الاتراك في الجزائر لمحاربة الاسبان ، وغزا المرسى الكبير بوهران في ربيع الثاني ـ جوليط ـ من هذه السنة وكانت هنالك الخيانة فخابت الحملة الاسلامية .

زحف السلطان المخلوع الى تلمسان

عاد السلطان المخلوع مع حماته الاسبان الى مقاومة اخيه ابي زيان وكان اللقاء بينهما في شوال ٩٥٠ هـ جانفيي ١٥٤٣ م ، بشعبة اللحم بنواحي عين تموشنت فانهزم ورد بخيبته ، ثم كرر حملته مستجيشاً بعاهل النصرانية « شارلكان » فجاء العاهل ومعه في هذه المرة عشرة آلاف مقاتل فاحتل تلمسان في ذي الحجة ٩٥٠ هـ (١٥٤٤م) وعاث الجند الاسباني فيها بما لا تفعله سباع الغارة فانخذل ابو زيان واستعاد ابو عبدالله عرشه .

خيبة ابي عبدالله وعودة ابي زيان

ولما كان انتصار ابي محمد على اخيه وتسلطه على العرش بطريق غير شريف حيث استنهض على اخيه الصليبيين وجاء باعداء الاسلام الى هذه البلاد المسلمة ، احتدم غيظ الرعية هذه فقاومته وانتقمت منه فخرج منهزماً الى قبيلة (انكاد) على نحو ثلاثين كيلو متراً من وجدة مستعيناً باحلافه الاسبان ؛ فاخفق في سيره وانكسر شر انكسار ثم قتل ؛ وعاد ابو زيان الى العرش .

أستشراف الدولة السعدية

مـا برحت دولة الاشراف السعـديين بالمغرب الاقصى تنظر الى حوادث الجزائر وتتبع وقائع المملكة الزيانية بغايـة الدقة والعناية ، ولم تزل ترقب جميع حركاتها وسكناتها حتى سنحت لها في هذه المرة ـ وسط هذه القلاقل والاضطرابات ـ فرصة الوثوب لضمها الى مملكتها ، فانتهزتها وزحف سلطانها المولى محمد المهدي السعدي بنفسه الى المغرب الاوسط فاحتـل تلمسان بدون معارضة من اهلهـا ، وذلك يوم الاثنين ٢٣ جمـادى الاولى ٩٥٧هـ (٩ جوان ١٥٥٠ م)؛ واشيع يومئذ انه قادم على غزو مدينـة الجزائر وطرد الاتراك منها ، فاسخط ذلك باي لارباي الجزائر واسرع ببعث الحاميـة الى تلمسان فالتقى الجمعـان قرب مستغانم على ضفاف الوادي المالح فانهزم السعديون الى داخل المغرب الاقصى، وتقدم حاكم الجزائر حسن باشا الى تلمسان فعزل عنها ابا زيان وولى مكانـه مولاي الحسن بن عبد الله الزياني تحت اشراف وتصرف الضابطالتركي سفطة .

ولاية السلطان مولاي الحسن

هو السلطان مولاي الحسن بن عبد الله « الثاني » آخر ملوك دولة بني عبد الواد الزيانيـــة بالجزائر : تولى عرش تلمسان سنة ٩٥٧ هـ (١٥٥٠ م) تحت اشراف دولة الاتراك بالجزائر ، فكان وهو في ملكه جالساً على عرش اجداده كعامل موظف على هذه الولاية لا غير ؛ اذ ليس له من النفوذ شيء ويصفه التاريخ بالعجز والقصور في تدبير سياسته وتسيير مملكته، وان عهده كان عهد ظلم وعسف ، واظهر ميله للاسبان فنقم عليه الناس وابتعدوا عند فحرم مودة شعبه : واجمع مجلس العلماء يومئذ على عزله، فبادر حينئذ باي لارباي الجزائر صالح رئيس الى خلعه ، فخرج آنئذ ٩٦٢ هـ (١٥٥٤م) الى وهران فتوفي بها موبوءا سنة ٩٦٣ هـ (١٥٥٥ - ٥٦م) ؛ وقيل انـــه توفي بالاندلس وهنالك تنصر ولده ؟... فتسمى باسم كارلو . وضمت اعمال تلمسان نهائياً الىحكومة

الجزائر التركية وانقرضت بذلك دولة بني زيان وذوى غصنها الغض الى عالم الفناء ولله عاقبة الامور .

خلاصة حوادث الاسبان على عهد بني زيان

كان ابتداء اتصال الاسبان بالجزائر واحتكاكهم بها منذ سنة ٩١١ هـ (١٥٠٥م) حيث نزلوا بالمرسى الكبير ثم بوهران نفسها كما لمحنا الى ذلك فيما تقدم قريباً ، ثم امتد بهم الجشع والطمع الاستعماري الى السواحل الجزائرية فامتلكوا منها بجاية ودلس ومستغانم الخ ... وقد استفحل امرهم على عهد الحاكم الاسباني « الكونت الكوديت » حين ولايته على وهران ٩٥٠ – ٩٦٥ هـ (١٥٣٤ – ١٥٥٨م) فاستحوذوا على ما بين جبال كريشتل شرقا الى « راس فالكون » غربا والى نواحي اغلال قرب السبخة الكبيرة جنوباً ، وكان من أهم الوقائع واهوال الحروب يومئذ هي وقائع انكاد ومستغانم ووهران ومسرغين ؛ ولقد مات بجميعها نحو ثلاثة آلاف جندي اسباني، ثم تلتها حوادث تلمسان وقنطرة الصفصاف وارزيو ووادي يسر وتنس ؛ وتكررت الزحوف والتهجمات من طرف الاسبان على مدينتي تلمسان ووهران بالخصوص وكانت شديدة على الجزائريين ، وكثرت الاشتباكات والملاحم الحربية ما بين الاتراك والاسبان تارة ومع بني زيان تارة اخرى وتعددت المعارك بين هؤلاء وهؤلاء وكان النصر فيها سجالا ، وانضوى كثير من سكان البوادي كبني عامر وبني راشد ومليتة وتليلات و « المغطسين » وغيرهم تحت حماية الاسبان ، وامتد حينئذ طغيانهم الى مس نفوذ الاتراك بالجزائر ويومئذ تنمر لهم الاتراك فوضعوا ايديهم على سير الحوادث الوهرانية وشاركوا اهلها في مقاومة النفوذ الاسباني ورد عاديته عن الوطن الجزائري برا وبحرا وكانت لهم في ذلك مواقف حاسمة

كان لتوالي كثرة هذه الاهوال الحربية والاضرابات السياسية ، وعدم تركز احتلال الاسبان على قواعد الاجتماع ووسائل الدفاع الاساسية اثر ظاهر في تدهور وهران وتقهقرها اجتماعياً واقتصادياً وسياسيا ، فكانت لذلك طيلة احتلال الاسبان لها ووجودهم بها بمثابة ثكنة حربية تحيط بها الاسوار والحيطان

وتتخللها المسارب والانفاق وتعلوها الكآبة والبؤس والشقاء لاغير !.. وكان موقف هؤلاء الغاصبين هو دائماً موقف الخصم العنيد والعسكري الحقود الذي لا يشفق ولا يرحم ، يقودونهـــم الساســة العسكريون المستبدون المستقلون عن بعضهم ، ومن ورائهم القساوسة والرهبان من رجال الكنيسة المتعصبة ؛وذلك ما حملنا على القول جازمين باستمرار الحروب الصليبية وانتقالها الى المغرب بعدما كانت نيرانها مستعرة بالمشرق ؛ وهكذا الى اوائــل القرن التاسع عشر الميلادي حيث كتب لها الانتصار على الشرق الاسلامي فسقطت الجزائر تحت نير الاستعمار ...

ولقد لحق الاماكن الجزائرية المحتلة ايام الاسبان من الاهانة ما الله به عليم فكانت مدة اقامتهم بها كلها محنة وبلاء في بحر لجي من الفتن متلاطم الامواج لا يقر له قرار ؛ وستأتيك بقية حوادث الاسبان مفصلة معلقة حسب التاريخ خلال ما نسطره من تاريخ الدولة التركية بالجزائر .

المجتمع الجزائري

يتأكد على كل من يود الاطلاع او يريد الاحاطـة بالحياة الاجتماعية لأي شعب كان ان يتحقق اولا ويدرس دراسة وافية لعادات ذلك الشعب الذي يريد الاطلاع على حالته وان يحيط علما بتقاليده واخلاقه وعاداته ما شذ منها وما شاع غير متحاشٍ من ذلك شيئاً مع التمكن من معرفة ما امكن من مشخصات ذلك الشعب ومقوماته في جميع اطوار حياته ما حضر منها وما غبر ، متتبعاً ومستقصياً لانتظام علاقاته بغيره من الشعوب ممن اتصل بهم او اتصلوا به من قريب او بعيد

ونحن اذا نظرنا الى اهل الجزائر بهذا الاعتبار وجدناهم في الطليعة معدودين من اهل الطبقة الراقية يومئذ بشهادة التاريخ نفسه وهو اصـــدق الشاهدين واعدل الحاكمين . قال يحيى بن خلدون«انهم كانوا ذوي اخلاق سرية، وطباع كريمة ، من صفاتهم الحياء والوقار والوفاء بالعهد والعفاف والتدين والاقتصاد

في المعاش واللباس والسكنى [1]... فان قلت ان هذه الصفات جاءت في وصف اخلاق بني عبد الواد خاصة، قلنا نعم واجل، هم سادة الوطن ورؤساؤه والناس كما قيل على دين ملوكهم وقادتهم وانما صلاح الرعية بصلاح سادتها ورؤسائها والعكس بالعكس .

ثم ان طبقات الامة الجزائرية يومئذ منحصرة في اربعة اصناف من الناس، فانك لا تجد الجزائري الا تاجراً او محترفاً او هو طالب للعلم معلما او او متعلما ، او جنديا مع الجيش يدافع عن بيضة الاسلام وشرف وطنه ، لاخامس هنالك وقد ازدهرت الجزائر يومئذ بالوافدين عليها من مهاجري الاندلس ومعظمهم من مهرة الصناع والزارعين واهل العلم واليسار الذين درجوا في مهد الحضارة بالفردوس المفقود ، فاخذوا هنا بمهجرهم يمارسون مهنهم الراقية في وطنهم الجديد ، وكان يبلغ عدد سكان المدينة الواحدة من المدن الجزائرية الشهيرة كتلمسان مثلا المائة والخمسين الف نسمة ، وكان بوهران يومئذ نحو الستين الف نسمة .

الاقتصاد والانتاج العام بالجزائر :

الاقتصاد كلمة عامة يراد بها – كما هو معلوم – كل ما يشمله معنى تدبير المعاش وانماء الثروة بكل أنواع الكسب والاحتراف مهما تعددت الالوان واختلفت المظاهر من جميع انواع الحرف والصناعات وما تقتضيه المعاملات التجارية بين الناس في مختلف انواع البضائع والسلع مهما تباينت المتاجر والاسواق وتعددت الاساليب والمسالك وتنوعت المرافق والاسباب. كل ذلك دفعاً للاعسار وتمتعاً بالايسار وجلباً للرفاهية العامة التي تنبني عليها سعادة الشعب وترقيته ماديا ومعنويا .

ونحن اذا بحثنا في تاريخ الجزائر الاقتصادي واحتجنا في ذلك الى الادلة الصريحة ظفرنا بقواطع الحجج والشواهد الكثيرة على ذلك مما جعل الجزائر في المكان

---

(١) بغية الرواد ج ١ ص ٢٢

الأول بين صفوف الأمم الراقية التي سابقت غيرها في هذا المضمار ، وذلك ما صير هذا الوطن المغربي الكبير ملحوظاً ومرموقاً لدى الدول القديمة والجديدة كما هو كذلك عند علماء الجغرافية والتاريخ منذ القدم الى اليوم فتراهم مهما ذكروا الجزائر أو اقتصروا على أي ناحية منها الا واثنوا عليها خيراً وعددوا في ذلك زروعها الغزيرة ومنتوجاتها المتنوعة الكثيرة واسواقها العامرة وصناعاتها النافقة ومياهها الدافقة ؛ ومناجمها الكثيرة. الم يشهد التاريخ الروماني القديم لهذا الصقع المبارك بالخصب المرع ورفاهية العيش ؟ الم يسميه في اصطلاحه بخزينة او مزرعة رومة « Romœ graniarum » اذ كان يمدها ويغذيها بمقدار وافر من المحصولات كالحبوب والفواكه والخمور والصوف والخشب والمرمر والزياتين « L'afrique a été le grenier de Rome » بلى وربي انه لحق !..وتعال معي الآن ايها القارىء الكريم الى جولة استطلاعية ونظرة جغرافية تاريخية عامة نلقيها على هذا الوطن الجزائري الخصب الثري صحبة الرحالة المغربي العظيم الشريف الادريسي وهو يحدثنا من كتابه الجغرافي الحافل : « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » حول بعض امهات المدن والقرى الجزائرية فانصت اليه اذ يقول :

« ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبارها ، وهي عامرة آهلة وتجارتها رابحة واسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بادية كبيرة وجبال فيها قبائل من البربر وزراعتهم الحنطة والشعير واكثر اموالهم المواشي من البقر والغنم ويتخذون النحل كثيراً فلذلك العسل والسمن في بلدهم كثير وربما يتجهز بهما الى سائر البلاد والاقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم ، واهلها قبائل ولهم حرمة مانعة .

يستصحبنا الادريسي معه الى عاصمة بني عبد الواد – تلمسان – مندفعاً في حديثه الجغرافي قائلاً عنها : « ان لها نهراً يأتيها من جبلها المسمى بالصخرتين ، وان هذا الوادي يمر في شرقي المدينة وعليه ارحاء كثيرة وما جاورها من المزارع كلها سقي ، وغلاتها ومزارعها كثيرة وفواكهها جمة ،

وخيراتها شاملة ، ولحومها شحمية سمينة ، وبالجملة انها حسنة لرخص اسعارها ونفاق اشغالها ومرابح تجارتها ؛ ولم يكن في بلاد المغرب بعد مدينة اغمات وفاس اكثر من اهلها اموالاً ولا ارفه منهم حالاً » وذكرها البكري قبله في مسالكه قائلا « وهذه المدينة تلمسان قاعدة المغرب الاوسط ولها اسواق ومساجد ومسجد جامع واشجار وانهار عليها الطواحين وهو نهر سطفسيف ، وهي دار مملكة زناته وموسطة قبائل البربر ومقصد لتجار الآفاق » . ويمضي الادريسي في حديثه عن ضواحي تلمسان فيذكر منها قرية العلويين — وهي على مرحلة من تلمسان — فيقول : انها قرية كبيرة عامرة على ضفة نهر يأتيها من القبلة وفواكهها فاضلة وخيراتها شاملة . ولقد بلغت مداخل هذه المدينة على عهد يغمراسن بن زيان الى مائة ألف دينار سنوياً.

ويفيدنا الملك ابو الفداء (٧٣٢ هـ — ١٣٣٢ م) بفائدة جليلة عن الملاحة النهرية بالجزائر وتنقل القوارب وجولان المراكب البحرية في نهر تلمسان فيقول : « ويستدير النهر بقبليها وشرقيها ويدخل فيه السفن اللطاف حيث يصب في البحر » (١)

ونعود الى الادريسي لنستمع اليه فيما يذكر لنا عن حركة هنين — فرضة تلمسان — فنجده يقول : وهنين مدينة حسنة صغيرة في نحر البحر وهي عامرة عليها سور متقن واسواق بيع وشراء وخارجها زراعات كثيرة وعمارات متصلة .

وفي وهران يقول : ووهران على مقربة من ضفة البحر ، وعليها سور تراب متقن ، وبها اسواق مقدرة وصنائع كثيرة وتجارات نافقة وهي تقابل مدينة المرية من ساحل بر الاندلس وسعة البحر بينهما مجريان ، ومنها اكثر ميرة ساحل الاندلس ولها على بابها مرسى صغير لا يستر شيئاً ، ولها على ميلين منها المرسى الكبير ، وبه ترسي المراكب الكبار والسفن السفرية وهذا المرسى يستر من كل ريح وليس له مثال في مراسي حائط البحر من بلاد

(١) تقويم البلدان لابي الفداء ص ٧٠ ط الجزائر ١٨٣٩ م

البربر ، وشرب اهلها من واد يجري اليها من البر وعليه بساتين وجنات وبها فواكه ممكنة واهلها في خصب والعسل بها موجود وكذلك السمن والزبد والبقر ، والغنم بها رخيصة بالثمن اليسير ومراكب الاندلس اليها مختلفة وفي اهلها دهقنة وعزة نفس ونخوة .

ويتحدث عن مدينة « يلل » فيقول : بها عيون ومياه كثير وفواكه وزروع وبلادها جيدة للفلاحة وزروعها نامية .وعن ارزاو – ارزيو – فيقول انها قرية كبيرة تجلب اليها الحنطة فيسير بها التجار ويحملونها الى كثير من البلاد . ويذكر لنا قسنطينة فيقول : انها من احصن بلاد الله وهي مطلة على فحوص متصلة بها ، وانها عامرة وبها اسواق وتجار واهلها مياسير ذووا موال واحوال واسعة ومعاملات للعرب وتشارك في الحرث والادخار ، ولها مزارع الحنطة والشعير ممتدة في جميع جهاتها ، ولها في داخل المدينة ومع سورها مسقى يستقون منه ويتصرفون منه عند اوقات الحصار لها ممن طرقها ؛ والحنطة تقيم بها في مطامرها مائة سنة لا تفسد والعسل بها كثير وكذلك السمن يتجهز به منها الى سائر البلاد .

ويحدثنا البكري عن مدينة مستغانم بانها مدينة ذات عيون وبساتين وطواحين ماء ويبذر في ارضها القطن فيجود .

ثم ينتقل بنا الادريسي الى الكلام عن مدينة تاهرت فيقول : ومدينة تاهرت كانت فيما سلف من الزمان مدينتين كبيرتين احداهما قديمة والاخرى محدثة والقديمة من هاتين المدينتين ذات سور وهي على قنة جبل قليل العلو وبها ناس وجمل من البربر ولهم تجارات وبضائع واسواق عامرة وبارضها مزارع وضياع جمة وبها من نتاج البراذين والخيل كل حسن ؛ واما البقر والغنم فكثيرة بها جداً ، وكذلك العسل والسمن وسائر غلاتها كثيرة مباركة ، وبمدينة تاهرت مياه متدفقة وعيون جارية تدخل اكثر ديارهم ويتصرفون بها ، ولهم على هذه المياه بساتين واشجار تحمل ضروباً من الفواكه الحسنة وبالجمله انها بقعة حسنة . وقد تحدث عنها قبله ابن حوقل فقال : والتجار

والتجارة بتيهرت الحدثة اكثر ولهم مياه تدخل اكثر دورهم واشجارهم وبساتين كثيرة وحمامات وخانات وهي احد معادن الدواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهيد ويكثر عندهم العسل والسمن وضروب الغلات .

ويصف لنا الشريف القلعة الحمادية وما آلت اليه من بعد يقول : والقلعة كانت في وقتها وقبل عمارة بجاية دار الملك لبني حماد وفيها كانت ذخائرهم مدخرة وجميع اموالهم مختزنة ، ودار اسلحتهم والحنطة تختزن بها فتبقى العام والعامين لا يدخلها الفساد ولا يعتريها تغيير ، وبها من الفواكه المأكولة والنعم المنتخبة ما يلحقه الانسان بالثمن اليسير ، ولحومها كثيرة وبلادها وجميع ما ينضاف اليها تصلح فيها السوائم والدواب لانها بلاد زرع وخصب وفلاحتهم اذا كثرت اغنت واذا قلت كفت ، فاهلها ابد الدهر شباع واحوالهم صالحة وذكرها ياقوت الحموي فقال :

ويتخذ بها لبابيد الطيلقان جيدة غاية وبها الاكسية القلعية الصفيقة النسج الحسنة المطرزة بالذهب ، ولصوفها من النعومة والبصيص بحيث ينزل مع الذهب بمنزلة الابريسم [1] ويبلغ سعر الكساء ثلاثين ديناراً . [2]

كما يحدثنا الادريسي ايضاً عن اشير زيرى فيقول : انه حصن حسن البقعة كثير المنافع وله سوق يوم معروف يجلب اليه كل لطيفة ويباع به كل طريفة. واما عن مدينة تنس فانه يقول : لها في جهتها الشرقية واد كثير الماء وشرب اهلها منه في ايام الشتاء والربيع ، وبها فواكه وخصب واقلاع وحط ولها اقاليم واعمال ومزارع وبها الحنطة ممكنة جداً وسائر الحبوب موجودة وتخرج منها الى كل الآفاق في المراكب ، وبها من الفواكه كل طريفة ومن السفرجل الطيب المعنق ما يفوق الوصف في صفته وكبره وحسنه .

ويذكر لنا مدينة مليانة عاصمة مغراوة فيقول : « هي مدينة قديمة البناء

---

(١) معجم البلدان لياقوت ج ٧ ص ١٦٤ ط ليبزيج ١٨٦٦ – ١٨٦٩ م

(٢) الاستبصار ص ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ م

حسنة البقعة كريمة المزارع ولها نهر يسقي اكثر مزارعها وحدائقها وجناتها ولها ارحاء على نهرها المذكور ولأقليمها حظ من سقي نهر شلف .

ويصف لنا مدينة برشك فيقول : انها صغيرة على تل وعليها سور تراب وهي على ضفة البحر وشرب اهلها من عيون وماؤها عذب وافتتحها الملك المعظم رجار – ملك النرمان – سنة ٥ وبها فواكه وجمل مزارع وحنطة كثيرة وشعير .

ويقص علينا خبر مدينة شرشال انها : صغيرة القدر لكنها متحضرة وبها مياه جارية وآبار معينة عذبة وبها فواكه حسنة كثيرة وسفرجل كبير الجرم ذو اعناق كاعناق القرع الصغار وهو من الطرائف غريب في ذاته وبها كروم وبعض شجر تين ، وما دار بها بادية لأهلها مواش واغنام كثيرة ، والنحل عندهم كثير والعسل بها ممكن واكثر اموالهم الماشية . ولهم من زراعة الحنطة والشعير ما يزيد على الحاجة ... وتذكر لنا مدينة مرسى الدجاج وهي على بعد ٨٠ كيلومتراً شرقي العاصمة ، فيقول انها كبيرة القطر لها حصن دائر بها وبشر قليل ؛ وربما فرّ عنها اكثر أهلها في زمن الصيف ومدة السفر خوفاً من قصد الاساطيل اليها ، ولها مرسى مأمون ولها ارض ممتدة وزراعات متصلة واصابة اهلها في زرعهم واسعة وحنطتهم مباركة وسائر الفواكه واللحوم بها كثيرة وتباع بالثمن اليسير ، والتين خاصة يحمل منها شرائح طوباً ومنثوراً الى سائر الاقطار وأقاصي المدائن والامصار ، وهي بذلك مشهورة، وتسمى اليوم « Courbet marine ».

« ومن مدينة مرسى الدجاج الى مدينة تدلس ٢٤ ميلاً وهي على شرف متحصنة لها سور حصين وديار ومنتزهات وبها من رخص الفواكه والاسعار والمطاعم والمشارب ما ليس يوجد بغيرها مثله ، وبها الغنم والبقر موجود كثيراً وتباع جملتها بالاثمان اليسيرة ويخرج من ارضها الى كثير من الآفاق .

« ومن تدلس الى مدينة بجاية في البر ٧٠ ميلاً وفي البحر ٩٠ ميلاً ؛ ومدينة بجاية على البحر لكنها على جرف حجر ولها من جهة الشمال جبل

يسمى مسيون وهو جبل سامي العلو صعب المرتقى وفي اكنافه جمل من النبات المنتفع به في صناعة الطب مثل شجر الحضض والسقولوفندوريون والبرباريس والقنطوريون الكبير والزراوند والقسطون والافسنتين وغير ذلك من الحشائش ويتحدث عنها البكري ايضاً فيقول : ان بشرقيها نهر تدخله السفن محملة .

« ومن القلعة – الحمادية – في جهة المشرق مدينة محدثة تسمى (برج) الغدير وبينها وبين القلعة ٨ اميال والغدير مدينة حسنة واهلها بدو ولهم مزارع وارضون مباركة والحرث قائم الذات والاصابة في زروعها موجودة والبركات في معاملاتهم كثيرة وبين المسيلة والغدير ١٨ ميلاً . وناهيك برخص اسعارها فالقنطار من العنب يساوي عندهم درهماً واحداً كما ذكره البكري .

ويذكر ميلة فيقول عنها : مدينة حسنة كثيرة الاشجار ممكنة الثمار وفواكهها كثيرة ومحاسنها ظاهرة ومياهها غدقة .

وكما تحدث عن ميلة صاحب الاستبصار فقال : « وهي الآن – ٥٨٧ هـ ١١٩١ م » عامرة آهلة كثيرة الخصب رخيصة السعر على نظر واسع وقرى عامرة، وميلة كثيرة الاسواق والمتاجر وبالقرب من مدينة ميلة جبل العنصل[1] يسمى اليوم جبل بني زلدوي ، وهم قبائل كثيرة من البربر سكنوا بذلك الجبل ولهم خلاف كثير على الولاة بسبب منعة جبلهم وفيه مدن وعمائر وقرى كثيرة وهو أخصب جبال افريقية في جميع الفواكه من التفاح الجليل والسفرجل الذي لا يوجد مثله في أي بلد والاعناب الكثيرة [2] .

ويحدثنا عن مدينة جيجل فيقول انها : مدينة حسنة بها الالبان والسمن والعسل والزروع الكثيرة : وبها الحوت الكثير العدد المتناهي الطيب والقدر، ومنها تحمل الفواكه والعنب والرب الى بجاية[3] وهو القائل ايضاً عن سطيف

---

(١) اسم نبات يداوى به .

(٢) الاستبصار ص ٥٣ - ٥٤ - ٦١ ط فينا ١٨٥٢م

(٣) الاستبصار ص ٥٩ ط فينا ١٨٥٣ م

انه حصن كبير القطر كثير الخلق كالمدينة وهو كثير المياه والشجر المثمر بضروب من الفواكه ومنها يحمل الجوز لكثرته بها الى سائر الاقطار وهو بالغ الطيب حسن ويباع بها رخيصاً .

ويتعرض رحالتنا الى بلدة مازونة فيقول : ان لها انهاراً ومزارع وبساتين واسواقاً عامرة ومساكن مونقة ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه اصناف من البربر بضروب من الفواكه والالبان والسمن والعسل كثير بها وهي من احسن البلاد صفة واكثرها فواكه وخصبا ؛ وينتقل بنا الى الحديث عن مدينة مرسي الخرز فيقول : انها مدينة صغيرة عليها سور حصين ولها قصبة وحولها عرب كثير وعمارة اهلها لها على صيد المرجان ؛ والمرجان يوجد بها كثيراً وهو اجمل جميع المرجان الموجود بسائر الاقطار ... ويقصد التجار من سائر البلاد الى هذه المدينة فيخرجون منه الكثير الى جميع الجهات ومعدن هذا الجوهر في هذه المدينة مخدوم في كل سنة ويعمل به في كل الاوقات الخمسون قارباً والزائد والناقص وفي كل قارب العشرون رجلاً وما زاد ونقص ، والمرجان ينبت كالشجر ثم يتحجر في نفس البحر بين جبلين عظيمين ويصاد بآلات ذوات ذوائب كثيرة تصنع من القنب،تدار هذه الآلة في اعلى المراكب فتلتف الخيوط على ما قاربها من نبات المرجان فيجذبه الرجال الى انفسهم ويستخرجون منه الشيء الكثير مما يباع بالاموال الطائلة وعمدة اهلها على ذلك وبها كانت تنشأ المراكب الحربية لغزو بلاد الروم ، وربحها التجاري عشرة آلاف دينار سنوياً (١)

ويذكر لنا الادريسي غابر مدينة بونة وحاضرها على عهده فيقول: انه كان بها اسواق حسنة وتجارة مقصودة وارباح موجودة ، وكان فيها كثير من الخشب موجود جيد الصفة ، ولها بساتين قليلة وشجر وبها من انواع الفواكه ما ما يعم اهلها واكثر فواكهها من باديتها والقمح بها والشعير في اوقات الاصابات كما وصفنا كثير جداً ، وبها معادن حديد جيد ويزرع بارضها الكتان،والعسل

(١) البكري ص ٥٥ ط الجزائر ١٨٥٧ م

بها موجود ممكن وكذلك السمن واكثر سوائمهم البقر ولهـا اقاليم وارض واسعة تغلبت العرب عليها . ويذكرها البكري بمثل هذا ايضاً مع افادته لنا بان اكثر تجارها اندلسيون وان مستخلصها غير جباية بيت المال عشرون الف دينار .

ويتحدث الادريسي عن قرية مسكيانة فيقول : انها قرية عامرة قديمة ازلية وبها زروع ومكاسب وعيون ، ولها سوق ممتدة كالسماط ، وهي اكبر من مرماجنة – مدينة تقع بالشمال الغربي من تبسه – كما انه يذكر لنا مدينة ندرومة فيقول : انها مدينة كبيرة عامرة آهلة ، سور وسوق موضعهافي سند، ولهـا مزارع كثيرة ولها واد يجري في شرقيهـا وعليه بساتين وجنات وعمارة وسقي كثير . ويذكرها البكري ايضاً فيقول : لهـا نهر وبساتين فيها من جميع الثمار .

ويستمر الشريف الادريسي في حديثه عن اقطار البلاد الجزائرية متجولا بنا هنا وهناك مخترقا الآفاق كاشفاً لنا عن مخبآت كنوز ارضنا الخصبة وبلادنا الغنية الثرية فتراه يقف بنا هنا على اشهر بلاد الزاب واصفاً لنا منها مدينة المسيلة وطبنة ومقرة ونقاوس وبسكرة وباغاية ؛ فاستمع اليه اذ يتحدث عن الاولى منها فيقول : « هي عامرة في بسيط من الارض ولها مزارع ممتدةاكثر مما يحتاج اليها ، ولهـا سوائم خيل واغنام وابقار وجنات وعيون وفواكه وبقول ولحوم ومزارع وقطن وقمح وشعير ويسكنهـا من البربر بنو برزال وزنداج وهوارة وصدراته ومزاتة ؛ وهذه المدينة ايضاً عامرةبالناس والتجار وهي على نهر فيه ماء كثير مستنبط على وجه الارض وليس بالعميـق وهو عذب وفيه سمك صغير فيه طرق حمر حسنة ولم ير في بلاد الارض المعمورة سمك على صفته ، واهل المسيلة يفتخرون به ، ويكون مقدار هذا السمك من شبر الى ما دونه وربما اصطيد منه الشيء الكثير فاحتمل الى قلعة بني حماد وبينهما ١٢ ميلا ، وتخرج من المسيلة الى مقرة مرحلة، وهي مدينة صغيرة وبها مزارع وحبوب واهلها يزرعون الكتان وهو عندهم كثير .

ويتحدث عن طبنة وتسمى اليوم بريكة فيقول : انها مدينة الزاب وهي مدينه حسنة كثيرة المياه والبساتين والزروع والقطن والحنطة والشعير، وعليها سور من تراب واهلها اخلاط وبها صنائع وتجارات واموال لاهلها متصرفة في ضروب من التجارات والتمر بها كثير وكذلك سائر الفواكه ... ومدينة نقاوس صغيرة كثيرة الشجر والبساتين واكثر فواكهها الجوز ومنها يتجهز به الى ما جاورها من الاقطار وبها سوق قائمة ومعايش كثيرة... ومن مدينة نقاوس ايضاً الى حصن بسكرة مرحلتان وهو حصن منيع في كدية تراب عال وبه سوق وعمارة وفيه ايضاً من التمر كل غريبة وطريفة .

قال في الاستبصار : وبسكرة ايضاً جنس من التمر يعرف بالليارى وهو أبيض أملس ، وكان صاحب القيروان يأمر عماله بالمنع من بيعه وبعث ما هنالك منه اليه ليطيبه ويحسنه ، وبسكرة دار فقه وعلم فيها العلماء [1].

ويخبرنا اهل وارجلان - وارقلة - بانهم قوم مياسير وتجار اغنياء يتجولون في السودان الى بلاد غانة وبلاد ونقارة يشترون التبر على اهلها ويخرجونه الى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير باسم بلادهم ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة [2]

كما يحدثنا البكري عن المحصولات في باغاية وطولقة وقزرونة فيقول عن الاولى : انها مدينة جليلة اولية ذات انهار وثمار ومزارع ومسارح . وعن الثانية يقول : انها ثلاث مدن كلها عليها اسوار طوب وخندق وحولها انهار وهي كثيرة البساتين بالزيتون والاعناب والنخيل والشجر . ويتحدث عن الثالثة بانها على نهر كبير عليه الارحاء والبساتين، ويقال لها متيجة ولها مزارع ومسارح وهي اكثر تلك النواحي كتانا ومنها يحمل . وفيها عيون سائحة وطواحين ماء [3]

---

(١) الاستبصار ص ٥٣ - ٥٤

(٢) نزهة المشتاق للادريسي ط ليدن ١٨٦٤ م .

(٣) المسالك والممالك للبكري ط الجزائر ١٨٥٨ م .

ولقد سبق ان سقنا ما حكاه الادريسي عن حركة بجاية الاقتصادية والصناعية والبحرية ايضاً بالجزء الاول من كتابنا هذا – صفحة ٣٣٣ – فليراجع هناك .

ورغم كل ما حدث اثر عصر الادريسي والبكري من الاضطرابات السياسية والانقلابات الاجتماعية التي عمت اقطار المغرب العربي على عهد كل من الدول او الحكومات الثلاث : بني ابي حفص ، وبني مرين ، وبني زيان ، فان ارض الجزائر لم يحدث في اقتصادها كثير تبديل او تغيير واستمر اهلها على استثمار بلادهم يعملون نشطين مثابرين في رخاء وخفض من العيش طيلة قرون ؛ وهكذا نجد علماء التاريخ والجغرافية من اهل القرن السادس والسابع بل والثامن ايضاً يصفون لنا الرقي الاقتصادي والتقدم الزراعي في بلاد الجزائر بمثل ما حدثنا به الاولون .

فهذا كتاب الاستبصار الذي تم تأليفه سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) يتحدث عن مدينة مليانة فيقول : ولمدينة مليانة مياه سائحة وبساتين فيها جميع الفواكه وهي من اخصب بلاد افريقية وارخصها اسعاراً وقال عن قلعة هوارة -غربي مستغانم - هي قلعة منيعة في جبل خصيب فيه بساتين وثمار واشجار ومزارع واعناب ، وتحتها فحص طوله نحو اربعين ميلاً يشق به نهر سيرات ويسقي اكثر ارضه ويسمى ذلك الفحص سيرات باسم النهر وهو نهر كبير مشهور ويذكر مدينة بونة فيقول : هي من انزه البلاد واكثرها لبناً ولحماً وعسلاً وحوتاً ... وبغربيها ماء سائح يسقي بساتينها وارضها وموضع جناتها منتزه حسن مشرف على البحر ، وهكذا يستمر في وصفها الى ان يقول : وبغربي مدينة بونة بركة في دورها نحو عشرة اميال وفيها سمك كثير جليل ... واخيراً يقول : وللمغرب الاوسط مدن كثيرة قد ذكرنا اكثرها في البلاد الساحلية وهي كثيرة الخصب والزرع كثيرة الغنم [١] .

وذكر القزويني (٦٨٣ هـ - ١٢٨٣ م) مدينة مجانة فقال : هي بلدة

---

(١) الاستبصار في عجائب الامصار ص ٥٩ ط فينا ١٨٥٢ والبكري ص ٥٤ - ٦٩

بافريقية تسمى قلعة بسر ، لان بسر بن ارطاة فتحها عنوة - بعثه اليهـــا موسى بن نصير وبعث خمس غنيمتها اليه أرضها طيبة ينبت بها زعفران كثير ، بها معادن الفضة والحديد ، والمرتك . والرصاص ، والكحل ، وفي جنوبها جبل تقطع منه احجار الطواحين وتحمل الى سائر بلاد العرب. وكانت تعرف بـ (مجانة المعادن) لذلك . ويحدثنا البكري عن خصب مدينة التبسة فيقول : انها مدينة كبيرة كثيرة الفواكه أولية مبنية بالصخر الجليل، أخرب بعض سورها ابو زيد مخلد بن كيداد وهي على نهر كبير كثير الفواكه والاشجار لاسيما الجوز فان المثل يضرب بجلالته هناك وبكبره وطيبه [١] وفيها يقول ياقوت الحموي : انــه يعمل بها بسط جليلة محكمة النسج يقيم البساط منهـــا مدة طويلة .

وهذا ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨م) يتحـدث عن مدينة تنس فيقول : ان بها مسجداً جامعـاً واسواقاً كثيرة ؛ ثم يذكر موازين ومكاييل اهلهـــا فيقول : ولهم كيل يسمونه الصفحة وهي ثمانيـة واربعون قادوساً ، والقادوس ثلاثة امـداد بمد النبي ﷺ ، ورطل اللحم بهـــا سبع وستون اوقية ، ورطل سائر الاشياء اثنتان وعشرون اوقية، ووزن قيراطهم ثلث درهم عـدل بوزن قرطبة كما انه يذكر مدينة الخضراء فيقول : هي بلدة بينها وبين مليانة يوم واحد ، وهي مدينـة جليلة كثيرة البساتين على شاطىء نهر من اخصب مدن افريقية ، ويحدثنـــا عن مدينة بونة فيمضي في وصفها حسب ما ذكرناه فيما سلف ثم يقول عنهـا : انهـــا كثيرة الرخص والفواكه والبساتين القريبة واكثر فاكهتها من باديتها ... [٢] .

وهذا الملك ابو الفـــداء يذكر كذلك بونة في كتابه تقويم البلدان الذي فرغ من تبييضه سنة ٧٢١ هـ (١٣٢١م) فيقول عنهـا انها مدينة جليلة عامرة على البحر خصبة الزرع كثيرة الفواكه رخية، وبظاهرها معادن حديد ويزرع

---

(١) آثار البلاد واخبار العباد ص ٣٦٠ ط بيروت ١٩٦٠ والبكري ص ١٤٥ .
(٢)معجم البلدان ط ليبسيك ١٨٦٦ - ١٨٦٩ م

بها كتان كثير ، وحدث بهـا عن قريب مغاص على المرجان ليس كمرجان مرسى الخرز . كما انه يذكر بسكرة فيقول: ومدينة بسكرة قاعة بلاد الزاب ، ولبسكرة بلاد ذات نخيـل وزروع كثيرة ومن بسكرة يجلب التمر الطيب الى تونس وبجاية . ويتحدث عن المسيلة بقوله : ومدينـة مسيلة حسنة كثيرة الاشجار والثمار ومياهها عذبة [1]

وذكر مقديش الصفاقسي مدينة التين – بين سوق ابراهيم وتنس تبعـد عن كلتيهما بمرحلة – فقال انها كثيرة شجر التين جـداً ويعمل بهـا من التين شرائح اعظم من الطوب وبذلك تسمى ويحمل منها الى كثير من الاقطار[2] وكما يشهد بذلك من كتاب الافرنج المتـأخرين : مارمول وآلفـاريز قوميز - Marmol et Alvarés Gomés -

ويتحدث الرحالة عبد الباسط بن خليل في رحلته ـ الروض الباسم ـ عن قسنطينة فيقول بانه نزل بها يوم سابع عشر شوال سنة ٨٦٨ هـ (٢٤ جوان ١٤٦٤ م) فرأى « منها مدينة عجيبة الموضوع ، حسنة المجموع ، على جبل عال وتحتها واد عظيم كثير الخصب والاجنة والرخاء الغالب ، قال: واعجبتني الى الغاية ورأيت ابنيتها جيدة فائقة ....

وقل مثل ذلك عن سير التجارة فأنها رائجة في كثير من انواع السلع التي كانت الجزائر تستوردها من الخارج على سبيل المبادلة مثل الزجاج وأجهزة وعتاد وعدد وغير ذلك من ادوات الحديد ، او تصدرها من بضائعها المحلية المختلفة كالتبر المسبوك والذهب النضار والعاج والجوخ والصوف والحرير والكتب والسلاح الابيض والجلد والسمك المجفف والمرجان والرقيق ، فكل ذلك كان منتشراً باسواق البلاد الجزائرية تتوصل اليه بطريق القوافل التي تتردد بـين الصحراء والتل مخترقة لحدود تونس وطرابلس والمغرب الاقصى والسودان .

ويذكر ابن خلدون وطن توات بصحراء الجزائر فيقول : ان به قصوراً

---

(١) تقويم البلدان ط لجزائر ١٧٣٩ م ص ٨٠ و ٩٠ و ٩٤
(٢) الازهار الرياضية ص ٥٨ ـ ٥٩

متعددة تناهز المئتين اخذت من المشرق الى المغرب وآخرها من جانب المشرق يسمى (تمنطيت) وهو بلد مستبحر في العمران وهو محط ركاب التجار المترددين للمغرب الى بلد مالي من السودان لهذا العهد ، ومن بلد مالي اليه . وذكر ان به جنات من نخيل واعناب ومن كل الثمرات (١) وقل مثل ذلك . في البحر فان السفن والمراكب الاهلية والاجنبية لاتفتر عن التنقل بين سواحل الجزائر والاندلس وصقلية وجنوة والبندقية وكثيراً ما كانت اسواق تلمسان ترى ملآنة بالتجار من اهل بيزا والبيروفانصوا والقطلان وغيرهم من الافرنج بله حركة القوارب والزوارق التي كانت في نشاطها الدائم بانهار قسنطينة وتلمسان وارشقول .

ولقد شاهد هذا المعنى عبد الباسط بنفسه فسجله في رحلته الى الجزائر قائلاً : « وفيه ـ اي في يوم تاسع عشر صفر ٨٧١ هـ ـ ١٠ اكتوبر ١٤٦٦ ـ ورد الى ساحل مدينة وهران شونية عظيمة من مراكب الفرنج الجنويين وردت من بلاد افلندة ونحوها من بلاد الافرنج بالمحيط برسم الاتجار في الجوخ وتجهز كثير من تجار وهران وتلمسان للسفر فيها الى جهة بلاد الاندلس وتجهزت أنا ايضاً لذلك وعزمت على العود لهذه البلاد بعد دخول تونس وغيرها من البلاد » (٢) واما عن متاجر وهران ومساكنها فانها بلغت يومئذ الى الف وخمسمائة متجر ونحو ستة آلاف دار .

واما المهن والحرف اليدوية فان اهمها يومئذ بالجزائر يرجع الى صناعة الدباغة وخصف النعال والاحذية والصياغة والعدانة والخزافة والنجارة والحدادة وفن البناء والتعمير ، وكان مما امتازت به تلمسان واختصت به ما بين البلاد: الاتقان في النسج والقزازة ، فان ملابسها ومنسوجاتها الصفيقة من حرير اوصوف اعتبار وتقدير يفوقان منسوجات غيرها من البلاد ، لا من حيث الاحكام في الصناعة والنسج فحسب ، بل وحتى في جودة النوع والشكل مع الدقة واللطافة

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٥٦

(٢) الروض الباسم ص ٤٠ و ٦٧ ط باريس ١٩٣٦ م

والخفة،فانك تجد البرنس او الكساء الجيد من الحرير لا يتجاوزونه عندهم الثاني اواق، والاحرام لا يتعدى خمس اواق . وذكروا انهم كانوا يختبرون الاكسية والملابس الرقيقة الجيدة بادخالها واخراجها من حلقة خاتم ! ....
واليك وصف كاتب الدولة يومئذ يحيى بن خلدون لدار الصنعة بتلمسان قال :

« ان دار الصنعة السعيدة تموج بالفعلة على اختلاف اصنافهم وتباين لغاتهم وادیانهم؛فمن دراق ورماح ودراع ولجام ووشاء وسراج وخباء ونجار وحداد وصائغ ودباج وغير ذلك،فتستك لأصواتهم وآلاتهم الاسماع وتحار في احكام صناعتهم الاذهان وتقف دون بجرهم الهائل الابصار؛ثم تعرض قومتهم اصيلان كل يوم مصنوعاتهم فيه بين يدي الخليفة ايده الله ويخزن كل بحجار صنعه المعد له وينصف العاملون من ارزاقهم عدلاً هكذا ابدا »[1].وان لنا في حركة اسواق القيسرية بتلمسان لغنى وذكرى .

واشتهرت اسواق الجزائر يومئذ بانتظامها حسب انواع السلع والبضائع فانك لا تجد اختلاطاً بين البزازين والصاغة مثلاً ولا بين الحدادين والنجارين فلكل نوع منها سوق قائمة بنفسها ، وبذلك نعلم أنه كان للجزائر شأن عظيم في عالم الاقتصاد منذ القديم كما انها لا تزال كذلك الى اليوم .

ويكفي في الاستدلال على التقدم والرقي الصناعي بالجزائر يومئذ أن نتأمل قليلاً في اختراع العبقري المفن الجزائري علي بن الفحام التلمساني لآلة المنجانة العجيبة ذات الوضع المدهش والصنع الميكانيكي العجيب والشكل الهندسي الغريب ، أنشأها صاحبها في اوائل سنة ٧٦٠ هـ (١٣٥٩ م) لرصد الوقت فسبق ببديع صنعه واضع ساعة « ستراسبوق » بقرنين إثنين فكانت هذه من عجائب المخترعات ، واليك وصفها من شاهد عيان شارك بنفسه في صنعها بوضع أبيات شعرية لنظم ساعاتها ، وذلك هو يحيى بن خلدون ، قال في سياق حديثه عن المهرجان الذي كان يقيمه السلطان ابو حمو الثاني في

---

(١) بغية الرواد ج ٢ ص ١٦١ ط الجزائر ١٣٢٩ هـ - ١٩١١ م

قصره وبمحضره في كل سنة بمناسبة ذكرى يوم المولد النبوي الشريف :

« .... وخزانة المنجانة ذات تماثيل اللجين المحكمة قائمة المصنع تجاهه – يعني السلطان – بأعلاها أيكة تحمل طائراً فرخاه تحت جناحيه ويخاتله فيها أرقم خارج من كوة بجدر الايكة صعداً ، وبصدرها ابواب مجوفة عدد ساعات الليل الزمانية ، يصاقب طرفيها بابان مجوفان اطول من الاول واعرض فوق جميعها ، ودوين رأس الخزانة قمر اكمل يسير على خط استواء سير نظيره في الفلك ، ويسامت اول كل ساعة بابها المرتج ، فينقض من البابين الكبيرين عقابان بفي كل واحد منهما صنجة صفر يلقيها الى طست من الصفر مجوف بوسطه ثقب يفضي بها الى داخل الخزانة فيرن ، ويريد الارقم ان ينهش احد الفرخين فيصفر له ابوه فهنالك يفتح باب الساعة الراهنة وتبرز منه جارية محتزمة صورت في أحسن صورة ، في يدها اليمنى رقعة مشتملة على نظم فيه تلك الساعة باسمها مسطور ، فتضعها بين يدي السلطان بلطافة ويسراها موضوعة على فيها كالمبايعة بالخلافة لامير المؤمنين ، حيل أحكمت يد الهندسة وضعها وراض تدبير الخلافة اعلى الله مقامه شماسها ....

... وأمرني أيده الله بنظم أبيات على لسان الجواري المعرفات ساعات المنقانة الغريبة الشكل المتقدمة الوصف فقلت في ذلك :

الساعة الاولى من الليل :

أمولى الملوك وأعلى الأمم ... ومن جوده العالم الكل عم
مضت ساعة ليت لو تثنى ... فإن الحياة بكم تغتنم
ولله وجهك لما بدا ... وقد خلته البدر في الأفق تم
عليه لاجل التقى هيبة ... وفيه من الفضل بشر الكرم
أقمت بمولد خير الورى ... سروراً لكم بالمعالي حكم
طويت الفؤاد على حبه ... ففعلك هذا على ذاك نم
فنلت السعادة دنيا وأخرى ... وحزت المفاخر دون الأمم
فدم ما حييت لنا ملكا ... يطيعك عرب الورى والعجم

الساعة الثانية :

أخليفة الرحمن والملك الذي تعنو لعز علاه املاك البشر
لله مجلسك الذي يحكي علا بك مالكي افق السماء لمن نظر
أوماتري فيه النجوم زواهرا وجه الخليفة بينهن هو القمر
والليل منه ساعتان قد انقضت تثنى عليك ثنا الرياض على المطر
لا زال هذا الملك منصوراً بكم وبلغت ماترتجى أسنى الوطر

الساعة الثالثة :

أمولاي يا ابن الملوك الألى لهم في المعالي أسنى الرتب
توالت ثلاث من الليل أبقـ ت لك الفخر في عجمها والعرب
فدم حجة الله في أرضه تنال الذي شئته من أرب

الساعة الرابعة :

يا واحداً في المعالي ومالك الفضل اجمع
مولاي دمت علياً مضت لليلك أربع
لا زلت تفني الأعادي وللمفاخر تجمع

الساعة الخامسة :

يا امير المسلمينا وجمال العالمينا
والذي حاز المعالي كلها دنيا ودينا
قد مضت لليل خمس حسنها راق العيونا
وانقضى النصف فآه هكذا تمضي السنونا
دمت في عز وسعد خالد الملك مكينا

الساعة السادسة :

يا ماجداً وهو فرد تخاله في عساكر

ست من الليل ولـّت ما ان لها من نظائر
دامت ليـاليك حتى الى المعـاد نواضر

السـاعة السابعة :

يا من له الفخر طبع والفضل فيه سجيـة
مرت من الليـل سبع ما ان لهـا مثنوية
لا زلت والشمل جمـع يعليك رب البريـة

السـاعة الثامنة :

يا اكرم الخلق ذاتاً وأشرف الناس أسره
مرّت ثمان وأبقت في القلب مني حسره
فيهنّ كان شبابي أخا نعـيم ونضره
ولى بها الدهر عني ترى لهـا بعـد كرّه
فالله يبقيـك مولى يطيل في السعد عمره

السـاعة التاسعة :

يا أوحد الناس في مجد وفي شرف وأفضل الخلق في بأس وفي كرم
مولاي تاسعة الساعات قد ذهبت والليل من بعدها قد عاد ذا هرم
كذا يمر ولا ندري الزمان بنا وينقضي العمر في اللذات واندمي
من كان ذا عمل في البرّ مثلـكمُ يا فوزه يوم تخشى زلة القـدم
لا زلت ذا عزة والملك ذا شرف بكم وأنتم مدى الايام في نعم

السـاعة العاشرة :

يا مالك الخير والخيل التي حكمت له بعزّ على الأيام مقتبـل
هذا الصباح وقـد لاحت بشائره والليـل ودعنا توديع مرتحل
لله عشر من السـاعـات باهرة مضين لا عن قلى منا ولا ملل

كذا تمرّ ليالي العمر راحلة عنا ونحن مع الآمال في شغل
نمسي ونصبح في لهو نسرّ به جهلاً وذلك يدنينا من الأجل
والعمر يمضي فلا ندري فوا أسفاً عليه إذ مرّ في الآثام والزلل
يا ليت شعري غداً كيف الخلاص به ولم تقدم له شيئاً من العمل
يا رب عفوك عما قد جنته يدي فليس لي بجزاء الذنب من قبل
يا رب وانصر امير المسلمين أبا حمو الرضا والله غاية الأمل

ومن هذا القبيل ما سجله التاريخ عن ساعة الخليفة هرون الرشيد التي أهداها للملك شارلمان وساعة الجامع الأموي وباب جبرون بدمشق، وساعة المستنصر العباسي بمستشفى بغداد (١) .

ويظهر مما تقدم من نظم ساعة ابي حمو ان القوم كانوا يستعملون في ضبط الزمن الساعات الغروبية . أي تقدير مبدإ الزمن بساعة الغروب لا بالزوال وهي طريقة المشارقة المتعارفة بالا لا تركة ، ومبدأها من غروب الشمس ، فالزمن عند الغروب يعتبر صفراً ثم يأخذ في التزايد الى هلم جرا .

ولا ينبغي ان يفوتنا هنا ونحن نؤرخ للساعات والفنون بالجزائر — ان نترك الاشارة الى ما كان بقصر السلطان ابي تاشفين الاول من تلك الشجرة العجيبة المصنوعة من الفضة الواقعة على اغصانها تماثيل طيور مختلفة الاشكال والالوان تحاكي اشباهها من الطيور الطبيعية ، وكلها مصنوعة بحيل ميكانيكية لطيفة يعلوها صقر ، فاذا نفخ في اصل الشجرة صوتت تلك الطيور كلها باصوات على غرر نظرائها من الطيور حتى اذا تموج الهواء وبلغ الى الصقر صوت فتنقطع لصوته جميع الاصوات كما نقل ذلك الامام القرافي عمن شاهد هذه الشجرة

---

(١) انظر الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ج ١ ص ١٧٧ ط دمشق ١٣٦٧هـ-١٩٤٨ م ورحلة ابن جبير ص ٢٤٩ - ٢٥٠ ط مصر ١٣٢٦ هـ وكتاب التصوير عند العرب لأحمد تيمور ص ٧٧ ط القاهرة ١٩٤٢ م .بغية الرواد ج ٢ ص ٤٠ و ٢١٨ وحضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣١٥ ط القاهرة ١٩٤٨ م ودائرة المعارف للبستاني مادة : ساعة .

بنفسه وسمع تغريد طيورها بحضرة السلطان بتلمسان [1] فتراها شبيهة بما احضره الخليفة المقتدر العباسي بدار الشجرة ببغداد يوم اقتباله سفير قيصر الروم (٣٠٥ هـ -- ٩١٧ م) ثم ألا نعلم بعد هذا ما كان يوجد عند غير ملوك هذه الدولة من التحف والنفائس العجيبة التي تستطيع أن تقارن هذه الاشياء بها ، اللهم الا ما يذكر عن قصور الخلفاء الفاطميين بمصر وما احتوت عليه من الطرائف الغريبة الصنع والتحف البديعة الجمال وهي قريبة الشبه بما ذكرنا من حيوانات وطيور ونبات .

وكان من هذا القبيل أيضاً ما تقدم ذكره من الهدايا النفيسة التي أهداها السلطان الثابتي الى ملك الاسبان ؛ومنها ما وصفناه من تلك الدجاجة العجيبة الصنعة المتبوعة بست وثلاثين نقفاً من نوعها ؛ فذلكم ايضاً هو مما لا يستهان به في الاستدلال على تقدم العلوم والفنون ونهضة الصناعات عهدئذ بالجزائر .

المذاهب والمعتقدات

حسبنا ما اطلنا به فيما قدمناه من التفاصيل الضافية والشروح الوافية حول تاريخ العقيدة الدينية والمذاهب الفقهية فيما سلف من أبواب هذا الكتاب وفصوله التي تناولنا فيها هذا الموضوع في مختلف ادوار التاريخ الجزائري وتطوراته بحسب توالي الدهور والعصور ، وقد ارست سفينة الناس يومئذ حسبما ذكرناه هناك الى التدين بعقيدة الاشعري والتمذهب بمذهب مالك تغمدهما الله برحمته قال البكري : ولم تزل تلمسان داراً للعلماء والمحدثين وحملة الرأي على مذهب مالك ابن انس رحمه الله [2] ولم يخالف في ذلك إلا بعض البطون والقبائل المنتشرة بشرقي الجزائر وجنوبها كاهل مدينة تهودة فانهم لم يزالوا يومئذ على رأي أهل

---

(١) انظر كتاب التصوير عند العرب لاحمد تيمور ص ٧٩ ط القاهرة ١٩٤٢ ونظم الدر والعقيان للتنسي - مخطوط -

(٢) انظر الجزء الاول من كتابنا هذا : تاريخ الجزائر العام ص ٣٢٧ و ٣٥٠ و ٤٨١ و ج ٢ ص ٣٣ والمسالك والممالك ص ٧٧ ط الجزائر ١٨٥٧ م

العراق وقبيلة كتامة الساكنة بجبال بجاية على رأي الشيعة الاسماعيلية [1] ، يكرمون من مال إلى مذاهبهم ويبرون من وافق اعتقادهم ، وان أهل جبل أوراس وسكان باغاية وفحصها وقوماً من سكان نواحي بنطيوس وبادس وبسكرة كانوا يومئذ على رأي الخوارج أباضية المذهب وأصلية العقيدة [2].

وهكذا ظلت الجزائر كما قدمنا متشعبة العقائد والمذاهب إلى أن اتحدت على عهد المرابطين ومن خلفهم على هذا الوطن من الموحدين فانتشر بينهم يومئذ مذهب أهل الحديث من أهل السنة وتقرر رأي المالكية في ذلك ودان الناس بعقيدة الاشعرية وعمّ ذلك بلاد الجزائر وبقية بلاد المغرب العربي كله غير ناحية بلاد مصاب – مزاب – من التراب الجزائري وجزيرة جربة بتونس وجبل نفوسة بطرابلس فإنها بقيت متمسكة بعقيدة الخوارج الاعتزالية متمذهبة بمذهب الاباضية [3] .

وأما غير المسلمين فكانوا على ما هو عليه الحال الى الآن : نصارى ويهود وفي عهد سقوط وهران بيد الاسبان (٩١٥ هـ – ١٥٠٩ م) اتخذ الكاردينال كسيمينيس بها ديرين للرهبان أحدهما للدومينيك والآخر لأهل المذهب الفرانسيسكي .

الثقافة والحضارة والعمران

تحتفظ لنا المجموعة التاريخية الكبرى التي شارك في وضعها نخبة من أفاضل العلماء في القديم والحديث كالأخوين يحيى وعبد الرحمن ابني خلدون، والتنسي والغبريني ، وابن مريم ، وابن فرحون ، وأحمد بابا التنبكتي ، والسخاوي والمسيتي البوني ؛ ومحمد بن حواء المستغانمي ، وشيخنا الحفناوي ؛ ومحمد بن

(١) راجع تاريخ قيام دولتهم بالمغرب في الجزء الاول من كتابنا هذا : تاريخ الجزائر العام ص ٢٤٥ – ٢٤٦ و ٢٦٤ – ٢٦٥

(٢) المسالك والممالك للبكري ص ٧٢ – ٧٣ و ٨٢ و ١٤٤ – ١٤٥ ط الجزائر ١٨٥٧م راجع قل ج ١ ص ٩٥ ط ليدن ١٩٣٨ م .

(٣) راجع الجزء الاول من كتابنا هذا وما قدمناه في هذا الجزء.

مخلوف التونسي ، وهلمَّ جرا ... بتاريخ سير الحركة العلمية بالجزائر ، ضمن تراجم طائفة عظيمة وعدد وافر من نوابغ العلماء وأرباب القرائح الذين أنجبتهم الجزائر فكرسوا حياتهم لخدمة العلم ونشر الثقافة بين هذه الارجاء المغربية وخاصة منها هذه البلاد فان حظها من هؤلاء العلماء كان موفوراً وسعيهم بها مشكوراً ، وليس هنالك أدلّ على ما ذكرناه وأعظم من الرجوع الى مطالعة هذه المصادر المذكورة وهي بحمد الله مطبوعة متداولة بين الناس، فلا سبيل الى إنكار الجاحدين المغرضين أو معارضة المكابرين ؛ فلقد سايرت الجزائر موكب العلم والمدنية جادة في ذلك حسبما سمحت لها الظروف وتيسرت لها الأسباب ؛ وكانت – كما لا تزال – كلما وجدت الى ذلك فرصة اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، وفيها كان استقرار العلوم النظرية كما قال ابن خلدون في حديثه عن الأدب والعلم بتلمسان .

قال : ولمن ذكرنا من أهل المائة الثامنة انتهت طريقة التعليم ، وملكة التلقي . وهو يعني بذلك الشريف التلمساني وسعيد بن محمد العقباني رحمهما الله، قال لكونهما ألفا التصانيف البعيدة وزاحما رتبة الاجتهاد من غير منازع.

وقال المقري في تعليقه على كلام ابن خلدون هذا : وكذلك بلغ رتبة التبريز في تحصيل العلم كل واحد من ولديهما : الفقيه السيد ابو الفضل قاسم بن سعيد، والفقيه الاوحد السيد أبو يحيى الشريف، إذ بلغا رتبة الإمامة والفتيا[1].

وبذلك اضحت الجزائر يومئذ تفاخر البشرية بابنائها البررة البارزين في الحقل العلمي وتعتز بهم كثيراً .

ومن معاهد العلم الشهيرة بتلمسان مدارس كثيرة منها مدرسة منشار الجلد، ومدرسة ولدي الامام ، والمدرسة التاشفينية – حطمها الاستعمار سنة ١٢٧٥ هـ ١٨٥٩ م – والمدرسة اليعقوبية المنسوبة الى ابي يعقوب والد السلطان ابي حمو الثاني ، ومدرسة ابي حمو الثاني ، ومدرسة ابي الحسن المريني بالعباد ، والتعليم

---

(١) ازهار الرياض للمقري ج ٣ ص ٢٥ ط مصر ١٣٦١ هـ.

في جميعها بمرحلة الثلاثة مجاناً وذلك علاوة على ما كان يقوم به علماء الدين بالمساجد من دراسة علوم الشريعة واللغة، وللطلبة نظم وتراتيب خاصة تجمعهم على حسب اختلاف اتجاهاتهم العلمية وتنوع مقاصدهم في الطلب، والى تلمسان هذه كانت تشد الرحال في طلب علوم الحكمة والفلسفيات من نوع العلم الطبيعي والرياضيات والطب والموسيقى.

فهذا عبد الباسط بن خليل المصري من علماء القرن التاسع الهجري هجر بلاده وارتحل الى الجزائر ليستكمل بها معلوماته في الطب فنزل تلمسان واخذ بها عن الشيخ محمد بن علي بن فشوش احد اطبائها في المزاولة والدرس، كما انه لازم بها دروس طبيبها الاكبر وحكيمها العالم الاسرائيلي موشى بن الاشقر؛ قال: «لا رأيت كمثله في مهارته في هذا العلم وفي علم الوفق والميقات وبعض العلوم القديمة ... وقصده كثير من الفضلاء للاخذ عنه ... قال: لازمته مدة واخذت عنه نبذة كبيرة نافعة في الطب وغيره واجازني، وبلغني عنه في هذه الايام انه انتهت اليه الرئاسة في الطب بتلمسان» [1] وكان فيما بلغنا عنه من الجزائريين انه كتب يومئذ في الطب الامام محمد بن يوسف السنوسي (٨٩٥ هـ - ١٤٩٠ م) فله شرح على رجز ابن سينا لم يكمل؛ بينما الأمر في بلاد الجزائر على ذلك اذا ببلاد الاندلس - وما ادراك! - كانت على خلاف ذلك، فان لكل العلوم هنالك حظاً واعتناء خاصاً الا الفلسفة والتنجيم فان لها حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة فانه كلما قيل أن فلاناً يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم الا واطلقت عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه انفاسه [2] وان كان مزاج الامة الجزائرية مع ذلك عموماً ذا صبغة دينية محضة حسبما دلتنا على ذلك اكثر آثارها الادبية وانتاجها في عالم التأليف.

واشتهر يومئذ من اطباء تلمسان الادباء الذين سمح لهم القدر بجمعهم بين جبر وهن الاجسام ومواساة جراحات القلوب والارواح؛ الطبيب الاديب

---

(١) الروض الباسم لعبد الباسط بن خليل ص ٤٤ ط باريس ١٩٣٦ م
(٢) نفح الطيب ج ٢ ص ١٠٧ ط مصر ١٩٣٦ م

الحاج ابو عبدالله محمد بن ابي جمعة التلاليسي ، طبيب ابي حمو « الثاني » فانه علاوة على براعته في الطب ومهارته في العلاج كان اديباً متفنناً ينظم الشعر الجيد ويحسن قرضه ؛ وله في كل المناسبات والاحداث التي تقع بقصر السلطان قصائد رشيقة وموشحات رائعة ، منها قوله في مطلع موشح رفعه الى السلطان ابي حمو يوم الاحتفال بمولد الرسول صلى الله عليه وسلم سنة سبع وستين وسبعمائة (١٣٦٥ م) .

لي مدمع هتّان ينهل مثل الدرر
قد صير الاجفان ما ان لها من اثر

* * *

حق له يجري دما على طول الدوام
منذ جد في اليسر ناس الى خير الأنام
وعاقني وزري يا صاح عن ذاك المقام

* * *

وسارت الاظعان يحدى بها في السحر
فاستبشر الركبان بقرب نيل الوطر

ولقد مرت بك بعض قطع من شعر ملوك هذه الدولة وادبائها الدالة على تضلعهم وتمكنهم من صولجان دولتي السيف والقلم فراجعها [1] وذكر بعض المؤرخين عناية السلطان ابي حمو الثاني بالعلم واهله فقال : هذا امر يقصر اللسان عن الاحاطة به [2] .

واما العمران فحجتنا فيه ما كانت عليه يومئذ عاصمة المملكة الجزائرية

---

(١) ذكر روبرتسون في كتابه تاريخ شارلكان : ان « د جلسين » رئيس الجيوش الفرنسية واعظم رجال عصره في القرن الرابع عشر الميلادي ـ الثامن الهجري ـ كان امياً ، وان « هريون » اعظم قضاة الدولة كان كذلك امياً ؛ قال وانهم عثروا على عدة قوانين ووثائق صادرة عن اهل الطبقة الاولى من الاعيان يستدل منها انهم كانوا أميين .

(٢) انظر نحلة اللبيب ص ١٦٦ ط الجزائر ١٣٢٢ هـ ١٩٠٤ م

- تلمسان - من كثرة المنشآت وتعدد انواعها على اختلاف اصنافها واشكالها، فهذه قصور شامخة ، وهذه مدارس مؤنقة ، ومساجد فسيحة مزخرفة، وتلك منتزهات جميلة، وهناك دور رفيعة وحصون منيعة، ومصانع عجيبة وحدائق غناء... وكل ذلك مضبوط لدينا فيما حررته مصادر التاريخ الموثوق بها ونطقت به الارقام والاحصاءات الصحيحة الثابتة[1] وزد على ذلك ما ذكروه عن محتويات قصر المشور وما كان عليه من الابداع، وما عثر عليه هنالك من الزلايج والنقوش المزخرفة على الجبس منها ما بقي موجود الى الآن ومنها ما اندثر.

ويذكر اهل الرحلة والسياحة ان عدد مساجد مدينة تلمسان في عهدها الزاهر اناف على الستين مسجداً[2] ، كان من بقاياها ما نشاهده اليوم من هذه العترة الباقية الى اليوم كدلالة على تقدم الحضارة والعمران بالجزائر في ذلك العهد السحيق ، منها هذا الجامع الاعظم الذي انشأه المرابطون في جمادي الثانية سنة ٥٣٠ هـ «مارس ١١٣٦ م » كما هو منقوش بباطن قبة المسجد، على ان مناره متأخر عنه بنحو سبعين سنة ، ثم كان تجديد المنار المذكور على عهد يغمراسن بن زيان مؤسس دولة بني عبد الواد الزيانية ، ويبدو على زخارف ونقوش هذا الجامع انها من صنع نحاتين اندلسيين كما يلاحظ ان محرابه قريب الشبه في شكله وهندسته بمحراب جامع قرطبة. والمسجد الذي أقامه السلطان ابو حمو الثاني على ضريح سيدي ابراهيم (٧٦٤ هـ - ١٣٦٣ م) وهو معروف به الى الآن ، وذلك المسجد البديع الشكل الجميل المنظر الذي انشأه السلطان ابو سعيد عثمان بن يغمراسن الزياني سنة «٦٩٦ هـ - ١٢٩٦ م » وهو المعروف بجامع سيدي ابي الحسن بن يخلف التنسي، اقامه السلطان المذكور كذكرى للامير ابي عامر ابراهيم ، وكان لفرط بهجة هذا المسجد وتفوقه بزخرفته ونقوشه الانيقة حوّله الفرنسيون المحتلون عن وضعيته الدينية والغاية التي انشأ من

---

(١) راجع Marçais W et G les monuments arabes de Tlemcen Paris 1903
Marçais G. manuel d'art Musulman «l'architecture» Paris 1926-27
Tlemcen paris 1950

(٢) Liabbé S.S. L. Bargés. Tlemcen P. 421 Paris 1859

اجلها وصيروه متحفاً للآثار ، ومنها مسجد سيدي الحلوى[1] الجميـــل الذي انشأه السلطان ابو عنــان فارس المريني سنة ٧٥٤ هـ (١٣٥٣م) ؛ وما انشأه والده السلطان ابو الحسن علي المريني بضاحية العبـــاد سنة ٧٤٨ هـ (١٣٤٧م) من تلك المجموعة الاثرية الفنية الثمينة المحيطة بضريح الشيخ ابي مدين شعيب ابن الحسين الاندلسي (٥٩٠ هـ – ١١٩٣م) المحتوية على ذلك الجامع المزخرف الزاهر ، وتلك المدرسة الانيقة والقصر المنيف ؛ ويذكر لنا الشيخ ابو راس المعسكري في كتابه أو قل في شرحه على نظمه الحلل السندسية ان الجامع الاعظم بالجزائر هو ايضاً من مؤسسات بني زيان وان مؤسسه هو ابو تاشفين الاول اقامه بمكانه هذا يوم انتصاره على اعـدائه وخصومه الثعالبة بمتيجة . وهذا خطأ محض لا يقوم عليه دليل ولا حجة فيه ، فلقد سبق ان ذكرنا في تاريخ دولة بني مرين بالجزائر ان هناك جناحاً انشأه السلطان ابو الحسن المريني زيادة في الجامع المذكور[2] وعليه فان الجامع كان موجوداً قائماً قبل قيام دولة بني زيان ؟... واين هذا مما ذكره ابو راس؟... على ان المستفيض الشائع على ألسنة علماء الآثار والتاريخ من الباحثين الافرنج وكما هو مكتوب مدون في مؤلفاتهم ان تاريخ الجامع هذا يعود الى عصر المرابطين (٤٩٠ هـ – ١٠٩٦م) وانه ملحق في شكله وهندسته المعمارية بجـــامع تلمسان المنسوب الى علي بن يوسف بن تاشفين امير دولة المرابطين وذلك هو ما جزم به الدكتور «م، س، ديماند» امين مجموعة الشرق الادنى بمتحف «الميترو بوليتان» في عاصمة نيويورك الامريكية ، حيث قال في معرض كلامه عن تاريـخ فن الحفر والنقش على الخشب بشمال افريقية :

انه لا تزال بشمال افريقية عدة منابر هامة ترجع الى القرنين الحادي عشر والثاني عشر واقدم هذه المنابر منبر المسجد الجامع بالجزائر الذي بناه المرابطون سنة ١٠٨٢ (٤٧٤ هـ) وتتكون زخارفه من حشوات مربعة تزينها زخارف هندسية متشابكة وأشجار نخيلية وتزاويق في اسلوب مغربي اسباني ، حمله الى

(١) انظر ترجمته في البستان ص ٦٨ ط الجزائر ١٣٣٦ هـ - ١٩٠٨ م.
(٢) راجع المسند الصحيح الحسن لابن مرزوق الخطيب «مخطوطة»

شمال افريقية الفنانون الاندلسيون » (١) ولا يزال هـذا المنبر موجوداً الى اليوم بمكانه من الجامع المذكور تقام عليه الخطب الجمعية وفي الاعيـاد ، ولا يزال نص تاريخه مكتوباً على بابه بالخط الكوفي المشتبك البـارز هكذا . « بسم الله الرحمن الرحيم تم هذا المنبر يوم فاتح رجب من سنة سبع واربعمائة عمل محمد » وهو ما يوافق من التاريخ الشمسي (٤ دسمبر ١٠١٦ م) أي في عهد دولة صنهاجة ، وهناك من يزعم ان تاريخ المسجد هو ما ذكرناه من تاريخ المنبر ؟.. وجزم الدكتور غوستاف لوبون بأن المسجد الجامع بالجزائر هذا قد اقيم في القرن العاشر للميلاد ، وقد اصابته يد التغيير في مختلف الازمنة (٢) . وأياً ما كان فلا ارى صحة ما ذكره ابو راس من نسبة بناء المسجد الى ابي تاشفين الزياني ؟..

أجل هناك بالجامع المذكور لوحة رخامية ثابتة عند باب منارة منحوت فيها بالخط المغربي البارز ذكر اسم السلطان ابي تاشفين الاول ولكن ذلك هو تاريخ المنـار منه فقط لا المسجد ، ودونك نص النقش الموجود فيهـا حرفياً : « لما تم امير المسلمين ابو تاشفين أيده الله ونصره منـار الجزائر في مدة اولها يوم الاحد السابع عشر من ذي قعدة من عام اثنين وعشرين وسبعمائة؛ وكان تمـامها وكمالها في غرة رجب من عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة نادا المنار المذكور بلسان حاله الحالي أيُّ منار حاله كحالي ؟..

أقام امير المسلمين تفافحاً — كساني بها حسناً وتمم بنياني
وقابلني بدر السماء وقال لي — عليك سلامي ايهـا القمر الثاني
فلا منظر يسبي النفوس كمنظري — ألا فانظروا حسني وبهجة تيجاني
فزاد إلهي رفعـة لمتممي — كما زاد في شأني ورفـع اركاني
ولا زال نصر الله حول لوائه — رفيقـاً له تالٍ وحسناً له ثاني

---

(١) الفنون الاسلامية ص ١٢٩ ط مصر ١٩٥٤ م .
(٢) حضارة العرب ص ٣٢١ ط القاهرة ١٩٤٨ م .

ولعل الشيخ أبا راس اطلع على هذه الكتابة المنحوتة بهذه الرخامة فظن انها تاريخ المسجد ؟..

على ان جدار القبلة منه والقبة القائمة فوق محرابه هما من منشآت العهد التركي في القرن الحادي عشر الهجري – السابع عشر الميلادي كما يدل على ذلك فن المعمار التركي ولا سيما المحراب وساريتاه والقبة . وانفق على بنائهما المفتي المالكي في التاريخ على حسابه الخاص طيب الله ثراه ، وذلك اثر حادثة حربية وهجوم بحري ضد مدينة الجزائر فسقطت القنابل على جدار القبلة من المسجد فتهدم الصف الامامي منه فجدده المفتي من ماله الخاص بعد بيع أملاكه .

ويذكر عن السلطان ابي تاشفين الاول انه كان من أشد ملوك هذه الدولة عناية وولوعاً بفن المعمار فانه قام بتأسيس كثير من المعالم والمعاهد ، وأغلبها اليوم أطلال دارسة ، منها مدينة « تامزيزدِكْت » بشمال الوادي الكبير – سومام – قرب محطة السكة الحديدية من مدينة القصر ، وسماها كذلك حصنهم الأقدم بالجبل قبالة وجدة حيث امتنع به جدهم يغمراسن في حربه ضد السعيد المريني ونازله من هناك وهلك عليه قال ابن خلدون : ان مكانها بسوق الخميس على وادي بجاية .. وجمع – ابو تاشفين – الأيدي على بنائها من الفعلة والعساكر ، فتمت الأربعين يوماً ، وسموها (تامزيزدكت) باسم الحصن القديم الذي كان لبني عبد الواد قبل الملك بالجبل قبلة وجدة ، وأنزل بها عسكراً يناهز ثلاثة آلاف ، وأوعز السلطان الى جميع عماله ببلاد المغرب الاوسط بنقل الحبوب اليها حيث كانت والأدم وسائر المرافق حتى الملح [1] .. انشأها ابو تاشفين سنة ٧٢٦ هـ (١٣٢٥ م) وجعلها قلعة حصينة ومركزاً حربياً لمقاومة الحفصيين ببجاية ، اسكن بها نحو ثلاثة آلاف ومائتي فارس وشحنها بالميرة ؛ ثم كان تقويضها سنة ٧٣٣ هـ (١٣٣٢ م) على يد خصومه الحفصيين بمؤازرة مرين ، ومثلها بتلمسان بناية دار الملك ودار السرور وأبي فهر ، والمدرسة التاشفينية التي يقول المقري في شأنها : « وهي

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٠٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

من بدائع الدنيا » .. وانظر الى هذه الابيات الرائقة التي رآها المقري مكتوبة حول دائرة عين جارية بهذه الدراسة تعبر على لسان حال هذه العين فنقلها لنا اداء لامانة العلم .

انظر بعينك بهجتي وسنائي — وبديع اتقاني وحسن بنائي
وبديع شكلي واعتبر فيما ترى — من نشأتي بل من تدفق مائي
جسم لطيف ذائب سيلانه — صاف كذوب الفضة البيضاء
قد حف بي ازهار وشي نمقت — فغدت كمثل الروض غب سماء[1]

وكلها تلاشت وانعدمت الا الحوض او الصهريج الذي ترى بقية منه غربي تلمسان البالغ طوله مائتي وعشرين متراً وعرضه مائة وخمسين متراً في عمق ثلاثة امتار فانه حافظ على وجوده الى الآن وكان انشاؤه حوالى سنة ٧١٦ و ٧٢٨ هـ «١٣١٣ – ١٣٣٦ م » وقد كان يستعمل هذا الحوض للسباق بين الزوارق والقوارب في ايام الاعياد والمواسم والاحتفالات الملكية كما هو مستعمل للسقي والري ، ويقال ان انشاءه كان لاجل تمثيل وقعة قتال بحرية للسلطان ؟...

وعندما حطم محمد بن عبد القوي مدينة البطحاء جدد بناءها السلطان عثمان بن يغمراسن سنة ٧٠١ هـ – ١٣٠١ م بايعاز سلطان مرين يوسف بن يعقوب .

كما يذكر عن ابي حمو الأول انه اصلح من مدينة تلمسان ما كان تهدم منها ايام الحصار المريني الطويل وانه أحدث بها سنة ٧١٧ هـ ١٣١٨ م قصبة خصها بسكنى من عنده من رهائن ابناء زعماء القبائل الذين هم تحت طاعته وامره وهم كثيرون ؛ فأنشأ لهم هذه القصبة على شكل مدينة محتوية على جميع المرافق الضرورية والصناعات وجميع المهن التي تنبني عليها حياة المدن من أسواق ومساجد ومتاجر الخ ... وأذن لساكنيها بالزواج فكانت تعج

---

(١) نفح الطيب ج ٨ ص ١٥٦ ط القاهرة ١٣٦٩ هـ – ١٩٤٩ م

بأصحابها وتضج ضجيج العواصم الكبرى وصارت بذلك كما يقول ابن خلدون تماثل بعض الأمصار العظيمة فكانت من اغرب ما يحكى في العصور عن سجن.

وعلى هذا المنوال كان ابتناء زاوية الشيخ ابراهيم التازي بوهران ٨٦٦ ﻫ (١٤٦٢ م) فانها كانت علاوة على ما هو معهود في الربط والزوايا من كثرة البيوت والمقاصر وتعديد مساكن اللاجئين والفقراء الخ ... فإن فيها أيضاً مدارس ومساجد وحمامات وصهاريج وبساتين ومخازن وخزائن كتب وسلاح الخ... فاذا كانت هكذا بنايات الشعب والرعية فكيف تكون أبنية الملوك ؟.. وذلك ما نجد الجواب عنه عند ابن خلدون إذ قال أنها (كانت لا يعبر عن حسنها ، اختطها السلطان أبو حمو الاول وابنه ابو تاشفين واستدعى لها الصناع والفعلة من الاندلس لحضارتها وبداوة دولتهم يومئذ بتلمسان فبعث اليها السلطان أبو الوليد - اسماعيل الثاني بن يوسف - صاحب الاندلس بالمهرة والحذاق من أهل صناعة البناء بالاندلس فاستأجروا لهم القصور والمنازل والبساتين بما أعيا على الناس بعدهم أن يأتوا بمثله ، فأشار ونزمار على السلطان أبي العباس - المريني ٧٧٦ - ٧٨٦ ﻫ (١٣٧٤ - ١٣٨٤ م) - بتخريب هذه القصور وأسوار تلمسان انتقاماً بزعمه من أبي حمو وأخذاً بالثأر منه فما اعتمده من تخريب قصر الملك بتازي وتخريب قصره هو بمرادة فأتى عليها الخراب أسرع من لمح البصر ... وطار الخبر الى السلطان ابي حمو وهو بمكانه من تاجحمومت فأغذ السير الى تلمسان ودخلها وعاد الى ملكه بها وتفجع لتلك القصور بما ذهب من رونق حسنها وراجع دولته بني عبد الواد وسلطانهم بتلمسان [1] . وان هذه المباني والآثار كما يقول الدكتور غوستاف لوبون : تظهر بين أضمن مصادر التاريخ ، فهي كتب لا تكذب ابداً ، وهي تشتمل على لغة بالغة الوضوح ، بيد انه لم يبدأ في إدراكها في غير أيامنا .

ولقد ضبط أهل الاحصاء ما كان من منازل السكنى بوهران قبل الاحتلال الاسباني بعشر سنوات فبلغ الى ستة آلاف دار ؛ أما عدد المتاجر والحوانيت

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٤٣ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ .

فإنها أنافت على ألف وخمسمائة متجر ، ويضاف الى ذلك طبعاً عدد مناسب من الفنادق والحمامات والافران والرحاب والقاعات والمصانع والمطاحن والأسواق والمساجد والمدارس وهلم جراً مما تقتضيه مرافق الحياة وضبط ما كان من منازل السكن ببجاية فبلغ الـ ٨٠٠٠ منزل ومن الأنفس فكان ٣٠٠٠٠ نسمة . وقد يكشف لنا فن المعمار أحياناً عن عناصر التاريخ التي لا تحدث عنها الكتب .

قال يحيى بن خلدون وهو ممن عاش بهذا العصر الذي نؤرخه ولابس ملوكه ، يصف تلمسان : « وبها للملوك قصور زاهرة اشتملت على المصانع الفائقة ، والصروح الشاهقة والبساتين الرائقة مما زخرفت عروشه ونمقت غروسه ، وتناسبت أطواله وعروضه فأزرى بالخورنق والسدير » وبالجملة فان تلمسان أصبحت كما يصفها المؤرخ الكبير اخوه عبد الرحمن : أعظم أمصار المغرب ورحل اليها الناس من القاصية ونفقت بها أصناف العلوم والصنائع فنشأ بها العلماء واشتهر فيها الأعلام وضاهت أمصار الدول الاسلامية والقواعد الخلافية [1] .

وذكروا مثل ذلك عن مدينة وهران بما فيها من المؤسسات العامة ومراكزها التجارية المتنوعة ومساجدها ومنتزهاتها الجميلة ومدارسها الشبيهة بمدارس غرناطة واشبيلية كما وصفها الكاتب الاسباني « الفاريز قوميز Alvarés Gomés »

انهيار دولة بني عبد الواد الزيانية

حياة الدول أو الامم هي كحياة الافراد كل يعاني منها ما يعانيه الآخر من تقلبات الزمان وضرباته وتنقلاته من حال الى حال وتطوراته المستمرة الى غير ذلك من النواميس والعوامل الطبيعية فتولد وتنمو وتدور ايامها ما بين سعادة وشقاء وراحة وعناء ، وبؤس ورخاء وقوة وضعف وارتفاع وانحطاط وحياة وموت ، سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٨ ط بولاق ١٣٨٤ هـ

واذا علمت كيف كانت وضعية الجزائر السياسية والاجتماعية في اواخر عهد الدولة الزيانية من التشتت والاضطراب وما أحاط بها يومئذ من الفتن والمشاكل المتنوعة المهددة ، بسبب تضافر الدول المجاورة على محقها وتسابقها الى محوها والقضاء عليها ، مع اعتداءات القبائل العربية والعشائر البربرية المتكررة ، وتزاحم المشيخة والقادة على الرئاسة وتتبع مصالحهم ومنافعهم الخاصة بدون مبالات ولا التفات الى مصالح الشعب والوطن ، فاذا علمت كل ذلك تيقنت وان الدولة الجزائرية يومئذ أشرفت على الهرم لا محالة بل انها ولا ريب ذاهبة الى التدهور والزوال .

وزد على ذلك مضايقات الاتراك والاسبان وحملاتهم وحروبهم المتوالية بالجزائر مع تطلع دولة الاشراف السعيديين الى امتلاكها وضمها الى مملكتها المغربية مع انهماك الدولة الزيانية يومئذ واستغراقها في حروبها الداخلية لرد هجمات المنشقين وقمع طوائف الثائرين ودفع غاراتهم المتكررة ...

فاذا استحضرت ذلك كله ودرسته على ضوء ما قدمناه لك من الحوادث والاحداث المنسقة الآخذة برقاب بعضها بعض، ادركت النتيجة المحتمة والعاقبة المنتظرة لهذه الدولة او غيرها ممن كان على شاكلتها ووضعيتها هذه ... وذلك لا محالة غاية كل من احاطت به مثل هذه العوامل الهدامة وتدافعته الاقدار الى هاتيك الاطوار، وطرحته بين مخالب تلك الزوابع والزعازع الفتاكة .

واذا اضفت الى ذلك ما كان يومئذ بين ملوك هذه الدولة نفسها من التنافس والتزاحم على العرش والاستنصار بالاجنبي من بعضهم بعض مع انقسامهم وانشغالهم بانفسهم عن العدو ، هان عليك حينئذ الحكم بالمصير ...

وكان لزاماً ان تتساقط اوصال هذه الدولة وتتفكك وحدتها وتنحط عن قمة مجدها الى الحضيض صريعة منكسرة الجناح ... وفعلاً وقعت من علياء مجدها بيد الاتراك العثمانيين سنة ٩٦٢ هـ (١٥٥٤ م) كما سيرد عليك تفصيله فيما نقصه عليك في محله من تاريخ الاتراك بالجزائر .

ولاة الجزائر وزعماؤها

اشتهر من ولاة هذه الدولة وزعمائها ورؤساء العشائر وقادتها وشيوخ القبايل وسادتها : الرئيس القاضي ابو محمد عبدون الحباك حاجب يغمراسن بن زيان ، ومن اعيان الوزراء والحجاب يحيى بن مجن او - مقن - ؟ وأخوه عمروش وبعده ولداه : يحيى وعمر ، ويعقوب بن جابر ورحو بن محمد الخراسانيان ، ولقد كان تدويخ مدينة تدلس واطاعتها لبني زيان على يد جابر الخراساني هذا سنة ٧٥٣ ﻫ (١٣٥٢ م) ، ومنهم الوزير غانم بن محمد الراشدي ، ومعروف ابن الفتوح التجاني، ويحى بن موسى الجمي ومحمد بن ميمون بن الملاح وولده من بعده الاشقر فولد ولده ابراهيم ثم عمه علي بن عبد الله .

كان آل الملاح هؤلاء من بيت مجد وحسب من أهل قرطبة الاثرياء، اكتسبوا ثروتهم بطريق الزراعة والفلاحة ، واشتهروا بالصدق والعفاف وحفظ الامانة والتدين فاختارهم ملوك هذه الدولة للعمل بدار الضرب في تلمسان ، وعرف من بينهم اثنان : عبد الرحمن بن محمد الملاح متولي الاشغال على عهد يغمراسن ابن زيان، ومحمد بن ميمون الوزير ، ثم كان انقراض هذه الاسرة يوم اغتيال السلطان ابي حمو الاول سنة ٧١٨ ﻫ (١٣١٨ م) .

ومن الوزراء العلج القطلاني المعروف بالشدة وشراسة الاخلاق ، ولما حج سنة ٧٢٥ ﻫ (١٣٢٥ م) اناب عنه الحاج ابا عبد الله محمد بن حوتية ثم اعتقل ومات في السجن ، ومنهم الحاج ابو عمران بن موسى بن برغوث اللؤلؤي وابو عبدالله محمد بن عامر الوهاصي حاجب السلطان ابي سعيد عثمان ، وابو عبدالله محمد بن سعود حاجب ابي زيان الاول وابو محمد عبدالله بن مسلم الزردالي وزير ابي حمو الثاني، ويحيى بن داود بن علي من آل ابن مقن وعبدالله الزردالي المشهور بالبسالة والاقدام، ومنهم منصور بن ابي غانم آخر وزراء الدولة الزيانية واخوه عبدالله سفير الدولة الى اسبانيا .

ومن اصحاب الاشغال : ابو زكريا يحيى بن محمد؛ وابو المكارم منديل بن

المعلم وابو زيد عبد الرحمن بن مخلوف الشامي، وعبد الرحمن بن النجار صاحب الاشغال ومدبر مملكة السلطان محمد بن ابي ثابت .

ومن الكتاب العسكريين والمدنيين أيضاً : محمد بن غالب قتل يوم ثورة النصارى على السلطان يغمراسن بن زيان . فتولى بعده ابو عبدالله محمد بن جدار، ثم ابو بكر محمد بن عبدالله بن خطاب المرسي المتوفي يوم عاشوراء ٦٨١ هـ (٢٠ افريل ١٢٨٢ م) . وابو عبد الله محمد بن المعلم، وابن خميس شاعر الجزائر واديبها الكبير في القرن السابع، وابو عبد الله محمد بن المرقوم الهسكوري، وابو عبد الله بن مدورة، وعبد الواحد بن محمد الزواق، نكب في دولة الاخوين السلطان ابي سعيد وابي ثابت، فخلفه علي بن محمد بن سعود، وابو عبد الله محمد بن علي العصامي، واحمد بن الحسين المديوني، وابو عبد الله محمد القيسي المشهور بالمشوش، ثم نقل هذا الى أمانة المال على عهد ابي حمو الثاني.

وفي سنة ٧٦٩ هـ « ١٣٦٨ م » استدعى السلطان ابو حمو الثاني لحجابته الفيلسوف العالم المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون وكتب اليه السلطان بخطه بتاريخ ١٧ رجب ٧٦٩ هـ – (٥ مارس ١٣٦٨ م) : (الحمد لله على ما انعم والشكر لله على ما وهب ليعلم الفقيه المكرم ابو زيد عبد الرحمن بن خلدون حفظه الله، انك تصل الى مقامنا الكريم، لما اختصصناكم به من الرتبة المنيعة، والمنزلة الرفيعة، وهو قلم خلافتنا والانتظام في سلك اوليائنا، وقد اعلمناكم بذلك، وكتب بخط يده عبد الله المتوكل على الله موسى بن يوسف لطف الله به وخار له) [١] وكان ابن خلدون يومئذ مقيماً عند امير بسكرة : احمد ابن يوسف بن مزني فاعتذر للسلطان. فحالت بينهما العوائق وعاقت المؤرخ الموانع فاناب عنه اخاه يحيى فشغلها الى ان قتله ابو تاشفين الثاني غيلة في رمضان – ديسمبر – سنة ٧٨٠ هـ (١٣٧٨ م) وذلك اثر انصرافه من صلاة التراويح بالقصر متوجهاً الى منزله وقد كان ذلك بسعاية الشرطي موسى بن يخلف لدى

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٤٢٠ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

السلطان نفاسة على يحيى وحسداً له عن المكانة التي احرزها في الحكومة [1]

وتجددت دعوة ابي حمو لابن خلدون سنة ٧٧٦ ﻫ (١٣٧٥ م) ليقوم له في هذه المرة بالسفارة لدى عرب الدواودة؛فيستألفهم ويستميلهم اليه، فامتنع وآثر يومئذ التخلي عن السياسة والانقطاع للدرس والبحث والتأليف فنزل بأهله وولده قلعة ابن سلامة ، او اولاد سلامه [2] فأقام بها اربعة أعوام اكمل فيها تأليف مقدمة تاريخه الحافلة ، ثم استجاب بعد ذلك لطموحه السياسي البعيد وغريزته الوثابة الجامحة فلبى دعوة ابي حمو واخذ في بث دعوته في البلاد ونشر مناقبه بين اهل بجاية وما حولها من القبائل عاملاً على تحويلهم من جانب ابي العباس الحفصي الى ناحية السلطان ابي حمو .

خرج ابن خلدون صحبة امير بسكرة ومن استمالهم اليه من الزعماءومشائخ العرب في جموعهم الكثيرة متوجهين الى نصرة السلطان ابي حمو ، وكان اللقاء بينهم وبين السلطان في مدينة البطحاء – البسيط الواقع بين مدينة غليزان ووادي شلف – فلازمهم ابن خلدون مدة الى ان اظلهم عيد الفطر هناك

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٤٠ ط بولاق ١٢٨٤ ﻫ .

(٢) المعروفة الى الآن بقلعة تاوغزوت ، تقع على نحو ستة كيلومترات بالجنوب الغربي منمدينة فرندة الواقعة على وادي التحت بمقاطعة وهران من بلاد الجزائر ، كما تبعد ايضاً عن مدينة تيارت الحالية بالجنوب الغربي بتسع مراحل ، وخطأ ما ذكره الاستاذ محمد عبد الله عنان في تعيين موقع هذا المكان حيث قال : (تقع هذه المنطقة جنوب اقليم قسنطينة حول مدينة تاوغورت ـ التي هي في الحقيقة تقرت لاتاوغورت على نحو مائة ميل من حدود تونس الغربية ـ (ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ص ٥٩ ط القاهرة ١٩٥٣ م) والصواب هو ما ذكرناه ، ولعل ذلك وقع للاستاذ من تشابه او تقارب الاسمين في النطق ؟ وكان مسكن ابن خلدون منها بقصر ابي بكر بن عريف كبير بني سويد ، وهو من احفل القصور واوفقها ، اقام به مؤرخنا الجليل اربع سنوات استغرق منها مدة خمسة اشهر فقط اكمل فيها تأليف مقدمة تاريخه العجيبة النفيسة ، فأتمها في منتصف سنة ٧٧٩ ﻫ ـ ١٣٧٧ م ثم شرع في تدوين تاريخ البربر وعمره آنذاك اثنان واربعون سنة . واما سلامة الذي تنسب اليه القلعة المذكورة فهو سلامة بن علي بن نصر سلطان رئيس بني يدللتن من بطون توجين ، سكن تاوغزوت واختط بها القلعة فيما بين اواخر القرن السادسواوائل السابع الهجري . فنسبت اليه وكانت من قبل رباطاً لبعض العرب المنقطعين من بني سويد ، انظر ابن خلدون ج ٧ ص ١٦٣ ط بولاق ١٣٨٤ م .

فخطب ابن خلدون وصلى بالسلطان صلاة العيد ثم انشده عند انصرافه من المصلى قصيدة في التهنئة بالعيد وفيها حث وتحريض للسلطان ، طالعها :

هذي الديار فحيهن صباحا ‏ ‏ ‏ ‏ وقف المطايا بينهن طلاحا
لا تسأل الاطلال ان لم تروها ‏ ‏ ‏ ‏ عبرات عينك واكفا ممتاحا
فلقد اخذن على جفونك موثقا ‏ ‏ ‏ ‏ ان لا يرين من البعاد شحاحا
ايه على الحي الجميع وربما ‏ ‏ ‏ ‏ طرب الفؤاد لذكرهم فارتاحا

ثم بعد حين تغير نظر ابن خلدون الى ابي حمو فانقلب على صاحبه وتحول الى السلطان عبد العزيز بن السلطان ابي الحسن المريني ملك المغرب الاقصى وانتظم في سلك الحملة التي بعث بها الملك لغزو تلمسان ومحاربة ابي حمو صديق ابن خلدون بالامس .. فكانت هذه المرة الثانية التي احرز فيها ابن خلدون على رتبة سياسية سامية لدى الحكومة الجزائرية فكانت الاولى ببجاية وهذه بتلمسان وكان على قيادة الجيش الزياني ورئاسة الجند يحيى بن موسى السنوسي الذي طالما تولى القيادة فاحتوى عليها غلاباً ، وهو الذي فتح تونس سنة ٧٢٩ هـ (١٣٢٩ م) وكان من قبل عاملاً للزيانيين على ولاية شلف الممتدة من حدود مدينة دلس الى المدية ، وكبير القادة موسى بن علي الغزي ؛ والقائد عيسى بن مزروع الياتكشي ، والامير ابو سرحان مسعود الزياني ، واجتمع لموسى الكردي كل من منصبي القيادة والحجابة معاً ، وكان يعيش بن راشد الجني قائداً بالجزائر ودلس . وابن احشمى بتنس ، وعطية بن موسى الركاب قائداًبشلف،وواتفل بن عبو بن حمادقائداً بلمدية، كما تولى القيادة بها ايضاًيوسف ابن حسين التجاني، وقائد بني راشد : زيان بن ابي يحيى بن ونزمان ، وقائد منداس ووانشريس : ابراهيم المصوجي ، وقائد وجدة : موسى بن خالد بن محمد ، وقائد ندرومة : زكرياء بن يخلفتن المطغري ، وقائد سجلماسة : عبد الملك العبد الوادي المقتول يوم فتح المرينيون سجلماسة ٦٧٣ هـ (١٢٧٤ م) والزعيم يحيى عامل ثغر مستغانم ، وابن اخيه داود كبير اهل الشورى ؛ وكلاهما من ابناء عمومة السلطان يغمراسن بن زيان ومات الزعيم مغترباًبالاندلس

اثر انتفاضه على يغمراس وكان المنتصر بن أبي حمو الثاني والياً على مليانة والجزائر ، كما تولى منصب مليانة ايضاً الامير محمد بن يغمراسن ، وكان على بجاية ابو هلال عياد المتوفي سنة ٦٧٣ ﻫ (١٢٧٤م) وعبد الرحمن بن رضوان وصي العرش الزياني ايام المولى محمد ، والقائد احمد بن سليمان ، والقائد ابراهيم. والقائد ابو الاخراص اسير الاسبان .

واشتهر من شيوخ العرب ورؤسائهم يومئذ سليمان بن موسى اليزيدي رئيس بني يزيد ، واستعمل السلطان ابو حمو الاول على توجين الحشم بوانشريس : يوسف بن حيون الهواري واعطاه الطبل والبند ، كما استعمل حاجبه مسامحاً بشلف وبلاد مغراوة وكان راشد بن محمد المغراوي على ناحية وادي شلف .

وكان على رئاسة القبائل العربية كل من عبدالله بن شيقر ،وسعد بن العباس، وزيان بن يعقوب ، وزيري بن رحو ، ومنديل بن ابي يحيى الصغير وكانت رئاسة منطقة ما بين مدينة قسنطينة والقل والزاب والحضنة للدواودة ، وواحات تقرت وواد ريغ لبني جلاب ، ورئاسة بلاد القبائل — زواوة — لسلطان كوكو المقيم بقرية آيت يحيى على بعد ثمانية كيلوميترات شرقي بلدة ميشلي — او عين الحمام على الاصح —

وكانت رئاسة مشيخة الجزائر لبني علان ، ثم انتقلت منهم الى بني سالم ابن ابراهيم كبير الثعالبة المتغلب على بسيط متيجة ومدينة الجزائر، ومنهم سالم التومي آخر ولاة مدينة الجزائر على عهد بني زيان . وكانت ولاية سهول شلف لبني ثابت بن منديل المغراوي . وقد كان ثابت هذا على ولاية برشك فأوقع به السلطان ابو سعيد لغدر صدر منه سنة ٦٩٣ﻫ (١٢٩٣)، ومنهم اخوة ثابت بن منديل : محمد وعمر وعابد ، وكلهم تولى رئاسة مغراوة ؛ وكان من مشمول هذه الولاية مدينة مليانة وتنس ومازونة وبرشك وشرشال، وآخر من تولاها منهم علي بن هارون ٧٧٤ ـ ٧٧٦ ﻫ (١٣٧٢ ـ ١٣٧٤م) حاصره ابو تاشفين بن ابي حمو واخرجه من ارض مغراوة في ربيع الاول ـ اوط ـ من التاريخ المسطور فلحق ببجاية ثم ارتحل عنها الى الاندلس

وبذهابه انقرضت امارة بني منديل من مغراوة وكان على ولاية وهران كعامل ومدبر لشؤونها على عهد السلطان احمد المعتصم بن ابي حمو المسمى محمد الزكاجي

وكانت رئاسة واركلان – بني ورجلان – في آل بني ابي عبدل .ويعرف عندهم الرئيس بلقب السلطان ، ورئاسة توجين في آل عبد القوي بن العباس من بني منكوش وفي بني تيغري كذلك واولاد عزيز أيضاً .

وكانت رئاسة قلعة تاوغزوت قرب فرندة في بني سلامة بن علي بن نصر الى ان خربها ابو حمو الثاني سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٨ م) ومن رؤساء برشك زيرم ابن حماد المكلاتي المستبد بها سنة ٦٨٣ هـ (١٢٨٤ م) فقتله بنو عبد الواد سنة ٧٠٨ هـ (١٣٠٨ م) وكان قتله على يد عبد الرحمن بن الامام ، وصار امر برشك الى السلطان ابن حمو الاول .

واشتهر من السفراء العلامة ابو عبدالله محمد الشريف التلمساني ؛ وداود بن بجن، وعبدالله بن محمد بن ابي غانم ، في آخرين لم تحضرني الآن اسماؤهم ...

وكان فيما اشتهر من الولاة على عهد السلطان ابي حمو الاول : امير سعيدة معروف الكبير بن أبي الفتـــوح ، وعطية بن موسى عامل ولاية شلف ، واشتهر من الأسر الرئيسية على قبائل بني يرناش ـ وهم من اوفر قبائل توجين واعزهم جانباً وأبعدهم صيتاً – آل مهيب بن نصر وابناؤه من بعده ومنهم نصر بن علي طال أمد أمارته في قومـه وتغلب على ما بأيدي بني عبد الواد وبعد صيته وصيت ابنائه واشتهروا بالبطولة والحرب حتى قيل : فما منهم الا صاحب حرب او مقتب .

ملوك الدولة الزيانية

الدور الثالث والاخير

	تاريخ التولية
ابو زيان احمد « الثاني »	٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م
ابو محمد عبدالله « الثاني »	٩٢٤ هـ = ١٥١٨ م
ابو السرحان المسعود	٩٢٥ هـ = ١٥١٩ م
ابو محمد عبد الله « للمرة الثانية »	؟ . . . = ؟ . . . .
ابو عبد الله محمد « السابع »	٩٣٠ هـ = ١٥٢٤ م
ابو زيان احمد « الثالث »	٩٤٩ هـ = ١٥٤٢ م
ابو عبد الله محمد « السابع » – للمرة الثانية –	٩٥٠ هـ = ١٥٤٤ م
ابو زيان احمد « الثالث » – للمرة الثانية – عامل عثماني –	٩٥٠ هـ = ١٥٤٤ م
الحسن بن عبد الله « الثاني »	٩٥٧ هـ = ١٥٥٠ م

استيلاء صالح رئيس باشا على تلمسان نهائيا ٩٦٢ هـ – ١٥٥٤م

من مشاهير الجزائر

ابو الفضل محمد المشدالي

٨٦٤ هـ (١٤٦٠ م)

هو عبقري زمانه وعلامة عصره وآوانه الشيخ ابو الفضل محمد بن محمد بن ابي القاسم المشدالي – بفتح الميم والشين المعجمة وتشديد الدال ، نسبة الى مشدالة احدى قرى بجاية – او هي بطن من بطون زواوة .

ولد المترجم ببجاية ليلة النصف من رجب سنة عشرين وقيل احدى أو اثنتي وعشرين وثمانمائة للهجرة [١٤١٧ م] في بيت علم وصلاح ، مشهور من قبل بانقطاع اهله الى التدين والتقوى وخدمة العلم ، فكان ممن ذاع صيته من العلماء من آل المشدالي بهذا البيت : ابو علي ناصر الدين المشدالي ، وابو موسى عمران المشدالي ووالد المترجم عالم بجاية وخطيبها ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم المشدالي ، وشقيقه محمد بن محمد المشدالي ...

نشأ ابو الفضل على غرار اسلافه شغوفاً بالادب والعلم والحكمة ، متوقد الذهن ملتهب الذكاء ، واعياً قوى الحافظة ، أخذ القرآن الكريم برواياته السبع عن والده وحفظه في سن مبكرة من صباه تدعو الى الدهشة والاعجاب فلقد روى انه ابتدأ حفظ القرآن ببجاية في السنة الخامسة من عمره واكمل حفظه في سنتين ونصف ، بل ذكر الرواة انه حفظ سبح قبل ان يتهجي بغير

اقراء له وانما هو بسماعه ممن يدرسه [1]

وكان ممن أخذ عنهم القراءات الشيخ الامام ابو عبدالله محمد بن ابي رفاع ، وقرأ لنافع عن الشيخين هرون المجاهد وابي عثمان سعيد العيسوي وغيرهما ، واكب كذلك على حفظ المتون ودواوين الادب صغيراً فاستظهر منها الشاطبيتين ورجز الخراز في الرسم والكافية والشافية ، والخلاصة ، ولامية الافعال ، والجل من كتاب التسهيل كلاهما لابن مالك ، ومتن ابن الحاجب الفرعي ، والرسالة ، وارجوزة التلمساني في الفرائض ونحو الربع من مدونة سحنون ، وطوالع الانوار في اصول الدين للبيضاوي ، ومتن ابن الحاجب الاصلي وجمل الخونجي والخزرجية في العروض وتلخيص ابن البنا في الحساب وتلخيص المفتاح وديوان كل من الشعراء الخمس : امرىء القيس والنابغة الذبياني وزهير ابن ابي سلمى وعلقمة الفحل وطرفة بن العبد .

ثم اخذ في البحث والدرس والتفهم لما حفظ من كتب العلم والادب فاختلف الى المشائخ ولازم منهم الشيخ ابا يعقوب يوسف الريغي فأخذ عنه علم الصرف والعروض ، ثم اخذ عن ابي بكر التلمساني فنون اللغة والمنطق والاصول والميقات وعن ابي بكر بن عيسى الوانشريسي اخذ الميقات ايضاً ثم على يعقوب التيروني النحو ؛ ثم على ابي اسحاق ابراهيم بن احمد بن ابي بكر في النحو والمنطق ، ثم على موسى بن ابراهيم الحسناوي في الحساب ثم الحساب ايضاً مع الصرف والنحو والاصلين والمعاني والبيان وعلوم الشريعة من تفسير

---

(١) يرى دارس تاريخ الحضارة والثقافة الاسلامية في مختلف بلاد العالم الاسلامي ان مثل هذا النوع من النبوغ والذكاء وسرعة الحفظ في مقتبل العمر كان معروفاً به كثير من العلماء المتقدمين كابن سينـاء فانه اتقن علم القرآن والادب وحفظ اشياء من اصول الدين وحساب الهندسة والجبر والمقابلة وعمره عشر سنين ، وحفظ قتادة القرآن في سبعة اشهر ، وأتم سهل بن عبد الله التستري حفظ القرآن وعمره ست او سبع سنوات ، واكمل تاج الدين الكندي القراءات العشر وله عشرة اعوام ، وذهب عمر بن احمد بن العديم الى المكتب وعمره سبع سنين وختم القرآن وله تسع سنين وقرأ بالعشر وله عشرة سنين ، وحفظ الامام الشافعي القرآن وهو ابن سبع سنين وحفظ الموطأ وله احدى عشرة سنة . . . انظر ابن خلكان ج ١ ص ١٩١ والعقد الفريد ج ١ ص ٢٦٧ والاحياء ج ٣ ص ٥٩ والدارس ج ١ ص ٤٨٣ – ٤٨٤ ومعجم الادباء ج ٦ ص ٣٦

وحديث وفقه على والده ابي عبد الله ثم الاصلين على ابي الحسن علي بن ابراهيم الحسناوي – لعله اخو موسى المتقدم الذكر ؟

ويذكر عن ابيه انه امره بمطالعة غزوة بدر ليحاضر بها في الميعاد فحفظها المترجم برمتها من سيرة ابن اسحق بما فيها من الاشعار وحاضر بها من العشاء الى نصف الليل واصبح فساقها حتى بهر الحاضرين .

ولما كان عليه الشيخ من الطموح الى ارتقاء المعالي والرغبة الجامحة في نيل مقام اكابر العلماء تاقت نفسه الى التبحر والتعمق في العلم فتعلقت همته بالرحلة والتغرب للقاء المشيخة كما هي سنة السلف في ذلك ؛ فارتحل من بلده الى تلمسان سنة ٨٤٠ هـ (١٤٣٦ م) وهناك اجتمع باهل النظر والفضل من حضنة العلم واولي العرفان ، وكان من اشهر من اخذ عنهم يومئذ من علمائها عشرة : ابن مرزوق الحفيد فاخذ عنه التفسير والحديث والفقه والاصلين والادب بفنونه والمنطق والجدل والفلسفيات والطب والهندسة ، واخذ عن ابي القاسم ابن سعيد العقباني الفقه واصول الدين ، وعن ابي الفضل بن الامام التفسير والحديث والطب والعلوم القديمة – الحكمية – والتصوف ، وعن ابي العباس احمد بن زاغو التفسير والفقه والمعاني والبيان والحساب والفرائض والهندسة والتصوف ، واخذ الاصول عن ابي عبدالله محمد بن النجار المعروف بساطور القياس ؛ وذلك لشدة معرفته بهذا الفن، وكان مما قرأه عليه من كتب هذا الفن مختصر ابن الحاجب الاصلي ، وكان مرجع الناس اليه في امر المختصر هذا ، ولقد تمكن المشدالي من فن الاصول حتى فاق شيخه ؛ فكان اذا عرض لشيخه هذا اشكال في الفن امر تلامذته ان يذكروه بمحضر المشدالي رجاء حله على يده ، كما انه اخذ عنه علوم البيان ايضاً ، وتلقى الفقه عن ابي الربيع سليمان البوزيدي وكان هذا من اعلم الناس يومئذ به ، وعن ابي يعقوب يوسف اسماعيل الحساب والفرائض ، واتقن فن الحساب وعلم الجبر والمقابلة وغيرها من الرياضيات وعلم الهيئة وجر الاثقال على ابي الحسن علي بن قاسم ، وتخرج في علم التقاويم والميقات بانواعه من فنون الاسطرلابات والصفائح والجيوب والهيئة

والارتماطيقى والموسيقى والطلسمات والاوفاق وما شاكلها وعلم المرايا والمناظر الخ ... على ابي عبدالله محمد البوري واتقن الطب على محمد بن علي بن افشوس التلمساني .

وبعد ان امتلأت اوطاب الشيخ بالعلم واحاط باصوله وفروعه وجمع اشتاته عاد الى بلده بجاية سنة ٨٤٤ هـ (١٤٤٠ م) مبرزاً على اقرانه مشاراً اليه ، فتصدر بها للاقراء وتدريس العلم .

ذكر السخاوي فيما رواه عن البقاعي قال وحدثني الصالح احمد الزواوي عن بعض فضلاء المغاربة ان ابن مرزوق قال ما عرفت العلم حتى قدم علي هذا الشاب ، فقيل له كيف ؟.. قال لاني كنت اقول فيسلم كلامي ، فلما جاء هذا شرع ينازعني فشرعت اتحرز وانفتحت لي ابواب من المعارف ، او نحو هذا ، ونقل البساطي عنه ايضاً انه قال :ان عاش هذا كان عالم المسلمين، ونقل عنه ايضاً ان ابن مرزوق كتب لابيه فيما قيل : انه قدم علينا وكنا نظن به حاجة الينا فاحتجنا اليه اكثر . وكان ابن مرزوق وابو الفضل بن الامام يأمران تلامذتهما بالقراءة عليه فاسرع اليه غالبهم فانتفعوا به كان منهم احمد بن زكري المشار اليه بالتقدم في العلم والرئاسة بتلمسان .

وفيما بين اواخر السنة الاولى واوائل الثانية التي عاد فيها المشدالي الى بجاية ارتحل الى بلد العناب – بونة – وقسنطينة فحضر بهما مجالس العلماء ساكتاً من غير ان يتعرف لاحد ، وفعل مثل ذلك في دخوله لتونس سنة خمس واربعين ثم توجه الى الديار المصرية على ظهر سفينة لنصارى جنوة فأرست به في قبرص فنزل هناك وتجول مستطلعاً في ارضها فرأى بها عجائب وحصل له مع بعض اساقفتها مناظرة ثم ارتحل من قبرص في ذي القعدة (مارس ١٤٤٢ م) فأرسى به مركبه في بيروت ، فطاف بلاد الشام : دمشق وطرابلس وحماه ، ثم قطن بالقدس مدة وشاع ذكره فملأ الاسماع ووقع على تفضيله الاجماع ، ثم حج سنة ٨٤٩ هـ (١٤٤٥ م) وجاور ثم دخل القاهرة مع الكمال بن البازري وهناك ارتفع شأن الشيخ عند السلطان وارباب المملكة واركان الدولة سيما

منهم الكمال وصهره الجمال ، واخذ بينهم الشيخ في نشر علومه واملاء دروسه في عدة فنون من معقول ومنقول فأدهش الالباب وبهر العقول فزادت بذلك حظوته وعلت منزلته عند الخاصة والعامة .

وكان ممن تعرف اليهم في مصر وتشرفوا بصحبته الامام السخاوي فترجم له في ضوئه ترجمة ضافية منوهاً بشأنه فقال : « وقد حصلت بيننا اجتماعات وصحبة ورأيت منه من حدة الذهن وذكاء الخاطر وصفاء الفكر وسرعة الادراك وقوة الفهم وسعة الحفظ وتوقد القريحة واعتدال المزاج وسداد الرأي واستقامة النظر ووفور العقل وطلاقة اللسان وبلاغة القول ورصانة الجواب وغزارة العلم وحلاوة الشكل وخفة الروح وعذوبة المنطق ما لم اره من احد. وحكى عن درسه فقال :

« .. ثم حضرت درسه في فقه المالكية بالجامع الازهر في ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين – من القرن التاسع الهجري–فظهر لي انني ما رأيت مثله؛ ولا رأى هو مثل نفسه وان من لم يحضر درسه لم يحضر العلم ولا سمع كلام العرب ولا رأى الناس بل ولا خرج الى الوجود ؛ قال ومن سمع كلامه في العلم علم انه يخبر عن مشاهدة ومعاينة وان غيره يخبر عن غيبة وليس المخبر عن المشاهدة كغيره ؛ ولهذا نجد كلامه في القلب اثبت من كلام غيره ؛ ولم ار اعظم تحريكاً للهمم من حاله ولا اشد فعلاً للقلوب من مقاله ؛ سماع درس واحد من تقريره اكثر نفعاً من سماع مائة من غيره . هيئة لعمري لا يحاط بكنهها،وهو آية ابرزه الله في هذا العصر للعباد !. فمن قبلها يرجى له بركتها ومن اباها خشي عليه معاجلة العقوبة ، لا يشبه كلامه في جزالته الا كلام العرب العرباء ولا يضاهيه في طلاقته ورصانته سوى الالباء على انه محشو من دقيق المعاني بما يمنع لعمري من التصنع ويشغل عن التكلف ، بل تلك منه سجية غير محتاجة الى روية ، وهمة عالية ما جنحت قط في التحصيل لدنية.

صفات يغار البدر منها وينثني   لها خضعاناً رؤوس المنابر

قال : فكان يقرأ القارىء بين يديه ورقة او اكثر ثم يسرد ما تضمنته من

تصوير المسائل ويستوفي كلام اهل المذهب ان كان فقهاً وكلام الشارحين ان كان غير ذلك ثم يتبع ذلك بابحاث تتعلق بتلك المسائل ، كل ذلك في اسلوب غريب ونمط عجيب بعبارة جزلة وطلاقة كأنها السيل ، وتحرز بديع بحيث يكون جهد الفاضل البحاث عند غيره ان يفهم ما يلقيه ويدرك بعض ادراك ما يحليه ، ولقد حدثني غير واحد من ثقات الافاضل ان الطلبة قالوا له تنزل لنا في العبارة فانا لا نفهم جميع ما تقول فقال شيئاً يكاد يكون كشفاً ، لا تنزلوني اليكم ودعوني ارقيكم الي ، فبعد كذا وكذا لمدة حدها تصيرون الى فهم كلامي ، فكان الامر كما قال !..

قال السخاوي : وسمعت البقاعي يقول غير مرة انه – اي المشدالي – لم يكن ينظر في دروسه التفسيرية في غير القرآن،وانه يستلقي على قفاه ويتأمل فيأتي بصواعق لا ينهض غيره لها وانه كان يفعل ذلك في كل علم يقرؤه او يقريه لا يزيد على نظر المتن وحكى عن علي البساطي ذلك فقال : كان ابو الفضل اذا قرأ علماً لا يقرأه غيره ولا يزيد على تكرير مطالعة المتن ولا يطالع شرحاً ولا غيره ..

وفيه يقول ابن ابي عذيبة : « الامام العلامة اوحد اهل زمانه قدم علينا القدس سنة سبع واربعين فاقرأ العضد وكتب المنطق والمعقولات وشهد له الائمة ببلدنا وبدمشق ومصر وطرابلس انه اوحد اهل الارض وانه عديم النظير في جنس بني آدم ، وانني عاجز الآن عن عبارة اصفه بها فان كل عبارة هو فوقها . قال ثم دخل مصر فولى تدريس القبة المنصورية فدرس بها العجب العجاب وتعين لقضاء الشام ثم لمصر فأبى ، ولا يحضرني الآن من يضاهيه في كثرة علومه ، ثم نقل عن العز القدسي انه قال : ولو سكتوا اثنت عنه الاحقاب ، وعن ابن الهمام انه قال سألته عن مسألة في اواخر الاصول ، فاجابني عنها بأجوبة من لو طالع عليها ثلاثة اشهر لم يجب فيها بمثله !.. وعن الزين قاسم الحنفي قال ما سمعت العلم من مثله .

قال السخاوي: « واراد الله ان مرض الامام ابن حجر بامراض منها ضيق

النفس في نحو نصف ذي القعدة سنة اثنتين وخمسين وطال مرضه ؛ فذكر له الكمال والشرف بن العطار بانه يتعين ان ينظره – المشدالي – ليشخص مرضه وينظر علاجه فانه في الطب واحد عصره وفريد دهره وكان قد تكرر على سمعه من معارفه وعظمته عند الاكابر وعقله وسياسته وثباته ورزانته ما قرر عنده امره وملأ صدره حتى اشتهى ان يراه ولو نظرة فطلبه منهما والحّ عليهما فكلماه في ذلك فامتنع لكراهته ان يشتهر بالطب .. فلم يزالا يتلطفان به ويتزلفان اليه الى ان اجاب ، فعاده في يوم الاحد منتصف ذي الحجة وهو في اشد المرض فابتهج به ابتهاجاً كثيراً وعظمه تعظيماً كبيراً ثم نقل عن ابن الهمام انه قال : هذا الرجل لا ينتفع بكلامه ولا ينبغي ان يحضر دروسه الاحذاق العلماء وسئل عن النسبة بينه وبين ابي القاسم النويري فقال : جهد ابي القاسم ان يفهم عنه .

وكتب الشهاب الابدي لوالد صاحب الترجمة فقال :

« ...ان الله خول سيدنا ومولانا وملاذ انسنا ابا الفضل ولدكم الاسعد من الفتوح الالهية والمنن الربانية ممالمتحنه صالح دعائكم وحسن طويتكم واعتقادكم ان جعله الله بحراً لعلوم زاخرة ، وعنصراً لفضائل فاخرة ، ومحاسن متوالية متضافرة . فكم ابدى من دقائق خضعت لها الرقاب ، ونفائس هامت بها ذوو الالباب ، ومباحث شريفة كشفت دونها الحجاب ، فأبكمت ذوي العقول وحج اصحاب المعقول والمنقول ، فدانت له المملكة المصرية والاقطار الشامية والبلاد القاصية والدانية فحاز الرئاستين وقام بالوظيفتين فالرؤساء حول دياره مخيمون وعظماء المذهب بفناء منزله محومون ، فالوصف يقصر عما هو فيه ابقى الله وجوده وزاده في معاليه وعن سعد بن الديري قال : كنت اذا كلمته بكلام يفهم آخره قبل ان اتمه .. وهو احد الائمة في الدنيا في علوم عديدة سيما المعقولات .

ولم يبلغنا عنه فيما وقفنا عليه من كتب السير والتراجم وعرفناه من ترجمته الواسعة ان له من التأليف سوى كتاب واحد ، وهو شرحه على جمل الخونجي

فقط وان صنيعه فيه حسبما ذكره السخاوي نقلاً عن البقاعي قائلاً : « انه شرحه على طريقة حسنة ، وهي ان ينظر في شروحها لابن واصل الحموي والشريف التلمساني وسعيد العقباني وابن الخطيب القشنبليني وابن مرزوق فيما اجمعوا عليه ساق معناه وكذا ما زاده احدهم وما اختلفوا فيه ذكر ما رأى انه الحق ، كل ذلك بعبارة يبتكرها ثم تمم ذلك بما وقع للمتقدمين من علماء المسلمين فمن قبلهم في تلك المسألة مما يرى انه محتاج اليه من التحقيقات » .

ومعلوم ان كل ذي نعمة محسود وانه لا اعظم ولا اجل من نعمة العلم والمعرفة وعلى الاخص ما حازه المترجم من شرف المنزلة عند رؤساء الدولة وسادة علماء المشرق والمغرب وما شهد له به الاعلام من التفوق المطلق على كل من عاصره او جمع بينهما مكان ، فكان ذلك سبباً في بعثداء الحسد والمنافسة في صدور بعضهم فبالغ في الطعن في علمه واخلاقه ووصمه بالجهل والدناءة ويروي لنا السخاوي في ذلك عن الشيخ عبد القادر المحيوي المالكي روايات قال : والله انه لا عهدله بالفقه بل سمعت قراءته الفاتحة في الصلاة فما اجادها!.. وروي عن ابي القاسم النويري انه قال لما دخل المشدالي مصر وارتجت عليه والتف الناس حوله واقبل عليه الخاصة والعامة : اي شيء هذا الطبل الذي طبل بمصر ؟.. فبلغ ذلك المشدالي فقال : قوله ذلك عني يريد اني مزوق الظاهر فارغ الباطن فليحضر ليرى .

حسدوا الفتى اذا لم ينالوا سعيه فالكل اعداء له وخصوم

وطعنوا في غرائزه الطبيعية وملكاته الخلقية وبالغوا في تنقيصه فقالوا انه كان مخل المروءة كثير الترفع على اصحابه سيما في الملأ ، عظيم التهاون بهم عديم النفع لهم ، لين الجانب لمخالفيه غير بعيد من نفعهم وهو يستر هذه النقائص ببعد غوره غاية الستر فلا يذوقها منه الا النحرير في اوقات الغفلات فاذا ظهر له منها شيء انهتك الباقي ، فهو لعمري اعجوبة الزمان حفظاً وفهماً وتوقداً وذكاء وعلماً وخبثاً ومكراً ودهاء وتواضعاً وكبراً ، قال السخاوي : ومن عجائب حظه انه تحبب لشيخنا ابن حجر بانواع التحبب

فأتاه لبيته فلم ير منه انصافاً وظن ان الاشاعات بفضائله مغالاة او غلط مما لا نباهة له فترفع حينئذ عن التردد اليه مع توقع ان يراه في بيوت بعض الاكابر فيريه من انظاره ودقة فكره ما يكيع فكره ويعلي عنده قدره بحيث كنت اظن ان ذلك يفضي الى ضد المراد من غيظ وتعاد واجتهدت من الجانبين في الاجتماع على وجه جميل فلم استطع الى ان اراد الله مرض ابن حجر وقد تقدمت حكاية حاله معه ..

وبعد ما اطنب وتوسع السخاوي في ذكر بعض المتناقضات من اخلاق المشدالي قال : « وبالجملة فكان غاية في جودة الذهن وسرعة الادراك وقوة الحافظة الا انه كان سريع النسيان قليل الاستحضار ولاجل هذا لم يكن يتكلم في المجالس الا نادراً خوفاً من الاستظهار عليه بالمنقول ؛ واذا طالع محلاً اتى فيه بما يبهر السامع وقد تكرر اجتماعي معه .. وما كنت احمد انحرافه عن شيخنا – ابن حجر – وارغب في لقاء ابي عبد الله التريكي لمزيد حبه شيخنا وتقدمه على صاحب الترجمة في الشرعيات ومحبته في المباحثة والمناظرة والمذاكرة .. قلت لا غرابة في ذلك فلقد وقع له والله مثل ما وقع للعلامة ابن خلدون وغيره من العلماء في المشرق والمغرب فالمعاصرة حرمان!.

واستاذ عالم متبحر كهذا لا شك وان يكثر تلامذته واتباعه ومريدوه ذكر بعضهم السخاوي فقال منهم بالحجاز البرهان بن ظهيرة ، وبالشام ابن قاضي عجلون ، وبالقدس الكمال بن ابي شريف ، وبالقاهرة الشهاب البيجوري والديسطي وابن الفرزالخ ...

ومن شعره رحمه الله قوله وكان بتلمسان سنة اربعين وثمانمائة للهجرة وهو في عهد الشباب مخاطباً بعض اصدقائه ببجاية من ابيات :

برق الفراق بدا بأفق بعادنا ... فتضعضعت اركاننا لرعوده
كيف القرار وقد تبدد شملنا ... والبين شق قلوبنا بعموده
لله أيام مضت بسبيلها ... والدهر ينظم شملنا بعقوده

وتوفي رحمة الله عليه غريباً فريداًبعين تاب من بلاد الشام في شهر شوال أو ذي القعدة سنة ٨٦٤ ﻫ (جوليبط – اوط ١٤٦٠ م) اي قبل وفاة والده بسنتين سقى الله جدثهما وابل رحمته ورضوانه .

ابو زيد عبد الرحمن الثعالبي

٨٧٥ ﻫ (١٤٧٠ م)

هو فخر ائمة علماء الجزائر وصلحائها الاتقياء الورعين الابرار الامام المجتهد الحجة ابو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجعفري ، نسبة الى عبدالله بن جعفر بن ابي طالب عم رسول الله ﷺ ولقد تزوج عبدالله هذا بنتي عمه علي بن ابي طالب كرم الله وجهه : زينب ثم فاطمة اختي الحسنين رضي الله عنهما ، وذكر ابن حزم في جمهرة النسب ان هناك بمتيجة وسوق حمزة بالجزائر جعافرة من ابناء جعفر بن الحسن المثنى بن علي بن ابي طالب وكلهم من أبناء زرذلة السوداء[١] ؟ ...

ولد الثعالبي سنة ٧٨٦ ﻫ (١٣٨٥ م) بناحية وادي يسر على نحو ست وثمانين كيلو متراً بالجنوب الشرقي من عاصمة الجزائر وهو موطن آبائه واجداده الثعالبة ابناء ثعلب بن علي من عرب المعقل فنشأ نشأة علم وصلاح وتقوى اخذ علمه اولاً عمن وجده من علماء ناحيتهم تلك ، ثم ارتحل الى بجاية فنزل بها سنة ٨٠٢ ﻫ (١٣٩٩ م) ولازم حضور مجالس علمائها فأخذ عنهم علماً جماً وكان عمدته فيهم الامام ابا الحسن علي بن عثمان المانجلاتي وأبا الربيع سليمان ابن الحسن ، وأبا الحسن علي اليلياتي ، وعلي بن موسى والامام ابا العباس احمد النقاوسي ، وأبا القاسم المشدالي ثم انتقل الى تونس سنة ٨٠٩ ﻫ (١٤٦٠ م) فلقي بها جلة من أكابر العلماء فانتفع بهم منهم الامامان الابي والبرزلي تلميذا ابن عرفة وابو مهدي عيسى الغبريني ثم انتقل الى مصر (٨١٧ ﻫ - ١٤١٤ م)

---

(١) جمهرة ابن حزم ص ٣٩ ط مصر ١٩٤٨م وانظر ابن خلدون ج ٦ ص ٥٩ – ٦٤ ط بولاق ١٣٨٤ ﻫ .

فلقي بها البلالي وأبا عبد الله البساطي وولي الدين العراقي فأخذ عنهم وارتحل الى بورصة من بلاد الترك وهنالك اقيمت له زاوية هي موقوفة ومحبسة عليه الى الآن ويمم الحجاز فحج واخذ هنالك عن علمائه ثم عاد الى مصر ثم تونس سنة ٨١٩ هـ (١٤١٦ م) فوافى بها العلامة ابن مرزوق الحفيد التلمساني فلازمه واخذ عنه فنوناً من العلم جمة ، واجازه باجازات ثلاث ، اثنى عليه فيها كلها وحلاه بقوله : (سيدي وبركتي ، الشيخ الامام الفقيه المصنف الحاج العالم المشارك الخير الدين الاكمل ابي زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي . .) (وهي بتاريخ ٨٢٠ هـ - ١٤١٧ م) وفي اخرى : (سيدي الشيخ الفقيه الصالح المبارك الحاج المحدث الراوية الأكمل ...) وفي اخرى : (سيدي الشيخ الاجل، الفقيه الانبل المشارك الاحفل المحدث الراوية، الرحلة الافضل، الحاج الصالح المبارك الأكمل ...) وجاء في اجازته الشيخ ابن زرعة العراقي له قوله : (الشيخ الصالح الافضل الكامل المحرر المحصل الرحال ابو زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي ...) قال ولم يكن بتونس يومئذ من يفوتني في علم الحديث اذا تكلمت انصتوا وقبلوا ما أرويه تواضعاً منهم وانصافاً واعترافاً بالحق . كما أخذ عن ابي عبد الله القلشاني وعن غيره أيضاً من جهابذة العلم المحققين بتونس فحصل على اجازاتهم واذنهم له في التدريس والتأليف ثم عاد الى وطنه فذاً عظيماً في علمه وصلاحه وقدوة حسنة للمسلمين في اجتهاده وكده معتكفاً على نشر العلم وهداية الخلق والانقطاع للعبادة والتأليف ، فتخرج على يده اعلام وصدور منهم حجة علماء الكلام الامام محمد بن يوسف السنوسي ، وأخوه الأمام ابو الحسن علي الشالوتي والشيخ احمد رزوق ومحمد المغيلي التلمساني وسيدي احمد بن عبدالله الزواوي الجزائري وابن مرزوق الكفيف . . .

كان رحمه الله رأساً في العبادة وغرة لامعة في الزهد والعلم فولي القضاء عن غير رضى منه ثم خلع نفسه وهو دائماً المدره في عشيرته والزعيم في قومه وملاذهم الذي يلوذون به ومعقلهم الذي يلجؤون اليه في المدلهمات .

يروى انه ولي خطابة الجامع الاعظم بالجزائر وان من بقايا آثاره المتبرك بها الى اليوم مقبض عصا الخطيب بالجامع المذكور ?...

اعتكف الشيخ على التدوين والتأليف واغلب همه من ذلك خدمة علوم الشريعة المطهرة وله في ذلك الباع الطويل فلقد ترك ما يزيد على التسعين مؤلفاً بين متون وشروح وحواشي وتعاليق وكتب مستقلة في الوعظ والرقائق والتفسير والفقه الحديث والتاريخ الخ . . . » منها كتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن طبع بالجزائر في اربعة اجزاء مذيلاً بمعجم لغوي لشرح غريبه وروضة الانوار ونزهة الاخيار في الفقه قال التنبكتي « وهو قدر المدونة فيه لباب نحو ستين من امهات الدواوين المعتمدة وهو خزانة كتب لمن حصله » وكتاب جامع الهمم في اخبار الامم في سفرين ضخمين وجامع الامهات في احكام العبادات وهو كتاب جليل طالعته في سفر ضخم والارشاد في مصالح العباد ورياض الصالحين ، وارشاد السالك وهو كتاب صغير الحجم وكتاب الارشاد ، وجامع الخيرات ، والتقاط الدرر وهو مما ازدانت به مكتبتنا وكتاب الاربعين حديثاً في الوعظ والرقائق ، وكتاب نور الانوار ومصباح الظلام ، وهو كذلك مما من الله علينا به فله الحمد وله الشكر ، وكتاب الانوار المضيئة في الجمع بين الشريعة والحقيقة وهو كتاب نفيس طالعته في جزء ضخم وكتاب النصائح وجامع الفوائد وتحفة الاخوان في اعراب بعض آي من القرآن والذهب الابر في غرائب القرآن العزيز وله شرح على مختصر ابن الحاجب الفرعي وقفت عليه عند قيم الضريح بزاويته بالجزائر وهو في سفرين ضخمين وله شرح على مختصر خليل بن اسحاق وكتاب الدرر اللوامع في قراءة نافع طبع بالجزائر ، ونشر له نبذة من الجامع الكبير الذي وضعه ملحقاً بشرحه على مختصر ابن الحاجب الفرعي طبعت بالجزائر ، وكتاب العلوم الفاخرة في احوال الآخرة طبع بمصر ، الى غير ذلك مما ينيف على التسعين مؤلفاً كما ذكرنا ويقال ان اغلبها موجود بارض السودان ؟ ...

ومن نظم الشيخ الثعالبي قوله :

وان امرؤ ادنى بسبعين حجة ... جدير بأن يسعى معداً جهازه
وان لا تهز القلب منه حوادث ... ولكن يرى للباقيات اهتزازه
وان يسمع المصغى اليه لصدره ... أزيز كصوت القدر يبدي ابتزازه
فما بعد هذا العمر ينتظر الذي ... يعمره في الدهر الا اغترازه
وليس بدار الذل يرضى اخو حجى ... ولكن يرى ان بالعزيز اعتزازه

ولم يزل رحمه الله ورضي عنه عاكفاً على الطاعات متجرداً عن الدنياويات الى ان وافاه اجله ضحوة يوم الجمعة ٢٣ رمضان المعظم سنة ٨٧٥ هـ (منتصف شهر مارس ١٤٧١ م) ودفن قدس الله روحه بـ « جبانة الطلبة » حيث ضريحه الشهير به الى اليوم من عاصمة الجزائر ، وكان لفقده اثر عميق في القلوب وحزن عظيم في النفوس ، وكان فيمن رثاه من العلماء تلميذه الشيخ سيدي احمد بن عبد الله الجزائري الزواوي صاحب النظم المشهور (كفاية المريد في علم التوحيد) فقال في مطلع مرثيته :

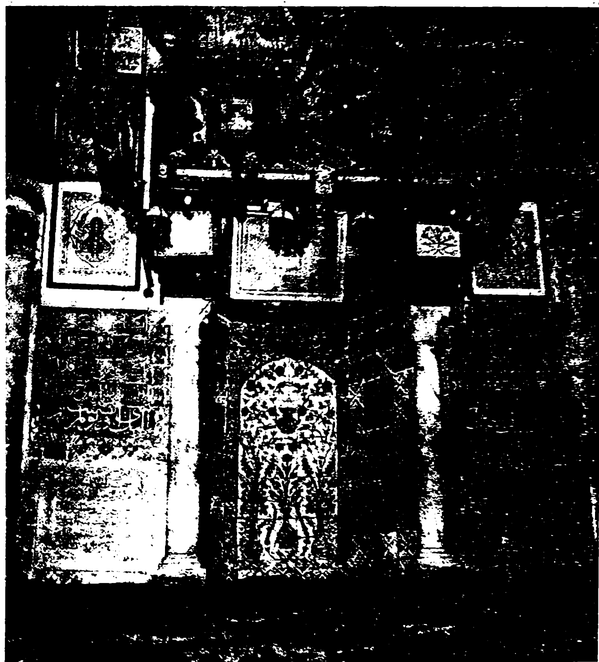
لقد جزعت نفسي لفقد احبتي ... وحق لها من مثل ذلك تجزع
الم بنا ما لا نطيق دفاعه ... وليس لأمر قدر الله مرجع

وفيها يقول :

لقد بان اهل العلم عنا واقفرت ... منازلهم انا الى الله نرجع
كما بان عنا شهمنا العالم الذي ... سناه بأنوار الحقيقة يسطع
ابو زيد المشهور بالعلم والتقى ... له العلم فينا والمقام المرفع
هوالعالم الموصوف بالنفع والورى ... به عنهم خطب الحوادث يرفع

وفيها يقول معزياً ابا عبد الله محمد الكبير نجل الثعالبي :

اعزي ابا عبد الاله محمداً ... ومن يجميل الصبر نرجو سيجمع
ونحن وان كنا جميعاً نحبه ... فقلبك اشجى للفراق واوجع
اصبنا به فالله يعظم اجرنا ... ويلهمنا الصبر الجميل ويوسع



محراب مسجد « سيدي عبد الرحمن الثعالبي » بالعاصمة وهو يمثل نموذجاً من ارقى انواع القاشاني والزليج الملون المزخرف والمكتوب بالخط العربي بنوعيه – النسخي والفارسي ، خط الرقعة – وهو الى ذلك مثال رائع جميل لشكل فن المعمار التركي بالجزائر في اوائل القرن الثاني عشر الهجري – اواخر ١٧ م – .

وكان له من صلبه رحمه الله اربعة ذكور وهم : محمد الكبير ومحمد الصغير ومحمد الملقب بابي الصالحية ويحيى ، واربع بنات : فاطمة ورقية ومحجوبة وعائشة ولا يعلم لهم عقب الا محمد الكبير فان له بنتاً تسمى كلة - بفتح الكاف واللام المشددة - ولا يعلم لها عقب ايضاً ، وقد توفي كل من محمد الصغير ومحمد ابي الصالحية في قيد حياة والدهما ، اما الاول فتوفي شهيداً بالطاعون سنة ٨٤٦ هـ (١٤٤٣ م) واما الثاني فتوفي سنة ٨٥١ هـ (١٤٤٧م) وكذلك البنات الثلاث : فاطمة ورقية ومحجوبة فانهن توفين صغاراً الا عائشة فانها كانت موجودة سنة وفاة اخيها ابي الصالحية ٨٥١ هـ وقبورهم جميعاً حيث مدفن ابيهم باوسط المحل المعروف قديماً باسم « جبانة الطلبة » أفاض الله عليهم شآبيب الرحمة والرضوان .

احمد بن يونس القسنطيني

٨٧٨ هـ (١٤٧٤ م)

هو العالم المتفنن الشيخ احمد بن يونس بن سعيد بن عيسى الحميري القسنطيني ، ولد بقسنطينة الهواء سنة ٨١٣هـ (١٤١٠م) ونشأ بها فحفظ القرآن والرسالة وتفقه بمحمد بن محمد بن عيسى الزيلدوي وابي القاسم البرزالي وابن غلام الله القسنطيني وقاسم بن عبد الله الهزميري ، اخذ عن الاول الحديث والعربية والاصلين والبيان والمنطق والطب وغيرها من العلوم العقلية والنقلية وبه انتفع ، واخذ الموطأ عن ثانيهم ، واخذ شرح البردة وغيره عن مؤلفه ابي عبد الله بن مرزوق الحفيد حين قدومه عليهم بقسنطينة وارتحل الى الحج سنة ٨٣٧ هـ (١٤٣٣ م) فأخذ عن البساطي شيئاً من العقليات وغيرها واخذ كذلك عن الامام ابن حجر والعز عبد السلام القدسي والعيني وابن الديري وآخرين .

ثم عاد الشيخ الى بلده فاقام على عادته في الاشتغال بالعلم الى ان حج ايضاً بعد سنة اربعين وجاور في هذه المرة بمكة المكرمة وسمع على الاخوين الجلال والجمال ابني المرشدي في فنون من العلم والحديث وعلي الزين بن عياش وابي

الفتح المراغي وطائفة كثيرة، من ذوي الفضل والعلم وتكررت منه الرحلة بعد ذلك الى ارض الحجاز مع المجاورة في بعض المرات الى ان استقر وسكن بمكة سنة ٨٦٤هـ (١٤٥٩م) وتزوج بها وتصدى فيها لاقراء العربية والحساب والمنطق وغيرها فاخذ عنه غير واحد من اهلها والطارئين والمجاورين بها .

وكذلك جاور بالمدينة المنورة غير مرة ثم استوطنها وأقرأبها ايضاً وارتحل في غضون ذلك الى القاهرة فأقام بها يسيراً . وكان ممن اجازه واستجازه بها شمس الدين السخاوي ثم سافر منها الى القدس والشام ، وكف بصره وقدح له فما افاده ثم احسن الله اليه بردّ ضوء احدى عينيه ،قال السخاوي : « ولقد لقيته بمكة ثم بالقاهرة واغتبط بي والتمس مني اسماعه القول البديع فما وافقته فقرأه او غالبه عند احد طلبته النور الفاكهاني بعد ان استجازني هو به وسمع مني بعض الدروس الحديثية وسمعت أنا كثيراً من فوائده ونظمه منه قوله في طالع قصيدة امتدح بها النبي ﷺ :

يا أعظم الخلق عند الله منزلة ومن عليه الثنا في سائر الكتب

قال واطلعني على رسالة عملها في ترجيح ذكر السيادة في الصلاة عن النبي ﷺ وغيرها بعد ان استمد مني فيها وكذا رأيت له اجوبة عن اسئلة وردت من صنعاء سماها رد المغالطات الصنعانية . وكان اماماً في العربية والحساب والمنطق مشاركاً في الفقه والاصلين والمعاني والبيان والهيئة مع إلمام بشيء من علوم الاوائل عظيم الرغبة في العلم والاقبال على اهله قائماً بالتكسب خبيراً بالمعاملة ممتهناً لنفسه بمخالطة الباعة والسوقة من اجلها ولم يزل مقيماً بالمدينة النبوية حتى مات في شوال سنة ثمان وسبعين (فيفري ١٤٧٤ م) ودفن بالبقيع رحمه الله » .

يحيى بن ابي عمران المازوني

٨٨٣ هـ (١٤٧٨ م)

هو العلامه المتشرع الفقيه الضليع والحقوقي البارع الامام ابو زكرياء يحيى

ابن العالم الجليل المؤلف ابي عمران موسى بن عيسى بن يحيى المغيلي المازوني اخذ علمه عن والده وعن ائمة وقته كابن مرزوق الحفيد وقاسم العقباني وابن زاغو ومحمد بن العباس وغيرهم فنجب وتولى قضاء بلدة مازونة فكان امام المحققين ومرجع أهل الشورى في الاحكام الشرعية وغيرها معتمداً في مذهب مالك حاملا لواءه بالمغرب في عصره مطلعاً على دقائق المسائل وفتاوى العلماء فيها له من التآليف كتابه المشهور باسم الدرر المكنونة في نوازل مازونة ، وهو كتاب جليل حافل بفتاوى المتأخرين من علماء الجزائر وتونس والمغرب الاقصى في شتى المسائل جامع لابواب الفقه ، منه نسخة مخطوطة بمكتبة الجزائر الوطنية في جزئين ضخمين تحت عدد ١٣٣٥ ومن هذا المؤلف الضخم استمد الوانشريسي في المعيار .

توفي المازوني بتلمسان سنة ٨٨٣ هـ (١٤٨٧م) تغمده الله برحمته ورضوانه .

جدول تاريخي

٩٢٣ - ٩٦٢ هـ

١٥١٧ - ١٥٥٤ م

تاريخ الحوادث	اهم الحوادث وابرز الاحداث
٩٢٣هـ – ١٥١٧م	الاحتلال التركي – الاول – لتلمسان وانتصاب السلطان ابي زيان احمد « الثاني » على العرش
٩٢٤هـ – ١٥١٨م	زحف ابي حمو «الثالث» على تلمسان واستشهاد الرئيس أروج التركي
٩٢٥هـ - ١٥١٩م	ثورة الامير ابي سرحان المسعود الزياني وامتلاكه تلمسان
٩٣٠هـ - ١٥٢٤م	عودة ابي محمد عبد الله « الثاني » الى الملك ونقضه لمعاهدة الاتراك
٩٤٩هـ – ١٥٤٢م	تحالف ابي زيان احمد « الثاني » مع الاتراك ومقاومة الاسبان
٩٥٠هـ – ١٥٤٤م	انتصار الامبراطور شالكان للسلطان محمد « السابع » واحتلالهما تلمسان ثم اخفاقهما معاً بعد ذلك وعودة احمد « الثاني » الى العرش
٩٥٧هـ -- ١٥٥٠م	استيلاء الدولة السعدية على تلمسان ثم انسحابها عنها فوراً وولاية مولاي الحسن بن عبد الله عليها تحت رعاية اتراك الجزائر
٩٦٢هـ – ١٥٥٤م	خلع مولاي الحسن آخر ملوك بني زيان واحتلال الاتراك لتلمسان نهائياً

الدولة الموحدية

٥٢٩ - ٦٦٨ هـ
١١٤٥ - ١٣٦٩ م

نشأتها :

تأسست هذه الدولة على كاهل رجل السياسة والعلم ذلك الداهية المغربي العظيم محمد بن عبد الله الشهير باسم تومرت[1] الهرغي السوسي الملقب بالمهدي، وكان منشأها بـ « تينملل » في المغرب الاقصى بين احضان قبائل مصمودة التي كانت ترى نفسها احق بزعامة المغرب الاسلامي من غيرها، وخاصة أهل لمتونة المرابطين فانها كانت تنظر اليهم كاجانب عن الوطن .

ذهب ابن تومرت في اول نشأته الى المشرق لطلب العلم وهنالك اطلع على حال الخلافة العباسية التي كانت خاضعة لزعماء الجيوش التركية ، وقد رأى معها احتضار الخلافة الفاطمية ايضا بمصر وانها ذاهبة الى السقوط والانهيار ، كما لاحظ يومئذ امم اوروبا ودولها تعمل على جمع شتاتها وتوحيد كلمتها استعداداً لاعلان حروبها الصليبية على المسلمين وغزو بلادهم ؛ فارتأى محمد بن تومرت وجوب القيام بانشاء دولة اسلامية تحافظ على عظمة الخلافة الاسلامية وكيانها الطبيعي وتنتصر على الصليبيين ؛ فأخذ بعد عودته الى المغرب (٥١٣هـ - ١١١٨م) في تأسيس حكومته على طريقة شيخ القبيلة المتزعم

---

(١) ذكر تلميذه ومؤرخه ابن البيدق ان معنى كلمة « تومرت » بلسان البربر الفرح ؛ وذلك ان امه فرحت كثيراً بولده ، وكانت كلما سئلت عنه اجابت بلسانها البربري « ديك تومرت » ومعناه صار فرحاً فغلب عليه ذلك اللقب .

وافاض عليها صبغة المهدوية ؛ تلك العقيدة التي نجح بها الفاطميون قبله في تأسيس دولتهم بالمغرب .

ولقد كان لهذه العقيدة اقبال ورواج في بلاد المغرب اكثر منها في بلاد المشرق؛ وذلك لاسباب كثيرة منها ان المغاربة معروفون من قديم – من ايام الكاهنة بالميل الى المغيبات والتأثر بها ؛ ومنها ما اذاعه بعض دهاة السياسة من الاحاديث التي تومىء الى ظهور المهدي المنتظر وانه من اهل المغرب[1] الخ . وكثيراً ما رأينا استعمال فكرة المهدي هذه واستخدامها في انحاء العالم الاسلامي على مدى الازمان في القضايا السياسية المصطبغة بالدين .

انشأ ابن تومرت دعوته في تأسيس دولته على الدين آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر داعياً الى تخليص العقيدة من شوائب الشرك والزيغ عن التوحيد الخالص متهما لخصومه بالجمود الديني والتجسيم ، ولكي يكفل لنفسه اعظم قسط على مجهودات انصاره وأتباعه فانه القى في روعهم انه المهدي المنتظر الذي سيملأ الارض عدلاً كما ملئت جورا ، ودعا اصحابه بالموحدين تعريضاً بخصومه المرابطين وطعنا في عقائدهم ، وكان ممن آزره على بث فكرته هذه بالمغرب ذانك الرجلان العظيمان ، مثال الشهامة والعلم والبطولة في التاريخ : أولهما أبو عبد الله عبد الواحد الوانشريسي – نسبة الى جبل وانشريس بجنوب بلدة الاصنام – وكان عالماً فصيحاً باللغتين العربية والبربرية توفى في حصار مراكش عام وقعة البحيرة سنة ٥٢٤هـ – ١١٢٩م أي في نفس السنة التي مات فيها ابن‌تومرت ، والثاني هو عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي .

اجتهد ابن تومرت في القضاء على دولة المرابطين بالمغرب الاقصى واشهر عليهم سيفه وقلبه ولسانه وقاومهم في جميع الميادين فتغلب عليهم وقهرهم ، فبايعته الامة المغربية بالامارة يوم السبت غرة المحرم سنة ٥١٦هـ – ١١مارس

---

(١) لقد احصى ابن حجر هذه الاحاديث المروية في المهدي فبلغت نحو الخمسين ، وذكر انها لم تثبت صحتها عنده ؛ ولم يكن منها شيء في الصحيحين .

١١٢٢م ومازال شأنه يعلو الى ان توفي ليلة الاربعاء ١٣ رمضان ٥٢٤هـ – ١١اوط ١١٣٠م عن غير عقب اذ لم يتزوج قط ، وكان قد عهد بالامارة بعده الى عشرة من خاصة اتباعه كان فيهم عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي فاجمع الناس على مبايعته بالامارة وتقديه عليهم لما امتاز به من الخصائص الحميدة التي قلما تجتمع في غيره ، فتقلدها عبد المؤمن عن جدارة واستحقاق .

نظامها الحكومي

كانت قاعدة هذه الدولة طيلة تملكها على افريقية الشمالية هي مدينة مراكش ، ورئيسها الاعلى دائماً هو الخليفة الملقب بأمير المؤمنين ، ودستورها الكتاب والسنة من غير انتماء الى اي مذهب من المذاهب الاسلامية، حرة غير خاضعة لاي سلطان ، ولم تكن لتنتحل الالقاب ولا الأسماء السلطانية الا أخيراً ؛ واعمالها الادارية موزعة بين مختلف الوزارات على حسب الترتيب العصري اليوم تقريباً ، فلقد كان للاشغال العامة ومصالح الناس وزير، وللمالية وزير ، وللكتابة والترسيل وزير ، وللعدلية والنظر في نوازل المتظلمين وزير ، وللنظر في اهل الثغور وزير ، وللبحرية رئيس عام يدعونه « الملند » بفتح اللام المفخمة [١] وهو المسؤول امام وزير الحربية المسمى عندهم بصاحب السيف ؛ وجميع الاعمال الادارية كان يجري تحريرها بالقلم العربي المبين .

ومن غير هؤلاء الاعضاء رجال موظفون تختلف مراتبهم بحسب اختلاف الاشغال والاعمال والمصالح ولهم اعوان ومساعدون ، وكان للشرطة رئيس يدعونه بالحاكم وسلطته لا تتعدى طبقة العامة من غير المتوظفين ، وكان لا يتولى عندهم هذه الوظيفة الا من كان من الطبقة الممتازة من رجال الموحدين، وذلك ان الناس في هذه الدولة ثلاث طبقات : السابقون الاولون وهم الذين

(١) قال ابن خلدون : الملند بتفخيم اللام منقولا من لغة الافرنجة فانه اسمها في اصطلاح لغتهم ، وانما اختصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لأنهما جميعاً على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب (المقدمة ص ١٢٣ ط بولاق ١٢٧٤ هـ)

بايعوا المهدي ابن تومرت ؛ ثم يليهم الاتباع ؛ ثم تأتي الطبقة الثالثة من العامة، ولم يكن يطلق لقب «السيد» عندهم الا على اعضاء الاسرة المالكة من ابناء عبد المؤمن فقط ، وقد فعلوا ذلك كي لا يتولى الرئاسة منهم الا من كان سيداً حقاً ، فكان بذلك نظام الحكم في هذه الدولة ارستقراطيا محضا .

وجميع ما كان هنالك من الوظائف واشغال الحكومة الادارية برأسها «المزوار» الذي يدين بالطاعة للحاجب المسؤول امام الخليفة عن جميعها ، وللخليفة مع ذلك مجالس يعقدها في اوقات مختلفة للمشاورة والنظر في الشؤون العامة يحضرها الاعيان من نواب القبائل وعرفاء النواحي النائية بمشاركة اهل العلم والفضل .

ومما امتازت به دولة الموحدين وفاقت فيه غيرها من دول المغرب : اسبقيتها لاستعمال النار اليونانية في حربها ضد الاسبان وتفوقها في نظامها العسكري وتراتيب الجند في القتال ، فلقد اجتمع لديها من الجند عدد يفوق المعهود عند غيرها من الدول الاسلامية بالمغرب ، ففي ايام الحرب كان يبلغ العدد الى ٤٨٠٠٠٠ جندي ، ويتزايد احياناً الى المليون ، وهو مختلط ممزوج من العرب والبربر والافرنج والمماليك ، وكان عدد الافرنج منه ايام ابي العلاء المأمون عشرة آلاف جندي ، وكان من النظم المتبعة عندهم في الحرب ان يتقدم قائد الجيوش ومعه سرية تشتمل على نحو المائة فارس تخفق على رؤوسهم الرايات البيض المزخرفة بخطوط زرقاء والمزركشة بأهلة ذهبية ، – ثم تغير اللواء لديهم فكان احمر [1] ويأتي بعد هؤلاء الفرسان فوج من رجال الدولة

---

(١) يوجد في المتحف الحربي اليوم بمدينة (مدريد) راية لرابع خلفاء الموحدين – محمد الناصر – وهي من حرير احمر وقعت في يد الفونسو الثامن فيما وقع في يده من غنائم جيش الموحدين بعد انهزامهم في موقعة العقاب سنة 609 هـ (1212 م) . ولقد نشرت صورة هذه الراية في شكلها المزخرف وبألوانها الطبيعية في اكثر من مرجع ومصدر وخاصة عند (ر. بليستروس) (Historia de Espana 11 p : 272 (في كتابه تاريخ اسبانيا (R . Ballesteros) ونشرها الدكتور غوستاف لوبون في كتابه المدنية العربية وسماها (راية الموحدين) وتجدها كذلك منشورة في ج 1 ص 190 من تاريخ التمدن الاسلامي ط القاهرة 1958

والرؤساء والحكام ، ثم يتلوهم الجيش بكتائبه متبوعاً بارباب الصناعات والحرف واصحاب الحاجيات ... واذا خرج معهم الخليفة كان لخروجه موكب حافل يجتمع فيه من اصحاب الطبول والالوية والبنود شيء كثير وكلها تسير خلفه ، ويسمى ذلك عندهم « بالساقية » ؛ ثم اقتصر بعد ذلك على سبع طبول تتبع الامير ومثلها من الرايات كذلك ؛ قال الوزير ابو جعفر بن عطيه : شاهدت عبد المؤمن وقد جلس يوماً لعرض العسكر عليه ، فجعلت العساكر تمر عليه قبيلة بعد قبيلة وكتيبة اثر كتيبة ، لا تمر كتيبة الا والتي بعدها احسن منها جودة سلاح وفراهة خيل وظهور قوة [1] .

اما الاسطول فانه كان فيه من انواع المراكب البحرية : المسطحات والطرائد والشواني الخ ... وقد بلغ عدد وحداته ايام عبد المؤمن الى ٤٠٠ قطعة حربية .

ولخزينة الدولة موظف خاص من الموحدين يلقب بصاحب الاشغال مشتغل بضبط الحسابات ومراقبة الدخل والخرج ، ويتعقب النظر فيما يفعله الولاة والعمال في الاموال ، وله هو وحده الاذن في استخراج المال من الخزينة ، ولما استغلظ أمر الحاجب ونفذ امره في كل شأن من شؤون الدولة تعطلت وظيفة صاحب الأشغال وصار صاحبها مرؤوساً للحاجب كمطلق رجل من جملة الرجال المكلفين بالجبايات وذهبت له تلك الرئاسة التي كانت له في الدولة . ومالية الدولة متكونة من الزكاة والخراج وأخماس المغنم والجبايات . والعملة يومئذ مضروبة باسم الخلفاء الموحدين وهي من الذهب والفضة ، وفيها من انواع المسكوكات الدرهم والدينار والانصاف والارباع والخراريب ، والدرهم عندهم من فضة مربع الشكل وفيه المستدير ، وهو لا يزيد وزنه عن « غرام » واحد ونصف ؛ ونظام الاسواق عندهم موكول الى « المحتسب » فاليه يرجع تقدير الاسعار ومراقبة ما يجري فيها من مظالم بواسطة أعوانه من الامناء .

---

(١) المعجب ص ١٤٥ .

ومنصب القضاء عندهم لا يتولاه الا من كان مبرزاً في العلم كاملاً في اخلاقه، ولا تتجاوز ولاية القاضي مدة عامين فقط ، اتباعاً في ذلك سنة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في توليته القضاة ، وفي ذلك من الحكمة ترغيب الناس وبعث الامل فيهم والنشاط في تحصيل العلم حتى ينالوا هذا المنصب الجليل ويحرزوا على شرفه ، علاوة على ما في ذلك ايضاً من دفع التهم التي قد يلصقها اعداء القاضي وخصومه به حسداً أو مللاً من طول اقامته بينهم ودوام مزاولته للحكم ، ثم ان القاضي في نفسه اذا تولى منصبه هذا علم من يومه قرب نهاية ولايته ، فهو مظنة للعزل فلا يحيف ولا يجور .

الحدود الجزائرية :

لقد عم سلطان الموحدين جميع تراب الشمال الافريقي كله من البحر المحيط غربا الى شرقي طرابلس وبرقة ، ومن جبال الشارات «البرانس» باقصى شرق بلاد الاندلس الى تخوم صحراء افريقية الكبرى فهو اكبر سلطان واعظم مملكة شاهدها الاسلام في المغرب وكانت الجزائر لهذا العهد منقسمة الى ولايتين اثنتين شرقية وغربية ، اولاهما ولاية بجاية وهي تقريباً عين حدود العمالة القسنطينية المعروفة اليوم ، والثانية ولاية تلمسان ، وهي تمتد من وادي ملوية غربا الى نهر مينة شرقاً ؛ والجنوب الشرقي من الجزائر ملحق بولاية تونس .

الخليفة عبد المؤمن بن علي

عاهل افريقية واميرها الاوحد عبد المؤمن بن علي التاجري الكومي الندرومي الجزائري ، ولد بضيعة من اعمال تلمسان تعرف «بتاجرا» بنواحي ندرومة على نحو ثلاثة اميال من مرسى « هنين » وذلك سنة تسعين واربعمائة وقيل سنة خمسمائة للهجرة (١٠٩٦ – ١١٠٦ ؟ ...)

نشأ عبد المؤمن في اسرة فقيرة حيث كان ابوه يرتزق من صنع اواني الطين وامه كومية من بني مجبر ، طلب العلم اولاً ببلده ثم نزح عنها باحثاً عن العلماء في كل صقع وناحية ، وهو مع ذلك يحترف تعليم الصبيان حتى دخل «ملالة»

على فرسخ من بجاية ، وفيها ساقه القدر الى الاجتماع بمحمد بن تومرت عند مقدمه من المشرق فاخذ عنه العلم واقتصر عليه في الطلب فاصطفاه ابن تومرت وانتخبه من بين الطلبة لما لمح فيه من النبوغ والعبقرية ، واصطحبه معه الى المغرب الاقصى ، وهنالك تظافرا معاً على تقويض دعائم دولة المرابطين واقامة دولة الموحدين ، الى ان توفي ابن تومرت فبويع عبد المؤمن بالخلافة في منتصف رمضان ٥٢٤هـ - اوط ١١٣٠م .

اشاد عبد المؤمن صرح هذه الدولة الناشئة فنشر اعلامها بكامل اقطار المغرب العربي والاندلس ايضاً وكان له طموح الى فتح بلاد مصر وما وراءها من العالم الاسلامي كله ، ويومئذ اصبحت هذه الدولة تعرف ايضاً باسم « المؤمنية » نسبة اليه ، وكان رحمه الله داهية في السياسة ، وعالماً حازماً. قال من رآه: رأيته شيخاً أبيض ؛ معتدل القامة ، ذا جسم عمم ، تعلوه حمرة ، وضيء الوجه ، عظيم الهامة ، اشهل العينين ، كث اللحية ، خشن الكفين ، طويل القعدة ، واضح بياض الاسنان ، بخده الايمن خال ؛ فصيح الالفاظ جزل المنطق[١] .

تثبيت قدمه في الملك

كان من الخطط التي رسمها عبد المؤمن لتوطيد دعائم ملكه ان بادر الى انتزاع الامر من يد اهل السوس قوم ابن تومرت وجعله في قومه الجزائريين ، فاستقدمهم اليه واجتهد في تهذيبهم وتنشئتهم نشأة رياضية صناعية حربية ؛ وجعل بينهم نحو ثلاثة آلاف شاب من اذكياء المصامدة وغيرهم ممن اختارهم من فطناء المغرب حتى حذقوا الفنون والآداب وبان شاوهم على غيرهم ، فعرضهم يوماً على اشياخ الموحدين وقال لهم كلمته الصريحة الصارخة : العلماء اولى منكم ايها الاشياخ ! .. مشيراً الى تقديم هذا الشباب المثقف الناهض ؛ فتخلى حينئذ هؤلاء الشيوخ عن وظائفهم ومناصبهم الحكومية ونزلوا عن

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٩١ والمعجب ص ١٤٢.

ولاياتهم لاولى العرفان من هـــذه الناشئة الصالحة ، وعزل عبد المؤمن يومئذ خليفته ابا حفص عمر الهنتاني عن ولاية العهد وجعلها في ابنه محمد ، ثم قدم عليه اخاه ابا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، ثم لحق بعبد المؤمن نحو الاربعين الف فارس من قومه فنزلوا عليه سنة ٥٥٧ ﻫ – ١١٦١م وهكذا بقي يعمـل على تقديم ذويه واقربائه في الحكم حتى تم لهم الامر الى النهاية .

الاستيلاء على ولاية تلمسان

بعـد ان تمكن قـــدم عبد المؤمن في الملك واشتدت عرى دولته ورست قواعدها بالسوس ؛ شرع في بسط نفوذه على انحـاء المغرب الاوسط فتحرك بجنوده سنة ٥٣٤ ﻫ – ١١٣٩ م متوجهاً الى اعمـال تلمسان ، فمر في طريقه على الريف فاستولى عليه ، ثم عرج مشرقاً على احواز تلمسان ، وهناك اصطدم بجيش المرابطين ، وبينما الحرب قائمة بين الفريقين اذ لمح عبد المؤمن ثلمـــة في جيش العدو فاسرع الى محاصرة تلمسان واحاط بها من جهاتها الاربـع ؛ وكان جيشه مركباً من اربـع فرق : فرقة تجـاه العدو وسلاحهـــا المزارق الطوال المرتكزة بالارض مائلة ؛ وهـــذه الفرقة عندهم هي اشجـع فرق الفرسان ؛ وفرقة متترسة مدرعة ، وفرقتان تحمـل القسي والمقالـع : وهناك في الوسط فرقة الفرسان التي تنفرج تارة عنها الجيوش فتغدو على العـــدو منكلة به ثم تروح فتعود الى وسط ذلك الشكل المربـع من الجند فتختفي من بينه وهكذا دواليك ... وتفرق آخرون من الموحدين يقاتلون في جهات متفرقة ونواحى متعددة بقصد التشويش على العدو فاعترضتهم سيول بعض الاودية من بـــلاد صنهاجة فامر عبد المؤمن بضرب سد على ذلك النهر حتى اذا طغى الماء امرهم حينئذ برض ذلك السد وتحطيمه فاندفعت الميـاه متدفقة نحو العدو فتحطمت حصونه وتغلب الموحدون على صنهاجة .

جرت هذه الوقائع وامـير المسلمين يومئذ علي بن يوسف بن تاشفين مقيم بـ « كهف الضحاك » بين الصخرتين من جبل تيطري المطل على تلمسان ، ولما

شعر بالهزيمة دعا باسطوله المقيم في الاندلس واستنجد ايضاً بيحيى بن العزيز الحمادي فجاءته النجدة من بجاية براً وبحراً ، وكان على الجيش الحمادي طاهر ابن كباب، وعلى الاسطول ميمون بن حمدون قائد البحر الاعلى ، وما كادت هذه الحامية تتصل بمیناء وهران حتى فاجأها الموحدون وضربوا عليها الحصار وأضرموا النار حولها ، وخرج منها تاشفين ليلاً في جماعة يسيرة فصعد الى الرباط العظيم المنشأ في ربوة « صلب الكلب » المطل على وهران؛ ويقال ان صعود الامير هكذا كان ليلة السابع والعشرين من رمضان ليحضر الختم من سنة ٥٣٧ هـ - ١١٤٢ م وكان عبد المؤمن يومئذ في جمعه بتاجرة وهي موطنه من بلاد ندرومة ، وقد ارسل الجند الى وهران بقيادة الشيخ ابي حفص عمر ابن يحيى الهنتاتي صاحب المهدي ، فكمنوا هنالك عشية واعلموا بانفراد تاشفين عن الحامية في ذلك الرباط فقصدوه واحاطوا به واحرقوا بابه فايقن القوم الذين فيه بالهلاك، فخرج تاشفين راكباً فرسه وشد الركض عليه ليثب الفرس عن النار وينجو ، فترامى الفرس نازيا لروعته ولم يملكه اللجام حتى تردى من جرف هنالك الى جهة البحر على الصخر في وعر فتكسر الفرس وهلك تاشفين في الوقت نفسه وقتل الخواص الذين كانوا معه ونقل رأسه الى تينملل ؛ وكان عسكره في ناحية اخرى بعيداً عنه بحيث لم يدر بما جرى للملك في تلك الليلة ، وجاء الخبر بعد ذلك الى عبد المؤمن فوصل الى وهران ، وسمى ذلك الموضع الذي فيه الرباط « صلب الفتح » بدلاً عن صلب الكلب [1] .

ويومئذ نزلت جيوش الموحدين سهل منداس وسط بلاد زناتة ، فأثخنت فيهم قتلاً وأسراً حتى اذا ذعنوا لطاعة عبد المؤمن . وفر ميمون بن حمدون الى متيجة ومنها كتب الى عبد المؤمن بالطاعة والولاء ، ثم توجه الخليفة الى وهران فاحتلها بعد تخريبها صبيحة عيد الفطر ٥٣٩ هـ (مارس ١١٤٥ م) ثم توجه بعدها الى تلمسان فاقام بها سبعة اشهر اشتغل فيها بتنظيم شؤون الدولة والادارة واصلاح ما جرته الحرب من الفساد وولى عليها سليمان بن محمد بن

(١) انظر ابن خلكان ج ٢ ص ٤٨٩ والحلل الموشية ص ١٠٦ - ١١٠

وانودين الهنتاتي وترك معه ولده يوسف معاضدا له وناصرا ، ويقال أنه ترك ابراهيم بن جامع محاصراً لتلمسان ثم عاد الى مركزه من المغرب الاقصى مشتغلاً بفتوحاته هناك وفي الاندلس ايضاً . ثم في سنة ٥٤٤ هـ - ١١٤٩ م تم للموحدين فتح مدينة مليانة واحوازها ، وبذلك انتهى حكم المرابطين بالمغرب الاوسط تماماً .

الاستيلاء على ولاية بجاية

كان من الطبيعي ان يتابع عبد المؤمن فتوحاته بالجزائر بعد ما امتلك منها جميع اعمالها الغربية فتقدم اذا نحو الشرق في عشرين ألف فارس ولم يظهر اتجاهه الى الجزائر حتى فاجأها بغزو نواحي وانشريس فاحتلها سنة ٥٤٧ هـ ١١٥٢ م وجال في نواحي « سيوسرات » - فحص سيق - ودخل مليانة ، والملك الحمادي يحيى بن عبد العزيز يومئذ في غفلة عن كل هذا منغمساً في لهوه وقصفه ، فما راعه إلا وعبد المؤمن مخيم بمدينة المدية واحتل معها الجزائر صلحاً ، فخرج منها صاحبها القائد منهزماً الى أخيه ملك بجاية ، فلحقه عبد المؤمن في جنوده تاركاً على الجزائر الحسن بن علي آخر ملوك المهدية ، وكان ملتجئاً بها ، وهناك وجد الوزير الحمادي أبا محمد ميمون بن علي بن حمدون مستعداً لفتح أبواب المدينة للموحدين بناء على ما سبق بينهما من الاتفاق السري في ذلك . فاقتحم عبد المؤمن عاصمة بني حماد في ذي القعدة سنة ٥٤٧ هـ - فيفري ١١٥٢ م وانهزم عنها صاحبها يحيى بن العزيز راكباً متن البحر الى بونة حيث كان أخوه الحارث والياً بها ، ومنها انتقل الى قسنطينة ، ومكث عبد المؤمن ببجاية مدة شهرين استكمل فيهما توطيد ملكه بها ثم غادرها الى مركزه بمراكش .

ولقد شاهد هذا الفتح مع عبد المؤمن الشاعر ابو عبد الله محمد بن حبوس الفاسي فقال :

من القوم بالقرب تصغي إلي حديثهم اذن المشرق

جروا والمنايا الى غاية فلم يسبقوها ولم تسبق
بأيديهم النار مشبوبة فمهما تصب باطلا تحرق
يقودهم ملك اروع تفرد بالسؤدد المطلق
تخيره الله من آدم فما زال منحدراً يرتقي
الى «الناصرية» سرنا معاً ولما تفتنا ولم تلحق
الى برزة في ذرى أرعن تجل عن السور والخندق
يعوذون منا بمولاهم ومولاهم عاد بالزورق
واكسبه خوفه خفة فلو خاض في البحر لم يغرق

ولما رأى القوم تقاعس ملكهم الحمادي واحجامه عن مقاتلة الموحدين اجتمعوا على ترئيس أبي قصبة وتقديمه عليهم فحاربوا تحت لوائه وقاتلوا جيوش عبد المؤمن مقاتلة عنيفة بعرض الجبل شرقي بجاية ، فتضاعفت خيبتهم بقتل عدد كبير منهم ؛ وضل الموحدون يتابعون زحفهم الى القلعة الحمادية وهي يومئذ أحصن القلاع ففتحوها وعملوا فيها معاول الهدم والتخريب ومات من أهلها يومئذ ثمانية عشر الفاً كان فيهم عاملها جوشن بن العزيز .

وقعة سطيف واستسلام قسنطينة

اشتد العصاة من رؤساء النواحي الجزائرية في مقاومتهم ضد حكومة الموحدين ضناً منهم بمناصبهم في الرئاسة وحباً في الحرية الشخصية فصبحهم عبد المؤمن في ثلاثين ألف فارس ومعه حلفاؤه من العرب ؛ وخرج الجميع لقتال المنشقين تحت قيادة عبد الله بن عمر الهنتاتي، وكان اللقاء بينهم في سهول سطيف ؛ فانتشر الموحدون أولاً بالجبال وأظهروا انهزامهم أمام العدو حتى اذا ما تقدم إليهم فانهالوا عليه كسيل العرم واوقدوا عليه الحرب ثلاثة أيام (اوائل صفر ٥٤٨ هـ - اواخر افريل ١١٥٣ م) وفي اليوم الرابع انكشف فيه الحال عن انهزام الثائرين وانحيازهم عن الميدان . فتفرق جند الموحدين يومئذ الى فرقتين ؛ فرقة اندفعت خلف المنهزمين فأدركتهم بتبسة فأسرتهم وسبت أموالهم ، والثانية يممت مدينة قسنطينة فحاصرتها وضيقت عليها

الخناق فاستسلم بها يومئذ يحيى بن العزيز آخر ملوك بني حماد ونزل عن عرشه مبايعاً للخليفة عبد المؤمن .

فتح بونة

لقد تحقق الحارث بن العزيز والي بونة – عنابة – بالخطر الداهم وأدرك لا محالة بأنه هامة اليوم أو غد ، فبادر من حينه الى الاستغاثة بالنورمان والاحتماء بقواتهم العسكرية ، فأجابه هؤلاء الى رغبته التي هي أمنيتهم من قبل ، وجهزوا له اسطولاً ضخماً تحت قيادة فيليب المهدوي ، وحلت سفن النورمان هذه بمياه بونة في رجب ٥٤٨ ﻫ (سبتمبر ١١٥٣ م) حامية لها من حملة الموحدين بحراً ، يؤازرها عرب الناحية من جهة البر ، ومكث القوم على ذلك عشرة أيام ثم ارتحل عنهم النورمان وبقي الحارث بها على ولايته تحت طاعة النورمان الى سنة ٥٥١ ﻫ (١١٥٦ م) حيث أعاد الموحدون كرتهم عليها ففتحوها عنوة وقتلوا صاحبها صبرا وبذلك تم للموحدين الاستيلاء على القطر الجزائري كله من جهاته الأربع وانقطعت عنه آمال النورمان الذين طالما تحلبت أفواههم وشفاههم عليه .

أمارة الثعالبة بمتيجة

ان اول ما نزل أعراب المعقل بن ربيعة من بني الحارث بأرض الجزائر في أواسط القرن الخامس الهجري أن نزلوا بمساكن بني ملكان بن كرت الصنهاجيين مما يلي ملوية ،– آخر مواطن بني هلال – ؛ وكان من بين اعراب المعقل هؤلاء الثعالبة من ولد ثعلب بن علي ، فتنقلوا بمواطن عديدة ؛ منها المدية وجبل تيطري حيث كانت توجد المدينة الكبيرة أشير ؛ ثم أزيحوا عن هذا المكان أيام استيلاء بني توجين عليه فانحدروا الى بسيط متيجة فسكنوا بسهوله محتمين بصنهاجة حتى اذا غلب المرابطون على المغرب الاوسط وقضوا على ملك صنهاجة استبد الثعالبة بهذا البسيط الفسيح من ارض متيجة ورسخ قدمهم فيه الى ان كان قفول محمد بن عبد الله تومرت من المشرق فمر بطريقه

على متيجة فتعرف اليه الثعالبة واكرموا نزله وأخذوا عنه مروياته وأصبحوا من أشياعه محافظين على ولائه الى أن ظهر أمره بالمغرب وفتح الموحدون الجزائر ، فأسندت يومئذ امارة متيجة والمدية ومقاطعة تيطري الى هؤلاء الثعالبة ٥٤٨ هـ – ١١٥٣ م ، وكانت أمارتهم في بني سباع بن ثعلب .

فتمكن الثعالبة يومئـذ من بسط نفوذهم ونشر سلطانهم على متيجة الى وادي سيق ، وبنوا بتلك النواحي نحو الثلاثين حصناً ؛ ولقـد بالغ امراء الموحـدين في اكرامهم وتقديرهم نظراً الى موقفهم المشكور تجاه المهدي بن تومرت .

وفاة عبد المؤمن

لم يلبث عبد المؤمن بعد فتح الجزائر إلا قليلاً حتى امتلك تونس بأعمالها ودخلت تحت طاعته فأعاد بذلك الى شمـال افريقية وحدته السياسية ، ثم تقدم الى فتح بلاد الأندلس فأخضعها ، وفي عودته منها أدركه الحمام في مدينة سلا فتوفى يوم الاحد ٢٧ جمادى الثانية ٥٥٨ هـ (فاتح جوان ١١٦٣) وقد بلغ من العمر نيفاً وسبعين سنة ونقل جثمانه الى « تينملل » فدفن بازاء ضريح المهدي محمـد بن عبد الله تومرت ، فكانت مدة ولايته ٣٣ سنة و ٧ اشهر و ١٥ يوماً .

اعقاب عبد المؤمن :

مات عبد المؤمن عن ستة عشر ذكراً وبنتين والذي خلفه في الملك من ابنائه هو ابو يعقوب يوسف فكانت مبايعته في شعبان سنة ٥٥٨هـ (جوليبط ١١٦٣ م) وتلقب بامير المؤمنين وسار بسيرة والده مجتهداً في اعلاء شـأن الدولة والرعية ، وكان عالماً متضلعاً جماعاً للكتب راجح العقل كريماً . غزا الاندلس فطعن تحت سرته في معركة حربية هنـاك فمات شهيداً يوم السبت ٧ رجب سنة ٥٨٠هـ (١٤ اكتوبر ١١٨٤م) وجيء به الى المغرب فدفن بجوار والده رحمها الله ، فخلفه ولده يعقوب المنصور ، وكان كأبيه وجده علماً وديناً

وسياسة وهو الذي عمل على اظهار ابهة ملك الموحدين وعظمة سلطانهم،وكان من اهم حوادث الجزائر على عهده حملة بني غانية التي سنحدثك عنها :

بنو ابن غانية

كان علي بن يحي المسوفي – نسبة الى قبيلة مسوفة بصحراء لمتونة – مقربا لدى أمير المسلمين علي بن تاشفين ملك المرابطين ، فتزوج امرأة من حظايا القصر تدعى « غانية » ، فولدت له محمداً ويحيى وكلاهما نشأ في بلاط المرابطين تحت رعاية أمير المسلمين ؛ وقد كان لهذه الدولة يومئذ ملك المغرب والاندلس.

عقد المرابطون لمحمد بن غانية على الجزائر الشرقية (جزائر الباليار) : ميورقة ، ومينورقة ، ويابسة ، فنزل بالاولى سنة ٥٣٠هـ (١١٢٦م)واشتهر بالميورقي وبقي هنالك حتى هلك فخلفه عليها ابنه اسحاق؛وفي ايامه كان سقوط دولة المرابطين وانهيار ملكهم ؛ فوجه اليه الموحدون من يأخذ لهم البيعة عنه فأبى ورفض الدخول تحت طاعتهم ، وأوصى بذلك بنيه منهم علي ويحيى ، ولما استشهد اسحاق سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) قام بالامر بعده ولده علي ، وهو صاحب الثورة الكبرى والوقائع الدامية الآتية الذكر :

حملة بني ابن غانية

كانت امارة بني غانية بجزائر الباليار مهددة بالسقوط في يد الموحدين، فلما توفي الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن نشط بنو غانية الميورقيون لأخذ ثأر أخوالهم المرابطين انتقاماً من الموحدين فعملوا على تقويض دعائم ملكهم بالاندلس ونقض بيعتهم ومقاومة نفوذهم هنالك ، وظنوا ان فرصة الانتصار قد حانت بموت ابي يعقوب وان حبل الموحدين سيضطرب لا محالة وتختلف الكلمة بينهم وبين البربر المحافظين ، وزادهم نشاطاً في حركتهم هذه طول غيبة الامير يعقوب بن يوسف عن دار الامارة بالمغرب وانقطاعه للجهاد بالاندلس منذ ثلاث سنوات ، فتحقق لديهم خلو الجو للتظاهر ضد الموحدين والعمل على تحطيم سلطانهم بافريقية ، ويضاف الى ذلك ما قام به جماعة

الناقمين من اعيان بجايـــة ، فان هؤلاء راسلوا ابن غانية يحثونه على غزو الجزائر واقامة دعوة المرابطين بها ، وانهم لا يزالون على وفائهم لامرة بيت الملك من بني تاشفين الملثمين ، وحينئذ نادى امير جزائر الباليـار علي الميورقي باقامة صرح عرش دولة المرابطين بالجزائر الشرقية واعلن مجاهراً بخروجه عن طاعة الموحدين .

مهاجمة بجاية

بينما الناس قائمون في صلاة الجمعة من يوم ٦ شعبان سنة ٥٨٠ هـ (١٢ نفمبر ١١٨٤ م)اذ فاجأهم اسطول المرابطين تحت امارةالميروقي علي بنغانية، وكان الاسطول يشتمل على ٣٢سفينة حربيةتحمل معها٣٠٠فارس و٤٠٠٠راجل نزلوا كلهم بساحل بجاية بناحية« المذبح »في مكان بيعالسبي من جهة الربضفاحتلوا اولاًجبـــل الخليفة ودخلوا المدينة من باب اللوز ولم يكن إذ ذاك مسوّراً وصادف يومئذ خلو المدينة من الحامية وغياب عاملهـــا ابي الربيع سليمان بن عبدالله بن عبد المؤمن في جيشه خـارج البلاد . فانتهز الميورقي كل ذلك لفتح قصبة المدينة وركز علمه الاسود فيهـــا ، ثم يمم المسجد فاحاطت جنوده به احاطة السوار بالمعصم ؛ فما راع اهـل بجاية الا والحصار مضروب عليهم من كل ناحية فارغموا على مبايعة ابن غانية باسم الخلافة العباسيةوشذ عنه آخرون. ثم كانت هــــذه المباغتة الحربية بعد ذلك سبباً في غلق النـاس ابواب المدينة وقت تأدية الصلاة من يوم الجمعة فاتخذها غيرهم سنة .

التحام الحرب

بادر ابو الربيع بالعودة الى مركز ولايته فسار سيراً حثيثاً الى بجاية وكان في قـــل من الفرسان اذ لم يكن معه يومئذ سوى ثلاثمائة فارس ، فانضم اليه عامل القلعة وكان سائراً في طريقه الى مراكش والتحق بهما ايضاً نحو الف فـارس من القبائل المجاورة وكان هنالك منالأعراب الهلاليين من نقم على حكومة الموحدين فانضم منهم نحو الف فارس الى عصابة ابن غانية وانتشب

القتال بين الطائفتين فتقاعس جند الموحدين عن المقاومة وصار اكثره الى اشياع ابن غانية فانهزم ابو الربيع فيمن بقي معه الى تلمسان وثمل ابن غانية بنشوة الانتصار فتحمس لاتمام خطته في الفتح .

انتصار علي بن غانية على الجزائر

مكث علي بن غانية اسبوعاً واحداً ببجاية ريثما اقام بها تنظيمات حكومته الجديدة فاستخلف عليها اخاه يحيى وقدم للخطبة بها العلامة ابا محمد عبدالحق الاشبيلي ثم خرج لشأنه فدحر الموحدين بسهول متيجة واستولى على مدينة الجزائر وموزاية والمدية واشير ومليانة ومازونة وتلمسان ووهران وامتلك قلعة بني حماد ، وولى على جميعها اقاربه وبني عمه ثم توجه الى قسنطينة فاطال حصارها ولم يقو على فتحها .

حملة يعقوب المنصور

ما كادت تنتهي اخبار حوادث ابن غانية وهجوماته على الجزائر الى آذان الخليفة يعقوب المنصور وهو منصرف عن الاندلس حتى بادر بالاجهاز على العدو والقضاء على الثوار من اتباعه ، فنظم حملة عنيفة ضد الخصم وجعل قيادة الجيوش فيها لابن عمه السيد ابي زيد بن عمر بن عبد المؤمن ، واسند قيادة الاسطول لابي محمد بن جامع ؛ فنزلت الكتائب اولاً مدينة الجزائر فامتلكتها وفيها علمت من طرف مشيختها بعزم الميورقي على نقل سكان بجاية من الموحدين وحملهم معه الى ميورقة ! ...

فبادر الموحدون على جناح السرعة الى بجاية فدخلوها في صفر ٥٨١ هـ (ماي ١١٨٥ م) فاستولوا على اسطول ابن غانية الموجود بمرفأها ، وادرك يحيى بن غانية انه لا قبل له بمقاومة الموحدين فخرج مع اخيه عبدالله ومن كان معه من اشياع المرابطين فالتحقوا بعلي بن غانية وهو يومئذ محاصر لمدينة قسنطينة ، فادركهم الموحدون هنالك فطاردوهم بها واجلوهم عن الوطن الجزائري كله وساروا خلفهم الى مقرة ونقاوس وخرج علي حينئذ الى

الصحراء ، ثم كان ظهور بني بن غانية بعد ذلك في ولاية تونس فاحدثوا بها قلاقل واستولوا على بعض الجهات منها . وتوفي علي بارض نفزاوة من ناحية الجريد سنة ٥٨٤ ﻫ (١١٨٨م) فقام بعده اخوه يحيى

قيام يحيى بن غانية

لقد كانت نهضة يحيى هذه سنة ٥٩٧ (١٢٠٠ م) أي بعد ان مضى على وفاة أخيه علي ثلاث عشرة سنة . فظهر يحيى بمظهر القوة والبأس وأعانه في ذلك بنو هلال وسُليم فزحف على القطر الجزائري ، فقاومه والي بجاية ابو الحسن بنواحي قسنطينة فارتحل يحيى الى أرجاء الصحراء فاحتل بسكرة ونكل بأهلها وسجن عاملها ، واستولى على تبسة وبونة – عنابة – ثم عاد الى حصار قسنطينة فأجلاه عنها الموحدون ، فارتحل يومئذ الى بجاية .

ودخلت السنة الثانية من يوم اعلان هذه الحرب ؛ فخرج الخليفة محمد الناصر ابن يعقوب بنفسه وجاء من حاضرته مراكش فنزل بمدينة الجزائر آخذاً في اعداد الجيش والاسطول لشن الغارة على مواطن ابن غانية بالجزائر الشرقية ـ الباليار ـ انتقاماً منه وإشغالاً له عن المغرب ، وفي تلك الاثناء احتل يحيى مدينة بجاية سنة ٥٩٩ ﻫ (١٢٠٢ م) وبسط عليها نفوذه مدة سنتين .

ويومئذ عمل الخليفة الناصر على استرجاع مدينة بجاية وانتزاعها من يد يحيى فاحتلها الموحدون سنة ٦٠١ ﻫ (١٢٠٤م) ثم ألحقها الخليفة بولاية تونس يوم ١٠ شوال ٦٠٣ ﻫ (١٠ ماي ١٢٠٧م) وجعل على رأس هذه الولاية أبا محمد عبد الواحد بن أبي حفص جد الأسرة الحفصية المتملكة بعد ذلك بتونس .

وحينما كان الخليفة منصرفاً الى المغرب الاقصى منسلخ شهر ربيع الاول سنة ٦٠٤ ﻫ (اكتوبر ١٢٠٧) اعترضه يحيى بن غانية في جيش عظيم فيه من العرب والبربر ؛ فكانت بينهما مقتلة عظيمة بسهل شلف انهزم فيها يحيى شر هزيمة ، وعادت البلاد الى طاعة الموحدين ، وفتر ذكر ابن غانية حيناً من

الدهر ، فبقي يعمل مختفياً على استرجاع قواه حتى اشتد ساعده فأظهر شوكته بنواحي تيهرت وحمل على قوات الموحدين الموزعة هناك ، فقضى على الحامية واحتل تيهرت ودمرها سنة ٦٠٦ ﻫ (١٢٠٩م) وقتل عاملها يومئذ أبا عمران موسى بن محمد حفيد عبدالمؤمن ، فكان ذلك آخر العهد بعمران تيهرت القديمة.

ثم نهض ابن أبي حفص عامل أفريقية سنة ٦١٨ ﻫ (١٢٢١م) فقضى على حركة ابن غانية هذه وكسر من شوكته ففت في عضد يحيى وخمل ذكره فالتحق يومئذ بارض الزاب وبقي هناك مشرداً يتنقل في القرى والمداشر ، ثم اجلى عن تلك البلاد سنة ٦٢٢ ﻫ (١٢٢٥ م) فخرج في جماعته قاصداً مدينة الجزائر فلقيه بمتيجة منديل بن عبدالرحمن المغراوي قافلاً بجنوده من وانشريس والمدية بعدما اخضعهما ؛ فانتشبت بينهما الحرب فقتل منديل صبرا وجاء به يحيى الى مدينة الجزائر فنصب جثته على باب المدينة مصلوبة ومكث يحيى بالجزائر مثيراً لنقع الفتن في اعمالها الى سنة ٦٢٥ ﻫ (١٢٢٨ م) حيث تجرد لقتاله ابو زكريا الحفصي فاصلت عليه السيف وطارده حيثما كان فبقي يحيى مشرداً في البلاد مهزوم القوى مضعضع الدعائم الى أن أدركه حمامه بوادي شلف وقيل بالزاب سنة ٦٣١ ﻫ (١٢٣٣ م) وقيل بعد ذلك بسنتين ؟ وبموته انقرض ملك لمتونة وانتهت الاضطرابات السياسية بالجزائر ، وكان ممن شارك في مقاومة حملات بني غانية من القبائل الجزائرية قبيلة زناتة الشهيرة الذكر ، وما اعقبت حركة بني غانية هذه إلا وبالاً وخسراناً في النفوس والاموال ، وما كانت على مثيرها إلا حسرات إذ لم يجن منها أحد شيئاً إلا الخراب والتدمير ففيها كان خراب تيهرت ومتيجة وشلف والقلعة وحمزة ومرسي والدجاج وأرشقول بسيف البحر وغيرها من المدن والقرى الجزائرية ولم ينج من ذلك إلا مدينة قسنطينة لما منحتها الطبيعة من حصانة ومناعة ، وقد كاد النصر ان يكون في جانب بني غانية لولا ان الموحدين احكموا سياستهم القبلية فعرفوا كيف يتمكنون من ناصية العرب والبربر جميعاً فكانت لهم بذلك الغلبة على بني بن غانية .

تأسيس مدينة مازونة

كان اختطاط هذه المدينة بعمالة وهران سنة ٥٦٥ ﻫ (١١٧٠ م) على يد بني منديل بن عبد الرحمن المغراوي أشهر زعماء قبيلة مغراوة التي هي احدى فصائل القبيلة الجزائرية الكبرى زناتة ؛ ولقد اشتهرت هذه المدينة بحسن الموقع وجماله وعذوبة الماء وطيب التربة وخصوبة المكان وانتشار العمران. وسميت كذلك باسم احدى فصائل مغراوة والزناتية : مازونة.

قال الادريسي : ومدينة مازونة على ستة أميال من البحر ، وهي مدينة بين أجبل في أسفل خندق ، ولها انهار ومزارع وبساتين وأسواق عامرة ومساكن مونقة ، ولسوقها يوم معلوم يجتمع اليه أصناف من البربر بضروب من الفواكه والأبل والسمن والعسل كثير بها ، وهي من أحسن البلاد صفة وأكثرها فواكه وخصباً [١].

انشقاق بني عبد الواد واستبدادهم بملك تلمسان :

كان قبيل بني عبدالواد المقيم يومئذ في مواطنه باحواز تلمسان من اخلص القبائل الموالية لدولة الموحدين وأوفاها ذمة ، فمنحهم الموحدون واثابوهم على موقفهم هذا باقطاعهم بلاد بني وامانو وبني يلومي بتلك النواحي التلمسانية ثم عقد الخليفة ابو العلاء ادريس بن المأمون لابي محمد جابر بن يوسف شيخ بني الواد على تلمسان سنة ٦٢٧ﻫ (١٢٣٠ م) وقد كان أمر هذه الولاية من قبل الى صنهاجة ، فاستبد يومئذ ابو محمد بهذه الولاية ونازع بني عبد المؤمن في الملك عليها وأورثها بنيه من بعده واستمر الحكم في اعقابه الى سنة ٦٣٣ﻫ(١٢٣٥م) حيث تسلط بنو عبد الواد على هذه الامارة بالقوة وقطعوا عنها دعوة الموحدين واسسوا بها ملكهم وديارهم ، وتعددت الوقائع والحروب بينهم وبين الموحدين وكان النصر فيها سجالاً .. وهكذا الى ان تغلب يغمراسن بن زيان على الخليفة ابن الحسن الملقب بالمعتصم فقتله سنة ٦٤٦ﻫ (١٣٤٨م) وخلص المغرب

(١) نزهة المشتاق ص ١٠٠ ط ليدن ١٨٦٤ م .

الاوسط - الجزائر يومئذ لبني زيان من بني عبد الواد .

استبداد الحفصيين بولاية بجاية :

كنا ألمعنا فيما سبق الى الحاق الدولة لمقاطعة بجاية باعمال تونس واسنادها الى ابي محمد عبد الواحد بن ابي حفص سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٧م) ، فلما توفي خلفه ابنه عبدالله ثم ابو زكريا يحيي بن عبد الواحد الى سنة ٦٢٧هـ(١٢٢٩م) فاظهر هذا نقض بيعة الموحدين واعلن استقلاله بهذه الامارة ، وحينئذ اقتطع عنه الخليفة اعمال بجاية فعزله عنها وجعل عليها ابا عمران موسى بن محمد بن يعقوب المنصور فحقد ابو زكريا لذلك واعلن الحرب في وجه الموحدين وجاء الى الجزائر غازياً سنة ٦١٧هـ (١٢٣٠م) ففتح بجاية وقسنطينة واقام بتونس والجزائر يومئذ دعوة الحفصيين .

وتحقق بنو مرين يومئذ من ضعف دولة الموحدين باضطراب حبل المملكة وخروج اعمال تلمسان وبجاية وقسنطينة وتونس عنهم . فاهتبلوها فرصة واستبدوا هم كذلك بمواطنهم في بوادي المغرب الاقصى ، ويومئذ خشي الموحدون من تدهور دولتهم وسقوطها بيد هؤلاء المنافسين والمزاحمين فاستنجد الخليفة أبو دبوس بأمير تلمسان يغمراسن لينصره على بني مرين ، فشن يغمراسن غاراته على بلاد المغرب الأقصى ونواحي ملوية ، وبعث ببيعته وميثاقه لابي دبوس في ذي القعدة سنة ٥٦٦ هـ (ماي ١٢٦٧ م) ثم كانت هنالك ملحمة وادي تلاغ المشهورة - قرب وادي ملوية - فانهزم فيها يغمراسن يوم ١٢ جمادى الثانية ٦٦٦ هـ (٢٨ فيفري ١٢٦٨ م) ورجع الى حضرته مدحوراً .

حركات الاسطول

لقد امتازت دولة الموحدين عن سواها من دول المغرب والمشرق يومئذ بقوتها البحرية وكثرة أساطيلها المتنوعة الاشكال ، ففيها من الطرائد والمسطحات والشواني والحراريق والزوارق والمراكب شيء كثير ، بلغت ايام عبد المؤمن الى أربعمائة قطعة حربية ، ومنها مائة قطعة كانت مرابطة بمرسى

وهران وهنين ولقد كانت السفينة الواحدة منها تحمل بضعة آلاف من الرجال، ولم يكن في السفن يومئذ ذات الطبقتين غير سفن هذا البحر ، فهي اكبر من سفن المحيط ، وكلها كانت تصنع بدور الصناعة المنتشرة بكامل عواصم المغرب البحرية ؛ فكان منها بالجزائر ثلاث : في وهران وهنين وبونة – عنابة – وبهذه الاساطيل افتتح الموحدون كثيراً من السواحل وتغلبوا على براعة النورمان ، وحاربوا في وقائع بحرية شهيرة بالأندلس وغيرها ، فهددوا كثيراً من سواحل أوروبا واستولوا عليها ، فكانت بذلك دولة الموحدين من أقوى دول العالم البحرية وأفخمها ، وقد حازت بذلك شهرة عظيمة ، قال ابن خلدون : ولما استفحلت دولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وكان قائد اسطولهم أحمد الصقلي أصله من « صدغيار » المواطنين بجزيرة جربة من سدويكش ... أجاز الى مراكش فتلقاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بالمبرة والكرامة واجزل الصلة وقلده امر أساطيله فجلى في جهاد امم النصرانية ، وكانت له آثار واخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين وانتهت اساطيل المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة الى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه [1] .

وكان لشهرة اسطول الموحدين وسيادته على البحار ان استنجد به بطل الاسلام السلطان صلاح الدين الايوبي في حروبه الصليبية كما تنص عليه رسالته التي جاوبها رسوله ابن منقذ الى الامير يعقوب المنصور المؤرخة بيوم ٢٨ شعبان سنة ٥٨٦ هـ (فاتح اكتوبر ١١٩٠ م) [2] قال ابن خلدون : وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالأساطيل ولئن تخلف المنصور عن نجدة صلاح الدين واعتذر عن نصرته يومئذ فانما كان ذلك اقتصاصاً من الأمير الايوبي حيث ترك خليفته « قاره قوش الغزي » يقف ضد الموحدين ايام ثورة بني ابن غانية

(١) مقدمة ابن خلدون ص ١٢٤ ط بولاق ١٢٧٤ هـ .

(٢) راجع كتاب الروضتين لابن شامة ج ٣ ص ١٧٠ و ١٧٦ ط القاهرة ١٣٨٨ هـ .

فكان صلاح الدين لذلك يعتبر في نظر سياسة الموحدين عدواً تجب مقاطعته ، على ان اسطول الموحدين يومئذ لم يكن عاطلاً بطالاً ، بل كان يعمل هوبدوره كذلك على محاربة الصليبيين بالمشرق ، كما ان له فضلاً كبيراً في منع الصليبيين والعمل على عرقلتهم هنا عن اتصالهم ببلاد الشام . مع اشتغاله برد هجمات ابن غانية عن المغرب ، ويقول م . بوني موري في كتابه « الاسلام والنصرانية في افريقية » ان تخلف المغاربة عن النجدة كان بسبب علاقاتهم التجارية مع اوروبا ، ولم يكونوا يطالبونهم بممالك وبلدان كما كانوا يطالبون مسلمي الشرق ويتقاضونهم ان يتخلوا لهم عن بيت المقدس . ورغم ذلك فانه يرى ان خليفة الموحدين بعث بثمانين ومائة قطعة حربية الى صلاح الدين ؟ ... ومنع النصارى من سواحل الشام (١) .

معاملة اهل الكتاب

لقد بلغ من شدة تعصب دولة الموحدين للاسلام والدفاع عن حوزته ان اصدرت الحكومة امرها لجميع من يوجد بالمغرب الاسلامي من اهل الكتاب ان يختار اي الحلين شاء : الاسلام او الجلاء؛فكان ذلك سبباً في اسلام كثيرمن اليهود والنصارى او استسلامهم بالمغرب ومنهم من هاجر من البلاد وخرج عنها الى اوروبا .

وللموحدين في ذلك اسوة حسنة بسنة عمر بن الخطاب رضى الله عنه في اجلاء اهل الكتاب عن الجزيرة العربية وتعويضهم عن قيمة ما كان لهم من الثمر مالاً وابلاً وعروضاً ؛ عملاً بقوله صلى الله عليه وسلم عند موته : اخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب ؛ وإلى هذا ذهبت طائفة من كبار علماء الاسلام كمحمد بن جرير الطبري وغيره حيث قالوا : ان الكفار لا يقرون في بلاد المسلمين بالجزية الا اذا كان المسلمون محتاجين اليهم . فاذا استغنوا عنهم اجلوهم كاهل خيبر حيث قال لهم الرسول في اول الامر : نقركم فيها ما شئنا

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ٣٤٦ ط بولاق ١٣٨٤ ه .

واعملهم على المساقاة [1] ثم اجلاهم عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

وفي علماء الاجتماع اليوم من الاروبيين من يؤيد هـــذه النظرية السياسية ويرى رأي الاسلام فيها ؛ آتياً بحجج ودلائل اجتماعية صائبة ، فيقول الدكتور كوستاف لوبون في كتابه « سر تطور الامم » : لقد كان للامم الغابرة الهام صادق في نفورهم من الأجنبي لأنهم كانوا يعلمون ان قيمة الامة بالوطنيين من اهلها لا بعدد سكانها . وقال ايضاً : ان وجود الأجانب وان قلوا كاف لتغيير روح الامة لانه يفقدها القدرة على الدفاع عن خلقها النوعي وعن آثار تاريخها وما صنع آباؤها الأولون .

واخيراً اي في سنة ٦٢٤هـ-١٢٢٦م أذن للنصارى باقامة شعائرهم وطقوسهم الدينية واتخاذ الكنائس والمعابـد لهم ، وكان اشهر المذاهب المسيحية يومئذ بهذه البلاد المذهب الدومينيكي والمذهب الفرانسيسكي .

المذاهب والعقائد :

كان الناس على عهد المرابطين لا يعرفون في عقائدهم سوى عقيدة السلف بما فيها من تفويض وتسليم ؛ وفي عباداتهم ومعاملاتهم مقلدون لمذهب مـالك لا يبغون عنه بديلاً ، ولما عاد ابن تومرت من المشرق جاء معه بافكار وعقـائد جديدة في اصول الدين والتشريع ، كما جاءهم ايضـاً بفكرة المهدي الشيعية ، فحملهم في العقائد على مذهب الأشاعرة المرتكز على التأويـل والتوسط بـين مذهب المعتزلة — اهـل النفي — ومذهب المثبتين — كاهل التجسيم — ونشر بينهم مباحث علم الكلام التي كانت محرمة عليهم من قبل ، فقربهم منها بـل اوجبها عليهم فرسخت يومئذ عقيدة الاشاعرة بالمغرب بعد ان لم يكن ليجرؤ على الخوض فيها احد .

وكان في طليعـة من جـــاء بعقيدة الاشعري الى المغرب : علي بن خلف

---

(١) المساقاة هي استعمال رجل لآخر في نخل وكروم ليقوم باصلاحها على ان يكون له سهم معلوم مما تغله (مختار الصحاح للرازي) .

العافري المعروف بأبي الحسن القابسي المتوفي سنة ٤٠٣ هـ - ١٠١٢ م فهواول من نشر افكار الأشعرية بهذه الديار وألّف في ذلك رسالة انتصر فيها لهذا المذهب ، ويقال انه اول من جاء بصحيح البخاري الى بلاد المغرب ايضاً .

ودان الناس كذلك بمذهب الشيعة في قولهم بعصمة الإمام وانتشرتبينهم فكرة القول بالإمام المهدي فاتخذوا ذلك عقيدة متبعة بقيت آثارهاعندالعامة الى اليوم ، فاسمع الى قول احد شعراء مدينة الجزائر من قصيدة أنشدهابنفسه على قبر ابن تومرت حين وفادته على أبي يعقوب المنصور ، فقال :

سلام على قبر الامــام المجد ... سلالة خـير العـالمين محمد
ومشبه في خلقه ثم في اسمــه ... وفى اسم أبيه والقضاءالمسدد
ومحيي علوم الدين بعد مماتهــا ... ومظهر أسرارالكتابالمسدد
أتتنـا به البشرى بأن يملأ الدنا ... بقسط وعدل في الأنام مخـلد
ويفتتح الأمصار شرقاً ومغرباً ... ويملك عرباً من مغير ومنجد
فمن وصفـه أقنى وأجلى وانه ... علاماته خمس تبـين لمهتدي
زمان واسم والمكان ونسبــة ... وفعل له في عصمــة وتأيد
ويلبث سبعا أو فتسعا يعيشهـا ... كذاجاء في نص من النقل مسند
فقد عاش تسعا مثل قول نبينا ... فذلــكم المهدي بالله يهتدي

الخ ... وهي قصيدة طويلة ، يقال أن صاحبها نظمها أيام عبد المؤمن وكان شيخاً مسناً فتعذر عليه السفر من الجزائر إلى مراكش - أو تينملل - حيث مدفن ابن تومرت - فبعث بها إلى من انشدهـا بالنيـابة على قبر ابن تومرت[1] .

وأخذهم في الفقه بطريقة السلف من غير انتساب الى مذهب أو إمـام ، ولمزيد التحري خرج بهم من تعاليم المالكية المنتشرة يومئذ في عموم المغـرب حتى لا يتأثر انصاره بالعهد البائد فكانت الحكومة تنزع إلى الاجتهاد المطلق

(١) أنظر المعجب ص ١٣٥ .

واخذ الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة رأساً معرضة عن النظر في كتب الفقه الفرعية بل أعلنت برفضها خلافاً لما كان عليه المرابطون من التقليد والتوسع في الفروع ، وانتظمت لذلك لجنة من أعيان علماء الموحدين همها تجريد آيات الاحكام والأحاديث الصحيحة في ذلك ، فاخرجت للناس مجموعة من الأحكام مستدلاً عليها بالقرءان والحديث ونشرتها الحكومة في أنحاء المملكة ملزمة الناس العمل بها وإحراق ما دونها من كتب الفروع ، وشددت العقاب على من يخالفها ؛ وكان ابو يوسف يعقوب المنصور يبالغ في اكرام حفاظ هذا المجموع فيقربهم منه ويجزل لهم العطاء والمنح ووضع لهم المهدي نفسه موطأ كموطأ مالك وكتب لهم في ذلك مجاميع طبع بعضها في الجزائر ، ولقد صبر ابن تومرت على ما لقي من المعارضة والأذى في ذلك حتى نجح في النهاية وانتصر على فريق المعارضة بما اوتيه من سعة العارضة وقوة الحجة والبيان وكان مما استعمله مع العامة من الأساليب في ذلك ان سهل عليهم ادراك مقاصد الشريعة بما كتبه لهم من التأليف بلسانهم الشعبي ، وكثيراً ما كانت الخطب الجمعية تلقى من أعلى منابر الجوامع بلغة القوم الشلحية في الحث على الوقوف عند نصوص الكتاب والسنة حتى كاد القوم أن يكونوا « ظاهرية » أو حزمية كما كانوا يسمونهم نسبة لابن حزم ، وقد درج الناس على هذا وتناسوا ما كان يدور بينهم سوى ذلك من كتب الفروع الاخرى .

ومما يروى في ذلك ان الحافظ أبا بكر بن الجد دخل لاول مرة على الامير أبي يوسف فوجد بين يديه كتاب ابن يونس ، قال : فقال لي الامير يا أبا بكر أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله !..أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة اقوال او اكثر من هذا في أي هذه الاقوال هو الحق ؟!.. وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟!.. قال فافتتحت ابين له ما اشكل عليه من ذلك ، فقال لي وقطع كلامي : يا أبا بكر ليس إلا هذا ، وأشار الى المصحف ، أو هذا وأشار الى كتاب سنن أبي داود وكان عن يمينه ، أو السيف . وكان كذلك من مآثر هذه الدولة التي رسمتها

في المحافظة على القرآن ، قراءة الحزب في المساجد كما هي العادة المتبعة الى اليوم ، ومنها تناول خطيب الجمعة العصا من يد رئيس المؤذنين اشعاراً له بدخول الوقت الشرعي لاقامة الخطبة والصلاة ، وزيادة مؤذن الفجر في النداء قوله أصبح ولله الحمد .

ولعمري انه قد استفاد الفقه الاسلامي كثيراً بهذه الحركة الاجتهادية والنزعة الاستقلالية ، فقد ظهر بذلك الحفّاظ والمؤلفون في السنّة وانتصر المذهب الظاهري على غيره يومئذ بالمغرب بعد ان خفت صوته . قال ابن خلكان : ولقد ادركنا جماعة من مشائخ المغرب وصلوا الينا بالبلاد وهم على ذلك الطريق مثل ابي الخطاب بن دحية واخيه أبي عمرو ومحيي الدين بن العربي نزيل دمشق وغيرهم .

وقد استمر الأمر على هذا المهيع الى عهد الخليفة ادريس المأمون بن المنصور فانه سعى الى توطيد دعائم ملكه وسلطانه من طريق القضاء على نزعة أسلافه الموحدين في العقائد والتشريع وعمل على رفض تعاليم المهدي ولعنها والرجوع بالناس الى مذهب الامام مالك استعطافاً للرعية الناقمة عليه؛ ولم يلبث أن فاجأه ابو زكريا الحفصي بتونس بخلع طاعته واستبداده بالأمر .

ومع ذلك فانه كان لحرية القول عندهم مجال واسع ؛ فلم يكن هناك أحد من الناس يؤاخذ السلطان على رأي له يبديه طعناً في الدولة أو خلفائها ما عدا العقيدة والتفقه في الدين .

الثقافة والحضارة والعمران

كان المرابطون فضلاً عن نزعتهم الدينية الخاصة يتسمون بالبداوة والخشونة ويضطرمون بالأفكار الرجعية العتيقة فركدت في ظلهم دولة التفكير والادب التي كانت مزدهرة في عهد الطوائف بالاندلس .

وكان حكم الموحدين ـ وهم الذين خلفوا المرابطين في حكم المغرب والاندلس ـ يتسم كذلك بطابع ديني عميق ، بيد أنهم كانوا بالرغم من ذلك أوسع آفاقاً

واكثر تساحاً ، وكانت دولتهم الى جانب صبغتها الدينية تتسم كذلك بصبغة علمية اذ كان مؤسسها المهدي من أيمة التفكير الديني ، وكان أول خلفائها الزمنيين عبد المؤمن بن علي عالماً متمكناً واسع الافق ، وأبدى عبد المؤمن وبنوه اهتماماً بالعلوم والفنون وانطلقت في عهدهم حرية التفكير والبحث وكانت قد قيدت في عهد المرابطين ، وافرج عن كتب الغزالي وغيره من مفكري الشرق ، وكانت قد طوردت ومنعت في أيامهم في المغرب والاندلس .

ولا نريد ان نطيل وصف الناحية العلمية والثقافية بهذا العصر فان ذلك من أبرز ما اشتهر به عصر الموحدين بالمغرب والاندلس.

ولقد سأل معاوية بن ابي سفيان يوماً الاحنف بن قيس ؛ فقال له يا أبا يحيى كيف الزمان ؟.. قال : الزمان أنت يا امير المؤمنين ، ان صلحت صلح ،وان فسدت فسد،وكذلك نحن نقول هنا في تاريخ هذه الدولة الثقافي،ذلك اننا اذا نظرنا الى نشاط ملوك هذه الدولة وما كانوا عليه من التضلع والتعمق في فنون العلم والادب والحكمة والفلسفة أدركنا حياة الشعب العلمية وما بلغه المغرب العربي يومئذ من العرفان والتقدم ، إذ كل من ابن تومرت وعبدالمؤمن وابي يعقوب المنصور وابنائهما ممن تملك او ترأس هذه الحكومة ، كان كوكباً لامعاً ونبراساً ساطعاً في العلم ، ولو أخذت في محادثتك ايها القارىء الكريم عن سيرة كل واحد من هؤلاء لامتلكك العجب ، ويكفي ان نقص عليك خبر لقاء أو اجتماع دعي اليه الحكيم الفيلسوف ابو الوليد بن رشد بمحضر الخليفة ابي يعقوب المنصور قبل ما حدث له من التطور الفكري الذي حبب له فيما بعد التصوف والزهد ، فبه تعلم وجه ما نقول .

قال ابن رشد : فلما دخلت على امير المؤمنين ابي يعقوب وجدته هو وأبا بكر بن الطفيل ، فأخذ ابو بكر يثني عليّ ويذكر بيتي وسلفي ويضم بفضله الى ذلك اشياء لم يبلغها قدري ، فكان اول ما فاتحني به امير المؤمنين بعد ان سألني عن اسمي واسم ابي ونسبي ان قال لي : ما رأيهم – يعني الفلاسفة – في السماء ؟ أقديمة أم حادثة ؟.. فأدركني الحياء والخوف فأخذت

أتعلل وانكر اشتغالي بالفلسفة ، ولم اكن أدري ما قرر معه ابن الطفيل ، ففهم امير المؤمنين مني الروع والحياء ، فالتفت الى ابن الطفيل وجعل يتكلم عن المسألة التي سألني عنها ويذكر ما قاله أرسطو وأفلاطون وجميع الفلاسفة، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الاسلام عليهم فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها في احد من المشتغلين في هذا الشأن المتفرغين له ... ويؤثر عن هـذا الخليفة انه كان أعلم الناس بآداب العرب ولغتهم مستظهراً لجملة من الفقه حافظاً لأحد الصحيحين .

والى هذا الخليفة الموحد يرجع الفضـل في نشر فلسفة ارسطو على الناس وشرحها شرحاً وافياً بعد ان كانت غامضة مندثرة ، اذ هو الذي وجه اليها الحكيم ابن رشد وبعث فيه روح النشاط للعمل بواسطة ابن الطفيل فاخرجها للناس تحفة فنية لامعة واضحة وكذلك شرحه لألفية ابن سينافي الطب كان باشارة واقتراح من أمير بجاية وتلمسان السيد ابي الربيع سليمان عبد الله بن عبد المؤمن وفي هذا العصر وضع عالم بجاية ابو محمد عبد الحق الاشبيلي كتـابه الجليل في اللغة : الحاوي أو الواعي وهو يشتمل على خمة وعشرين سفراً كما ذكره صاحب الديباج ، وذلك ما يدلنا على انتشار روح الثقافة ونفاق سوق العلم والعلماء بالمغرب .

ولا غرو فان المؤرخين اجمعوا على عناية هذه الدولة بشأن التعليم وانه كان بانواعه : الابتدائي والثانوي والعالي منتشراً في انحاء المملكة وكان اجباريـاً في حين ان اوروبا لم تكن لتفكر في التعليم الاجباري الا منـذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي،والتعليم عندهم كان يشمل الذكران والاناث وفيه من التعاليم الرياضية والحربية مـا يشبه النظم العصرية بالمدارس الحكومية الرسمية اليوم .

قال صاحب الحلل الموشية . « وكان الخليفة عبد المؤمن باراً بمن انطوى اليه عارفاً بأقدار الناس مكرماً لأعيانهم وأهل البيوتات منهم عالمـاً بمقادير العلماء ، ينزل الناس على قدر منازلهم وربي الحفاظ بحفظ كتاب الموطأ -وهو

أعز ما يطلب لابن تومرت - وغير ذلك من تآليف المهدي/وكان يدخلهم كل يوم الجمعة بعد الصلاة داخل القصر فيجتمع الحفاظ فيه/وهم نحو ثلاثة آلاف كأنهم أبناء ليلة من المصامدة وغيرهم قصد بهم سرعة الحفظ والتربية على ما يريد فيأخذهم يوماً بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمي بالقوس ، ويوماً بالعوم في بحيرة صنعها خارج بستانه مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع، ويوماً يأخذهم بأن يجذفوا على قارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة فتأدبوا بهذه الآداب تارة بالعطاء وتارة بالأدب وكانت نفقتهم وسائر مؤونتهم من عنده وخيلهم وعددهم كذلك [1] .

(واصناف الصناعات والفنون والاعمال الهندسية والميكانيكية كانت معروفة لذلك العهد منتشرة رائجة ؛ فلقد كان بالمدينة الواحدة من انواع الحرف والصناعات ما يفوق الحصر ، ولنأخذ في ذلك مثالاً مدينة فاس، فانه كان بها (٣٠٦٤) معمــلاً للنسج و (٤٠٠) حجرة للكاغد في حين انه لم يكن مستعملاً بل ولا معروفاً يومئذ في العالم اجمع – ما عدا الصين –و(١٨٨)داراً لعمل الفخار و(١١٦) داراً للصباغة و (٨٦) للدبغ و (٤٧) لصناعة الصابون؛ و(داران) للسكة ، واحدة في كل عدوة و (١٢) معملاً لسبك الحديــد والنحاس و (١١) مصنعاً للزجاج و (١٣٥) فرناً للجير الح.وكل هذه المعامل كانت خارج المدينة ، ولما اراد عبد المؤمن تفخيم مصحف عثمان (ض)جمع له الصناع والمتفننين ممن كان بحضرته وسائر بلاده القريبة والقصية من بلادالمغرب والاندلس،فاجتمع لديه حـــذاق كل صناعة ومهرة كل طائفة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والبنائين ، ولم يبق ممن يوصف ببراعة او ينسب الى الحذق في صناعة الاحضر[2]ويكفيك في الاستدلال على نهضة الصناعات في المغرب بهذا العصر، تلك المقصورة الميكانيكية العجيبة التي كانت بجامع المنصور في عاصمة المملكة مراكش ، فقد وضعت على حركات

---

(١) الحلل الموشية ص ١٢٥ ط رباط الفتح ١٩٣٦ م .

(٢) راجع المعجب وكتاب المنوني طبع تيطوان ١٩٥٠ م .

هندسية محكمة غريبة ترفع بها لخروجه وتخفض لدخوله [١] .

« واذا نظرنا الى مخلفات هذه الدولة وآثارها المعمارية وجدناها شاملة لكل انواع العمارة فهي ما بين منشآت عمومية؛ كالمساجد والمعاهد العلمية والمدارس والقناطر والمارستانات والثغور، وخصوصية كالقصور والحصون والمنازل واغلبها كان باقصى المغرب والاندلس، اما في الجزائر فانا لا نعلم عنها الا قصر «المشور» المنشأ بتلمسان سنة ٥٤٠ هـ – ١١٤٥ م وضريح الشيخ ابي مدين بالعباد العلوي من تلمسان بناه محمد الناصر بن المنصور (٥٩٥ – ٦١١ هـ) وتجديد بلدة « تاجرة » – مسقط رأس عبد المؤمن – وبناء المسجد الجامع بندرومة وتأسيس مدينة البطحـاء المعروفة أيضاً باسم « السدرة » في نواحي شلف بالشمال الشرقي من غليزان سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) وهي منعدمة اليوم ، ويقول بعضهم أنها هي مدينة ندرومة نفسها ؟.. وسور تلمسان الذي كان الشروع في انشائه سنة ٥٦٦ هـ = ١١٧٠ م على يد السيد موسى بن يوسف بن عبد المؤمن وانهاؤه كان حدود سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م على يد ابي الحسن بن السيد ابي حفص بن عبد المؤمن ، وتجديد الرياض الرفيع والرياض البديع بمدينة بجاية على عهد واليها ابن الرفيع سليمان حفيد عبد المؤمن ، ونرى ابن خلدون ينوّه بأعمال الموحدين التي قاموا بها في تلمسان فيقول : « وصرف ولاة الموحدين بتلمسان من السادة نظرهم واهتمامهم الى تحصينها وتشييد أسوارها وحشد الناس الى عمرانها والتناغي في تمصيرها واتخاذ الصروح والقصور بها والاحتفال في مقاصر الملك واتساع خطة الدور وكان من اعظمهم اهتماماً بذلك وأوسعهم فيه نظراً السيد ابو عمران موسى بن امير المؤمنين يوسف العشري ووليها سنة ست وخمسين وخمسمائة على عهد ابيه يوسف بن عبد المؤمن واتصلت ايام ولايته فيها فشيد بناءها وأوسع خطتها وادار سياج الاسوار عليها ... ولم يزل عمران تلمسان يتزايد وخطتها تتسع والصروح بها بالآجر

---

(١) انظر شرح مقصورة حازم ج ١ ص ٧١ طبع مصر ١٣٤٤ هـ والحلل الموشية ص ١١٩ ط رباط الفتح ١٩٣٦ م .

والقرميد تتعالى وتشاد الى ان نزلها آل زيان واتخذوهـا داراً لملكهم وكرسياً لسلطانهم [1] » .

فاسمع الى شاعر الجزائر في هـذا العصر ابي علي الحسن بن الفكون القسنطيني كيف يصف لنا مدينة الناصرية – بجاية – فيقول :

دع العراق وبغداد وشامها « فالناصرية » ما ان مثلها بلد
بر وبحر وموج للعيون به مسارح بان عنها الهم والنكد
حيث الهوى والهواء الطلق مجتمع حيث الغنى والمنى والعيشة الرغد
والنهر كالصل والجنات مشرفة والنهر والبحر كالمرآة وهو يد
فحيثما نظرت راقت وكل نوا حي الدار للفكر والابصار تتقد
ان تنظر البر فالازهار يانعة او تنظر البحر فالامواج تطـّرد
يا طالباً وصفها ان كنت ذا نصف قل جنة الخلد فيها الاهل والولد

« ويمتاز فن العمارة الاسلامي على عهد الموحدين بالضخامة والاناقة والاتزان الهندسي مع البساطة » وأغلب المهندسين والبنائين كان يؤتى بهم من الأندلس فقد نقل الدكتور غوستاف لوبون عن ابن السعيد ان اميري الموحدين يوسف ويعقوب المنصور أحضرا من الاندلس مهندسين لإنشاء جميع المباني التي أقاموها في مراكش والرباط والمنصورة [2] .

« ومن مبتكرات هذه الدولة بالمغرب ضبط مساحة المملكة وتكسيرها على الفراسخ والاميال وإجراء عملية الاحصاء العـام لسكان المملكة . وتحديد المناطق الصالحة للفلاحة ونقـل المزارعين إليها ، وعلى وفق هذا النظام كان وضع الخراج وتقديره حسب مساحة البلاد ؛ كما ان افتتاح الرسائل والمناشير والرسوم بالحمدلة بدل البسملة هو أيضاً من آثارها . »

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ٧٧ - ٧٨ ط بولاق ١٢٨٤ هـ
(٢) حضارة العرب ص ٦٤٧

واما النشاط الاقتصادي فانه عدا مــا كانت تنتجه بلاد المغرب يومئذ وتصدره للخارج من الحبوب والصوف والحرير والشمع والورق – الكاغد – والخشب .

(فإننا نجد لدولة الموحدين علاقات اقتصادية مع الاجانب من دول اوروبا كفرنسا وايطاليا حيث عقدت معهم معاهدات تجارية في سنة ٥٢٨ هـ ١١٣٣م و ٥٤٨ هـ – ١١٥٣ م و ٥٥٥ هـ – ١١٦٠ م وأطلقت لهم الحرية في التجارة ببلادها وهذا من غير زراعة انواع الفواكه والازهــار المفتحة اليانعة التي لا يتعدى نفعها البلاد .)

ثراء بلاط الموحدين

لقد بلغت هذه الدولة من الثراء مبلغاً قلمــا بلغته دولة من دول المغرب الاسلامي في التاريخ ، فكانت الاموال تتدفق على الخزينة تدفقاً عجيباً حتى كانت الاموال تقدر عندهم بالاحمال والاثقال لا بالعد والاحصاء !.. فان خراج افريقية – أي أعمال تونس فقط – بلغ وقر مائة وخمسين بغلاً لكل سنة . عدا ولاية الجزائر واعمال تلمسان وبجاية والمغرب الاقصى والاندلس، إذ لم يكن ليمتنع عليهم منها درهم . وكان لهم من الذخائر والتحف النفيسة ما لم يكن مثله عند غيرهم من ملوك الارض ، ومن ذلك ما اشتهر لديهم من حجر الياقوت المسمى عندهم بالحافر – وذلك لبلوغــه مقدار حجم حافر الفرس – وقد جعلوه فيما كللوا به مصحف عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، يقول عبد الواحد المراكشي في تقدير قيمة هذا الحجر : انه لا قيمة له !... وبلغ ثمن مبيع غلال بستان عبد المؤمن الخاص خارج مراكش لسنة ٥٤٣ هـ (١١٤٨ م) ثلاثين ألف دينار على رخص الثمار والفواكه يومئذ ؛ وان زيتون بحيرة مكناس فقط كان يباع بما يقدر بخمسة وثلاثين الف دينار في كل سنة الخ .. كما اشتهر ملوك هذه الدولة ايضاً بكثرة العطاء والمنح والصدقات، فلقد اعطى عبد المؤمن للشاعر أبي عبدالله التيفاشي على بيت واحد أنشده إياه

من قصيدة ألف دينار ، وذلك البيت هو قوله :

مـا هز عطفيه بين البيض والأسل   مثل الخليفة عبد المؤمن بن علي

وان ولده يعقوب المنصور أجاز ابن منقذ بكل بيت من قصيدة مدحه بها ألف دينار، والقصيدة تحتوي على اربعين بيتاً ، ووصل القاضي الصقلي بتسعة عشر ألف دينار علاوة على ما منحه إياه من الخلع والمراكب والإقطاعات ، وأنفق في غزوة افريقية مائـــة وعشرين حملاً ذهبـاً ، وتكرم ابو يعقوب يوسف بن عبـد المؤمن على هلال بن سعد في احدى المرات باثني عشر ألف دينار ، وأنفق ولده يعقوب يوم مبايعته بامارة المؤمنين مائة ألف دينار ذهباً أخرجها من بيت المال وفرقها على الضعفاء من بيوتات المغرب ، وتصدق قبل خروجه لغزوة الاراك الشهيرة بالاندلس بأربعين ألف دينار فجعل نصفها في الاقربين والبـــاقي للعامــة ، وذبح في يوم عيد الاضحى من سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٨ م) سبعة آلاف وثلاثمائة شاة وزعت كلهـــا على الفقراء والجند والامراء ، فكل ذلك يدلنا على رفاهــة بلاط دولة الموحدين وسعة ذات اليـد . قال ابن خلدون : في ذكره المغرب على ذلك العهد « وكانت أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة »[١] .

انهيار الجزائر الموحدية

كان مبدأ تدهور الدولة الموحدية وأفول نجمها يوم وقعة العقاب بالاندلس سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) حيث كانت الهزيمة الكبرى على المسلمين ومات فيها من أهل المغرب عدد لا يحصى ، ففنيت القبائل والجيوش بخيلهـــا ورجلها وحماتها وأقفرت البلاد ... ثم كانت بعد ذلك بينهم وبين بني مرين وقعة عام المشغلة سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) فخلـَت البلاد وقل الخراج وفـُقدت الأنصار فاضطربت الاحوال وتناقضت الاعمال واختلفت الكلمة ، فساءت سمعة الدولة وأذنت أيامها بالانصراف وأخذ يتقلص ظلها من البوادي والاطراف وانحصر الحكم في المدن والعواصم خاصة .

(١) المقدمة ص ط ١٧٩ بولاق ع ١٣٧ هـ .

فمن ذلك بلاد « بني وامانو » و « بني يلومي » بأحواز تلمسان فانها كانت تحت استبداد بني عبد الواد وطاعتهم حيث أقطعهم إياها أول مرة الموحدون جزاء مؤازرتهم لهم ضد خصمهم الداخلي من القبائل المنشقة ؛ ففي سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠ م) عقد الخليفة ابو العلاء ادريس المأمون على ولاية تلمسان لابي محمد جابر بن يوسف شيخ بني عبد الواد – مرت الاشارة الى ذلك – فاستبد بها هذا ونازع بني عبد المؤمن فيها وأورثها بنيه من بعده الى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٥ م) ؛ فاستخلصها بنو عبد الواد لانفسهم واستقلوا بها وقطعوا عنها دعوة الموحدين ...

كما أن ولاية بجاية كانت مضافة الى أعمال تونس منذ سنة ٦٠٣هـ(١٢٠٧م) حيث ضمها الخليفة ادريس المأمون الى ولاية أبي محمد عبد الواد بن ابي حفص فلما توفي خلفه ابنه عبد الله ثم ابو زكرياء يحيى فاستمر هذا يعمل تحت طاعة الموحدين الى سنة ٦٢٧ هـ (١٢٣٠ م) أي يوم ان اعلن ادريس المأمون رفض تعاليم المهدي ابن تومرت فانتقض عليه ابو زكرياء الحفصي واستبد بهذه الولاية مدعياً التمسك بمذهب الامام المهدي ؛ ويومئذ انتزع خليفة الموحدين أعمال بجاية عن أبي زكرياء وجعلها لابي عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ؛ فأعلن ابو زكرياء حينئذ عداوته للموحدين وأوقد في وجوههم نار الحرب سنة ٦٢٨هـ (١٢٣٠ م) وأغار على القطر الجزائري واستولى على اعمال قسنطينة وبجاية، ودعا فيهما لنفسه وأقام يومئذ دعوة الحفصيين بالجزائر وتونس واعتقل أبا عمران والي بجاية فأوثقه بتونس ؛ وانتهز المنافسون من بني مرين – خصماء الموحدين بأقصى المغرب – هذه الفرصة فاستبدوا هم كذلك ببواديهم منذ سنة ٦١٠ هـ (١٢١٣ م) فبذلك انقسم المغرب يومئذ الى أربع حكومات : حكومة بني عبد الواد بتلمسان وحكومة الحفصيين بقسنطينة وبجاية وتونس وحكومة بني مرين بأقصى المغرب وحكومة الموحدين المحتضرة بمراكش .

ونجد في حديث لابن خلدون عن الايام الاخيرة التي بدأ فيها تصدع ملك الموحدين وانتثار عقد دولتهم ذكراً لآخر خلفائهم ابي الحسن علي السعيد ،

فنراه يحكي عنه انه « فاوض الملأ من أهل دولته في أمره وأمرهم كيف اقتطع الامر عنهم شيئاً فشيئاً ، فابن أبي حفص اقتطع افريقيـة ، ثم يغمراسن بن زيان وبنو عبد الواد اقتطعوا تلمسان والمغرب الاوسط فأقاموا فيها دعوة ابن أبي حفص واطمعوه في الحركة الى مراكش بمظاهرتهم ، وابن هود اقتطع عدوة الاندلس وأقام فيها دعوة بني العباس ، وابن الاحمر بالجانب الآخر مقيم لدعوة ابن أبي حفص ، وهؤلاء بنو مرين تغلبوا على ضواحي المغرب ثم سموا الى تملك أمصاره »[1] ..

واخيراً كان سقوط عرش هذه الدولة بيد المرينيين حيث احتـل هؤلاء مراكش في شهر المحرم سنة ٦٦٨ هـ (اوط ١٢٦٩ م) واستقل الآخران بالجزائر وتونس ، وهكذا تغلب بنو مرين على عاصمة الموحدين بعد مطاولتهم ومحاربتهم ستين سنة فانقضى يومئذ عهد الموحدين وتقلص ظلهم عن هــذا الشمال الافريقي والاندلس بعدما حكموا مدة قرن ونصف ، أمضوا منها نحو أربــع وتسعين سنة بالجزائر . ومن أمعن النظر في أسباب سقوط دولة الموحدين هذه وجدها ترجع الى نقط جوهرية أربع : أولها الضعف الحاصل في القيادة العليا بسبب تواكل متأخري الامراء واهمالهم لشؤون الادارة مع تفويض الامر الى من لا يستحقه كالوزير أبي سعيد بن جامع الذي كان عاجزاً عن الاضطلاع بشؤون الحكم فلم يحسن تدبيره ؛ ثانياً اضطراب البلاد وتضعضع الموحدين حكومة وشعباً بسبب ما جرته عليهم ثورة بني غانية الميورقيين من الخسائر الفادحة ؛ ثالثاً تنافس الولاة والرؤساء وتزاحمهم على الرئاسة والتسامي على بعضهم بعضاً تكبراً وتعنتاً ، رابعاً هذا الانقسام الخطير الذي انحلت به عرى وحدة المغرب الاسلامي فتعددت به الحكومات والدول ، فكل ذلك كان عاملاً قوياً معواناً على تحطيم ملك الموحدين وانكسار شوكتهم فتقلص ظلهم وانقرضت دولتهم .

---

(١) ابن خلدون ج ٧ ص ١٧٢ ط بولاق ١٢٨٤ هـ .

ولاة الجزائر وزعماؤها

كان من أشهر الشخصيات الجزائرية عبدالسلام بن محمد الكوميالندرومي الذي تولى الوزارة سنة ٥٥٣ هـ (١١٥٨ م) وكان لشدة قربه واتصاله بالخليفة عبد المؤمن يدعى « المقرب » مات قتيلاً سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) ومن كتاب الدولة الجزائريين يومئذ ابو القاسم عبد الرحمن القالمي البجائي ، استكتبه عبد المؤمن بعد فتح بجاية ، وابو الفضل جعفر بن احمد المعروف بابن محشرة البجائي كان كاتباً لابي يعقوب المنصور، ومن القضاة علي بنعيسى قاضي بجاية ثم بتلمسان وتولى اخوه طلحة كذلك على قضاء تلمسان، ومنولاة مدينة الجزائر ابو محمد عبد الله بن عبد المؤمن .

كانت بلاد الجزائر يومئذ منقسمة إلى ولايتين كبيرتين ، ولاية بجاية إلى حدود عمالة قسنطينة ، وولاية تلمسان الممتدة من وادي ملوية غرباً إلى نهر مينة شرقاً ، وأما أرض الزاب أو الجنوب الجزائري فانه كان ملحقاًفيالغالب بولاية تونس ، ولما فتح عبد المؤمن اعمال بجاية ولى عليها طلبة الموحدين الى سنة ٥٤٩ هـ (١١٥٤م) فاخذ في تولية ابنائه عليها ، ومنهم أبو محمد عبدالله الذي استوزر ابا سعيد يخلف بن الحسين ، واستكتب ابا العباس بن مضاءوفي سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥م) عين الخليفة ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أخاه ابا زكرياء على ولاية بجايةوجعل له تفقد امر افريقية والنظر في مظالمها أيضاً فقمع به المناوئين والمحاربين ، ثم تولى بعده اخوه ابو موسى عيسى سنة٥٧٦هـ (١١٨٠م) ، ثم أبو الربيع بن عبد الله بن عبد المؤمن إلى استيلاء بني ابن غانية الميورقيين عليها سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤م) فانتقل منها الى ولاية تلمسان

ولابي الربيع هذا ديوان شعر جمعه له كاتبه محمد بن عبد ربه ، وسماه (نظم العقود) . ومن شعره قوله من قصيدة غزلية :

أقول لركب أدلجوا بسحيرة قفوا ساعة حتى ازور ركابها
وأملأ عيني من محاسن وجهها وأشكو إليها إن أطالت غيابها

فان هي جادت بالوصال وأنعمت   وإلا فحسبي ان رأيت قبابهـــا

ثم نزل ابو زيد بن عمر بن عبد المؤمن على بجاية فاطرد منها بني ابن غانية واعادها الى الموحدين ، ثم استقدمه عمه المنصور إلى حضرته وولى مكانه اخاه السيد ابا عبد الله بن عمر ، وفي سنة ٥٨٤ هـ (١١٨٨م) عقد المنصور لاخيه ابي الحسن على بجاية فاقام بها الى ولاية الناصر فعزله عنها وولى مـكانه ابن يغمور ، ثم عزل هذا بيحيي بن الأطاس التينمللي ، وكان ممن تولى عمل بجاية ايضـاً عبد الواحد بن منصور ومحمد بن أبي سعيد الجنفسي – بكسر الجيم والسين بينهما نون ساكنة – وآخر من تولى أعمـــال بجاية للموحدين السيد ابو عمران بن محمد بن يعقوب المنصور ، ولاه عليها الخليفة ادريس المأمون سنـة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩م) فمكث بها سنة واحدة ثم وقعت بيد الحفصيين فذهبوا به الى تونس أسيراً .

وكان آخر أصحاب الأشغال بها ابو عبد الله اللحياني ابن الشيخ ابن ابي محمد عبد الواحد ابن ابي حفص فلما افتتحها أخوه أبو زكريا سنة ٦٢٨ هـ(١٢٣٠م صار في جملته .

وأول من تولى ولاية تلمسان سليمان بن محمد بن وانودين الهنتاتي ،وقيل عمه يوسف ! وتولاها أيضاً ابو حفص عمر بن عبد المؤمن فاتخذ لوزارته محمد بـن عبد الحق بن وانودين ؛ واستكتب ابا الحسن عبد المالك بن عيـاش ، وبقي ابو حفص على ولايته بتلمسان الى سنة الاخماس سنـــة ٥٥٥ هـ -(١١٦٠ م) فاستقدمه والده الى حضرته وولى مكانه ابا عمران موسى بن عبد المؤمن المتوفي بالطاعون الجارف بمراكش سنة ٥٧١ هـ (١١٧٥م) ، وتولاها ايضـاً السيد ابو الحسن علي بن عمر بن عبد المؤمن ،ثم جعلت بعد انتقاله منها الى بجاية الى حفيد عبد المؤمن السيد ابي الربيع بن عبد الله ، وكانت وفـاته هو وابو الحسن المتقدم الذكر في سنة واحدة اي ٦٠٤ هـ (١٢٠٧ م) فولى الناصر يومئذ ابا عمران موسى بن يوسف بن عبد المؤمن فقتل في حرب بني ابن غانية على حصار تيهرت ٦٠٥ هـ (١٢٠٨م) ، فخلفه يومئذ محمد بن ابي زيد بن برجان ثم عزله المنتصر بابي سعيد بن المنصور .

ولما تولى ادريس المأمون الخلافة جعل ولاية تلمسان لاخيه ابي سعيد فأغراه عامله الحسن بن حبوس الكومي بقبيل بني عبد الواد ، فقبض على مشيختهم سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٦م) فجاء ابن علان زعيم الجيش اللمتوني المقيم بتلمسان شفيعاً لدى ابي سعيد في اطلاق وثائق هؤلاء فرفض شفاعته ، فانقلب ابن علان يومئذ على الموحدين ونهض مع بني ابن غانية فقتل الحسن بن حبوس الكومي واعتقل ابا سعيد وفك اسر مشيخة بني عبد الواد ، ثم تناكر ابناء ابن غانية وبنو عبد الواد فتنافروا وقتل ابن علان ودخل بنو عبد الواد تلمسان بدعوة المأمون ، فكان على رأس مشيختها – في اواخر القرن السادس الهجري – ابو محمد عبدالحق بن معاد العبد الوادي ، وكانت له وقائع مشهورة في نصرة الموحدين ضد بني مرين ، ويومئذ خلصت ولاية تلمسان لهذا القبيل من بني عبد الواد ، فتولاها منهم جابر بن يوسف سنة ٦٢٧هـ (١٢٣٠م) وخلفه عليها ولده الحسن ، ثم تخلى عنها لعمه عثمان بن يوسف ثم تولاها ابو عزة زيدان بن زيان مدة ثلاث سنوات الى ان قتل سنة ٦٦٣ هـ - ١٢٦٤ م وبموته انقطع ذكر الموحدين من هذه الولاية .

وكان من ولاة الزاب وريغ ووارجلة وما وراءها من القفار ابو سعيد عثمان المعروف بابن عتو وقاعدته « مقرة » ثم كانت رئاسة هذه النواحي الى مشيخة العرب من رياح والدواودة فاقطعتهم الدولة بلاد الحضنة واختصت منهم ابناء الزعماء والبيوتات بالعواصم الجزائرية وحواضرها الشهيرة مثل المسيلة ونقاوس وطولقة وبسكرة الخ ... واشتهر من رؤساء مطغرة الشيخ خليفة ، واستمرت الرئاسة في عقبه الى ان بايع حفيده هارون بني مرين .

وكانت رئاسة « سدويكش » وهم بطن من كتامة وموطنهم بالسهول التي ما بين قسنطينة وبجاية لأولاد سواق الذين كانوا يسكنون اولاً بقلاع بني بوخصرة بنواحي قسنطينة – ومنها تنقلوا وانتشروا في سائر تلك الجهات وكان لهم بها جمع وقوة وعدد وعدة .

ويذكر ابن خلدون ان اولا سواق هؤلاء بطنان : اولاد علاوة بن سواق واولاد يوسف بن حمو بن سواق ، وكانت رئاسة قبائل سدويكش على عهد

الموحدين لأولاد عـلاوة ومنهم علي بن عـلاوة وبعده ولده طلحة بن علي ثم أخو طلحة يحيى بن علي ثم اخوهما منديل بن علي ، وعزل تازرين ابن اخيه طلحة .

وكانت رئاسة الجبل المطل على بلدة القل وجميع مـا بينه وبين قسنطينة لأولاد ثابت بن حسن بن ابي بكر من بني تليلان . ويقـال ان ابا بكر هذا هو الذي فرض المغرم على أهل هذا الجبل تقرباً منه لخلفاء الموحدين ولم يكن قبل ذلك عليهم مغرم .

ولما استجد الملك للسلطان ابي العباس الحفصي بافريقية استولى على اولاد ثابت ومحا اثر مشيختهم ورئاستهم وصيرهم من عباد جنده وحاشيته واستعمل على الجبل عماله .

ومن مشاهير الاقطاعيين يومئذ المسمى ابو ناس بن عبـد الصمد فانه كان لصلاحه وتقواه رجلاً محترماً لدي الحكومة فاقطعه الموحـدون ناحية بوادي شلف وخلفه عليها ابنه عبد الرحمن وهو والد الزعيم المغراوي المشهور منديل ابن عبد الرحمان المقتول صبراً في حروب ابن غانيـة سنة ٦٢٢هـ — ١٢٢٥ م فخلفه ولده العباس .

ولما تغلب بنو توجين على جبـــل وانشريس وضواحي المدينة اقتصر بنو منديل على مراكزهم الاولى بشلف وبسطوا نفوذهم على مدينـة مليانـة وتنس وبريشك وشرشال مقيمين فيها الدعوة الحفصية واختطوا قرية مازونة .

الخلفاء الموحدون

	تاريخ التولية
محمد المهدي بن عبد الله تومرت	٥١٥ هـ = ١١٢١ م
عبد المؤمن بن علي	٥٢٤ هـ = ١١٣٠ م
ابو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن	٥٥٨ هـ = ١١٦٣ م
يعقوب المنصور بن يوسف	٥٨٠ هـ = ١١٨٤ م
محمدالناصر بن يعقوب	٥٩٥ هـ = ١١٩٩ م
يوسف المنتصر بن محمد	٦١٠ هـ = ١٢١٣ م
عبد الواحد بن يعقوب المنصور	٦٢٠ هـ = ١٢٢٤ م
عبد الله العادل بن يعقوب المنصور	٦٢١ هـ = ١٢٢٤ م
يحيى المعتصم بن الناصر	٦٢٤ هـ = ١٢٢٧ م
ادريس المأمون بن المنصور	٦٢٧ هـ = ١٢٣٠ م
عبد الواحد الرشيد بن ادريس	٦٣٠ هـ = ١٢٣٢ م

من مشاهير الجزائر

القاضي ابو الوليد

٥٨٠ هـ – ١١٨٤ م

الفقيه المتضلع أبو الوليد يزيد بن أبي عبد الرحمن قاضي مدينة بسكرة ، هو من آل بقي بن مخلد بن يزيد الامويين القرطبيين ، تفقه المترجم على أبيه وجده أبي القاسم أحمد وأخذ عن ابن العربي وشريح بن محمد وابي القاسم بن رضا وجماعة ، وحدث عنه أبو القاسم أحمد قاضي قضاة المغرب وابو سليمان بن حوط الله وأبو يزيد الفزاري وغيرهم ، توفي رحمه الله وهو على قضاء عاصمة الزاب الجزائري – بسكرة – سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) .

أبو عمران الاشيري

٥٨٩ هـ – ١١٩٣ م

الراوية الامام الحافظ موسى بن الحجاج بن أبي بكر الاشيري – نسبة الى مدينة آشير حاضرة صنهاجـــة بالجزائر ؛ سكن المترجم مدينة تدلس – دلس – من أعمال الجزائر ومنها خرج في طلب العلم الى الاندلس فدخل اشبيلية سنة ٥٣٥ هـ (١١٤٠ م) فلقي بهـــا الامام ابن العربي وأبا الحسن شريح بن محمد وأبا بكر بن أبي طاهر ؛ ودخل قرطبة فأخذ بهـا عن ابي عبد الله بن أصبغ وأبي مروان بن ميسرة وغيرهما... وسمع مشكل بن قتيبة عن ابي عبد الله بن وضاح بالمرية سنة ٥٣٧ هـ (١١٤٢ م) ، وأخذ عن أبي

محمد عبد الحق بن عطية ولازم ابن ابي الخصال وابا محمد النفزي المرسي وابا الحجاج بن رشد القيسي وابا الوليد بن الدباغ وابا الحجاج بن يسعون ، وبعد ان استكمل معلوماته هنالك عاد الى وطنه فنزل مدينة الجزائر وأم بها في صلاة الفريضة ونشر بها علمه ثم انتقل منها الى بلده دلس فأقام بها الى وفاته رحمه الله في صفر سنة ٥٨٩ هـ (فيفري ١١٩٣ م) .

محمد بن ابراهيم الاصولي

٦١٢ هـ - ١٢١٦ م

هو القاضي الفيلسوف الحكيم ابو عبد الله محمد بن ابراهيم الفهري البجائي المشتهر بالاصولي ، واشتهر بذلك لغلبة علم الاصلين عليه ، كان أوحد زمانه علماً وتفنناً في المعقول والمنقول وخاصة في علوم الحكمة والفلسفة ، أصله من بني مرزقان الاشبيليين ، سكن اسلافه مدينة بجاية فنشأ بها محمد لوذعياً عالماً ومتعلماً وتولى قضاءها مرتين ثم صرف عن القضاء للمرة الثالثة سنة ٦٠٨ هـ (١٢١١ م) فتولى مكانه ابو محمد بن الحجاج ، فخرج الشيخ يومئذ من بجاية متوجهاً الى المشرق ودخل مصر فطاف بمعالمها واتصل بأكابر علمائها ومحدثيها ودخل الاندلس مراراً وتولى قضاء مرسية وكان بينه وبين القاضي ابن رشد اخـــاء وصفاء ، واستخلف على قضاء مراكش ، وكان قوي الجأش شديد الشكيمة لا تأخذه في نصرة الحق لومة لائم فكان اذا حضر مجلس الخليفــة ابن عبد المؤمن وتقع المذاكرة بين يديه يسامحه الحاضرون من أهل العلم وكان المترجم لا يسامحه في شيء ، وكان أمير المؤمنين يجد منه في مجلسه ويعرف له مع ذلك فضلاً فلا ينقصه شيئاً من حقه . وكان عمدة علمــاء عصره في علوم الفلسفة وأوذي في سبيلها من طرف المنصور فكان ضمن من اضطهد في جماعة ابن رشد الذين اشتغلوا بالفلسفة من فضلاء الاندلس سنة ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) وكان رحمه الله المثـــل الاعلى بين اخوانه في الشجاعة الادبية والصبر على ما أوذي به في سبيل حريته الفكرية حتى المؤرخــين أجمعوا على انهم لم يروا

أصبر منه على خطب ولا اقوى جلداً على محنة !.. وكانت فيه دعابة وفكاهة لا تخل برتبته ولا تحط من منصبه ، وليس له من التآليف : سوى اصلاح كتاب المستصفى للغزالي : أزال مـا به من التحريف والتصحيف مع تقييد مفيد عليه ايضاً ؛ وقد سئل في التصنيف فامتنع وقال: قد سبق الناس بذلك وما عسى ان يأتي به ؟!.. قال الغريني : ورأيت بخطه رحمه الله تأليفاً في الموسيقى وقال لي بعض الطلبة انه من تصنيفه ، وما وثقت بذلك ويظهر لي انه كلام ابي علي ابن سينا . توفى رحمه الله ببجاية مـا بين العيدين سنة ٦١٣ هـ = ١٣١٦ م .

أبو عبد الله محمد الوهراني

٦٠١ هـ – ١٢٠٥ م

هو قاضي الجماعة ومثال الاناة والعدالة الاسلامية العلامة أبو عبد الله محمد ابن علي بن مروان بن جبـل الهمداني الوهراني ، نشأ بتلمسان واشتهر بها فضله وعلمه فولى قضاءها ، ثم نقل منها الى قضاء الجماعة بعاصمـة المملكة (مراكش) في مكان ابي جعفر بن مضاء ، فتولاها سنة ٥٨٤ هـ ١١٨٨ م) ثم تولى قضاء اشبيلية الى سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥) فانصرف يومئذ عن القضاء ثم أعيد إليه بعد انصراف أبي القاسم بن بقي ، وكان رحمه الله عالماً مهاباً حميد السيرة ضابطاً للاحكام متضلعاً فيهـا سريع الفصل في النوازل الا في الحدود فانه كان متربصاً يتلوم كثيراً ، فلم يؤثر عنه أنه أقام حـد الجلد على أحد ، كانت وفاته ليلة الاحد ٩ جمادى الاولى ٦٠١هـ (٢ جانفيي١٢٠٥م).

محمد بن حسون الجزائري

٦٠٦ هـ – ١٢٠٩ م

هو ابو عبد الله محمد بن يخلف بن يوسف بن حسون ، من اهـل مدينة الجزائر ، أخذ علمه أولاً عن مشيخة بلده ثم ارتحـل الى الاندلس مستزيداً

فنزل اشبيلية منسلكاً في سلك طلبـــة معهد مسجد بني جران ، وكان من مشائخه فيها الامام أبو عبد الله محمد بن عبد الحق الاشبيلي - دفين بجاية - وأبو زكرياء يحيى بن ياسين المعروف بابن اللولو وابو اسحاق بن ملكون وابو بكر محمد بن عيسى البطليوسي وابو محمد بن موجوال ثم انتقل الى مدينة مالقة فلقى بها ابا زيد السهيلي وغيره من فطاحل علماء الأندلس ، ثم عادابن حسون الى بلده - الجزائر - فتوفي بها في العشر الاواخر من شهر صفر ٦٠٦ هـ - سبتمبر ١٢٠٩ م - .

محمد بن حماد الصنهاجي

٦٢٨ هـ = ١٢٣٠ م

العلامة المؤرخ والأديب المفلق ابو عبد الله محمد بن علي بن حماد بن عيسى ابن ابي بكر الصنهاجي ، نشأ ببرج حمزة قرب البويرة - دائرة البيبان - من عمالة الجزائر ، اخذ العلم اولاً بقلعة بني حماد ثم على شيوخ بجاية امثال الشيخ أبي علي المسيلي والقاضي ابن جبـارة وابي مدين الاندلسي الاشبيلي - دفين تلمسان - وغيرهم ثم دخل مدينة الجزائر وتلمسان وغيرهمـا وضل يتنقل في عواصم المغرب الاسلامي طالباً للعلم فبلغ عدد مقروءاته ٢٢٢ مؤلفاً أخذها كلها بالسند الصحيح والتلقي مباشرة عن المشيخة ، فبرز رحمه الله في علوم اللغة والأدب والفقه والحديث والتاريخ، وله مشاركة حسنة في فنون اخرى، ولاّه الموحدون قضاء المغرب والاندلس في عدة أماكن ، فانه كان على قضاء الجزائر الخضراء الى سنة ٦١٣ هـ (١٢١٦ م) ثم صرف عنها الى قضاء سلا الى وفاته سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) وقد نيف على الثمانين سنة في عمره ، وله من التآليف كتاب في أخبـار ملوك بني عبيد - الفاطميين - طبع بالجزائر ١٣٤٦ هـ (١٩٢٧ م) ، وكتاب النبذ المحتاجة - أو الديباجة - في أخبار صنهاجة اعتمده كثيراً ابن خلدون في تدوين تاريخ هذا القبيل وانتفع بـــه كثير من المستشرقين فنشر منه نبذة المستشرق ليفي بروفانصال في كتابه « نبذ تاريخية في أخبار البربر » المطبوع برباط الفتح ١٣٥٢ هـ (١٩٣٣ م) ؛

وعمارى فى المكتبة الصقلية ، وشربونوا في المجلة الاسيوية (١٨٥٢ - ١٨٥٥م) وكتاب عجالة المودع وعلالة المشيع في الأدب والشعر ، وكتاب لخص به تاريخ ابن جرير الطبري ، وشرح لمقصورة ابن دريد ، وكتاب الأعلام بفوائد الاحكام لعبد الحق الاشبيلي ، وشرح لاربعين حديثاً الخ ؛ ومن شعره قوله في رثاء قلعة بني حماد بعدما قضى الموحدون عليها سنة٥٤٧ هـ(١١٥٢م).

ان« العروسين »[1] لا رسم ولا طلل   فانظر تر ليس إلا السهل والجبل
وقصر« بلارة »[2] أودى الزمان به   فأين ما شاد منها السادة الأول
قصر الخلافة أين القصر من خرب   غير اللجين وفي أرحابها زحل
وليس يبهجني شيء أسر به   من بعد ان نهجت بالمنهج السبل
وما روى الكوكب العلوي معتلم   وقد عرى الكوكب التغيير والندل
وقد عفى « قصر حماد » فليس له   رسم ولا أثر باق ولا طلل
ومجلس القوم مذهب الزمان به   فحادث قل فيه الحادث الجلل
وان في القصر - قصر الملك - معتبراً   لمن تغرره الأيام والدول
وما رسوم « المنار » الآن ماثلة   لكنها خبر يجري بها المثل
حتى المصلى بلت آياتها وعفت   إلا جداراً وما طلت به الطلل
كرجعك الطرف كانت كل آبرة   فما تراه كذاك العمر والاجل

ومن قوله في قصر المنار بعد أبيات :

وانظر طيقان « المنار » مطلة   على الوجنات الزاهرات الخمائل
كأن القباب المشرقات بافقه   نجوم تبدت في سعود المنازل

ويقول فيه ايضاً من أبيات يصف بها روضة :

وقد قام « المنار » على ذراها   كما قام العروس أو الامير
بناء يزدري ايوان كسرى   لديه والخورنق والسدير

(١) مما أنشأه الناصر بن علناس من قصور القلعة

(٢) هي بلارة بنت تميم بن المعز بن باديس الصنهاجي تزوجها الناصر بن علناس سنة ٤٧٠ هجرية ١٠٧٧ ميلادية

جدول تاريخي

٥٢٤ – ٦٣٣ هـ (١١٣٠ – ١٢٣٥ م)

تاريخ الحوادث	أهم الحوادث وأبرز الأحداث
٥٢٤ هـ = ١١٢٠م	مبايعة عبد المؤمن بالخلافة.
٥٣٩ هـ = ١١٤٥م	الاستيلاء على ولاية تلمسان وخروج المرابطين منها
٥٤٤ هـ = ١١٤٩م	سقوط مدينة مليانة بيد الموحدين .
٥٤٧ هـ = ١١٥٣م	القضاء على الدولة الحمادية وفيها كان الاستيلاء على ولاية الجزائر وبجاية.
٥٤٨ هـ = ١١٥٣م	انهزام الاعراب بوقعة سطيف واقطاع متيجة للثعالبة .
٥٥١ هـ = ١١٥٦م	الاستيلاء على بونة ـ عنابة ـ وطرد النورمان منها
٥٥٥ هـ = ١١٦٠م	ضبط مساحة الشمال الافريقي وتكسيرها على الفراسخ والاميال .
٥٥٨ هـ = ١١٦٣م	وفاة عبد المؤمن وولاية ولده أبي يعقوب يوسف .
٥٨٠ هـ = ١١٨٤م	ظهور بني ابن غانية الميورقيين ببجاية واستيلاؤهم عليها.
٥٨٦ هـ = ١١٩٠م	استنجاد الدولة الايوبية باسطول الموحدين .
٥٩٩ هـ = ١٢٠٢م	استيلاء يحيى بن غانية على بجاية ثانياً .
٦٠١ هـ = ١٢٠٤م	انتزاع ولاية بجاية من يد يحيى بن غانية .
٦٠٣ هـ = ١٢٠٧م	تولية أبي محمد عبد الواحـد بن ابي حفص على ولايتي بجاية وتونس .
٦٠٦ هـ = ١٢٠٩م	خيبة يحيى الميورقي في ثورته الثانية بنواحي تيهرت .
٦١٨ هـ = ١٢٢١م	محاربة والي افريقية الحفصي لابن غانيـة وفراره الى

أهم الحوادث وأبرز الاحداث	تاريخ الحوادث
الزاب ثم الجزائر .	
قيام أبي زكريا يحيى بمحاربة ابن غانية وطرده من القطر الجزائري .	٦٢٥ هـ = ١٢٢٨م
استبداد الحفصيين بولاية تونس وبجاية .	٦٢٧ هـ = ١٢٢٩م
استبداد بني عبد الواد بولاية تلمسان .	٦٣٣ هـ = ١٢٣٥م

محتويات الكتاب

مطابع بيبلوس الحديثة
فرن الشباك – شارع مار نهرا
تلفون : ٢٨٤٥٢٩